مؤلف جماعي

التحليل النقدي للخطاب

مفاهيم ومجالات وتطبيقات

إشراف وتحرير: محمد يطاوي

رقم التسجيل: VR . 33703.B

الطبعة الأولى : 2019

مؤلف جماعي

التحليل النقدي للخطاب : مفاهيم ومجالات وتطبيقات

Critical Discourse Analysis
Concepts, Fields and Applications

Germany:
Berlin 10315
Gensinger.Str: 112
http:// democraticac.doc

المركز الديمقراطي العربي
للدراسات الاستراتيجية، الاقتصادية والسياسية
Democratic Arabic Center
for Strategic, Political & Economic Studies

المركز الديموقراطي العربي
Democratic Arab Center
Strategic, Political & Economic studies

التحليل النقدي للخطاب
مفاهيم ومجالات وتطبيقات

العنوان بالإنجليزية

Critical Discourse Analysis
Concepts, Fields and Applications

مؤلف جماعي

إشراف وتحرير: محمد يطاوي

الطبعة الأولى
2019
المؤلف: مجموعة من الباحثين

عنوان المؤلف: التحليل النقدي للخطاب: مفاهيم ومجالات وتطبيقات

رقم تسجيل الكتاب : VR. 33703 . B

عدد صفحات الكتاب: 301 صفحة

الطبعة : الأولى 2019

تصميم الغلاف: المصطفى بوجعبوط

الناشر:

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية.

برلين _ألمانيا

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن مسبق خطي من الناشر.

جميع حقوق الطبع محفوظة: للمركز الديمقراطي العربي

برلين- ألمانيا.

2019

All rights reserved No part of this book may by reproduced. Stored in a retrieval System or transmitted in any form or by any means without prior Permission in writing of the publisher

المركز الديمقراطي العربي للدراسات الإستراتيجية والسياسية والاقتصادية

:Germany

Berlin 10315 GensingerStr: 112

Tel: 0049-Code Germany

030- 54884375

030- 91499898

030- 86450098

mobiltelefon : 00491742783717

E-mail: book@democraticac.de

تنبيه

لا يتحمل المركز الديموقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية بألمانيا أو المشرف المحرر للكتاب مسؤوليةَ مضامين الدراسات المشاركة، وإنما تعبر الدراسات عن أفكار أصحابها فقط وحصريا. وكل مشارك يتحمل وحده مسؤولية الأمانة العلمية كما جاء في وثائق الملكية الفكرية الموقعة، والتي يتوفر المحرر والمركز على نسخة أصلية منها.

رئيس المركز:

أ. عمار شرعان

تحرير وإشراف:

أ. مُحَمَّد يطاوي

المؤلفون:

- د. عماد عبد اللطيف (مصر/قطر)
- أ. مُحَمَّد يطاوي (المغرب)
- د. إبراهيم عبد التواب (مصر)
- أ. حسين البعطاوي (المغرب)
- د. رشيد طلبي (المغرب)
- د. رشيد شاكري (المغرب)
- د. عبد الرحيم رياض (مصر)
- د. جلول بنطرات (الجزائر)
- أ. مُحَمَّد فارح (الجزائر)
- أ. عبد المطلب براهمي (الجزائر)

التنسيق الفني:

المصطفى بوجعبوط ، المركز الديمقراطي العربي.

شكر وتقدير

يتقدم محرر هذا الكتاب -نيابة عن اللجنة العلمية الاستشارية والمؤلفين- إلى السيد رئيس المركز الديموقراطي العربي للدراسات الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية ، الدكتور عمار شرعان ، بأصدق عبارات التقدير والشكر على ما قدمه من دعم معنوي ولوجستيكي لهيئة تحرير الكتاب. كما نحيي فيه روح المبادرة والتشجيع للباحثين العرب ، واحتضان الطاقات العربية في مجالات بحثية أكاديمية مختلفة.

كما نشكر أعضاء اللجنة العلمية والدكاترة الذين سهروا على تحكيم الأبحاث المشاركة في هذا الكتاب ، ودققوا فيها النظر ، وحرصوا على التحري ، وتوخوا المصداقية والأمانة العلمية ؛ خدمة للعلم والعلماء والأساتذة والطلبة ، لا لشيء آخر.

أعضاء اللجنة العلمية الاستشارية:

- دة. شيماء الهواري ، رئيسة تحرير مجلة الدراسات الإعلامية ، المركز الديموقراطي العربي ، ألمانيا.
- أ. مُحَمَّد يطاوي ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة السلطان مولاي سليمان ، بني ملال ، المغرب.
- أ.د عماد عبد اللطيف ، جامعة قطر ، دولة قطر.
- أ.د أيمن مُحَمَّد ميدان ، وكيل كلية دار العلوم للدراسات العليا والبحث العلمي ، جامعة القاهرة ، مصر.
- د. عبد الكبير الحسني ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة السلطان مولاي سليمان ، بني ملال ، المغرب.
- د. عادل فائز ، جامعة ابن زهر ، أكادير ، المغرب.
- د. حمادي الموقت ، أكاديمية بني ملال- خنيفرة ، المغرب.
- أ. مُحَمَّد نحوا ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة السلطان مولاي سليمان ، بني ملال ، المغرب.

المحتويات

	العنوان	الكاتب	ص
	شكر وتقدير		07
	المحتويات		08
	تقديم	محمد يطاوي	10
	القسم الأول: منظورات ومقاربات عربية في التحليل النقدي للخطاب		
01	التحليل النقدي للخطاب عربيا إطلالة موجزة Arabic Critical Discourse Analysis A concise review	عماد عبد اللطيف	18
02	نحو مقاربة لسانية بلاغية لنقد التواصل الإعلامي بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور Towards a Linguistic-Rhetorical Approach for the Criticism of Media Communication between Critical Discourse Analysis and Audience Rhetoric	محمد يطاوي	31
	القسم الثاني: إسهامات عربية في التحليل النقدي للخطاب السياسي		
03	الاستعارات النحوية والموقفية في خطب الرئيس مبارك الثلاثة الأخيرة: مقاربة وظيفية نظامية Grammatical Metaphors and Modality in Mubarak's Late Three Presidential Addresses: Systemic Functional Approach	إبراهيم عبد التواب	63
04	التحليل النقدي للخطبة السياسية من الفعل الخِطابي إلى فعل الاستجابة Critical Analysis of Political Discourse: From Discursive Act to Act of Response	محمد يطاوي	97
05	الاستعارة في الخطاب السياسي مقاربة نقدية لخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار" The Metaphor in political discourse A Critical Approach to the Discourse "Without the mule and above the donkey"	حسين البعطاوي	136

القسم الثالث: التحليل النقدي لخطابات الفن والتربية والتاريخ			
06	التحليل النّقْدي للخِطَاب السّينِمائِي وفقَ المنهج التّنْظِيمي فيلم "خلف الأبواب المغلقة...نساء لسن للبيع" لمحمد عهد بنسودة أنموذجا Critical Analysis of Cinematic Discourse According to Dispositive Approach "Behind the Closed Doors: Women Not For Sale" by Mohamed Ahed Bensouda as Model	رشيد طلبي	169
07	تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ لقياسِ انقرائيَة النّصوص العربيّة وفق مقتضياتٍ لسانيّةٍ–معرفيّةٍ وديدكتيكية The development of a Mathematical Equation to measure the Readability of Arabic Texts according to Linguistic, Cognitive and Didactic requirements	رشيد شاكري	207
08	تحليل الخطاب منهجا تاريخيا Discourse Analysis as Historical Method	عبد الرحيم رياض	230
القسم الرابع: مقاربات حجاجية/جدلية في نقد لغة الخطاب			
09	اللغة وسيميائية الخطاب قراءة تحليلية نقدية في الجدل السوفسطائي Language and Semiotic of Discourse Critical Analytical Reading in Sophist Dialect	جلول بن طرات	251
10	الحجاج في رسالة عبد الحميد مهري إلى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة: مقاربة تداولية نقدية Argumentation in Abdulhamid Mahri Message, presented to President Abdelaziz Bouteflika a Critical Pragmatic approach	محمد فارح وعبد المطلب براهمي	274
خاتمة الكتاب		محمد يطاوي	300

تقديم:

هذا الكتاب حصيلةُ عمل جاد لعدد من الباحثين والخبراء والمحكمين طيلة خمسة أشهر كاملة. وقد أظهرت مراحل استقبال الأبحاث –**الغزيرة**– وتحكيمها بعضَ المشاكل المعرفية والإبستمولوجية التي تؤكد أن مجال التحليل النقدي للخطاب ما يزال غريبا في الساحة الأكاديمية العربية. ومن أبرزها أن معظم الترشيحات التي لم تُوفَّق في إقناع الخبراء تعكس سوء فهمِ "التحليل النقدي للخطاب"، أو البعد عنه بصفة مطلقة. علاوة على أن مصطلح "التحليل النقدي" قد تسبب في شرود نسبة 45% من الدراسات التي توصلنا بها؛ إذ إن أول ما أحال إليه لدى أصحابها، هو أن الكتاب يُعنى بالنقد الأدبي، وهذا حاجز معرفي حال بينها وبين الانتساب إلى المؤلَّف. والحق أن حَلَّيْ هذين المشكلين كانا من بين الأهداف التي سطرناها خلال الدعوة إلى تأليف هذا الكتاب الجماعي. لذا، وجب في هذه المقدمة أن نمهد للكتاب ببعض الإضاءات التي من شأنها أن تيسر بناء تصور قريب من الصواب حول مقاربة التحليل النقدي للخطاب.

إن التحليل النقدي للخطاب أحدثُ مقارباتِ تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني. وتُعنى بدراسة العلاقات الجدلية بين اللغة والخطاب والمجتمع، والسلطة التي تكرسها تلك العلاقات على صعيد الممارسة الاجتماعية، وما تحدثه من تغيرات اجتماعية. طبيعيٌّ أن تتعدد الرؤى وزوايا النظر لدى المتخصصين الأوائل داخل هذه المقاربة، لأن الممارسات الاجتماعية مختلفة، وسياقاتها الفعلية متعددة ومتقاطعة(عنصرية، تربية وتعليم، سياسة، إعلام، فن، تاريخ، فلسفة، العالم الرأسمالي، العولمة..). ويعزى هذا التعدد إلى الطابع البيني(Interdisciplinary) الذي يسم هذه المقاربة[1]؛ إذ إن ارتباط الدراسة اللغوية الناقدة للخطاب بالممارسات الاجتماعية جعل المقاربة منفتحة على حقول معرفية شتى، وأجبر الباحثين على استحضار أجهزة مفهومية ونظريات ونماذج فلسفية ونفسية وتربوية واجتماعية، في مناهج التحليل.

ترتب على تقاطع الدراسة اللسانية للخطابات مع حقول معرفية ونظريات أخرى من خارج حقل اللسانيات، بروزُ مناهج متعددة داخل مقاربة التحليل النقدي للخطاب؛ فإذا كانت المقاربة تصف هياكل المادة اللغوية للخطابات، وتحلل تفاعلاتها وتداولاتها واستعمالاتها في سياقات اجتماعية فعلية، فإن مستنتجات هاتين المرحلتين تُستثمر في تفسير الممارسة الاجتماعية موضوع الخطاب، بغية فضح وظائف السلطة اللغوية وأطماع الهيمنة الناجمة عن التوظيف اللساني المخصوص. فتتطلب مرحلة تحليل الممارسة الاجتماعية الانفتاح على الدراسات النظرية الإعلامية إذا كان موضوع الخطاب إعلاميا مثلا،

أو على علوم التربية إذا كان موضوعه تعليميا. ومنه، قاد تقاطع الدرس اللساني مع باقي الحقول المعرفية إلى ظهور ستة مناهج في التحليل النقدي للخطاب، إلى حدود نهاية الألفية الثانية، وهي: المقاربة العلائقية الجدلية، والمقاربة المعرفية الاجتماعية، والمقاربة التاريخية لتحليل الخطاب، ومقاربة الفاعل الاجتماعي، والتحليل التنظيمي للخطاب، ولسانيات المدونات[2].

تنبع أهمية التحليل النقدي للخطاب من الوعي المعاصر بالارتباط الوثيق بين جوانب التغير في استعمال اللغة الطبيعية ومظاهر التغير الاجتماعي والثقافي[3]. فقد أضحى التحليل اللساني في نطاقات الصوت والكلمة والجملة والنص –مع هذه المقاربة– مدخلا لتفسير التغيرات الاجتماعية، وتحولات المساقات التاريخية والسياسية، والأنساق الثقافية والفكرية. وقد اقتضى هذا التوجه المعاصر في الدرس اللغوي الجمعَ بين مناهج التحليل اللساني والأفكار الاجتماعية والسياسية لتأسيس نظرية لغوية اجتماعية توفق بين ما تراكم من الإنجازات العلمية في علم اللغة، وحاجة الناس في مجتمعاتهم. ولعل هذا التوفيق ظاهر بجلاء في الأسس النظرية والمنهجية التي قام عليها التحليل النقدي للخطاب، وهي تنهل من النظريات والنماذج اللسانية المعنية بكل مستويات اللغة(خصوصا نحو هاليداي واللسانيات النقدية والحجاج الخَطابي)، ثم من أعمال عديد من علماء الاجتماع والفلاسفة، كأنطونيو غرامشي، ولويس ألتوسير، وبيير بورديو، ويورغن هابرماس وميشال فوكو.

لا تدرس مقاربة التحليل النقدي للخطاب اللغة الطبيعية من وجهة نظر وصفية تقليدية تحاول فهم منطق اشتغال اللغة، أو وصف الأشكال. وإنما تستند إلى الأطر النظرية والمناهج اللسانية في دراسة وظائف التحكم والهيمنة على الممارسات التواصلية المنطوقة والمكتوبة، وتتوق إلى فضح الجدوى الاجتماعية للاستعمالات اللغوية المنتقاة على صعيد الخطاب، وما يمكن أن تفيده البدائل الأخرى الملغية. كما تركز على تحليل الفئات اللغوية وما تنتجه من الدلالات السلطوية، كاختيار المبني للمعلوم في الصدح بإنجازاتنا، والمبني للمجهول في الحديث عن إخفاقاتنا؛ وكالإسراف في التعدية في الإحالة إلى ذات المتكلم ومن يمثلهم(أنا–نحن–نا..)، ونهج اللزوم عند الإشارة إلى الخصوم والمنافسين دلالة على عجزهم وقصوره.

النص، والخطاب، والممارسة الاجتماعية، والسلطة: أربعة مفاهيم مركزية في مقاربة التحليل النقدي للخطاب، وحولها تحوم باقي مفاهيم المناهج الستة[4]. فالغاية من النقد اللساني الخِطابي هي فضح

السلطة التي تمارسها الاختيارات اللسانية المعدة والمنسقة حسب مقاسات المراجع الأيديولوجية لصناع الخطابات. لكن هذا الفضح يستند إلى مسار منهجي دقيق وصارم، يبدأ بوصف الممارسة النصية، ثم يربط بين محصلاته وما يعلن عنه تحليل التفاعل الخِطابي في السياق الاستعمالي، ثم تصبح جميع المحصلات معطيات لسانية جاهزة للتفسير الاجتماعي؛ أي الوصول إلى مظاهر التحكم وأطماع الهيمنة، والمقصودات الفعلية من الاختيارات اللسانية المعتمدة دون غيرها[5].

بناء على اختصاص الدراسة النقدية للخطاب في فضح مظاهر إنتاج السلط من المداخل اللسانية، فلابد أن نعي أن التحليل النقدي للخطاب ينشغل ببنى الخطاب الكلية(Macro-structures)، والجزئية (Micro-structures) معا، محاولًا تجسير الهوة الفاصلة بين المقاربة الكلية والمقاربة الجزئية. ذلك ما يميز هذه المقاربة عن دراسات الخطاب الثقافية والاجتماعية والنفسية والأنثربولوجية التي تعنى بالبنى الكلية، ومقاربات التحليل اللساني للخطاب التي تركز على بناه الجزئية فقط. وبتعبير آخر، إن مقاربة التحليل النقدي للخطاب تركيب بين التحليل اللغوي وحالات الممارسات الاجتماعية، في أفق كشف ما يقتضيه التوظيف اللساني من سلطة وهيمنة.

إذا كانت مقاربات تحليل الخطاب ذي التوجه اللساني التي تسبق -زمنيا- مقاربة التحليل النقدي للخطاب، تركز على وصف بنى الخطاب اللغوية والاستعمالية؛ فإن هذه الأخيرة تختص بشرح بنى الخطابات مع الأخذ في عين الاعتبار خواص التفاعل الاجتماعي والبنى الاجتماعية وتغيراتها[6]. ومعنى ذلك أن التحليل النقدي للخطاب يركز على الطرائق والخيارات اللغوية على صعيد البنى الخطابية التي تفعل علاقات التحكم والهيمنة والسلطة، وإضفاء الشرعية على صعيد البنية الاجتماعية. إن تصورا تحليليا لغويا اجتماعيا كهذا، ينبع من تبني هذه المقاربة مبدأ ليبيراليا معاصرا؛ نقصد هنا علاقة التأثير والتأثر بين العلم والبنية الاجتماعية، وكون الأول جزءا من الثانية. والحق أن العلم نتاج للتفاعل الاجتماعي.

في الحديث عن التحليل النقدي للخطاب في العالم العربي، لابد أولا أن نوضح اللبس الذي أفرزه مصطلح "التحليل النقدي" قبل أن نحيل القارئ إلى بعض الدراسات والمؤلفات العربية المتخصصة في هذا المجال على قلتها. كثيرا ما يحيل مصطلح "التحليل النقدي" إلى أن الأمر يتعلق بالدراسات النقدية للأعمال الأدبية؛ بمعنى أن التصور الغالب لهذا المصطلح هو أن التحليل النقدي للخطاب منهج نقدي للتمييز بين مواطن الجودة والرداءة، أو إنه منهج نقدي أدبي معاصر. والحقيقة أن مفهوم "النقد" هنا لا

علاقة له بالنقد الجمالي أو البنيوي أو النفسي أو الثقافي..، وإنما المفهوم المقصود هو فضح النوايا والمرامي السلطوية غير الصريحة التي تُضمرها الاختيارات اللسانية في الخطاب الأدبي، أو السياسي، أو الإعلامي، أو القانوني، أو الاقتصادي، أو الدعوي، أو الإعلاني، أو أي صنف من أصناف الخطابات.

وعموما، وإن كنا قد أشرنا إلى قلة الدراسات المتخصصة في التحليل النقدي للخطاب في الساحة العربية، فلا يمكن أن ننكر جهود بعض اللغويين العرب الذي تخصصوا في هذا المجال وألفوا فيه خلال السنوات العشر الأخيرة. كما لابد من التنويه بكل الأعمال المنجزة في هذا السياق، ذلك لأن هؤلاء قد خاضوا مغامرة ليست باليسيرة، خصوصا أنهم نالوا قصب السبق في هذا التخصص وتكبدوا عناء البحث عن أصوله ومناهجه وتصوره للغة والخطاب.

وتيسيرا للطلاب والباحثين والأكاديميين العرب، نورد عناوين بعض الدراسات المتخصصة في التحليل النقدي للخطاب حسب تسلسلها الزمني، بغية تقديم الإطارات النظرية، والمناهج التحليلية، والنماذج التطبيقية المتوفرة باللغة العربية:

- عماد عبد اللطيف، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، مجلة ثقافات، مجلة علمية محكَّمة، كلية الآداب، جامعة البحرين، 2009.
- عماد عبد اللطيف، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل بلاغي لتحليل الخطاب السياسي، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية، العدد 30، 2010.
- عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، الهيئة العامة للكتاب، العدد 83-84، مصر، 2013.
- محمد لطفي الزليطني، من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي الخطاب، مجلة الخطاب، العدد 17، الجزائر، 2014.
- عقيل الشمري، ومحمود المحمود، التحليل النقدي للخطاب بالاعتماد على المدونات اللغوية/ أخبار حرب غزة نموذجًا، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، 2015.
- جمعان بن عبد الكريم، من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، 2016.

- عبيدي منية، التحليل النقدي للخطاب: نماذج من الخطاب الإعلامي، دار كنوز المعرفة للنشر، 2016.
- يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، مصر، 2018a.
- يطاوي محمد، اللغة والهيمنة السياسية: بين بنى الخطاب وبنى السلطة، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، العدد الثالث، برلين، ألمانيا، 2018b.
- يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، نور للنشر، لِتوانيا، 2018c.
- يطاوي محمد، دائرة الخطاب ودائرة السلطة، مجلة الجديد، العدد 48، لندن، 2019a.

وإلى جانب هذه الأبحاث الرائدة عربيا، وترجمات بعض أعمال نورمان فيركلف وتوين فانديك الصادرة –خصوصا– عن المركز القومي للترجمة، ينضاف كتاب(التحليل النقدي للخطاب: مفاهيم ومجالات وتطبيقات) الذي يجمع بين دفتيه أبحاثا علمية في التحليل النقدي للخطاب، إلى ما يمكن أن نسميه بالجيل الأول من المؤلفات اللغوية العربية في هذا المجال. وهي إسهامات جادة من لدن موقعيها في التعريف بهذه النظرية، وبالتطبيق على مجالات متنوعة: السياسة، والإعلام، والتربية، والتاريخ، والسينما، والفلسفة، والجدل السوفسطائي، والحجاج. غير أن ما يميز هذا المؤلف هو أنه تضمن محاولات جريئة من بعض الباحثين الذين يقترحون مقاربات ذات طابع عربي معاصر خالص؛ بحيث يجد القارئ اجتهادات عربية سعت إلى تقديم وجهات نظر ونماذج تحليلية خاصة. كما ينفرد الكتاب بتضمنه لدراسات تقارب بالتحليل النقدي للخطاب، مجالاتٍ معرفية وإبداعية لأول مرة؛ ونقصد هنا مجال علوم التربية وفن السينما، ناهيك عن تجريب المنهج التنظيمي لأول مرة على الصعيد العربي. إضافة إلى كونه أول كتاب عربي جماعي محكم في هذا التخصص.

أخيرا، نعد الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب من أولى المحاولات في البحث العملي المندرج ضمن مقاربة التحليل النقدي للخطاب، وقد تكون صائبة في جوانب وقاصرة في أخرى. ولكن، ما يُحسب لأصحابها هو المبادرة إلى الخوض في تخصص لساني معاصر لم يتجاوز بعد عقدَه الرابع على الصعيد الدولي.

محمد يطاوي؛ 06 ماي 2019.

هوامش المقدمة:

1 لمزيد من التفاصيل بخصوص علاقة التحليل النقدي للخطاب بالدراسات البينية، يُنظر: نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، ط1، مصر، 2015. ويُنظر أيضا:

Weiss and Ruth Wodak Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, London, Ltd 2003.

2 للتعرف على مناهج التحليل النقدي للخطاب، يُنظر كتاب: محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، نور للنشر، لتوانيا، برلين، 2018c. ويُنظر أيضا:

Vodak, Ruth & Meyer, Michael, 2009a: 'Critical discourse analysis: history, agenda, theory, and methodology'. in: Wodak, Ruth & Meyer, Michael (Eds.) Methods of CDA. London: Sage.

3 نورمان فيركلف، الخطاب والتغير الاجتماعي، 2015، ص13.

4 يقول فان دايك عن مفاهيم التحليل النقدي للخطاب المشتركة بين مناهجه: "إن قائمة المفاهيم شائعة الاستخدام لدى كثير من باحثي التحليل النقدي للخطاب تشمل مفاهيم مثل القوة، والهيمنة، والسيطرة، والأيديولوجيا، وإعادة الإنتاج، والمؤسسات، والبنية الاجتماعية، والنظام الاجتماعي، فضلا عن كثير من المفاهيم التحليلية الخطابية الأخرى". يُنظر للمزيد:

توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، مصر، 2014، ص193.

5 محمد يطاوي، اللغة والهيمنة السياسية: بين بنى الخطاب وبنى السلطة، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، العدد الثالث، برلين، 2018b.

6 توين فان دايك، الخطاب والسلطة، ص191.

مراجع المقدمة:

. فان دايك توين، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، ط1، مصر، 2014، ص139.

. فيركلف نورمان، الخطاب والتغير الاجتماعي، 2015، ص13.

. يطاوي محمد، اللغة والهيمنة السياسية: بين بنى الخطاب وبنى السلطة، مجلة الدراسات الثقافية واللغوية والفنية، العدد الثالث، برلين، 2018b.

. يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، نور للنشر، ألمانيا، برلين، 2018c.

. Weiss and Ruth Wodak Critical Discourse Analysis: Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, London, Ltd 2003.

. Wodak, Ruth & Meyer, Michael, 2009a: 'Critical discourse analysis: history, agenda, theory, and methodology'. in: Wodak, Ruth & Meyer, Michael (Eds.) Methods of CDA. London: Sag

القسم الأول

منظورات ومقاربات عربية

في

التحليل النقدي للخطاب

1. **التحليل النقدي للخطاب عربيا**

عماد عبد اللطيف

2. **نحو مقاربة لسانية بلاغية لنقد التواصل الإعلامي**
   بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور

محمد يطاوي

التحليل النقدي للخطاب عربيًا

إطلالة موجزة

عماد عبد اللطيف*

الملخص:

يقدم هذا الفصل إطلالة موجزة على الدراسات العربية التي تنتمي إلى التحليل النقدي للخطاب. يتكون المقال من جزأين؛ الأول مخصص لدراسات تتشابه مع التحليل النقدي للخطاب في منظوره، وإجراءات تحليله، ومادته، لكنها لم تحمل اسم التحليل النقدي للخطاب. أما الجزء الثاني، فيقدم فحصًا موجزًا للدراسات العربية النظرية المعرّفة بالتحليل النقدي للخطاب.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب، اللغة والسلطة، النقد، التحليل النصي، النقد الاجتماعي.

Arabic Critical Discourse Analysis

A concise review

Emad Abdul Latif

Abstract:

This chapter provides a brief review of the Arabic studies on Critical Discourse Analysis (CDA). The article is composed of two parts: the first is devoted to studies that are similar to the CDA in their goals, perspectives, analytical tools and theoretical backgrounds, yet do not raise the CDA's flag. The second part provides a brief examination of the Arabic studies that introduces CDA to the Arab readers.

Keywords: Critical Discourse Analysis; language and power; critique; Textual Analysis; Social Criticism.

مقدمة:

في مساء شتائي قاهري من عام 2003، التقيتُ لأول مرة بـ"التحليل النقدي للخطاب". ففي إحدى ندوات جماعة اللغويين بالقاهرة، ألقت الأستاذة جردا منصور محاضرة عن العلاقة بين اللغة والسلطة بالإنجليزية، ووظفت إجراءات من مقاربة نورمان فيركلف في تحليل بعض النصوص الإخبارية العربية[1]. كانت مصطلحات مثل التحليل النقدي للخطاب Critical Discourse Analysis، واللسانيات النقدية Critical Linguistics، والوعي اللغوي Language Awareness، والإسمية Nominalization وغيرها، جديدة تمامًا على مسامعي. كنت قد أنهيتُ للتو رحلة امتدت لأربع سنوات قضيتها في صحبة البلاغة القديمة. وقررتُ، بعد طول تفكير وتردد، أن أغير المسار؛ لأسلك في الدكتوراه طريقًا غير معبد هو طريق تحليل الخطاب السياسي المعاصر. وفي الوقت الذي كنتُ أخبط فيه خبط عشواء، وأسير على غير هدى، ولا مرشد، جاء هذا اللقاء، الذي لم يستغرق أكثر من ساعتين، ليكون طاقة نور. ومنذ ذلك الحين أصبح التحليل النقدي للخطاب يمثِّل لي اهتمامًا معرفيًا أساسيًا، كما مثّل الأمر نفسه لزملاء آخرين على امتداد العالم العربي.

يسعى هذا الفصل إلى تقديم إطلالة موجزة على الدراسات العربية التي تنتمي إلى حقل التحليل النقدي للخطاب. يتكون المقال من جزأين؛ الأول مخصص لدراسات تتشابه مع التحليل النقدي للخطاب في منظوره، وإجراءات تحليله، ومادته، على الرغم من أنها سابقة زمنيًا لتدشين هذا الحقل المعرفي. أما الجزء الثاني، فيقدم فحصًا موجزًا للدراسات العربية النظرية المعرّفة بالتحليل النقدي للخطاب.

من الضروري الإشارة إلى أن التحليل النقدي للخطاب أصبح حقلاً معرفيًا شاسعًا، ممتدًا عبر أنحاء العالم. وهذا الفصل يختص فحسب بشطر من الدراسات العربية فيه. وأستعمل وصف (العربية)؛ لأشير إلى الدراسات المنشورة باللغة العربية تحديدًا. ومن ثمّ، يستبعد البحث دراسات التحليل النقدي للخطابات العربية، المؤلفة بلغات غير العربية. ويرجع هذا الاستبعاد إلى أن الدراسات المؤلفة بالإنجليزية، أو غيرها من اللغات الأوروبية، تشكل جزءًا من الأرضية المهيمنة للتحليل النقدي للخطاب ذي المركزية الأوروبية[2]. في حين أن الدراسات المكتوبة بالعربية تبدو غير مرئية للباحثين الغربيين في هذا المجال، وهي، من ثمّ، بحاجة أكبر إلى إلقاء الضوء عليها. علاوة على أن هذا البحث موجه – في نسخته العربية – إلى الباحثين العرب الراغبين في التعرف على الأعمال العربية في التحليل النقدي للخطاب، ويأمل أن يكون مِعْبَرًا لمن يرغب في التعمق فيه.

1. تحليل الخطابات العربية نقديًا قبل التحليل النقدي للخطاب

يمكن النظر إلى التحليل النقدي للخطاب على أنه كل ممارسة أكاديمية تتوفر فيها الشروط الأربع الآتية[3]:

1. تتعامل مع الخطاب؛ أي اللغة والعلامات الأخرى في الاستعمال الفعلي؛ أي في سياقات إنتاجها وتداولها، واستهلاكاتها الفعلية المحددة، زمانيًا ومكانيًا.
2. تتخذ موقفًا نقديًا مسائلاً للعلاقة بين الخطاب والسلطة.
3. تبرهن على دعاواها من خلال تحليلات دقيقة لظواهر لغوية، وتداولية، وبلاغية، وأدائية في الخطاب.
4. تدرس العلاقة بين الخطاب من ناحية، والممارسات الخطابية، والممارسات الاجتماعية التي تحيط بإنتاجه، وتشكله، وتوزيعه، واستهلاكه.

لو اعتمدنا السمات الأربع السابقة بوصفها معايير تصنيف دراسة ما تحت مظلة التحليل النقدي للخطاب من عدمه، فسوف نكتشف أن هناك دراسات تنتمي إلى التحليل النقدي للخطاب، وإن كانت لا تحمل لافتته. بعضها سابق زمنيًا على تدشين التحليل النقدي للخطاب بوصفه حقلاً معرفيًا، أي إنه كُتِب ونُشِر قبل أواخر ثمانينيات القرن الماضي، التي عُدَّت مرحلة تدشين التحليل النقدي للخطاب[4].

بصياغة أخرى، فإنه حيثما وجِدَ نقد للعلاقة بين الخطاب والسلطة، استنادًا إلى تحليل لساني تداولي وبلاغي وأدائي واجتماعي لخطابات فعلية ملموسة في سياقاتها الفعلية، وجِدَ التحليل النقدي للخطاب، وإن لم تُستعمل مصطلحاته، أو تحضر لافتته. وهذا هو الحال مع كتابات كثيرة، لو أننا نظرنا إليها من زاوية ما تفعله، وليس من زاوية ما تُسمي نفسها به. فبعض الدراسات تفحص كيف تتجلى السلطة في الخطاب، أو كيف ينجز خطابًا ما سلطة ما، أو كيف يسهم خطاب ما في الحصول على السلطة أو إضفاء الشرعية عليها، أو الاحتفاظ بها؛ بمعنى أنها دراسات نقدية. وهي تدرس مدونة من العلامات اللغوية وغير اللغوية المستعملة في سياق فعلي؛ بمعنى أنها تحقق مفهوم الخطاب من حيث هو لغة في الاستعمال، بواسطة إجراءات وعمليات تحليل تتصل بالتشكيل اللغوي، والحجاجي، والأدائي، وغيرها من المكونات الخطابية. فهي تجمع بين أضلاع ثلاث تشكل الهوية المائزة للتحليل النقدي

للخطاب؛ منظور نقدي، وتحليل نصي وخطابي، وتحليل للممارسات الخطابية والاجتماعية[5]. ومن ثمّ، فهي دراسات تُحلّل الخطاب نقديًا، وإن لم تحمل لافتة التحليل النقدي للخطاب.

من الدراسات التي تمارس التحليل النقدي للخطاب دون أن تحمل لافتته؛ ربما لأنها أُنجزت قبل أن يُدشَّن هذا الحقل المعرفي أصلا، دراسة عبد العليم (1990). تنتمي هذه الدراسة إلى التحليل النقدي للخطاب استنادًا إلى عوامل منها؛ أنها تدرس مدونة من اللغة الطبيعية، هي خطب السادات، وتعالجها من زاوية العلاقة بين الخطاب والسلطة، متخذة مقاربة نقدية لدراستها. كما أنها تحلل تشكلات النصوص التي تُنتج هيمنة وتلاعبًا وتضليلاً وتمييزًا؛ علاوة على فحص كيفية السيطرة على السياقات المختلفة التي تُنتج فيها هذه النصوص، وآليات مقاومة هذه الخطابات.

من زاوية أخرى، يمكن النظر إلى دراسات أخرى لم تشتغل تحت مظلة التحليل النقدي للخطاب، على أنها تنتمي، مع ذلك، إليه. إذ استعملت إجراءات ومفاهيم مشابهة لإجراءات التحليل النقدي للخطاب، ومفاهيمه، ومنظوراته. من ذلك بعض أعمال الدكتور محمد العمري، مثل كتاب "منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين". فهي أعمال تسعى إلى مساءلة لغة السياسة في سياقات استعمالها، وكشف تلاعباتها، وتناقضاتها، من خلال تحليل خطابات طبيعية فعلية. وجدير بالذكر أن التحليل النقدي للخطاب لا ينفرد بعدة مفاهيمية واصطلاحية تميزه عن غيره من الحقول المعرفية؛ لأن المصطلحات الأساسية التي تشكل عماده مأخوذة من حقول معرفية أخرى؛ مثل النظرية النقدية (مدرسة فرانكفورت)، والبلاغة، والتحليل التداولي والأسلوبي للخطاب، وتحليل المحادثة، وعلم السرد، ودراسات الأداء. ويختلف الباحثون في التحليل النقدي للخطاب في طريقة تشغيل هذه المصطلحات ومفاهيمها. كما أن التحليل النقدي للخطاب، تبعًا لأهم رواده[6]، ليس توجهًا محددًا في التحليل؛ فهو يستعين بإجراءات وعمليات تحليلية مأخوذة من حقول معرفية شتى. والخلاصة أن التحليل النقدي للخطاب منظور نقدي للخطابات التي تشتغل في المجتمع، تشترك الأعمال التي تنتمي إليه في غايتها (تعرية السلطة)، ومادتها (خطابات طبيعية)، وإطار معالجتها (فحص العلاقة بين الخطاب والواقع).

استنادًا إلى هذا الفهم، فإنني أحاج بأن تاريخ التحليل النقدي للخطاب في العالم العربي أقدم من التاريخ الرسمي للتحليل النقدي للخطاب بوصفه حقلاً معرفيًا دُشن في أوائل تسعينيات القرن العشرين على أرضية اللسانيات النقدية. ولكن لو أننا نلتزم بالتصور التقليدي لدراسات التحليل النقدي للخطاب، استنادًا إلى الهوية المعلنة للدراسات، فسنجد صعوبة في تحديد لحظة البداية.

2. التحليل النقدي للخطاب يتحدث العربية: جهود الترجمة والتأليف

شهد العقد الماضي (2008–2018) اهتمامًا عربيًا متزايدًا بالتحليل النقدي للخطاب. وقد اخترتُ العام 2008 لكونه يمثل، فيما أظن، نقطة انطلاق دالة؛ إذ شهد هذا العام تأسيس جمعية المحللين الناقدين للخطاب في العالم العربي، حملت اسم " The Arab Association of Critical discourse Analysts (AACDA). وعلى الرغم من أن جل المشاركين في تأسيس هذه الجمعية كانوا ممن يكتبون بالإنجليزية، ويدرسون أو يدرِّسون في جامعات غربية، فإن تدشينها يُعدُّ مؤشرًا دالاً على تبلور اهتمام عربي بهذا الحقل المعرفي. كما شهد عام 2008 كذلك – وفقًا لعبد الكريم، 2016، ص 167– مناقشة أول أطروحة دكتوراه باللغة العربية تستعمل التحليل النقدي للخطاب بوصفه منهجية بحثية؛ هي أطروحة (البلاغة السياسية: دراسة في مختارات من خطب السادات)[7].

لم يكد ينقضي عام على مناقشة أول أطروحة دكتوراه في التحليل النقدي للخطاب حتى ظهرت أول ترجمة عربية لكتابٍ في التحليل النقدي للخطاب؛ أعني ترجمة طلال وهبه لكتاب نورمان فيركلف (تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي). ويبدو هذا الاختيار دالاً من بعدين؛ الأولى أن أعمال فيركلف هي الأكثر رواجًا بين المحللين العرب الناقدين للخطاب؛ سواء من زاوية تطبيق مقاربته الاجتماعية الجدلية العلائقية للخطاب على أعمال عربية، أو من زاوية الإقبال على ترجمة أعماله إلى العربية. فقد مثلتْ أعماله المرجعية الأساسية لباحثين عرب مثل محمد شومان، وعماد عبد اللطيف، وجمعان عبد الكريم، ومنية عبيدي، ومحمد يطاوي وغيرهم. كما تُرجمت أربعة من كتبه إلى العربية؛ هي، علاوة على الكتاب السابق، (الخطاب والتغير الاجتماعي)[8]، و(اللغة والسلطة)[9]، وكتابه المشترك مع (إيزابيلا فيركلف)، المعنون بـ(تحليل الخطاب السياسي: مقاربة لطلاب الدراسات المتقدمة والعليا)[10]. أما البعد الآخر فهو إشارة ضمنية لتعدد التخصصات التي تعمل في إطار التحليل النقدي للخطاب. فكتاب فيركلف المذكور يحلل خطابات سياسية، وإعلامية، وتربوية متعددة. وفي الحقيقة، فإن المشتغلين بالتحليل النقدي للخطاب في العالم العربي جاؤوا من حقول معرفية شتى؛ بعضهم من دراسات الإعلام، وآخرون من العلوم السياسية، وفريق ثالث –أوسع انتشارًا حاليًا – خرج من عباءة حقلي اللسانيات والبلاغة، وغيرها.

ليس من المستغرب في هذا السياق أن يكون كتاب شومان (2007)، المتخصص في الدراسات الإعلامية، باكورة الأعمال التي عرّفت بالتحليل النقدي للخطاب باللغة العربية. وسرعان ما تبعته كتابات

أخرى من زوايا مغايرة. فقد قدم عبد اللطيف (2009)، المنطلق من خلفية البلاغة واللسانيات العربية، التحليل النقدي للخطاب بوصفه مقاربة مقاومة للخطابات السلطوية، في سياق مقارنته لأربع توجهات معرفية تحمل على عاتقها هذه المقاومة[11]. كما قدم مزيد (2010)، المتخصص في اللسانيات الإنجليزية، مدخلاً موجزًا مكثفًا للتحليل النقدي للخطاب، ضمن كتابه "تبسيط التداولية"، اشتمل على تعريف بأهم المصطلحات والمفاهيم التي تشتغل فيه، وأهم الموضوعات والظواهر التي يدرسها[12].

توالت إثر ذلك المقدمات التعريفية بالتحليل النقدي للخطاب؛ على نحو ما نرى في عبد اللطيف (2010، 2012ب)، والزليطني (2014)، والشمري والمحمود (2015)، وخلف وآخرون (2016)، وعبيدي (2016). وثمة ملاحظات أساسية تتعلق بهذه المقدمات التعريفية:

1. أن هذه المداخل لا تشكل تراكمًا معرفيًا فيما بينها. إذ لا تحيل الدراسات الأحدث على الدراسات الأقدم، مستعيضة عن ذلك بالإحالة إلى الكتابات الأساسية باللغة الإنجليزية أو ترجماتها إلى العربية. مدعية في معظم الأحوال أنها تقدم غير المقدم؛ في شكل مبسط من ادعاء السبق. أتفهم، بالطبع، أثر الشعور بجدّة البحث في هذا الحقل المعرفي بين المؤلفين بالعربية في هذا المجال، لكن هذا الشعور يحتاج في الحقيقة إلى ترشيد، ومراجعة. خاصة بعد مرور أكثر من ثلاثة عشر عامًا على بدء التعريف به.
2. أن أغلب هذه المقدمات لا تشكل مراجعات علمية لهذا الحقل المعرفي، إذ يغيب عن أغلبها المنظور النقدي في التعامل مع التحليل النقدي للخطاب. كما يغيب الوعي بالخصوصية الغربية له، ولا تُطرح أسئلة بشأن شروط تطويع التحليل النقدي للخطاب ليتلاءم مع اللغة العربية، وسياق المجتمعات العربية. وغالبًا ما تكتفي هذه المقدمات بسرد جزء من تاريخ نشأته في السياق الأوروبي، وتعريف مصطلحاته الأساسية، وأهم الظواهر التي يدرسها، وأهم المقاربات التي تعمل في إطاره، وأهم الأعلام المشتغلين فيه.
3. أن هذه المقدمات التعريفية غير مقصودة لذاتها في أغلب الأحوال؛ وإنما هي أشبه بالمداخل النظرية لتطبيقات متنوعة. ومن ثمّ، فإنها مقدمات موجهة لغرض التحليل. ومع ذلك، فإنها تبدأ من العام (الحديث عن الحقل المعرفي بأكمله) إلى الخاص (سواء أكان مقاربة من مقارباته، أم حزمة من مفاهيمه وإجراءات تحليله). فمقدمتا عبد اللطيف (2010، 2012 ب) تمثلان مدخلا لدراسة بيان التنحي لجمال عبد الناصر، ودراسة العلامات غير اللغوية في ميدان التحرير على التوالي. ومقدمة الزليطني (2014)

مدخل لدراسة عينة من الإعلانات (الإشهارات) المتداولة في منطقة الخليج العربي. أما مقدمة الشمري والمحمود (2015) فهي مدخل لدراسة التغطية الإخبارية للحرب على غزة عام 2006. في حين كانت مقدمة خلف وآخرون (2016) توطئة لتحليل الأخبار المتعلقة بالمرأة في الإعلام السوري أثناء الحرب الأهلية (2011–2016). وبالمثل كانت مقدمة عبيدي (2016) توطئة لتحليل خطابات الربيع العربي في تونس تحديدًا.

على خلاف المقدمات النظرية الممهدة لتحليل خطابات محددة، هناك مقدمات نظرية خالصة، تناولتْ ماهية التحليل النقدي للخطاب، وعلاقاته المعرفية مع حقول أخرى. مثل عبد الكريم جمعان (2016). فقد عرض في الفصلين السابع والتاسع من الكتاب تعريفًا لحقل التحليل النقدي للخطاب[13]، وأهم المساهمات المعرفية فيه. وقدم مراجعة للإسهامات العربية في هذا المجال، وقارنها بالأعمال الغربية. وعلى الرغم من أن المؤلَّف الصادر عام 2016 لا يشير إلى الكتابات العربية المنجزة قبل هذا التاريخ على نحو دقيق، فإن النتيجة التي توصل إليها ما تزال صحيحة. إذ يخلص إلى أن البحوث العربية المنجزة في هذا الحقل ما تزال محدودة بالمقارنة بغيرها من البيئات الأكاديمية المختلفة.

من المقدمات النظرية الخالصة للتحليل النقدي للخطاب، كذلك، دراسة يطاوي (2018a)[14]، التي قدم فيها عرضًا موجزًا لأهم الأسس النظرية للتحليل النقدي للخطاب، وأهم مقارباته التحليلية، علاوة على موجز لتاريخ نشأته. وتتمثل نقطة قوة هذا العرض في النقد الموجه للتحليل النقدي للخطاب؛ وبخاصة الهوية العامة المزدوجة للتحليل النقدي للخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية من ناحية، وممارسة أكاديمية من ناحية أخرى. علاوة على ازدواج هويته العلمية، لكونه نقطة انصهار التحليل اللساني النصي والمساءلة النقدية الاجتماعية. كذلك دراسة بكار (2018)، التي تسعى لتتبع أوجه العلاقة بين التداولية والتحليل النقدي للخطاب، مفسحة معظم صفحاتها لتقديم مدخل تعريفي بالحقل الثاني.

خاتمة:

المداخل النظرية السابقة بوابة عبور للباحثين العرب الراغبين نحو التعرف على التحليل النقدي للخطاب. وهي مفيدة لغير المطلعين على الكتابات الأصلية بالإنجليزية تحديدًا. ومن المثير للانتباه أن التحليل النقدي للخطاب يحفل بهذه المداخل والمقدمات التعريفية حتى في الأدبيات الإنجليزية، فهناك عشرات المقالات والفصول التي تقدم المعلومات نفسها تقريبًا بشأن هذا الحقل المعرفي.

يمكن تفسير هذا الميل المتواصل إلى إنتاج مقالات تُعرّف بالتحليل النقدي للخطاب إلى أسباب منها؛ الشعور الذي يلازم المشتغلين فيه بأنهم يعملون في حقل معرفي "غير مألوف"؛ والتراكم المعرفي المتنامي في هذا الحقل، وهو ما يتجلى في شكل تحولات وتطورات جذرية تعتريه كل بضعة أعوام. علاوة على الانتماءات المعرفية المختلفة للعاملين في هذا الحقل، والتي تجعل من تقديمه للمشتغلين في كل حقل على حدة عملاً قائمًا بذاته. وأخيرًا الرواج الكبير للكتابات التي تنتمي إليه، وهو ما يدفع الناشرين إلى قبول مزيد من الدراسات التعريفية به.

قدّم هذا الفصل فحصًا موجزًا للكتابات المعرِّفة بالتحليل النقدي للخطاب في السياق العربي. ويحتاج هذا الفصل إلى استكمال من زاويتين؛ الأولى فحص الدراسات التطبيقية التي وظَّفتْ التحليل النقدي للخطاب في دراسة مدونات عربية؛ للبحث في طبيعة المقاربات التي تطبقها، والإجراءات التي تنتخبها، والظواهر التي تدرسها. والثاني إجراء تقييم شامل للممارسات التطبيقية للتحليل النقدي للخطاب في السياق العربي، وفحص سبل تكييفه وتطويعه لينسجم مع اللغة العربية والسياق العربي.

الهوامش:

* د. عماد عبد اللطيف، أستاذ البلاغة وتحليل الخطاب بجامعة قطر.

1 أستاذة اللسانيات الاجتماعية بجامعة القاهرة (سابقًا). اشتركتْ، مع د. مديحة دوس، أستاذة اللسانيات في جامعة القاهرة، في تأسيس جماعة اللغويين بالقاهرة، التي استمرتْ أنشطتها لعقد ونصف من الزمان، حتى توقفتْ عام 2013.

2 ليس من أهداف هذه الدراسة تتبع تاريخ دراسات التحليل النقدي للخطاب المنجزة في أكاديميات عربية باللغة الإنجليزية. ومع ذلك ربما تجدر الإشارة إلى أن هذه الدراسات تعود إلى منتصف تسعينيات القرن الماضي. وربما يمثل قسم اللغة الإنجليزية في جامعة القاهرة الحاضن الأكثر أهمية لدراسات التحليل النقدي للخطاب في العالم العربي خلال ربع القرن المنصرم.

3 هناك صياغات مختلفة لمبادئ التحليل النقدي للخطاب، تتفاوت نوعًا وعددًا، وللاطلاع على بعض أهم هذه الصياغات يمكن الرجوع إلى: فان دايك 2014، ص 191–193، الذي يعرض مجموعة من المبادئ التي صاغها بنفسه، علاوة على مبادئ أخرى صاغها كتاب سابقون.

4 أتفق مع التصور الذي يرى أن كتاب "اللغة والسلطة"، لنورمان فيركلف، الصادر عام 1989، يمثل حجر الأساس في عملية تدشين التحليل النقدي للخطاب. انظر، Fairclough, 2014.

5 تتشكل علبة المستطيلات الشهيرة عند نورمان فيركلف من ثلاثة مستطيلات متداخلة؛ تحليل النص، وتحليل الممارسة الخطابية، وتحليل الممارسة الاجتماعية. انظر، فيركلف (2015)، ص 97.

6 انظر على سبيل المثال، فان دايك، 2014، مرجع سابق، ص 190.

7 أعد الأطروحة عماد عبد اللطيف، بإشراف مشترك بين أستاذين من جامعة لانكستر البريطانية هما بول شيلتون، وفيرونيكا كوللر، وأستاذ من جامعة القاهرة هو الدكتور عبد الحكيم راضي. لم تُنشر الأطروحة كاملة حتى الآن، وشكل جزء منها معظم مادة كتاب (استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي العربي: خطب السادات نموذجًا)، الصادر عن الهيئة العامة للكتاب، مصر، 2012 أ.

8 ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.

9 ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016.

10 ترجمة عبد الفتاح عمور، دار الفرقد، دمشق، 2016.

11 انظر، عبد اللطيف، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي. مجلة ثقافات، مجلة علمية محكَّمة، كلية الآداب، جامعة البحرين، عدد 22 (2009)، ص 68–81.

12 انظر، مزيد، بهاء الدين. (2010). من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي: تبسيط التداولية، دار شمس، القاهرة.

13 اختار المؤلف "تحليل الخطاب النقدي"، ترجمة لمصطلح Critical Discourse Analysis. وهو اختيار ملبس؛ لأنه يتداخل مع حقل معرفي آخر هو النقد الأدبي.

14 محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، مصر، 2018a .

قائمة المراجع:

. بكار، سعيد، التداولية وتحليل الخطاب (النقدي)، ضمن "التداوليات وفلسفة اللغة"، دار القصبة، أغادير، 2018، ص 207-236.

. خلف، رنا وآخرون النساء في وسائل الإعلام السورية الناشئة: تحليل نقدي للخطاب. شبكة الصحفيات السوريات، 2016، رابط: https://www.academia.edu/29795890

دون، ميشال، *الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر*. ميشال دوريتشر دون. ترجمة عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، مصر، 2016.

الزليطني، محمد لطفي، من تحليل الخطاب إلى التحليل النقدي للخطاب. *مجلة الخطاب*، ع17، 2014، ص 9-36.

سامينو، إيلينا، *الاستعارة في الخطاب*. ترجمة عماد عبد اللطيف وخالد توفيق. المركز القومي للترجمة، مصر، 2013.

الشمري، عقيل، ومحمود المحمود، التحليل النقدي للخطاب بالاعتماد على المدونات اللغوية/ أخبار حرب غزة نموذجًا، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، ع 33، 2015، ص 263- 305.

شومان، محمد، *تحليل الخطاب الإعلامي الكتاب*، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2007.

شومان، محمد، *تحليل الخطاب الإعلامي: أطر نظرية ونماذج تطبيقية*. القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 2007.

عبد العليم، محمد، *تحليل الحقل الإيديولوجي للخطاب الساداتي*. كتاب الأهالي، القاهرة، 1990.

عبد الكريم، جمعان، *من تحليل الخطاب إلى تحليل الخطاب النقدي*. كنوز المعرفة، عمَّان، 2016.

عبد اللطيف، عماد، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، 2009. *مجلة ثقافات*، مجلة علمية محكَّمة، كلية الآداب، جامعة البحرين، عدد 22، ص 68-81.

عبد اللطيف، عماد، بيان التنحي وذاكرة الهزيمة: مدخل إلى التحليل البلاغي للخطاب السياسي، *مجلة ألف: مجلة البلاغة المقارنة*، مجلة علمية محكَّمة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، القاهرة، عدد 30، 2010، ص 146-175.

عبد اللطيف، عماد، *استراتيجيات الإقناع والتأثير في الخطاب السياسي*. الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2012 أ.

عبد اللطيف، عماد، حروب بلاغية: مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة. *مجلة ألف في البلاغة المقارنة*. مجلة علمية محكمة، الجامعة الأمريكية بالقاهرة، عدد 32، 2012ب، ص 283–311.

عبد اللطيف، عماد، تحليل الخطاب: بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، *مجلة فصول*، فصلية علمية محكمة، الهيئة العامة للكتاب، مصر، 2013، عدد 83–84، ص 509 ص530 .

عبيدي، منية، *التحليل النقدي للخطاب الإعلامي*. دار كنوز المعرفة، الأردن، 2016.

العمري، محمد، *منطق رجال المخزن وأوهام الأصوليين: عوائق الحداثة في المغرب*. دار القرويين، الدار البيضاء، 2009.

فان دايك، توين، *اللغة والسلطة*. ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، مصر، 2014.

فيركلف، نورمان، *تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي*. ترجمة طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009.

فيركلف، نورمان، *الخطاب والتغير الاجتماعي*. ترجمة محمد عناني، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2015.

فيركلف، نورمان، وإيزابيلا فيركلف، *تحليل الخطاب السياسي: مقاربة لطلاب الدراسات المتقدمة والعليا*. ترجمة عبد الفتاح عمور، دار الفرقد، دمشق، 2016.

مزيد، بهاء الدين، *تبسيط التداولية: من أفعال اللغة إلى بلاغة الخطاب السياسي*. دار شمس، القاهرة، 2010.

يطاوي، محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب: في الأصول ونقد المناهج. *مجلة سياقات*، مجلد 3، عدد 1، 2018 أ، ص 354–385.

. Fairclough, N. (2014). What Is CDA? Language and Power Twenty-Five Years On. 2014. An online article: https://www.academia.edu/8429277.

نحو مقاربة لسانية بلاغية لنقد التواصل الإعلامي

بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور

محمد يطاوي *

الملخص:

تقترح هذه الورقة مقاربة لسانية بلاغية لنقد التواصل الإعلامي، مركزةً على محطتين: نقد الممارسة اللسانية في الخطاب الإخباري، ونقد استجابات جمهور الإعلام. وتستند إلى إطارين نظريين متكاملين هما: التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور، يختص الأول بتحليل الممارسة اللسانية، ويُعنى الثاني بنقد الاستجابات. إن هذه المقاربة تنظر إلى التواصل الإعلامي بوصفه ممارسة بلاغية، والأكثر من ذلك، ترى أنه يتضمن علاقات جدلية بين الإطارات الأيديولوجية الإعلامية والفاعل الاجتماعي المتلقي لرسائلها. كما تتبنى موقفا مُفاده أن الرسالة الإعلامية تمارس سلطة اجتماعية على النماذج الإدراكية الاجتماعية، وتسعى إلى تحقيق الهيمنة والتحكم. ولعل هدف المقاربة المقترحة هو نقد هذه النزعة لسانيا بلاغيا.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب؛ اللسانيات النقدية؛ بلاغة الجمهور؛ التواصل الإعلامي.

Towards a Linguistic-Rhetorical Approach for the Criticism of Media Communication

between Critical Discourse Analysis and Audience Rhetoric

Mohamed Yattaoui

Abstract:

This paper proposes a Linguistic-rhetorical approach to criticize media communication, focusing on two steps: critiquing linguistic practice in the news discourse, and critiquing media audience responses. It is based on two complementary theoretical frameworks: Critical Discourse Analysis and Audience Rhetoric, the first concerned with the analysis of linguistic practice, and the second with criticism of responses. This approach views media communication as a rhetorical practice, and moreover, it considers that it involves a dialectical relationship between the media ideological frameworks and the social actor receiving their messages. It also espouses the view that the media message exercises social power on social cognitive models and seeks to achieve domination and control. Perhaps the aim of the proposed approach is to criticize linguistically and rhetorically this tendency.

Keywords: Critical Discourse Analysis; Critical Linguistics; Audience Rhetoric; Media Communication.

مقدمة:

تُحاور هذه الورقة نوعين من القراء: الباحثين اللسانيين المعنيين بتحليل الخطاب الإعلامي، والمهتمين ببلاغة جمهور الإعلام. وتخوض في موضوع التواصل الإعلامي وعلاقته بالمقاربات اللسانية والبلاغية. كما تستحضر مبدأ التآزر بين اللسانيات والبلاغة وأهميته في التحليل المتكامل لكل أنماط التواصل الإنساني، وخصوصا الإعلامي. إن الرسالة الإعلامية تتجاوز كونها مادة لغوية، بل إنها خطاب متعدد الأبعاد والمستويات؛ إذ يتداخل فيها عدد من البنى الدَّالة، فعلاوة على الاستخدام القار للغة الطبيعية، فإنها تتوسل بما تتيحه أنساق تعبيرية أخرى، مثل الأيقونات السيميائية، والصور، والإيقاعات، والتقنيات الإخراجية والتصويرية والأدائية، من إمكانات.

إن تعدد البنى الدَّالة على هذه الشاكلة في الرسالة الإعلامية يجعل منها دائرة عامة للخطاب، تتكاثف فيها الدلالات بغزارة الدوال واختلاف أنواعها. فالمعنى في الرسالة الإعلامية ينشأ وفق منطق التضافر بين كل ما يعبر ويدل. غير أن التواصل الإعلامي لا يقتصر على التعبير البريء فقط، وإنما يُخول تعددُ البنى والدوال لصناع المادة الإعلامية إمكانيةَ ممارسة سُلطاتٍ مقصودة تعبر عن إطاراتهم الأيديولوجية الساعية إلى التحكم والهيمنة. ولعل ما يضمن مثيلات هذه الممارسات هو قدرة اللغة على التضليل والمواربة والمخاتلة، فالمستويات اللسانية على اختلافها بمقدورها أن تحجب القصد الفعلي للنشاط الإعلامي، وتستطيع أيضا أن تُضمر الوظائف الاجتماعية للرسالة الإعلامية، ونيات التصرف في سياقات الإدراكات الاجتماعية المشتركة وتعديلها، ثم الصورة النمطية المرشحة لأن تُعَمَّم على الجمهور.

يتيسر –إذن– الوصول إلى قناعات جمهور الإعلام والولوج إلى مناطق القرار لدى فئاته ونماذجها الإدراكية، عبر الاستخدامات اللغوية والسيميائية والبلاغية والتقنية المخصوصة، والمصمَّمة حسب ما يخدم أيديولوجية المرجع الإعلامي؛ مما يجعل الباحث اللساني أمام عملية تواصلية لا تتوخى الإبلاغ والإفهام فقط، بل تتوق إلى الاستقطاب والاستحواذ. لذلك، لابد من توفر مقاربات لسانية بلاغية تستحضر هذا الثراء في المستويات والأبعاد والبنى الدَّالة، وتطرح أسئلة فاحصة للميول السلطوية. لهذا الغرض، تقترح هذه الورقة مقاربة لسانية بلاغية ناقدة للتواصل الإعلامي، تتعاطى مع الرسالة الإعلامية منذ بداية تأليفها وتشفيرها، إلى لحظة استهلاكها وفك شفراتها.

تنطلق هذه الورقة من فرضية مؤداها أن اللغة هي الوسيط الفعلي الذي يمَكن الإرادة الإعلامية من التحكم في الجماهير وإضمار السلطة. وللتحقق منها، تستند المقاربة المقترحة إلى إطارين نظريين اثنين يراعيان هذا التشعب والخصوبة في هيكل الرسالة الإعلامية، ونقد استجابات جمهورها؛ كما تنطلق من أسئلة السلطة والأيديولوجيا والمعرفة والمجتمع. هذان الإطاران هما: التحليل النقدي للخطاب، وبلاغة الجمهور؛ ولعل في اسميهما ما يفسر عناية هذا النموذج التحليلي المقترح، بجل محطات الخطاب الإعلامي وعناصره وأطرافه. وتقوم المقاربة المقترحة على زمرة من المفاهيم اللسانية النقدية والبلاغية، وأهمها: تقييد التفسير، وبنى الخبر المعرفية، ووظائف الخبر المعرفية، والعلاقات الجدلية.

وعليه، تترتب مواد هذه الورقة كما يلي: محور أول يرصد المظاهر البلاغية للتواصل الإعلامي، فيستعرض أبرز مسوغات صفته البلاغية، ويحاول أن يبرز ممارساته السلطوية. ومحور ثانٍ يفصل القول في المقاربة المقترحة بالانفتاح على أبرز الدراسات التي تتقاطع معها، ويتدرج في عرض أركان نموذجها التحليلي في شقيه: نقد الممارسة اللسانية للرسالة الإعلامية، ثم نقد استجابات جمهورها.

ونشير إلى أن المقاربة تستحضر جل أنماط الرسائل الإعلامية، وتصلح لأن تطبق عليها؛ غير أننا ارتأينا أن نركز على النشرة الإخبارية التلفزيونية، نظرا لغنى ما تُعول عليه من المستويات اللغوية والبلاغية والدوال المعبرة. لذا، ننطلق من إشكال مركزي: إلى أي مدى يمكن أن تُوثَّق الصلة بين البحث اللساني وتحليل الخطاب الإعلامي؟ وتتفرع منه إشكالات أخرى ملحة هي: ما مظاهر التآزر بين مكونات الرسالة الإعلامية؟ كيف تمارس لغة الإعلام السلطة؟ وكيف تعبر عن أيديولوجيتها؟ كيف تتوارى الأيديولوجيا خلف الاختيارات اللغوية؟ كيف يمكن نقد الممارسة اللسانية في التواصل الإعلامي؟ وكيف يمكن تحليل استجابات جمهوره؟

1. مظاهر بلاغة التواصل الإعلامي

1.1. مسوغات الصفة البلاغية للتواصل الإعلامي:

قد لا يعنينا شخصُ المِهْنيِّ الإعلامي، وقد يعْرض هو نفسه نشرةً إخبارية يُناقض مضمونُها قناعاته الشخصية، وخلفياته الفكرية؛ والأمر كذلك بالنسبة إلى كُتاب المقالات الصحفية. لذلك، لن نركز على الناطقين في الممارسات الإعلامية(نشرات الأخبار التلفزيونية) بصفاتهم الاجتماعية، بل ما يعنينا هو

العملية التواصلية الإعلامية وما يحيط بها من الخصائص اللسانية والبلاغية. لذا، قد تنصب معظم المواقف القادمة حول علاقة النشاط الإعلامي بوصفه خطابةً، بعموم المستهلكين بوصفهم جمهورا.

في التواصل الإعلامي، أنطلق من فكرة أراها مسلمة: الصحفيون منخرطون بامتياز في المناقشة العمومية والجدل المدني؛ أقصد أن أي نشاط إعلامي هو ممارسة بلاغية صرفة. من الضروري هنا، الوعي بأن نقل الأخبار وتصريفها، أو تحليلها، نشاطٌ تواصلي تفاعلي. والأكثر من ذلك، يأتي التفاعل في صيغة خَطابية. إن رسائل الإعلامي المكتوبة، أو المسموعة، أو المرئية، وحتى الحوارية، تتعدى أسلوب السرد الإخباري وتماثل الخطابة إلى حد كبير؛ معنى ذلك أن مهمة المذيع أو مقدمة الأخبار –مثلا– شبيهة بوظيفة الخطيب في أنماط التخاطب البلاغي(المجادلة، والمناظرة، والخطابة).

يجب أن ننظر إلى تأليف المادة الإعلامية باعتبارها إنتاجا بلاغيا، ولتلك النظرة مسوغاتها بالطبع. **أولها** أن سؤال الموضوعية لا يفارق التراكم الإعلامي بشتى أنماطه وصيغه، فالخبر الإعلامي متهم دائما بتمثيل الأيديولوجيا، والسعي وراء السلطة، والتحكم في قناعات الجماهير، خاصة في الإعلام السياسي. **وثانيها** أن الرسالة الإعلامية خطبة عمومية، لأن مقدمة نشرة الأخبار مثلا، تخاطب جماهير غفيرة متباينة الخصائص والفئات. فيكون التواصل هنا إلقائيا أحاديا، أو كما يسميه كاستلز Castells بالاتصال الجماهيري الذي يسير في اتجاه وحيد[21]. بهذا المعنى، يخاطب الإعلامي متلقين غير محددين، لكنهم محرومون من الرد والتعليق الشفوي في إطار العملية التواصلية، كما هو الشأن في الخطبة السياسية والخطبة الدينية اللتين تفرضان قيودا على المشاركة. مما يبوئهم موقع الاستهلاك السلبي المعزِز لمطالب الهيمنة الخطابية، وتغيير القناعات، وتحقيق قائمة الأولويات في أغلب المناسبات.

يخرج من المسوغ الثاني **ثالثُ** المسوغات: أعني كون الخطبة الإعلامية ممارسة جدلية[22]. فإذا كانت الأعراف البلاغية العربية واليونانية ترى في جمهور الخطابة هدفا للتأثير والإقناع، فكذلك ينشأ مع جمهور الإعلام، خصوصا في حالة عدم براءة الرسالة الإعلامية. لكن أفعال الجمهور قد لا تكون استهلاكات سلبية دائما، فغالبا ما تثير مضامين المقالات أو المواد الإعلامية المرئية والمسموعة، وعي الجماهير أو لا وعيها. لذلك، فالرسالة الإعلامية غالبا ما تفترض الأسئلة الطارئة التي تباشر إدراكاتُ المتلقين طرحَها ساعة العرض أو الإلقاء أو القراءة، فتبادر إلى إغلاق المنافذ في إطار علاقة تواصلية جدلية؛ وكذلك يفعل الخطباء الدينيون والسياسيون.

يسِم معطى الاستقصاء الذي يُجريه مؤلفو المادة الإعلامية في تحري المعلومات، الخبرَ بطابع حجاجي مفرط، وهذا **رابع** المسوغات. فمن المؤكد أن ما تسعى إليه جل المنابر الإعلامية هو إظهار المصداقية، وصحة الأنباء. وتتعدد الوسائل الحجاجية المحقِقة لهذا الغرض، بحسب نمط المادة الإعلامية، وما يلائم الخبر الملقى. وعموما، لا تخرج تلك الوسائل عن الحجاج اللغوي، والحجاج البلاغي، والإقناع بالأيقونات الفوتوغرافية أو الفلمية أو الإيقاعية؛ مما يجعل الوسيلة الحجاجية الإعلامية إما لفظية أو سيميائية. فنستطيع القول إن التركيب العام للجملة أو النص الإعلامي يستدعي ثلاثة مستويات في بناء الرسالة: الوحدات اللغوية، والإمكانات البلاغية التداولية، والأيقونات السيميائية.

خامسُ هذه المسوغات هو عامل ذو قطبين: الإنسان والمؤسسة. إن أول ما تدعيه الخطوط التحريرية في كل الأنماط والصيغ الإعلامية هو المصداقية ونقل الحقيقية. لكن مطالب القراء والمشاهدين والمستمعين من الجمهور، تختلف لا محالة. في هذا المنعطف، تصطدم الجماهير بانتماء المؤسسة الإعلامية، أو مصالحها المادية، أو ميول محرريها وتبعيتهم الأيديولوجية. لذا، تلتبس هوية الإعلام بهوية السياسيين. فتغدو العملية التواصلية الإعلامية حربا بلاغية بين الإعلام وفئات عريضة من الجماهير، الرهان فيها هو ممارسة السلطة الخِطابية من قبل النشاط الإعلامي، ومقاومتها من لدن الجمهور.

يرتبط المسوغ **السادس** بجمهور الإعلام، فعلى الرغم من عدم محدودية حجمه والاختلافات الجمة بين فئاته، من حيث الانتماء الجغرافي والمذهبي والسياسي والثقافي، فإن له استجاباتٍ تستحق التحليل والنقد. إن استجابات الجمهور قضية بلاغية في العديد من التخصصات، مثل البلاغة الجديدة، ونظريات القراءة والتلقي، ودراسات التواصل، ودراسات الجمهور. ونستحضر في هذا الموضع شعبة بلاغية معاصرة نجدها الأنسب للحديث عن استجابات جمهور التواصل الإعلامي، نقصد بلاغة الجمهور[23].

المفهوم المركزي في مقترح عماد عبد اللطيف هو استجابات الجمهور، والمقصود بها هو الردود البليغة التي تصدر عن المخاطَبين بعد تلقي الخطاب أو في أثنائه؛ هي أفعال ذوات حدين: الخضوع أو المقاومة[24]. وتتشارك جماهير الخطابات الإعلامية مع جماهير باقي الأنماط التواصلية البلاغية الأخرى في طبيعة هذه الردود، وفي خصائص أخرى، أجلاها: كونُها نتيجة حتمية لتلقي خطابات يومية(الأخبار)، وكونها استجابات جماعية مادية، لفظية وغير لفظية، وتبرز في فضاءات عمومية وطبيعية. وعليه،

يتعزز مع هذه الاعتبارات افتراضُ أن المادة الإخبارية في النشاط الإعلامي تفاعلية جدلية، وتقتضي التركيز على تحليل التفاعل بين المرسل(من يمثلهم صوت الخطيب الإعلامي)، والمتلقين.

تتمايز جماهير النشاط الإعلامي الواحد من حيث صيغ استجابات جمهوره بحسب النمط؛ فردود جمهور المقال في الصحيفة ليست في الدرجة نفسها من الأهمية والتأثير إذا ما قارناها بردود جمهور النشرة الإخبارية، أو البرنامج الحواري المباشر، أو المقال على الجريدة الإلكترونية مثلا. فلعل جماهير هذه الأنماط الثلاثة الأخيرة تحظى بمداخل أثرى للولوج إلى صلب النشاط الإعلامي آنيا ولاحقا، ويتأتى لها ذلك عبر وسائل التواصل الاجتماعي التي تُيسر التفاعل مع النشاط الإعلامي بالمضارعة. ويحظى جمهور المقال المكتوب كذلك بحق الرد المتفاعل، لكن سمته السلبية هي أنه يفتقد إلى الآنية، ويتصف بالمحدودية.

يفضي هذا التمايز إلى الاختلاف في صيغ التعبير لدى النماذج الإدراكية المكونة للجمهور، فإذا كان جمهور المقال المكتوب يحتاج إلى قدر أكبر من الزمن لتكوين رأي مشترك أو آراء متباينة اجتماعيا، فإن الاستجابات تكون متعثرة ومرشحة للانسحاب؛ والسبب هو أنها لا تجد السبل الملائمة والسريعة للتعبير. لكن، قد يجد الجمهور هنا فرصة التعبير بالوسيط الاتصالي الاجتماعي، لكنه يفقد –لا محالة– جزءاً كبيرا من عناصره واستجاباته، كما أن أشكال التعابير البلاغية المرئية لا تتلاءم جميعها مع المقال المكتوب. من جهة أخرى، يتطلب تشكيل الآراء العامة أو الموسعة نسبيا لدى جمهور الإعلام المكتوب ذاكرة تاريخية(Historical Memory) طويلةً الأمد، أو على الأقل متوسطة المدى؛ على عكس الإعلام المرئي الذي يؤثر في الجماهير بهياكل لغوية، وبلاغية، وسيميائية، وإيقاعية، كفيلة بتشكيل الآراء المتطلبة لذاكرة دينامية(Dynamic Memory) ممتدة زمنيا، بل تفرض استدعاء المعتقدات والمواقف السابقة، وتسهر على التنسيق بين المعرفة الاجتماعية القديمة والجديدة.

إن القيمة البلاغية للاستجابات في جميع أشكال التواصل الجماهيري **(Mass Communication)** هي عامل الحسم في إبراز درجة الأهمية التي تبلغها الممارسة السلطوية الجماهيرية. كما أن مقاومة السلطة الخِطابية والبلاغية –الإعلامية وغيرها– رهينة بديناميات الآثار والتفاعلات الاجتماعية "Effects and Socio-interactional Dynamics". ينجم عن هذه المواجهة الجدلية التي تتفاعل فيها سلطة الخطاب الإعلامي ومحاولات مقاومتِها من قبل الجمهور، صراعٌ بلاغي–

معرفي بين قدرة الإعلام على تضمين الأيديولوجيا وتكثيفها، وقدرة المخاطَب على فضحها وتعريتها؛ أو كما يدعي ستيوارت هال[2625] : التشفير وفك التشفير"Encoding/Decoding".

2.1. الممارسة السلطوية في التواصل الإعلامي:

تمثل اللغة الوسيلة الأولى لنقل الخبر الإعلامي قبل الصوت والصورة والحركة والإيقاع والكتابة. ومفهومها الذي نتبناه في هذا البحث، هو الذي قدمه نورمان فيركلف Norman Fairclough، بحيث يرى أن اللغة هي الخطاب[27]. إن الخطاب شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية، وخاضع لتحكم هياكل البنى الاجتماعية؛ بيد أنه مؤثر فيها في الآن نفسه. ومنه، نعتقد أن الخطاب في النشاط الإعلامي متأثر بالبنى الاجتماعية، ومؤثر فيها كذلك؛ على أن نتمثل أن البنى الاجتماعية لا تستوعب المؤسسات فقط، بل كل الفاعلين الاجتماعيين، بما في ذلك الجمهور، وبخاصة جمهور الإعلام (**Audience Media**). ومن جهة أخرى، كل ممارسة اجتماعية لها علاقة باللغة/الخطاب، تفترض ممارسة السلطة؛ ومن الضروري ألا نقصر السلطة هنا على الفعل السياسي أو العسكري أو الإداري، بل نقصد بها الهيمنة على الاختيار واتخاذ القرار، ثم إخضاع المخاطَب في دورة الكلام في سياقات رسمية أو ساذجة، كسلطة المدرس على المتعلمين، أو سلطة الزبون في المحلات التجارية.

جاء في كتاب "سلطة الاتصال" لمانويل كاستلز Manuel Castells ما نصه: "السلطة هي القدرة ذات الصلة التي تمكن فاعلا اجتماعيا من أن يؤثر بشكل غير متناسب على قرارات الفاعلين الاجتماعيين الآخرين بسبل تُحابي إرادة الفاعل المتمتع بالسلطة ومصالحه وقيمه"[28]. ولَمَّا كان النشاط الإعلامي تواصليا بلاغيا، وما دام الإعلام منخرطا لا محالة في المواجهة الاجتماعية مع الجماهير، وبما أن مصالح المؤسسة الإعلامية لا تغيب في عرض موادها، فلابد من أنها مرشحة لأن تؤثر في المخاطَب وفق المنوال الذي ادعاه كل من فيركلف(2016) وكاستلز(2014). إن القولة أعلاه تفترض عملية تواصلية بين طرفين هما بمثابة فاعلِين اجتماعيين: الفاعل الأول بالإفراد، والثاني بالجمع. والرهان بينهما هو التأثير في قرارات الجماعة من قبل الفرد، ثم قدرتها على مقاومته. إن رهان السلطة في هذه العلاقة بين الفرد والجماعة من الممكن أن يُسقَط على العلاقة بين الإعلام وجمهوره في التواصل الإعلامي. وفي ما سيلي، سنتبين هذا الإمكان.

يسعى الخطاب الإعلامي في جميع الأحوال إلى استدراج المخاطَبين نحو بناء تمثيل ذهني للرسالة النصية المُعَدَّة مسبقا من قبل فريق التحرير. وليس هناك فرق بينه وبين باقي أنواع الخطابات الأخرى في تمرير الأيديولوجيا، فالجميع يعول على الخيارات اللغوية والبلاغية الرامية إلى تعديل القناعات إن كان بعضُها غيرَ خادم، أو تثبيتها إن كانت ملائمة تماما، أو هدمها ثم بناء نقيضها إن كانت معارِضة. لكن، هناك فرق بين بلاغة التواصل الإعلامي وباقي أصناف التواصل، يتمثل في أن مقاصد الرسالة الإخبارية تتوارى خلف طاقات لسانية وبلاغية وسيميائية هائلة، ومتطابقة مع نظيراتها في نمط الخطاب السينمائي من حيث التقنيات، والاستقطاب، والاستحواذ؛ بل تزيد عنها بالقدرة على التصرف في الخبر وعرضه آنيا، وبالموازاة مع زمن العملية التواصلية، كالانسجام بين نبرات المقاطع الموسيقية ومضامين الملفوظات بالتزامن، أو تعزيز منطوقات المذيع –مثلا– بأرقام أو مواقف رسمية لذوات مؤثرة في شريط خطي متحرك في أسفل الشاشة، أو باتصال هاتفي أو تصريح لمراسل أو خبير معين، أو بالأخبار العاجلة كما في نشرات الأخبار.

عموما، تتدخل طبيعة الخبر، وخصوصيات المتلقي في التواصل الإعلامي، وصفته الجماعية، وصرامة الأداء في الأنشطة الإخبارية المذاعة على الخصوص، في انتقاء البنى اللغوية والبلاغية والسيميائية. غير أنها تظل حاجبة للسلطة المتوارية بين تداخل مستويات الجملة أو النص الإعلاميين؛ هنا، نستدعي رأيا لفان دايك Van Dijk الذي يرى أن الخطاب الإعلامي يلجأ –لجعل الرسالة أكثر فعالية أيديولوجيا– إلى توظيف ما يخدم الخلفيات الأيديولوجية من الاختيارات اللسانية والبلاغية المتاحة، مثل تنظيم الهياكل السطحية للأخبار بإقحام البنى الإيقاعية والقوافي والدوال الجمالية في الإلقاء والعرض، والأمر نفسه يصدُق على استخدام النماذج النحوية من قبيل التوازي والتراكيب المتقابلة كالمقارنات، ثم الأساليب المجازية كالكناية والاستعارة والسخرية[29].

هناك تشويش في إطلاق مفهوم الفاعل الاجتماعي في التواصل الإعلامي، فالأمر المقلق هو صفة المرسل؛ فهل نعتبر المذيع أو الكاتب فاعلين اجتماعيين على حد سواء؟ قد يكون كاتب المقال في الجريدة مرسلا، وفي هذه الحال حري به أن ينعت بالفاعل الاجتماعي في الإعلام، لأنه لا يستطيع أن يُضمر مواقفه، بل ينطلق من قناعاته أو ميوله، ويتوق إلى الفعل عبر الاتصال الكتابي. لكن، ماذا عن المذيع؟ يصعب صراحة إسناد هذه الصفة إلى أي من القائمين بعرض النشرات الإخبارية أو البرامج الإعلامية الحوارية أو الفنية مثلا، ذلك لأنهم لا يمثلون ذواتهم الخالصة اجتماعيا، وإنما يمثلون مؤسسات

إعلامية أو منتجين بالدرجة الأولى؛ والحقيقة أننا حين نتابع خبرا إعلاميا مسموعا أو مرئيا، فإن أصواتهم لا تحيل إلى ذواتهم إطلاقا، بل تحيل إلى الجهة التي تعلوهم.

ولنحسم في هذه المسألة، نتبنى موقف فان لوفين Van Leeuwen الذي يوسع المفهوم ليشمل –إلى جانب الذوات– الموضوعاتِ كالمؤسسات مثلا[30]. ونتفق كذلك مع كاستلز[31] الذي يشير مفهومُ الفاعل الاجتماعي عنده إلى كل قائم بالفعل، أفرادا وجماعات، ومؤسسات، ومنظمات، وشبكات. تبعا لهذا الفهم، نعتبر الفاعل الاجتماعي كلَّ من/ما يسعى إلى الفعل وتحقيق التأثير. أما الجمهور، فبالفعل هو جماعة غير محددة الحجم ولا الخصائص من الفاعلين الاجتماعيين، سواء كانت أفعالهم انصياعية أم مقاوِمة.

السلطة التي يمارسها الإعلام تستند إلى الدرجة الصفر من الإقناع. ففي التقرير الصحفي في الجريدة أو نشرة الأخبار، مثلا، يقف صوت الإعلامي(الممثِّل للفاعل الاجتماعي الحقيقي) على المسافة نفسها من الأطراف، واستنادا إلى طبيعتهما الواصفة والحيادية، ليسا بريئين إلى الحد الذي قد يعتقد الجمهور؛ وإن كان النشاط الإعلامي يتقمص دور الوسيط بين الخبر والقارئ أو المشاهد، فإن السلطة تُمارس فعليا، ولكن ضمنيا. لنتصور تقريرا حول قَبول إحراق نفايات طبية لدولة أوروبية في أراضي إحدى الدول الإفريقية النامية، وقبل نشوء أية ممارسة اجتماعية رافضة، على سبيل المثال؛ فإن التقرير الصحفي أو النشرة الإخبارية –الواصفين فقط– ينخرطان في ممارسة السلطة على الجمهور واستثارة غيرته. لنفترض بنية تركيبية كهذه:

(1) الدولة "أ" تستقبل نفايات مستشفيات الدولة "ب" لإحراقها بمنطقة "ج" القريبة من مدينة "د".

تبدو صيغة هذه البنية التركيبية إخبارية بلا أدنى شك. لكنها تمارس سلطتها على القارئ/المشاهد، وتؤثر في النماذج الإدراكية المكونة للجمهور. صحيح أن الجملة –سطحيا– خالية من الحجاج أو مظاهر الاستفزاز الصريحة، ووحداتها التركيبية لا تحتمل الإقناع، أو التهديد، أو السخرية، أو الحث. وحتى على مستوى الدلالة، لا وجود لسمات معجمية أو حقول دلالية موحية بالتحريض. لكن المعنى العام مستفز لوعي عناصر جمهور الإعلام بوصفهم فاعلين اجتماعيين؛ فالكل سيفترض أن نفايات المستشفيات قد تنقل فيروسات خطيرة، وبذورا لأوبئة أو مسببات لأصناف السرطانات. والجماهير المعنية من الدولة "أ"، وخصوصا من المدينة "د"، ستستشعر الخطر المهدِد للبشر والحجر والتراب والماء.

والجميع سيطرح بعض الأسئلة: لماذا تنقل الدولة "ب" نفايات مستشفياتها لإحراقها خارج ترابها الوطني، لو لم تكن خطيرة؟ وإذا كانت خطيرة، ألسنا مهددين بهذا القَبول؟

إن الخطاب الإعلامي في مثيلات هذه الصياغات الإخبارية يخاطب وعي الجماهير، ويمارس سلطته على القناعات العامة، ويتوق إلى بناء تمثيل ذهني وتحفيز خيارات المواجهة والمناهضة عبر وسيط اللغة، وإن كانت واصفة فقط. كما أن المتحكم في مضمونه وصياغته وإخراجه تقنيا –سواء أكان فردا أم مؤسسة– هو الفاعل الاجتماعي القاصد إلى التأثير غير المتناسب على قرارات الفاعلين الاجتماعيين المستهدفين بالأساس: الجمهور؛ على حد تعبير[32]. إن الأخبار التي تجرُؤ على ممارسة نظير هذا التأثير تُنعت بالأخبار ذات الفعالية الحِرفية، وإن كان خرجها –ظاهريا أو سطحيا– سلميا وبريئا. ومثل هذه الطاقة اللامحدودة لسلطة التواصل الإعلامي هو ما يسميه فان دايك بفعالية الأخبار: "The Effectiveness of News"[33]؛ أي الأخبار المهيمنة التي تحقق للفاعل الاجتماعي المرسِل مقاصده السلطوية على حساب الفاعل الاجتماعي المستقبل، بوساطة خلق التناسق بين فحوى الرسالة الإعلامية والمعتقدات القبلية الكامنة في المعرفة الاجتماعية للمخاطبين.

2. مقاربة نقد التواصل الإعلامي

1.2. الإطار النظري:

منذ سبعينات القرن العشرين، انفتحت شُعب عديدة من العلوم الإنسانية على تحليل الخطاب الإعلامي، وتعددت المقاربات الناقدة التي عنيت بتحليله؛ وأبرزها: الدراسات البلاغية، واللسانيات النقدية والوظيفية والاجتماعية والنفسية، والتداولية، والأبحاث الاجتماعية والنفسية، واللغويات الأنتروبولوجية، والدراسات الثقافية، والتحليل النقدي للخطاب، ودراسات الجمهور، ونظريات التواصل، وتحليل المحادثة. ونظرا لاختلاف مرجعياتها المعرفية والفلسفية وأطرها النظرية، فقد تنوعت الموضوعات الإعلامية؛ نذكر منها نقد أيديولوجيا الإعلام(kress and Hodge, 1979) و(Fowler, 1979) و (Van Dijk, 1998)، وتحليل البنى السردية للأخبار(Allan Bell, 1991, 1998)، والمعرفة الاجتماعية وبلاغة الإعلام(Van Dijk, 1988)، والأبعاد التداولية والصوتية والسردية للخبر الإعلامي ثم السجلات(Cotter, 1993; 1999a; 1999c; 1999d)، والنقد الاجتماعي للإعلام(Goffman,

1981) و (Fairclough, 1995)، ودراسة جمهور الإعلام(Allan Bell, 1991)، والإعلام والثقافة(Stuart Hall, 1980)، وتحليل المحادثة الإعلامية(Greatbatch, 1998).

الملاحظ أن البحث في مجال دراسة الخطاب الإعلامي –بالنظر إلى هذا الثراء في المقاربات والمناهج والموضوعات– قد شمل مختلف العناصر المكونة للعملية التواصلية الإعلامية: النص، والخطاب، والمجتمع، والأيديولوجيا، والوسائط، والجمهور، واللغة، والصورة، والإيقاع؛ غير أن نظرة شاملة تحيط بجميع العناصر وتستحضر جل الفاعلين الاجتماعيين المنخرطين في التواصل الإعلامي، لم تتهيأ لحد الآن(حسب ما استطاع هذا البحث استقصاءه والوصول إليه).

من وجهة نظر خاصة، لخطاب الوسيلة الإعلامية أربعة مكونات أساسية: (1) الخبر، (2) النص، (3) القصة، (4) الاستجابة. لذلك، تقوم المقاربة التي نقترحها لنقد التواصل الإعلامي على أربعة مفاهيم رئيسة، مهمتها الأولى هي استحضار تلك المكونات في النموذج التحليلي الناقد الذي سيأتي أدناه؛ هذه المفاهيم هي: (1) تقييد التفسير: Restrict Interpretation، (2) بنى الخبر المعرفية: Cognitive Structures of News، (3) وظائف الخبر الاجتماعية: Social Functions of News، (4) العلاقات الجدلية: Dialectical Relations.

نحتاج في تنزيل هذه المفاهيم –بناء على جوهر المقاربة المقترحة المتصل بنقد التواصل الإعلامي وسلط أطرافه– إلى التوفيق بين إطارين نظريين متكاملين: التحليل النقدي للخطاب، وبلاغة الجمهور. إن العمل بهذا الدمج مؤسس على مبدأين؛ أولهما أن مقاربة نقد التواصل الإعلامي تتبنى موقفا بلاغيا صرفا، وهو: ما من خطاب يُلقى على مخاطب إلا ويكون فيه تخاطب، حتى إذا كان نمط الخطاب إلقائيا. وثانيها أن كل تواصل بلاغي هو شكل من أشكال الممارسات الاجتماعية التي لا يمكن أن تسلم من سوء توظيف السلطة عبر اللغة. كما يراعي هذا الدمج مسوغات الصفة البلاغية، وممارسة السلطة في التواصل الإعلامي كما بينا في المحور الأول.

لذا، نقترح نموذجَ إطارٍ ثنائيٍ يحاول ألا يغفل عن أي من بنى دائرة الخطاب "Circle of Discourse"، أو بنى دائرة السلطة "Circle of Power"[34]. يختص الأول بنقد النص والخطاب في العملية التواصلية الإعلامية، في حين يختص الثاني بنقد استجابات الجمهور. ونقصد بنقد الخطابِ تحليلَ الممارسة اللسانية التي تنتقي الاختيارات اللغوية المقيِّدة لتفسير الأخبار من قبل الجمهور، وتحجب

التلاعب ببنى أفراده المعرفية. أما نقد الجمهور، فنعني به نقد الممارسة الاجتماعية للخبر؛ أي وظائفه الاجتماعية المفترضة، والتفاعل الجدلي بين المرسِل واستجابات الجماهير. ونستطيع أن نطلق على هذه المقاربة اللسانية المقترحة اسم: المقاربة المعرفية الجدلية "Cognitive Dialectical-Approach".

2.2. نقد الممارسة اللسانية:

سبق أن أشرنا إلى أن مفهوم اللغة الذي نتبناه هو "الخطاب". وأوضحنا أن الخطاب شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية. ومن وجهة نظر التحليل النقدي للخطاب، إن جميع أنماط الرسائل الإعلامية وصيغها خطاباتٌ، فتكون ممارساتٍ اجتماعية بالقوة والفعل. وإن الممارسة الاجتماعية لا يمكن تبرئتها من ممارسة السلطة في أي سياق؛ لأن الخطاب يستهدف النماذج الإدراكية البشرية، ويقصِد تمثيل نصوص معرفية منسقة على مستوى الأذهان، إما بالتثبيت أو الهدم أو التعديل. غير أن لكل ممارسة سلطوية إطارها الأيديولوجي الذي يقف وراء تنسيق دائرة الخطاب باختيارات لغوية وبلاغية وسيميائية مخصوصة. يجب أن نعلم في هذه المرحلة، أن هناك سؤالين مقلقين: كيف تخدم الدوال الإطارات الأيديولوجية؟ وكيف تُفضح السلطة المتوارية خلف المعرفة الاجتماعية في سياقات العلاقات الجدلية؟

استحضارا للمكونات الأساسية للوسيلة الإعلامية كما أسلفنا، يمثل الخبر مركز دائرة الرسالة/الخطاب، وهو فرصة متاحة للفاعل الاجتماعي (الإرادة الإعلامية) الساعي إلى ترويج الأيديولوجيا، لتقييد تفسير الخبر بالقرائن اللغوية، والتصرف في البنى المعرفية لمتلقيه، وإنتاج وظائف اجتماعية تصبو في عمومها إلى ممارسة السلطة. إن النص مادة لغوية حاملة للخبر وأداةِ التسويق الأيديولوجي. هنا، على مستوى النص، يُؤطر المعنى ويتم تشفيره "Encoding" بأدق التفاصيل، وتُفرض قيودٌ معرفية وسياقية واجتماعية على المشاركة؛ وفقا لطبيعة النشاط الإعلامي الذي يحتكر دورة الكلام. فكيف يمكن لمحلل الخطاب في التواصل الإعلامي، أن يفكك هذه التجمعات اللسانية والمعرفية والأيديولوجية المعقدة؟

في التحليل النقدي للخطاب، تضطلع هذه المحطة بتحليل النص وتحليل الخطاب. وسبب التمييز هو أن المناهج الست للنظرية[35] ترى في النص شبكة من العلاقات اللغوية بين المستويات الصوتية والصرفية والمعجمية والدلالية والنحوية، هي بمثابة اختيارات مقصودة لتضمين المعنى وتأطيره. أما الخطاب، فميدان الاستعمال والتفاعل الذي يحكمه المستوى التداولي والخبرة الإنسانية. ينبغي الانتباه إلى

أن جل ما ينتهي إليه هذا المسعى هو تبيان سبل ممارسة السلطة الإعلامية باللغة. ومن هذا المنظور، نقدم بعض مفاتيح النص والخطاب.

لابد لمحلل الرسالة الإعلامية أن يعلم أن إمكانية إعداد قالب موحد لتحليل نصها لا تستقيم. ومن الضروري الانتباه إلى أن كل نشاط إعلامي مستقل بخصوصيات وتفاصيل تميزه عن غيره، وإن صدرت جميع الأنشطة عن فاعل اجتماعي واحد، ولو كان الموضوع واحدا. والحال هذه، نشير إلى أن المادة الإخبارية هي التي تستدعي الأسئلة اللسانية حسب سياقها اللحظي؛ فإذا نظرنا في نشرة إخبارية سياسية مثلا، نعجز عن تحليل الخطاب من جهة اللغة فقط، بل سنكون أمام تركيب خطابي يمتاز بثراء هائل من الوحدات الدالة، اللفظية وغير اللفظية: اللغة الطبيعية المنطوقة والمكتوبة، والأداء المهني، والصورة، والحركة، والمؤثرات السمعية، وتعدد الأصوات، والإيقاع، وغيرها. غير أن صعوبة التحليل لا ترتبط بهذا الثراء فحسب، وإنما تنبعث من قدرة تقنيات الإخراج على ضمان انسجام الرسالة الإعلامية وإن تعددت البنى ومستوياتها التي تشكلها بشكل عام.

ينضاف إلى هذا التركيب المتعدد الاختصاصات إلى تركيب تقني آخر، فمن وجهة نظر إعلامية تقنية، تتعدد الأخبار في الرسالة الإعلامية الواحدة، وتتحكم أجندة الإرادة الإعلامية في قائمة الأولويات؛ معنى ذلك أن محلل الخطاب سيجد نفسه أمام زخم من الموضوعات الإخبارية. لذا، فإن أول توجيه من المقاربة التي نقترحها هو ضرورة تقطيع الرسالة الإخبارية الواحدة " Fragmentation of News" message، على ألا يكون الفصل بين الأخبار نهائيا، فنظمها وفق الترتيب العام للنشرة لا يكون اعتباطيا، بل إنه مبرر بالخلفيات الأيديولوجية.

نكون، إذن، أمام تركيبين: (1) تركيب عام"General Composition" لمواد الرسالة الإعلامية، (2) تركيب خطابي"Discursive Composition" للوحدات الدالة اللفظية وغير واللفظية. وتركز محطة تحليل الممارسة اللسانية في المقاربة المقترحة، على التركيب الخطابي وعلاقته بتحليل التركيب العام؛ علما أن بين التركيبين تآزرا خِطابيا "Discursive Synergy".

أول ما تجب مقاربته في التحليل اللساني هو السياق، ومعنى ذلك هو ربط الخبر بشروطه السياقية الاجتماعية بالتركيز على المرحلة التاريخية التي يندرج ضمنها وما احتضنته من الأحداث السوسيو –اقتصادية والسياسية. نعزز هذا الطرح بموقف فوداك Wodak وريزيغل Reisigl، اللتين أكدتا

أن تفاصيل السياق التاريخي تحتل موقعا حاسما في تفسير العلاقات بين الأبعاد اللسانية والتشكلات الخطابية ومدى قدرتها على ممارسة السلطة[36]. إن الهدف من هذا التأطير السياقي هو التنوير الصحيح والمثمر حول المواقف التاريخية والاجتماعية المحيطة بالخبر، والخلوص إلى تفسيرات واصلة بين نطاقات الممارسة النصية، والممارسة التفاعلية الخِطابية، والممارسة الاجتماعية.

من شأن مستنتجات تحليل السياق الاجتماعي الخالص أن تدعم التحليل، خصوصا وأن أيديولوجيات الرسائل الإعلامية تراهن على ما يسميه فان لوفين Van Leeuwen بإعادة صياغة السياق "Recontextualization"؛ ويفترض هذا المفهوم أن جميع الخطابات هي صياغة جديدة للممارسات الاجتماعية حسب ما يخدم السلطة، وأن جميع المعارف تستند في نهاية المطاف –وفق علاقة سببية– إلى الممارسة الفعلية[37]. إن أخطر ما تُعاد صياغته من قبل الإرادة الإعلامية بوصفها فاعلا اجتماعيا، هو المعرفة الاجتماعية المتعلقة بالخبر؛ فالمعرفة الاجتماعية المشتركة(المعتقدات والتمثيلات الثقافية والمواقف والقواعد والقيم والمفاهيم..) بين أفراد المجتمع هي الوسيط الذي يقوي فرضية الهيمنة "Domination" على الفاعلين الاجتماعيين المتلقين للخبر، كما يقول فان دايك: "يتوسط الإدراك الشخصي والاجتماعي دائما بين المجتمع أو الأوضاع الاجتماعية والخطاب"[38].

إن العلاقة الجدلية بين بنى النص وبنى الخطاب وبنى المجتمع، رهينة بدور الوساطة الذي تؤديه العمليات الإدراكية المفروضة على البنى الذهنية عبر الخبر، سواء عند بناء الرسالة الإعلامية وطرحها في سياق تواصلي إعلامي(بالنسبة إلى الإرادة الإعلامية)، أو ساعة استقباله(بالنسبة إلى الجمهور)، أو في قادم تأثيراته (بالنسبة إلى المجتمع عامة). وحسب فان دايك، لا وجود لعلاقات مؤثرة اجتماعيا وسلطويا انطلاقا من تفاعل البنى الخِطابية والبنى الاجتماعية فحسب[39]؛ وصحيح ما يقول، بل يصدُق حتى على الإعلام؛ لأن ممارسته للسلطة الاجتماعية من طريق لغة الخطاب لا تتحقق إلا من خلال عملية الإدراك الاجتماعي المعقدة، التي تشمل التمثيلات الإدراكية للمشاركين في التواصل الإعلامي. لكن السؤال الأهم في هذه المرحلة، هو: كيف يمكن تحليل الرسالة الإعلامية لكشف تشفير هذه العمليات المجردة؟

اللغة هي أُولى بنى الرسالة الإعلامية، وتتعزز في التواصل الإعلامي بأوضاع بلاغية تداولية، وأيقونات سيميائية. فتكون هذه المستويات اللسانية والبلاغية والسيميائية هي الآليات الفعلية التي تتوارى

خلفها جميع العمليات المعقدة المرتبطة بإعادة صياغة السياق وتحريفه أو تعديله، والتحكم في المعرفة الاجتماعية وإعادة تصميمها وفق ما يخدم الوظائف الاجتماعية المرجوة أو الممكنة[40]. والحال هذه، يجب أن نعي أن اختيار الألفاظ والمصطلحات، والصيغ النحوية، والصور البلاغية، وأفعال الكلام، والحجج، والمظاهر الصواتية التطريزية/العروضية، والأيقونات الفوتوغرافية، لا يكون ذوقيا أو تجميليا؛ بل على العكس، إن كل وحدة دالة لسانيا وبلاغيا وسيميائيا تحضر في الرسالة الإعلامية، تقف خلفها المرجعيات الأيديولوجية للممارسة السلطوية التي تتوخاها الرسالة الإعلامية.

يتوقف دور محلل التواصل الإعلامي على طرح جملة من الأسئلة التي من شأنها أن تهتك الحجاب الذي تستتر خلفه سلطة الإعلام؛ ومن قبيل ذلك: ما المعاني والأطراف التي تمثلها الاختيارات المعجمية(الحقول المعجمية)؟ ما الدلالات الاجتماعية للصيغ النحوية/التركيبية الطاغية (التأسيم، التقديم والتأخير، البناء للمجهول وللمعلوم، اللزوم والتعدية، أزمنة الأفعال، الإضمار والإظهار، الشرط، الاستثناء..)؟ ما علاقة التقابلات الدلالية(مقارنة، تضاد، قلب، عكس، المعارضة، المناقضة، الترابط..) بالوظائف الاجتماعية ومواقع الفاعلين الاجتماعيين؟ ما علاقة المعاني الإضافية للظواهر الصواتية العروضية(نبر، تنغيم، وقف، مد، همس، جهر، وصل..) بمضامين المواضع التي تظهر فيها؟ هل تمت الإشارة إلى الأيديولوجيات المعارضة بطريقة مباشرة؟ أم إن الإحالة إليها تعمدت التلاعب بأفعال الكلام غير المباشرة والصور البلاغية؟ ما طبيعة الحجج الموظفة وعلاقاتها بالفاعلين الاجتماعيين المشاركين(منشئ الرسالة الإعلامية والجمهور)؟ ما علاقة الإيقاعات والنغمات الموسيقية المصاحبة بالصور والتراكيب الفلمية(مقاطع الفيديو) ومضامين المقاطع الإخبارية؟ كيف تُسمى الأطراف المشاركة؟ وكيف تُوصف؟ ما مواقع التلطيف اللغوي أو نقيضه في الرسالة الإعلامية؟ ما علاقة الظواهر اللسانية النصية(إحالة، سبك، انسجام، تماسك، اتساق..) برسم الحدود بين أهداف سلطة الإعلام والأيديولوجيات المخالفة؟ كيف تم التعبير عن الأفكار ونقائضها؟

تؤطر هذه الأسئلة عمل محلل التواصل الإعلامي وتوجهه إلى دراسة مختلف مستويات الخطاب وأبعاده اللسانية والبلاغية والسيميائية. وينبغي أن ينطلق كل بحث من هذا القبيل، من التسليم بأن الأدوار الرسمية للغة والخطاب في الرسالة الإعلامية تحوم حول الهيمنة بصفة مطلقة[41]. ونحاول في ما يلي إبراز هذا المبدإ بنماذج محدودة تمثل بعض المستويات المذكورة حسب ما يسمح به الحيز المخصص.

بالنسبة إلى تحليل المواد والعناصر المعجمية مثلا، قد تعبر المفردات المنتقاة عن القيم والمواقف والأيديولوجيات، كما قد تحيل إلى دلالات قدحية أو باخسة، وقد تحيل إلى معانٍ إيجابية في المقابل. لنفترض هذا المثال:

(2)أ) نفذت قوات الاحتلال (ص) هجوما عسكريا بمدينة (ض) أودى بحياة عشرات الأطفال

ب) باغت الجيش(ص) في تدخل أمني عناصر مسلحة من جماعة (ط) تختبئ بمدينة (ض)

تعلق الجملتان على حدث واحد بصيغتين مختلفتين تمثلان إطارين أيديولوجيين متناقضين. إن المرجع الإخباري في (2)أ) يدين منفذ الهجوم العسكري، ولعل ما يعزز الإدانة هو لفظَي (الاحتلال والأطفال)؛ فالفعل (احتل) يفيد بأن الفاعل لا يجب أن يكون على الأرض التي نُفذ فيها الهجوم، ثم إن من نُفذ في حقهم الهجوم هم أبرياء لا علاقة لهم بادعاءات المنفذ. أما في (2)ب)، يعطي لفظا(جيش وأمني) الشرعية للتدخل العسكري، كما أن الفعلين(باغت وتختبئ) يوحيان بأن من نُفذ في حقهم التدخل مستحقون يشكلون خطرا على الأمن العام، بدليل استخدام مفردة(مسلحة). بهذا المعنى، يمارس الإطار الأيديولوجي في كلتا الجملتين سلطته بمحاولة التصرف في سياق الحدث وإعادة صياغة المعرفة الاجتماعية المخزنة لدى النماذج الإدراكية الجماهيرية عن قاطني (ض) وقوات (ص).

نلاحظ أن عمليتي إعادة صياغة السياق والتصرف في المعرفة الاجتماعية للمخاطَبين، تتوسط بين الإطار الأيديولوجي الذي تمثله الرسالتان الإعلاميتان والوظائف الاجتماعية للخطاب. فعلى الرغم من أن الحدث واحد، فإن الخبر قُدم بمضمونين مختلفين بل متناقضين. لا يهمنا صدق الخبرين أو كذبهما، وإنما ما يثير الانتباه هو أن المستوى المعجمي في كليهما خول للإطارين الأيديولوجيين إعادة هيكلة سياق واحد حسب ما يخدم مصالحهما، كما أن كلا منهما يستهدف إدراكات المتلقين الاجتماعية حول الأطراف المنفذة للهجوم والأخرى التي نُفذ في حقها، وأعاد تصميمها بحسب ما ينفي ادعاء الآخر، فقط بالألفاظ.

على المستوى التركيبي/النحوي، من المثير للاهتمام أن نشير إلى أن اختيار صيغ الجمل الإخبارية يكون طاغيا على الرسالة. إلا أن طبيعة الصيغة تختلف حسب الموقف الأيديولوجي. لننظر في الجملتين:

(3)أ) شُوهد اصطدام بين شرطة مدينة (د) وطلبة جامعة (ذ) بعد إحداثهم للشغب

ب) قامت شرطة مدينة (د) بقمع طلبة جامعة (ذ) المطالبين بحقوقهم الاجتماعية

تنفي الجملة (3)أ) قيام شرطة مدينة (د) بفعل الاصطدام المقصود، وتجعله مشاعا من حيث إسناد المسؤولية. ولعل ما سخر للمرجع الإخباري هذه الضبابية هو بناء الفعل الرئيس في الجملة للمجهول(شُوهد)، وصيغة (افتعال) من الفعل (صدم). غير أنه يشجع الجمهور على إسناد المسؤولية إلى طلبة (ذ) بالإشارة إلى أعمال الشغب التي جاءت في ذيل الجملة بعد ظرف زمني(بعد). إن المعنى النحوي للظرفية هنا يلتمس العذر لعناصر الشرطة في انخراطهم –مجبرين– في الاصطدام؛ إذ يقدم دلالة منطقية شرطية شافعة(إحداث الشغب ← إجبار الشرطة على الاصطدام). وعلى النقيض من ذلك، أُسند البناء للمعلوم في (3)ب) فعلَ القمع مباشرة إلى فاعل صريح(شرطة (د))، وعُزز الخبر بإضفاء الشرعية على مظاهرة طلبة (ذ) من خلال تركيب وصفي (حقوقهم الاجتماعية).

مرة أخرى، يُسخر الاختيار اللغوي لفرض السلطة على النماذج المعرفية الاجتماعية بتعديل الأفكار والخلفيات المعرفية للأطراف في الحدث موضوع الخبر؛ فالأمر المؤكد في (3)أ) و(3)ب) هو أن هناك مظاهرة طلابية وتدخلا للشرطة، ولكن البناء للمجهول يبرئ شرطة (د) من أي فعل قمعي، بل غير أفكار المتلقي حول طلبة(ذ) بجعلهم متساوين مع الشرطة في القوة والتأثير. أما البناء للمعلوم، فيلغي فرضية توازن القوى بين الطرفين، ويستدعي تعاطف الجمهور مع الطلبة، وإدانته للشرطة. والخلاصة هي أن المستوى النحوي موجه كذلك إلى تصميم السياق والمعرفة الاجتماعية حول الأطراف لفرض سلطة الإطار الأيديولوجي.

سبق أن أشرنا إلى أن بين التركيب الخطابي لنص الرسالة الإعلامية وتركيبها العام، تآزرا خِطابيا "Discursive Synergy"، وتضمنه التقنيات التصويرية والإخراجية، وخصوصا المونتاج. ولإظهار قدرة التفاعل بين مستويات التركيبين معا، نقدم مثالا خاصا؛ علما بأننا سنفترض عنصرا غير لغوي، ما دام البحث الورقي لا يتيح إمكانية التمثيل بمقطع فعلي. لأجله،ندعو القارئ إلى افتراض توجيه ضروري: افتراض مقطع مصور لتصريح الوزير (م) حسب مضمونه في المثال:

4) أكد وزير التعليم (م) أن إدراج مفردات عامية من الدارجة(ن) أملته غاياتٌ بيداغوجية صرفة، على خلفية بعض المواقف المتحفظة عبر وسائل التواصل الاجتماعي. وتدعو خطة إصلاح المنظومة التعليمية إلى ضرورة استحضار المكونات الثقافية والتاريخية الوطنية في المقررات الدراسية. كما دعا إلى الكف عن صب الزيت في النار والصيد في المياه العكرة. وفي ما يلي تصريح للسيد الوزير[.....].

تَظهر سلطة الإطار الأيديولوجي التي يمثلها المرجع الإخباري في الاختيارات المعجمية ابتداء؛ فالمداخل المعجمية للكلمات(أكد، أملى، صِرفة، ضرورة، دعا) تلتف كلها حول معنى الإلزام، أي إن الخطاب يستميت في إقرار ما رفضته المواقف المتحفظة. ويتعزز مؤدى المداخل المعجمية باتصالها المباشر بعبارات داعمة على التوالي: ذات سياسية رمزية(وزير التعليم)، ومصطلح تربوي دقيق موصوف(غايات بيداغوجية)، ومكونات محلية رمزية مجردة(الثقافة والتاريخ والوطن)، وكنايتين مُدينتين(الكف عن صب الزيت في النار/الصيد في المياه العكرة).

تظهر السلطة على مستوى التركيب/النحو كذلك، إذ تعلن الرسالة الإعلامية مقاومتها للمواقف المعارضة عن طريق المركبات الوصفية؛ فالنعوت الواردة تعكس مواجهة بين الإطار الأيديولوجي والفاعلين الاجتماعيين المقصودين بفحوى الرسالة: (غايات **بيداغوجية صرفة** ≠ المواقف **المتحفظة**/ المكونات **الثقافية والتاريخية والوطنية** ≠ المياه **العكرة**). نسجل أن المستوى التركيبي يصور علاقة جدل بين الفاعل الاجتماعي المرسل، والفاعلين الاجتماعين المستقبلين، فقد أُغلق الباب في وجه التحفظ بتعليل إدراج المفردات العامية بدواعٍ بيداغوجية ضرورية، وهو تعليل موجه لمجتمع المعرفة المدرسية بالتحديد. كما أُقحم الجمهور المقصود كُرها في صراع مع مقدسات الأمة(المكونات الثقافية والتاريخية للوطن). بل إن إدانته جُسدت أيضا من خلال التصوير البلاغي، فالكنايتان الواردتان في السطرين(5و6) تدعيان ضلوعه في إثارة الفتنة ومخالفة الخصوصيات المحلية؛ فحمولة الكنايتين الدلاليةُ تلصق بأصحاب المواقف المتحفظة تهم المزايدة والمعاداة وافتعال الأزمات.

يخدم الحجاج الموظف بدوره كل ما سلف من الوظائف الاجتماعية، ونشير إلى أن المثال عمد إلى حجة وثائقية يفرض القانون احترامها(خطة إصلاح المنظومة التعليمية)، وأخرى معرفية ملزمة(البيداغوجيا)، وثالثة قلمية تتمثل في إدراج مقطع مصور يذكر بموقف مسؤول سياسي يمثل حكومة(ن) بالأسلوب المباشر. إن الحجج الثلاثة ترسخ في البنى المعرفة للفاعلين الاجتماعيين

المستهدفين حتميةَ قبول إدراج المفردات العامية، وخصوصا الحجة الثالثة؛ فما يتضمنه المقطع المصور عُرض من قبل إخباريا عن طريق الأسلوب غير المباشر على لسان مقدمة الأخبار، ثم كُرِّر بالأسلوب المباشر. إن دلالة تكرار الحجة بالأسلوبين(المباشر وغير المباشر)، وعلى لسان مقدمة النشرة والوزير، هي التوكيد والإقرار وفرض الأمر الواقع على الفاعلين الاجتماعيين الرافضين.

من وجهة نظر لسانية، لا يمثل مقطع الوزير المصور عنصرا لغويا، وإن كان يتضمن خطابا منطوقا، فإنه عنصر من خارج المنطوق الإخباري؛ غير أن ما يجعل إدراجه بوصفه استشهادا معززا للممارسة السلطوية مثيرا للجدل، هو عدم عرض مقطع آخر للمواقف المتحفظة، مع العلم أن الرسالة الإعلامية قد أشارت إليها بصيغة التبعيض المضعفة لقيمتها منطقيا دلاليا(بعض المواقف). فإذا نظرنا إلى الملفوظ الإخباري بشكل عام، فيمكن أن نتصوره تركيبا عاما تتضافر في تأليفه مستويات وأبعاد عدة: مستويات المعجم والنحو والتصوير البلاغي والحجاج(منطوق مقدمة النشرة)، والتداول(حركات المقدمة وملامح وجهها..)، والصواتة العروضية(نبر كلمات دون أخرى، رفع نغمة الصوت أو خفضها..)؛ بالإضافة إلى مقطع مدرَج بالصورة والحركة، ناهيك عن العناصر السيميائية الحاضرة في إطار الشاشة.

عموما، لابد لمحلل التواصل الإعلامي، في الشق المتعلق بنقد الممارسة اللسانية، أن يربط وصف الاختيارات اللغوية بالتفسيرات الاجتماعية التي من شأنها أن تُجلي مظاهر سوء توظيف لغة الخطاب من أجل المصالح السلطوية وهيمنة الإطارات الأيديولوجية. فنخلص إلى أن إعادة صياغة السياق والتحكم في المعرفة الاجتماعية، مطلبان لا يتهيآن إلا بالاختيارات اللغوية والبلاغية والسيميائية والتداولية الملائمة. ومن هذه المداخل بالذات، يجب على الباحث أن يلج إلى الرسالة الإعلامية.

3.2. نقد الاستجابة

1.3.2. الوظائف الاجتماعية والعلاقات الجدلية:

حاول المحور الثاني(نقد الممارسة اللسانية) تيسيرَ استيعاب عملية التشفير"Encoding" التي تكثف الدلالة السلطوية بالاختيارات اللغوية والبلاغية المضللة، وكيفية فضح الوظائف الاجتماعية، خاصة ممارسة الإطار الأيديولوجي لسلطته؛ وذلك برط جميع المستويات بكيفية تعاطي المرسل مع السياق والمعرفة والمجتمع في عملية فك التشفير "Decoding". إن المفهوم المركزي الذي نحتاجه الآن هو "العلاقات الجدلية"، ونعني به أن عملية التواصل في الإعلام أو غيره من التفاعلات البلاغية، تعرف

مراجعة للمواقف والأفكار والمعارف والقيم بين الأطراف المتواصلين. تيسير ذلك هو أن مؤلف الرسالة الإعلامية يفترض الأسئلة التي قد تُطرح على الجمهور خلال تلقيه للرسالة وبعدها، فينتقي من بين الاختيارات اللغوية والبلاغية والسيميائية والتقنية المتاحة، ما يخدم إطاره الأيديولوجي ويغلق المنافذ. إن التواصل الإعلامي بهذا المعنى لا يبدأ فقط منذ لحظة الشروع في إلقاء نشرة الأخبار التلفزيونية مثلا، بل يبدأ مع نقطة بداية صياغة الخبر وتصميم إخراج المادة الإعلامية. والأكثر من ذلك، لا تنتهي العملية التواصلية مع انتهاء النشرة، وإنما تظل سارية لدى الجمهور بحسب الاستجابات المطروحة. لذلك، نسعى هنا إلى رصد أدوار الجمهور في الإنتاج والتفسير.

في أواخر القرن العشرين، نشطت الأبحاث التي تعتبر الجمهور فاعلا متدخلا في بناء النص مثل دراسات استجابات القارئ(مدرسة كونستانس)، وأبحاث أخرى ترى أن المؤلف والنص والقارئ يشتركون في خلق الواقع أو الحقيقة كدراسات البنيويين الاجتماعيين، ثم الأبحاث التي تقيس مستويات تأثير الإعلام في الجمهور مثل دراسات التواصل الجماهيري، والدراسات الثقافية، والجهود المبذولة من قبل علماء التواصل الآلي في فحص حجم الجماهير ومداها. إن ما يعنينا من المشتَركات بين هذه الأبحاث والدراسات هو إيلاءها الجمهورَ مكانة بارزة في تأليف النصوص. ولعل المقاربة المقترحة في هذا البحث تتبنى المبدأ نفسه في جميع الأحوال.

هناك ارتباك كبير يحيط بمصطلح الجمهور، فالاسم واحد، لكنه يطلق على مسميات عديدة؛ إن الجماهير عديدة متنوعة، وتختلف بحسب الزمان والمكان والمحددات المعرفية والاجتماعية والديموغرافية. فالجمهور الفرد ليس هو الجمهور الجماعة، أو الجمهور المؤسسة، أو الحشد. ولعل أعمق الاختلافات هي التباين بين بنى الجماهير وطبيعتها. على سبيل المثال، ميز بيرلمان وتيتيكا[42] بين ثلاثة أصناف من الجماهير: (1) الجمهور الذات (محاورة الذات ومناقشتها)، (2) الجمهور الكلي(المثالي)، (3) الجمهور الواقعي. من هذا المنطلق، نرى أن جمهور الإعلام واقعي وغفير وعريض لا يمكن حصره، كما أنه ليس متجانسا ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. من جهة أخرى، وبناء على امتداد حضور جمهور المادة الإعلامية الواحدة(نشرة أخبار تلفزيونية)، في الموقع الإلكتروني للقناة، أو في مواقع التواصل الإعلامي، فإنه من المستحيل حصر المخاطَبين. نستدل على ذلك بواحدة فقط من سمات لغة الإعلام كما حددها ماكويل[43]، فقد ذكر لها سبع سمات، ستة منها متعلقة بالجمهور؛ ونحتاج منها إلى السمة رقم(7) التي

جاء فيها أن مخاطبة الجمهور إعلاميا معناه خلق مجتمع حديث يشمل فئات ومستويات ثقافية ومعرفية واجتماعية مختلفة.

على الرغم من أن التغذية الراجعة لا تتهيأ للجمهور آنيا في التواصل الإعلامي (نشرة الأخبار التلفزيونية) بسبب قيود العزل عن المشاركة، إلا أنه على قدم المساواة مع المرسل[44]. فإنشاء المادة الإعلامية ينطلق من دراسة الجمهور والتوقع الاستباقي لما يعنيه وما يقنعه وحتى ما يغضبه؛ أو كما دعا بوث[45] إلى وضع الجمهور في الاعتبار، أي القيام بتعديلات لتكييف الرسالة مع المخاطبين والمناسبة والمعرفة الاجتماعية والاستجابات المرغوبة. يؤكد مبدأ استشراف أسئلة الجمهور وفضوله عدم نزاهة اللغة الإعلامية، لأن المؤلف يصمم الاستجابات المقصودة ويحاول أن يعممها في البنى الإدراكية لدى الفاعلين الاجتماعيين المخاطَبين؛ والآكد من ذلك هو أن الرسالة الإعلامية –حسب التوقع الاستباقي وتصميم الاستجابات– تسعى إلى توحيد مستويات فئات الجمهور إدراكيا واجتماعيا، وهذه هي أخطر الوظائف الاجتماعية للخطاب الإعلامي، بمعنى أنه يسعى إلى خلق صورة نمطية موسعة ومعممة.

من أبرز الوظائف الاجتماعية كذلك، نشير إلى أخطر نقاط القوة التي تنفرد بها الخطابة التلفزيونية – نشرة الأخبار أو غيرها– في مخاطبة الجمهور، هي الأسلوب الحواري الأكثر حميمية، فالخطاب عبر التلفزيون يخلق جوا مستقرا ويقدم الأخبار بسلاسة تشد انتباه المتلقي. وقد سبق لمارشال ماكلوهان[46] أن أطلق على هذه الصفة عبارة "الوسيط التلفزيوني الهادئ". إن هذا الاستقرار والهدوء والحميمية هو ما يعطي للخطاب الإخباري عبر التلفزيون مقبولية مبدئية لدى المشاهد، كما أن معطى الحوارية هو ما يثري علاقة المراجعة الجدلية بين المرسل والمستقبل. واجتماعيا، تستقطب حميمية الحوار ومراجعة الأفكار المشاهد وتستحوذ على نموذجه الإدراكي؛ هنا يخلق الإطار الأيديولوجي جسرا لتمرير معتقداته وممارسة سلطته.

2.3.2. تحليل الاستجابة:

أيسر المقاييس لتحليل استجابات جمهور الإعلام هو المعيار الكمي، أي قياس أرقام المتابعة؛ فالمؤسسة الإعلامية التي تحقق نسبا متصاعدة للمتابعة، أو تضمن استقرارها، يمكن عدها ناجحة في ممارسة سلطة مرجعها الأيديولوجي دون افتضاح. وبعيدا عن هذا المعيار الكمي، كيف تكون استجابات الجمهور؟

هناك افتراضان مرجحان لردود أفعال الجماهير في التواصل الإعلامي، أولا: خضوع البنى الإدراكية للسياق الجديد والإدراك المعدَّل؛ ثانيا: قدرة الجمهور على مقاومة سلطة الإطار الأيديولوجي للوسيلة الإعلامية. ويفيد الافتراض الأول أن المادة الإعلامية قد أفلحت في إنتاج الوظائف الاجتماعية الكفيلة بخلق الصورة النمطية المصممة مسبقا، في حين يفيد الافتراض الثاني أن الجمهور قد استطاع ربح رهان العلاقات الجدلية التي يكون قوامها صراعا بين المعارف الجديدة أو المعدلة أيديولوجيا، وخلفية المعرفة الاجتماعية المتراكمة في النماذج الإدراكية.

عموما، يوفر الانفجار التكنولوجي وثورة وسائل الاتصال الاجتماعي إمكانات خصبة لطرق الرد والاستجابة. فقد تكون لفظية، أو سيميائية، أو فلمية كما هو الحال بالنسبة إلى الرسالة الإعلامية. إلا أن الإشكال المطروح هو القيود على المشاركة الآنية للجماهير ساعة إلقاء المادة الإعلامية الإخبارية تلفزيونيا. يقول فيركلف: "تمثل الإجراءات الرسمية جانبا منتشرا ومألوفا من جوانب القيود المفروضة على المشاركة في الخطاب"[47]. والحق أننا نتقاسم هذا الرأي، ولكن بصفة محدودة؛ أعني أن القيود على المشاركة في التواصل الإعلامي تكون فقط ساعة عرض المادة الإعلامية(نشرة الأخبار)، إذاك فقط تشتغل الإجراءات الرسمية، لأن الجمهور –كما بينا أعلاه– حاضر في مرحلة الإعداد والتأليف/الإنشاء، كما أنه يحتكر دورة الخطاب بعد انتهاء النشرة.

تتوسط الإجراءات الرسمية لتقييد مشاركة الجمهور بين مرحلة الإعداد والتأليف/الإنتاج، ومرحلة إنتاج الاستجابات؛ مما يعزل المخاطَبين خلال المرحلة الوسطى(إلقاء الرسالة الإعلامية وتلقيها)، ولا ننسى أن وسائل التواصل الاجتماعي تتيح إمكان الرد الآني افتراضيا بالموازاة مع هذه المرحلة، ولكن الاستجابات فيها لا تكون معبرة إلى الحد اللازم في التحليل. بناء على هذا التقطيع الكرونولوجي للعملية التواصلية، نحيل محلل التواصل الإعلامي إلى زمرة من الأسئلة الموجهة لنقد استجابات الجمهور: ما علاقة سياق الخبر باستجابات الجمهور؟ أي دور لانتماءات المؤسسة الإعلامية في استهداف الجمهور؟ ما نوع تدخلات الجمهور؟ ما أنماط استجابات الجمهور؟

حري بمحلل التواصل الإعلامي أن يستهل نقد بلاغة جمهور الإعلام بالتفريق بين نوعين من تدخلاته: (1) مشاركة قبلية، (2) استجابات بعدية. في المشاركة القبلية، تُستحضر في بناء الرسالة من قبل الإطار الأيديولوجي، البنى المعرفية والاجتماعية للفئات المقصودة، وتحدد الأهداف المركزية في

قائمة الأوليات على أن تُصاغ في قالب لساني يخول الهيمنة[48]. لذا، على محلل الخطاب –قبل مباشرة التحليل وكما في نقد الممارسة اللسانية– العودة إلى مستنتجات السياق لتحصيل القرائن الاجتماعية والمعرفية والنفسية المتعلقة بالخبر، كأكثر فئات المجتمع ارتباطا به، والأطراف المنتمين إلى قصة الخبر، وعلاقة المؤسسة الإعلامية الناشرة بهم، وكذا انتماءاتها الجغرافية والعقدية والاقتصادية والثقافية. ونرتكز في تقديم هذه الخطوة على ما أشار إليه فان دايك وكينتش Kintsch بخصوص فهم النص، إذ يذهبان إلى أن استيعاب النصوص لا يحتاج فقط إلى النظر في التعبير عن الأفكار والمعلومات، وإنما يحتاج إلى اختبار المعرفة الاجتماعية التي عبرت عنها اللغة[49].

إن الهدف من هذه الخطوة هو إحراز حقيقة المشاركة القبلية للجمهور، غير أن تدخله لا يكون تلقائيا باختيار ذاتي، وإنما هو مستحضر من قبل مؤلف الرسالة الإعلامية. ومن شأن نتائج هذه المرحلة أن تسهل تقويم السلطة الممارسة على الخطاب والفاعلين الاجتماعيين المشتركين.

بالنسبة إلى الخطوة الثانية(استجابات بعدية)، نميز فيها بين الاستجابات المنصاعة والاستجابات البليغة؛ فالأولى تمثل إفلاح الخطاب الإعلامي في مسعاه الرامي إلى التحكم في إدراكات عناصر بيئة الجمهور، ونجاح الإطار الأيديولوجي في إنتاج الوظائف الاجتماعية للخبر من خلال تنزيل الصورة النمطية التي صُممت في مرحلة الإنتاج. والثانية تفرز خطابا موازيا للرسالة الإعلامية، ويمكن أن يوصف بخطاب المقاومة أو الاستجابات المقاومة.

يستطيع محلل التواصل الإعلامي أن يرصد هذه الأصناف من الاستجابات من جانبين: الأول هو تتبع مسار الرأي العام بخصوص مكونات الخبر ومضامينه وأطراف قصته، خصوصا إذا تعلق الأمر بخبر سياسي؛ فالمواقف إما أن تبقى ثابتة أو تتغير في اتجاه التعديل أو الهدم. والحق أن الجانب الأول صعب ومستعصٍ نسبيا. أما الثاني، فمتاح بشكل كبير، ويمكن رصده على درجة عالية من الدقة؛ نقصد هنا تتبع استجابات الجمهور في العالم الافتراضي، بحصر عينات ودراستها؛ إذ إن الجمهور الذي يتلقى الخطاب عبر التلفزيون أو غيره من الوسائط، يُصدر استجابات لاحقة أو آنية تتحول بدورها إلى خطاب بعد انتقالها إلى العالم الافتراضي.

يمكن تعقب الاستجابات البليغة أو المنصاعة –إذن– على مواقع القنوات وصفحاتها في وسائل التواصل الإعلامية. ونستطيع تحليلها من خلال التعاليق اللغوية الصريحة، والتعابير السيميائية المتاحة،

كرموز الإعجاب والرفض والامتعاض والسخرية، ويمكن كذلك أن يعبر الجمهور بالصور المصممة أو تلك الرائجة عن أطراف قصة الخبر ومواضيعها، أو تكون الردود في صيغة رسوم كاريكاتورية. والأهم في ذلك كله هو إحراز ما أمكن من الاستجابات التي تعكس مواقف الجمهور من الرسالة الإعلامية وفحواها بنسبة مئوية ورسوم بيانية من شأنها أن توضح استهلاك الأيديولوجيا أو تكذيبها. وعموما، بات للجمهور وسائط أبلغ من الخطاب اللغوي للتعبير عن مواقفه من الإعلام، كما يقول عماد عبد اللطيف:

> **"لم يعد الجمهور الغفير مجرد مستقبل سلبي لوسائل الإعلام الجبارة؛ لم يعد مستمع الإذاعة أو قارئ الجريدة أو مشاهد التلفزيون أو متصفح الإنترنيت يتلقى ما يُلقى إلى سمعه أو يمر أمام عينيه فيُعمل فيه فكره، ويستخرج معناه فحسب، بل أصبح هذا المتلقي يستطيع نشر رأيه وموقفه مما قرأه أو سمعه أو شاهده، في شكل استجابات خطابية.."[50].**

خاتمة:

تعاطت هذه المحاولة مع التواصل الإعلامي بوصفه ممارسة بلاغية خِطابية تسمها خصائص سجالية. وأبرزت أن الرسالة الإعلامية منخرطة بالفعل في المناقشة الاجتماعية والجدل المدني. كما برهنت أن الخطاب الإخباري في الإعلام يمارس السلطة بالتوظيف المواربة والمخاتل للغة. إن أول نتيجة خلص إليها البحث هي منوال تشكُّل الرسالة في الإعلام، إذ تعرف تآزرا خِطابيا تتضافر فيه بنى تركيبين اثنين: العام والخطابي؛ فالأول يضم الثاني، والثاني يدعم الأول: أي إن اللغة والإمكانات البلاغية والتداولية والسيميائية تتآخى والتقنيات التصويرية والإخراجية والإيقاعية في نطاق واحد.

ثانية النتائج هي دراية الكيفية التي تُمارَس بها السلطة من لدن الإطار الأيديولوجي المتحكم في فحوى الرسالة الإعلامية بواسطة اللغة، والقصد المتواري خلف الاختيارات اللغوية التي تُضمر نية الاستحواذ. هذه السلطة التي لا تصل إلى الفاعلين الاجتماعيين إلا بالقدرة على تعديل السياق والتصرف في البنية المعرفية للمتلقين، وإنتاج وظائف اجتماعية تسوق النماذج الجماهيرية إلى السقوط في شرك الهيمنة.

أما النتيجة الثالثة، فلعلها المقاربة اللسانية البلاغية الناقدة للتواصل الإعلامي، التي أطلقنا عليها –ابتداءً– اسم: "المقاربة المعرفية الجدلية لنقد التواصل الإعلامي". إن مفاهيمها الأربعة: تقييد تفسير الخبر، وبنى الخبر المعرفية، ووظائف الخبر الاجتماعية، والعلاقات الجدلية، تتنزل على مستويين:

(1) نقد الممارسة اللسانية على صعيد الرسالة بربط الاستخدامات اللغوية بما تمارسه من وظائف اجتماعية ومعرفية وأيديولوجية.

(2) نقد استجابة الجمهور بالتمييز بين المشاركة القبلية والاستجابات البعدية، ثم العناية بالجدل الضمني والممتد بين الإطار الأيديولوجي والجمهور.

غير أن المقاربة تواجهها بعض التحديات، نلخصها في الحاجة الملحة إلى تطوير مفاهيمها وتخصيب الممارسة التطبيقية. ثم صعوبة رصد الاستجابات والربط بين الواقعية والافتراضية منها. كما يحتاج هذا النموذج إلى مزيد من التفكير اللساني الجاد في سبل المعالجة الآلية التي توفر معطيات كمية، قد تعين في ربط مستنتجات تحليل عملية التشفير بتحليل عملية فك التشفير.

الهوامش:

* محمد يطاوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، المملكة المغربية.
yattasim@gmail.com

21 كاستلز مانويل، 2014، سلطة الاتصال، ترجمة وتقديم محمد حرفوش، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ص92.

22 Bitzer, Lloyd, 1998, "Political Rhetorical", In Landmark Essays on Con Hendiadys temporary Rhetoric, Edited by Thomas B. Farrell, pp.pp. 1-22 Mahwah. N.J, p102

23 عماد عبد اللطيف: 2005؛ 2009؛ 2011؛ 2013؛ 2014؛ 2017.

24 عبد اللطيف عماد، 2005، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ضمن كتاب "السلطة ودور المثقف"، جامعة القاهرة ، ص21.

25 Hall, Stuart, 1980, Encoding/Decoding, in Stuart Hall, Dorothy Hobson, Andrew Lowe, & Paul Willis (Eds), Culture, media, language (pp.pp 38-128) London: Hutchinson.

27 فيركلف نورمان، 2016، اللغة والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة ، ص35.

28 كاستلز مانويل، 2014، ص37.

29 Van Dijk, Teun A. 1998, Opinions and Ideologies in The Press, In Bell and Garrett 1998: pp.pp 21–63.

30 Theo Van Leeven, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, Oxford university press, 2008, p22

31 كاستلز مانويل، 2014، ص37.

32 كاستلز مانويل، 2014، ص37.

33 van Dijk, Teun A. 1988, News Analysis: Case Studies of International and National News in the Press, Hillsdale, NJ: Erlbaum, p83.

34 محمد يطاوي، دائرة الخطاب ودائرة السلطة، مجلة الجديد، العدد 48، لندن، يناير، 2019a.

35 يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، مصر، 2018a، ص.ص 363–378.

36 Wodak, Ruth and Reisigl, Martin, 2001, Discourse and Racism, in Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers.

37 Van Leeuwen, 2008, P: vii.

38 فان دايك توين، 2014، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، ط1، المركز القومي للترجمة القاهرة، مصر، ص57.

39 المرجع السابق، ص59.

40 Van Dijk: 1998.

41 Stuart Hall, 1980 , p53.

42 Perlman Chaïm, Olbrechts-Tyteca, La nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation, Presses Universitaires de France, 1958.

43 McQuail, Denis, 1997, Audience Analysis, Thousand Oaks, Calif. p19.

44 Bell, Allan, 1991, The Language of News Media, Oxford and Cambridge, MA: Blackwell, p11.

45 Booth, Wayne, 1963, The Rhetorical Stance, College Composition and Communication, vol. 14, No 3, Annual Meeting, Los Angeles, p142.
46 McLuhan, Marshall, 1964, Understanding Media: The Extensions of Men, McGraw-Hill, Canada.

47 نورمان فيركلف، 2016، ص96.

48 Bell, 1991, p12.
49 van Dijk, Teun A. and Kintsch, Walter, 1983, Strategies of Discourse Comprehension, New York: Academic Press, p302.

50 عماد عبد اللطيف، 2013، ص08.

قائمة المراجع:

. عبد اللطيف عماد، 2005، بلاغة المخاطَب: البلاغة العربية من إنتاج الخطاب السلطوي إلى مقاومته، ضمن كتاب "السلطة ودور المثقف"، جامعة القاهرة.

. عبد اللطيف عماد، 2009، من الوعي إلى الفعل: مقاربات معاصرة في مقاومة الخطاب السلطوي، مجلة ثقافات، العدد 22، كلية الآداب، جامعة البحرين، البحرين.

. عبد اللطيف عماد، 2011، نقد بلاغة السلطة وتقويض سلطة البلاغة: دراسة في مشروع البلاغة النقدية، مجلة نزوى، العدد 66، سلطنة عمان.

. عبد اللطيف عماد، 2013، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، العدد 83-84، الهيئة العامة للكتاب، مصر.

. عبد اللطيف عماد، 2014، تحليل الخطاب البلاغي: دراسة في تشكل المفاهيم والوظائف، كنوز المعرفة، عمان، الأردن.

. عبد اللطيف عماد، 2017، "ضد البلاغة: الخطابة والسلطة والتضليل عند أفلاطون"، تحرير عماد عبد اللطيف، دار العين، القاهرة، مصر.

. فان دايك توين، 2014، الخطاب والسلطة، ترجمة غيداء العلي، مراجعة وتقديم عماد عبد اللطيف، ط1، المركز القومي للترجمة القاهرة، مصر.

. فوركلوف نورمان، 2016، اللغة والسلطة، ترجمة محمد عناني، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

. كاستلز مانويل، 2014، سلطة الاتصال، ترجمة وتقديم محمد حرفوش، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة.

. يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018، مصر.

. Bell, Allan, 1991, The Language of News Media, Oxford and Cambridge, MA: Blackwell.

. Bell, Allan, 1998, The discourse structure of news stories, In Bell and Garrett 1998: 64–104.

. Bitzer, Lloyd, 1998, "Political Rhetorical", In Landmark Essays on Con Hendiadys temporary Rhetoric, Edited by Thomas B. Farrell, pp.pp. 1-22 Mahwah. N.J.

. Booth, Wayne, 1963 , The Rhetorical Stance, College Composition and Communication, vol. 14, No 3, Annual Meeting, Los Angeles.

. Cotter, Colleen, Ltd 2001, Discourse and Media, in Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers.

. Cotter, Colleen. 1993. Prosodic aspects of broadcast news register. In Proceedings of the 19th Annual Meeting of the Berkeley Linguistics Society 19: 90–100. Berkeley: Berkeley Linguistics Society.

. Cotter, Colleen, 1999a, Language and media: five facts about the Fourth Estate, In The Workings of Language: Prescriptions to Perspective, Rebecca S .Wheeler, ed. 165–79. Westport, CT: Praeger Publishing.

. Cotter, Colleen, 1999b, Raidió na Life: innovations in the use of media for language revitalization, International Journal of the Sociology of Language 140: 135–47.

. Fairclough, Norman, 1995, Critical Discourse Analysis: The Critical Study of Language, Longman Publishing, New York.

. Fowler, Roger and Bob Hodge, Gunther Kress, and Tony Trew, 1979, Language and Control, London: Routledge.

. Fowler, Roger. 1991, Language in the News: Discourse and Ideology in the Press. London: Routledge.

. Goffman, Erving, 1981, Forms of Talk. Philadelphia: University of Philadelphia Press.

. Greatbatch, David, 1998, Conversation analysis: neutralism in British news interviews, In Bell and Garrett 1998: 163–85.

. Hall, Stuart, 1980, Encoding/Decoding, in Stuart Hall, Dorothy Hobson, Andrew Lowe, & Paul Willis (Eds), Culture, media, language (pp.pp 38-128) London: Hutchinson.

. Kress, Gunther and Hodge, Robert, 1979, Language as Ideology, London: Routledge.

. McLuhan, Marshall, 1964, Understanding Media: The Extensions of Men, McGraw-Hill, Canada.

. McQuail, Denis, 1997, Audience Analysis, Thousand Oaks, Calif.

. Perlman Chaïm, Olbrechts-Tyteca, La nouvelle Rhétorique: Traité de l'Argumentation, Presses Universitaires de France, 1958.

. Sloane, Thomas O, 2001, Encyclopedia of Rhetoric, Oxford University Press.

. Van Dijk, Teun A. 1988, News Analysis: Case Studies of International and National News in the Press, Hillsdale, NJ: Erlbaum.

. Van Dijk, Teun A. and Kintsch, Walter, 1983, Strategies of Discourse Comprehension, New York: Academic Press.

. Van Dijk, Teun A. 1998, Opinions and Ideologies in The Press, In Bell and Garrett 1998: pp.pp 21–63.

. Van Leeven, Theo, 2008, discourse and practice: new tools for critical discourse analysis, Oxford university press.

. Wodak, Ruth and Reisigl, Martin, 2001, Discourse and Racism, in Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers.

القسم الثاني

إسهامات عربية في التحليل النقدي للخطاب السياسي

1. **الاستعارات النحوية والموقفية في خطب الرئيس مبارك الثلاثة الأخيرة**
   مقاربة وظيفية نظامية

إبراهيم عبد التواب

2. **التحليل النقدي للخطبة السياسية**
   من الفعل الخِطابي إلى فعل الاستجابة

محمد يطاوي

3. **الاستعارة في الخطاب السياسي**
   مقاربة نقدية لخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار"

حسين البعطاوي

الاستعارات النحوية والموقفية في خطب الرئيس مبارك الثلاثة الأخيرة

مقاربة وظيفية نظامية

إبراهيم عبد التواب*

ملخص:

النحو الوظيفي النظامي نظرية وُضعت في الأساس لتحليل النصوص حسب رائده مايكل هاليداي. وعلى الرغم من أهميته وشهرته وكونه منهجا أساسيا لدى رواد التحليل النقدي للخطاب من أمثال نورمان فيركلف، فإنه لم يحظ بالاهتمام الكافي في محيط الدراسات اللغوية العربية على المستوى النظري والتطبيقي.

يعرض هذا البحث مفهومين من مفاهيم النحو الوظيفي النظامي، هما الاستعارة النحوية والموقفية. ويحلِّل في ضوئهما الخطب الثلاثة الأخيرة للرئيس المصري الأسبق حسني مبارك، مستخدِمًا البلاغة العربية والنحو الوظيفي النظامي بوصفهما منهجين لتحليل النصوص، يكمِّل أحدهما الآخر. وهذه الخطب السياسية الثلاثة لها أهمية اجتماعية ولغوية خاصة؛ ترجع إلى طبيعة الظروف التاريخية الفريدة الملابِسة لها، وإلى استحواذها على اهتمام الشعب كله، وما كان من سجالها والمعارضين للرئيس، وإلى تجلي تأثير اللغة فيها في إثارة انفعالات الجماهير وردود أفعالهم على تباينها.

يرى البحث أن ثمة فروقًا بين البلاغة العربية والنحو الوظيفي النظامي في الأسس النظرية العامة والأهداف، ويفترض أنها ستؤدي إلى اختلافات جوهرية في طريقة تحليل الاستعارات والموقفية وفي ما سيسفر عنه هذا التحليل من نتائج. ولا يهدف البحث من هذا إلى المفاضلة أو الانتصار للوافد أو للتراثي، بل يهدف إلى الإسهام في تطوير إطار تحليلي لغوي عربي، يستعين بمفاهيم وأدوات مما أفرزته نظرية النحو الوظيفي النظامي، تجعله أوسع رؤية وأعلى كفاءة.

الكلمات المفتاحية: النحو الوظيفي النظامي، البلاغة العربية، الاستعارة النحوية، الموقفية، الفاعل المنطقي.

Grammatical Metaphors and Modality in Mubarak's Late Three Presidential Addresses: Systemic Functional Approach

Ibrahim Abdet-tawwab

Abstract:

Systemic Functional Grammar (SFL) has been first set up to analyze texts as pointed out by this school's leading proponent Michael Halliday. Despite the significance and fame of SFL as well as its being a primary method of approach to expounders of Critical Discourse Analysis such as Norman Fairclough، it has not commanded enough theoretical and practical attention in the field of Arabic Studies.

In the light of these two SFL concepts: grammatical metaphors and modality، this research attempts to anatomize Hosni Mubarak's last three presidential addresses in reliance on both Arabic rhetoric and SFL as two complementary methodologies for reading texts. These three political speeches have a particular social and linguistic significance، due to their unique historical circumstances، attracting all citizens attention، particularly demonstrators; and due to their massive influence on stirring various emotions and reactions. Nevertheless، this research maintains that there are differences in the theoretical principles and goals between SFL and Arabic rhetoric in approaching metaphors، which may produce fundamental differences in the method of analysis and the expected outcomes. Rather than siding with turāth (tradition) over western knowledge or preferring one of them over the other، this paper aims to participate in the efforts to develop an Arabic linguistic analytical framework by employing concepts and tools from SFL that would make such a framework more astute and efficient.

Keywords: Systemic Functional Grammar (SFL)، Arabic rhetoric، Grammatical metaphor، Modality، Logical subject

مقدمة:

يعرض هذا البحث مفهومي الموقفية والاستعارة النحوية ويطبقهما على عينة من الخطب السياسية، هي الخطب الثلاثة الأخيرة للرئيس مبارك. ينتمي هذان المفهومان إلى النحو الوظيفي النظامي (Systemic Functional Grammar) الذي وضعه عالم اللغة مايكل هاليداي لتحليل النصوص، وهو نحو دلالي ذو توجه اجتماعي، ينطلق من رؤيةٍ للغة بوصفها ظاهرة وسلوكا اجتماعيا، بخلاف اللسانيات الشكلية لدى تشومسكي ذات التوجه النفسي. وقد عُني كثير من رواد التحليل النقدي للخطاب بنحو هاليداي لا سيما نورمان فيركلف الذي ذكر أنه اعتمد عليه اعتمادا أساسيا في كتابه (Analysing discourse: Textual analysis for social research) بوصفه منهجًا لغويا لتحليل النصوص، ورأى فيه مصدرا قيما للدراسات النقدية للخطاب[1]، ومع هذا لم يحظَ نحو هاليداي في دراساتنا العربية باهتمام كافٍ[2] خاصة إن قُورن بما لقيه نحو تشومسكي بنماذجه المختلفة من العناية.

ينقسم البحث إلى قسمين أساسيين، قسم نظري يقدم مفهومي الاستعارة النحوية والموقفية، وآخر تطبيقي يحلل الخطب الثلاثة في ضوء هذين المفهومين مستخدِمًا البلاغة العربية والنحو الوظيفي بوصفهما منهجيْ تحليل. ويحاول البحث الإجابة عن أربع مجموعات من الأسئلة:

1- ما الموقفية؟ كيف يُعبر عنها في الخطب الثلاثة؟ ما أنواعها؟ وما درجتها ارتفاعًا وانخفاضًا؟ أينسبها الرئيس لنفسه فقط أم ينسبها للمواطنين أيضا؟ أعَلى جهة الاستقلال ينسبها لهم أم على جهة الاتحاد بينه وبينهم؟ متى يُعبر عن الموقفية في حيز استعاري؟

2- هل يتراكب الفاعل النحوي والفاعل المنطقي في كل موضع من الخطب الثلاثة؟ ما المواضع التي يُعبر فيها عن الفاعلية الاجتماعية استعاريا؟ ولماذا؟

3- ما الاستعارة النحوية؟ هل كل استعارة نحوية هي استعارة بالنسبة إلى البلاغة العربية؟ وما وظائفها في الخطب الثلاثة؟

4- فيمَ يختلف التحليل البلاغي العربي عن التحليل الوظيفي النظامي؟ ولماذا؟

1. مهاد نظري

1.1. الاستعارة النحوية:

الاستعارة النحوية[3] هي علاقة بين مستويين من مستويات اللغة: المستوى الدلالي والمستوى النحوي المعجمي (lexicogrammar)، وهذه العلاقة هي علاقة تحقُّق (realization)[4]. فالأمر مثلا هو معنى "يتحقق" تحققًا نحويا مطابقا بطرق منها استعمال فعل الأمر، و"يتحقق" تحققًا نحويا استعاريا بطرق أخرى منها استعمال صيغة الاستفهام. معنى هذا أن مفهوم هاليداي للاستعارة يتقاطع وكل تحولات الصيغ التي تُدرس في البلاغة العربية في باب الإنشاء، وتدرس في التداولية في نظرية أفعال الكلام[5]. "تستند الاستعارة النحوية إلى توسيع مفهوم الاستعارة الذي يطبق على الكلمة ليشمل النحو "فقد يُعبر عن المعنى تعبيرا مطابقا فيقال: "طردتهم الشركة" وقد يعبر عنه استعاريا فيقال: "خسروا وظائفهم"[6].

يعد التحويل الاسمي (nominalization) من أهم أشكال الاستعارة النحوية، ويقصد به تمثيل الأفعال والأحداث التي تجري في الواقع (والتي من المفترض أن تتحقق نحويا في صورة الفعل النحوي) باستخدام الأسماء خاصة المصادر. وبتحويل الفعل إلى مصدر ينتج عن ذلك غالبا فقْد الدلالة على الزمن والمشاركين في إيقاع الفعل والجهة (Aspect) والموقفية. يرى هاليداي ويتابعه فيركلف أن التحويل الاسمي: "مصدر تعميم وتجريد لا بد منهما في حقول مختلفة، منها العلوم، ولكن يمكن أيضا أن يحجب هوية الفاعل ومسؤوليته"[7]؛ يمكن أن نسوق مثالا توضيحيا هنا (وسنقابل مقتطفات أصيلة في الجانب التطبيقي من البحث):

. **نقيب العمال: عمال المنجم يستخرجون الفحمَ بعرق جبينهم.**

. **صاحب المنجم: استخراجُ الفحم يعني إنفاقي مالا كثيرا وانتظاري ربحا زهيدا.**

تنقسم الاستعارة النحوية ـ وفقا للوظائف العليا (metafunctions) للغة ـ كما حددها هاليداي: الوظيفة الفكرية والتواصلية والنصية ـ إلى قسمين أساسيين[8] هما الاستعارة التواصلية (Interpersonal) والاستعارة الفكرية[9] (ideational). تتعلق الاستعارة التواصلية بالأدوار الاجتماعية والعلاقات بين طرفي الخطاب بالنسبة إلى عاملي السلطة والألفة، وتندرج تحتها كل الاستعارات التي تنتج عن الاستبدال في صيغ الجملة والاستعارات التي تقع في الموقفية، وهي تتعلق بطبيعة المشاركين في الخطاب والعلاقات

بينهم (tenor of discourse) أما الاستعارة الفكرية فتتعلق بتمثيل ظواهر العالم، ومن ثم فهي تتعلق بمجال الخطاب (field of discourse)[10].

2.1. الموقفية:

يُترجم مصطلح (Modality) إلى العربية ترجمات مختلفة، منها: المشروطية، والصيغية، والكيفية، والوجه، والموقفية[11]. وقد اخترت في هذا البحث الترجمة الأخيرة: الموقفية موافِقًا لطلال وهبة مترجم كتاب تحليل الخطاب لفيركلف[12]. يقصد هاليداي بالموقفية موقف المتحدث من جملته بوصفها فعل تواصل وتبادل، وهو موقف لا ينحصر في تأكيدها أو إنكارها؛ لأنه بين قطبي الإثبات والنفي درجات وسيطة من عدم اليقين أو التحديد[13]، من أجل دراستها نحتاج إلى التمييز بين القضايا (الأخبار والأسئلة) والإلزاميات (العروض[14] والطلبات): في القضية يكون معنى قطبي الإثبات والنفي هو التأكيد: "إنها كذلك" والإنكار: "إنها ليست كذلك" على الترتيب، وهناك نوعان من الدرجات الوسيطة: درجات الاحتمال: محتمل، مرجح، أكيد...، ودرجات الورود: دائما، عادة، أحيانا، نادرا، أبدا... في الإلزاميات يكون معنى قطبي الإثبات والنفي هو الأمر والنهي، "افعل هذا"، "ولا تفعل هذا"، وهنا أيضا نوعان من الدرجات الوسيطة، يعتمدان على وظيفة الكلام: في الطلب تمثل الدرجات الوسيطة درجات من الإلزام: الوجوب، الندب، الإباحة... وفي العرض تمثل درجات من التعهد والرغبة: مستعد، متلهف (تواق)، عاقد العزم على...[15].

أما في الدراسات العربية القديمة، فقد بحث سيبويه في العلاقة بين وقوع العنصر الدال على موقف المتحدث مقدما ومتوسطا ومتأخرا وتأثيره الإعرابي، وذلك حيث يقول في حكم إلغاء ظن وأخواتها: "فإن ألغيتَ قلت: عبدُ الله أظنُّ ذاهبٌ، وهذا إخالُ أخوك، وفيها أُرَى أبوك. وكلَّما أردتَ الإلغاء فالتأخيرُ أقوى. وكلٌّ عربيٌّ [جيدٌ] ... وإنما كان التأخير أقوى لأنه [إنما] يجيء بالشكّ بعدما يَمْضِي كلامُه على اليقين، أو بعدما يبتدئ وهو يريد اليقينَ ثم يُدْرِكُه الشكُّ"[16]. وأدرك عبد القاهر الجرجاني الفرق بين العناصر الدالة على الموقفية في الجملة (مثل أفعال القلوب) والقضية التي تقدمها الجملة، وكذلك أدرك أن القضية هي محل المخالفة والمنازعة بين المتكلم والمخاطب، وهذه المخالفة هي جزء من التفاوض على المعنى، حسب تصوُّر هاليداي. يقول عبد القاهر: "إذا قلت زيد منطلق، فقد وضعت كلامَك لإثبات الانطلاق لزيد، ولو نفيت فقلت ما زيد منطلقًا، كنت نفيت الانطلاق عن زيد، وكذلك: أكان زيد منطلقًا،

وعلمتُ زيدًا منطلقًا، ورأيت زيدًا منطلقًا، أنت في ذلك كلِّه واضعٌ كلامك ومُزْجٍ له لتُثبت الانطلاق لزيد، ولو خُولفت فيه انصرف الخلافُ إلى ثبوته له".[17] وليس تمييز البلاغيين العرب بين أضرب الخبر (الابتدائي والطلبي والإنكاري) إلا تمييزا بين درجات من الموقفية.

وفي الدراسات العربية الحديثة، يستخدم أحمد المتوكل ـ متابعًا النموذج الوظيفي لسيمون دِك ـ مصطلحَ "الوجه" ترجمة لـ "Modality" ويعرفه بأنه ما يعبر عن موقف المتكلم من العلاقة التي تربط بين تحقق الواقعة وأحد المشاركين (علاقة الوجوب مثلا) وموقفه من تحقق الواقعة نفسها بالنظر إلى معارفه عن أنماط الوقائع وما يضبط تحققها من قواعد اجتماعية وشرعية، وموقفه من صدق أو كذب القضية التي يتضمنها خطابه[18]. وتضم الموقفية أيضا الموقف الانفعالي من محتوى القضية والموقف المرجعي (كإسناد الكلام إلى مرجع خارجي قصد التملص من مسئولية تبليغه)[19]. وهذا التصور لا يختلف كثيرًا عن التصور الوظيفي النظامي الذي يرى الموقفية نوعًا من التقدير الموقفي[20] (Modal assessment) الذي يضم كل ما يُفصح عن أحكام أو تقييم أو انفعال مسند إلى المتكلم أو المخاطب. ويذهب بعض اللغويين إلى أن "كل حدث من أحداث النطق يحمل طابعا شخصيا أو انفعاليا (حتى إنه لا وجود لجملة لا تكون مشروطة Modal)"[21].

يُعدِّل هذا البحث تقسيم هاليداي للموقفية، فيُدرج فيه قسمًا جديدًا، يقسمها بحسب التعبير عنها إلى حقيقية واستعارية، ويُغيِّر تقسيمها بحسب التوجُّه[22]؛ لكي يلائم اللغة العربية؛ إذ إن تقسيم هاليداي لها إلى شخصية وموضوعية راجع إلى الأفعال المساعدة والظروف الموجودة في الإنجليزية، وهو تقسيم لا يطابق اللغة الإنجليزية نفسها تمام المطابقة، أو فيه فجوات نظامية حسب عبارة هاليداي التلطيفية[23]، والحقيقة أن تقسيمه جدوليّ منطقي أنتج له أقسامًا لا يقابلها نظير في الإنجليزية المستعملة، كما حدث مع الخليل في معجم العين بظهور ما أسماه "المهمل" وفي صناعة العروض بظهور بحور لم تقل العرب شعرا يطابقها. ومن ثم يقسِّم البحث الموقفية بحسب التحقق إلى صريحة وضمنية، فالصريحة (مسندة إلى عاقل، مثل: أشك أن، تشك أن، ...) والضمنية (غير مسندة صراحةً إلى عاقل، مثل: لا شك أن، ربما، قد)، ثم يُقسِّم الصريحة بحسب العزو إلى ذاتية ينسبها المتكلم إلى نفسه (مثل: أنا أظن أن ...) وغير ذاتية ينسبها المتكلم إلى غيره (مثل: أنت تظن أن ...)، الجزء الخاص بالموقفية غير الذاتية غير موجود مطلقا في نموذج هاليداي. وعلى الرغم من وجود التقسيم إلى صريحة وضمنية عند هاليداي، فإن جعله باعتبار

الإسناد إلى عاقل هو من تعديل هذا البحث للنموذج. انظر الشكل (1) التالي، وقارنه بما جاء في نموذج هاليداي[24].

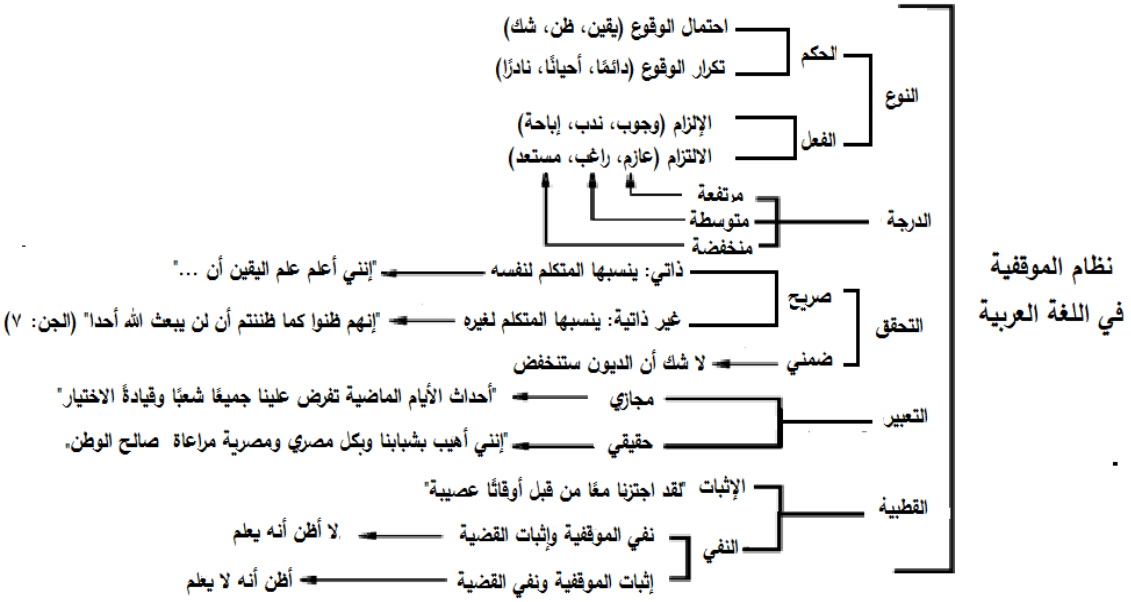

الشكل (1) تصور أولي لنظام الموقفية في اللغة العربية مُعدَّل عن نموذج هاليداي

3.1. نحو هاليداي والبلاغة والنحو العربيان: التلاقي والافتراق

هناك تشابهات واختلافات كثيرة بين نحو هاليداي والبلاغة والنحو العربيين، غير أن البحث سيركز على ما هو وثيق الصلة منها بموضوعه. يلتقي نحو هاليداي والنحو العربي حول دراسة الفاعل النحوي، بيد أن نحو هاليداي ينفرد بدراسة الفاعل المنطقي (Logical subject) الذي فعَلَ الفعل في الواقع غير النصي؛ وهذا الاختلاف راجع إلى اختلاف الهدف الذي من أجله وُضع النحو: فحينما تكون الغاية هي ضبط اللسان والقلم وصيانتهما عن اللحن، يغدو طبيعيا أن يكون مفهوم الفاعل مفهوما شكليا، يصدق على مَن فَعَل الفعل أو اتصف به أو لم يفعله أصلا لكنه أُسند إليه إسنادا نحويا، حتى حين يُستخدم مفهوم "الفاعل في المعنى"[25] فإنه لا يستخدم في الغالب إلا في إطار الهدف السابق. أما نحو هاليداي فهدفه الأساسي هو تحليل النصوص[26]، وهو ينطلق من رؤية اجتماعية تنظر إلى اللغة بوصفها سلوكا اجتماعيا ووسيلة لصناعة الواقع لا مرآة لتعكسه فقط، وتنظر إلى البشر بوصفهم فاعلين اجتماعيين مسؤولين أمام المجتمع والقانون، فلا يقنع المُحلِّل بأن يجد فعلا مسندا إلى اسم.

يلتقي نحو هاليداي والبلاغة العربية حول مفهوم (الاختيار)[27]، وهو مفهوم جوهري فيهما، وهو عمود النظرية ومنهج التحليل فيهما أيضا، لكن الفرق بينهما يكمن في (المسار) الذي تتخذه عملية تحليل النص: فالبلاغة العربية تبدأ في تحليل النص من صور التراكيب القائمة فيه إلى بدائلها في نظام اللغة من خلال عدد من الثنائيات (كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والإضمار والإظهار، والتعريف والتنكير، والحقيقة والمجاز ...)، ثم تنظر في الصياغات اللغوية الممكنة لأصل المعنى (غرض منشئ النص) - وقد تناقشه في أصل المعنى أو لا - وتبحث في معانيها والفروق بين كلٍّ منها. بعبارة أخرى، التحليل في الغالب يدور حول أفضل الصياغات الممكنة لغرض المتكلم، والبلاغة حينئذٍ هي بلاغة صياغة المعنى.

أما نحو هاليداي فهو ينطلق من صور التراكيب القائمة في النص ومعانيها إلى خارج النص حيث البحث في أصل المعنى (غرض منشئ النص) وبدائله الممكنة في ضوء السياق اللغوي وغير اللغوي، بمعنى أنه لا يسلِّم لمنشئ النص ابتداء بغرضه، ثم يعود إلى بدائل نظام اللغة، والفروق الدلالية بين المستعمل والممكن. التحليل في تلك الحالة يركز على بدائل غرض المتكلم في علاقتها بإمكانات نظام اللغة، والبلاغة حينئذٍ هي بلاغة صناعة المعنى. وغني عن القول أن هذا الحكم على الغالب في الحالتين. (انظر الشكل (2)). وهذا الاختلاف بينهما يجعل عدسات نحو هاليداي تلتقط بعض الظواهر التي لا تدركها البلاغة العربية (سيعرض الجانب التطبيقي من هذا البحث نماذج لذلك)، لكن ضريبة هذا أنه يكون أكثر عرضة لخطر الوقوع في الإفراط في التأويل عند تحليل الاستعارات مثلا؛ إذ البديل الدلالي الحقيقي افتراضي، وليس مذكورا في النص، وتتعدد الاحتمالات التركيبية المناظرة له.

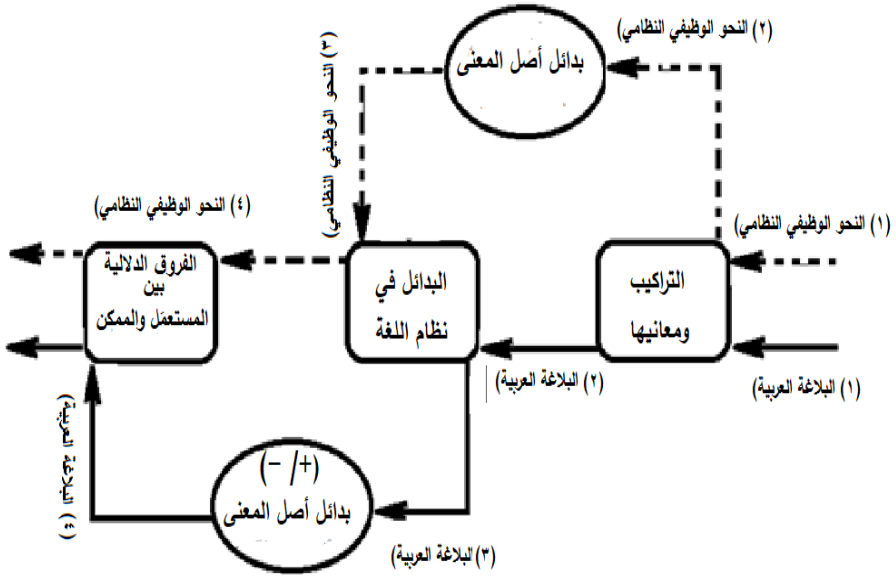

الشكل (2) اختلاف مسار التحليل البلاغي العربي عن نظيره النحوي الوظيفي النظامي

2. التحليل النصي:

للخطب الرئاسية الثلاثة الأخيرة للرئيس مبارك أهمية خاصة بين خطبه كلها طوال فترة رئاسته؛ نظرا لإلقائها في ظرف تاريخي مميز، ولمتابعة الشعب كله لها بكل اهتمام، ولمحاورتها لمطالب الشعب أخذًا وردًا من خطبة لأخرى، ولختامها فترة رئاسة امتدت نحو ثلاثين سنة، ولأسباب أخرى كثيرة. وهي حافلة بظواهر لغوية واجتماعية بارزة مثل التمثيلات اللغوية للهوية الاجتماعية[28]، والأشكال اللغوية للفاعلين الاجتماعيين، ومن هذه الظواهر أيضا الاستعارات النحوية، والموقفية، وهما الظاهرتان اللتان سيركز البحث على تحليلهما. (للاختصار سيُرمز للخطب الأولى والثانية والثالثة بالرموز خ1، خ2، خ3 على الترتيب).

1.2. فاعلية الظروف: موقفية الوجوب والإلزام:

تقدم لنا المقتطفات (1) و(2) و(3) التالية نموذجا مثاليًا لبيان الموقفية والاستعارة النحوية وبعض وظائفهما في الخطاب السياسي:

(1) "أتحدث إليكم في ظرف دقيق يفرض علينا جميعا وقفة جادة وصادقة مع النفس، تتوخَّى سلامة القصد وصالح الوطن" (خ1)

(2) "إن أحداث الأيام القليلة الماضية تفرض علينا جميعا شعبا وقيادة الاختيار ما بين الفوضى والاستقرار" (خ2)

(3) "واقتناعا من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها، تفرض علينا جميعا تغليب المصلحة العليا للوطن... فقد رأيت تفويض نائب رئيس الجمهورية..." (خ3)

1.1.2. المقتطف (1) التدرج من التلميح إلى التصريح:

أول ما يسترعي الانتباه في المقتطفات (1) و(2) و(3) هو هذا التكرار لعبارة (يفرض/تفرض علينا جميعا) ـ ثلاث مرات (مرة في كل خطبة)، وأن فاعل (الفرض) استعاري في المرات الثلاثة، وهو الظروف أو الأحداث التي وقعت فيها. وربما يبدو وجود الفعل "فرض" أو ما يشبهه مثل: (يتعين، علينا...إلخ) نتيجة طبيعية للتحول عن صيغة الأمر الإنشائية الدالة على الوجوب إلى الصيغة الخبرية، لكن هذا التحول نفسه بين الصيغ يحتاج إلى تفسير (سيأتي بيانه). وأُحاج هنا بأنه على الرغم من أن تحليل الموقفية واحد في المقتطفات الثلاثة وهو باختصار كما يلي: (يفرض/تفرض علينا جميعا) الموقفية، نوعها: فعل إلزام ـ درجتها: مرتفعة ـ تحققها: صريحة ـ عزوها: غير ذاتية، (لا يجعل المتكلمُ نفسَه فاعلا للإلزام، أي لا يقول: أفرضُ عليكم) ـ التعبير عنها: في حيز استعاري) ـ وفاعل (الفرض) يكاد يكون واحدا على الرغم من ذلك التشابه الظاهري، تتعاون الموقفية والاستعارة النحوية (ومنها تحويل صيغ الجملة) للقيام بوظائف مختلفة في كل مقتطف، وعلى الرغم من تعدد إمكاناتها الوظيفية فإنها حين تجتمع تتعاون لأداء وظيفة بعينها.

يمثِّل المقتطف (1) ـ وهو الجملة الأولى من الخطبة الأولى ـ مفتاحا للولوج إلى عالم الخطب الثلاثة، فما سيرد فيه ضمنيًا سيبدو صريحًا بعده، وهو يضعنا أمام سؤال هذا البحث عن الفروق بين منهجي التحليل البلاغي العربي والنحوي الوظيفي؛ فلقوله "في ظرف دقيق يفرض ..." ثلاثة تحليلات بلاغية ممكنة، هي (أ) أنه "مجاز عقلي" أُسند فيه الفعل إلى زمانه، (ب) أنه استعارة مكنية على طريقة السكاكي الذي رأى إدراج كل المجاز العقلي في باب الاستعارة المكنية، (ج) أنها "أنسنة" أو "تشخيص" على طريقة الدكتور شوقي ضيف ومن تابعه، ممن أنكروا على عبد القاهر تحليله لمثل هذه الاستعارة.

المشترك بين كل هذه التحليلات التي تبدو كما لو كانت مختلفة هو أنها تجعل الفعل "يفرض" هو مركز الجملة ثم تبحث له عن فاعل عاقل يحل إشكال التوتر الدلالي بين الفعل النحوي هنا وفاعله. تبدأ هذه التحليلات إذًا من التركيب ومعناه، فتدرك مجازيته، فتبحث وفقا لنظام اللغة عن قسيمه الحقيقي، ومن ثم تفترض أن أصله: يفرض "فلان" علينا جميعا في ظرف دقيق..."، ويكون وصف المصدر "وقفة" بالجد والصدق مجازا عقليا على حد قولهم "شعر شاعر"، ومن الممكن النظر للوقوف مع النفس على أنه استعارة لمراجعتها ومحاسبتها لتصحيح ما مضى.

أما في النحو الوظيفي فتكون البداية من التركيب ومعناه إلى الواقع الخارجي الذي ينبّه إلى أن الفعل "تفرض" هو عنصر موقفية إلزام وإيجاب، لا بد لها من فعل تقترن به[29]. هذا الفعل يقدمه المقتطف الأول في صورة المصدر "وقفة"، والمقتطف الثاني في صورة المصدر "الاختيار" والمقتطف الثالث في صورة المصدر "تغليب". ومن ثم فالفعل "يفرض" ليس المركز الدلالي للاستعارة، بل الأفعال (قفوا، اختاروا، غلِّبوا) التي حوِّلت إلى مصادر. إن ما يراه النحو الوظيفي هنا هو أن التغيرات النحوية تتعدى المجاز العقلي، والجانب المعجمي. يوضح الشكل (3) التالي مفهوم الاستعارة النحوية من خلال بيان تغيُّر رتبة[30] التركيب وصيغته ووظائف مكوناته. إن ما يحدث هنا هو في جوهره استبدال بين العناصر النحوية (الرتبة والصيغة والوظيفة)، وليس استبدالا بين العناصر المعجمية.

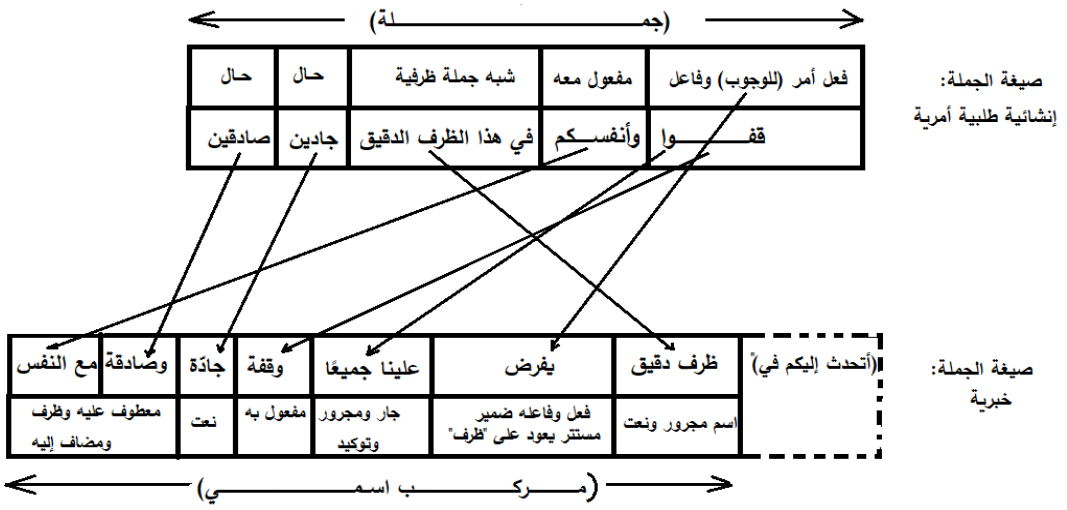

الشكل (3) استعارة نحوية في رتبة التركيب وصيغته ووظائف مكوناته

أتاح التعبير في المقتطف (1) بالصيغة الخبرية عن الأمر التصريحَ معجميا بأن الأمر إلزامي بكلمة (يفرض) التي أفسحت أيضًا مجالا للإسناد الاستعاري الذي يجعل "الظرف" هو المُلزِم، والذي

يخفف هو والصيغة الخبرية من حدة الصيغة الأمرية المباشرة ومن حدة الاتهام الذي ستسوقه الجملة. ويسهم في هذا التخفيف أيضًا أن أدخل المتكلم نفسه تحت قهر "الظرف الدقيق" متلاحمًا والمخاطبين. يبدو الأثر البلاغي جليًّا إن وُضع مكان "علينا" "عليكم" تارة، و"عليَّ" تارة أخرى، هذا التفكيك لضمير الجمع يسائل ادعاء التلاحم والتضامن ـ والمقام مقام خصومة ـ وادعاء الإنصاف؛ إذ الجميع سواسية في الاتهام ضمنيًّا بعدم الجد وعدم الصدق وعدم سلامة القصد وعدم مراعاة مصلحة الوطن، أمام قوة "الظرف الدقيق" الذي يفرض عليهم مراجعة أنفسهم.

إن الموقف السياسي للخطب الثلاثة هو موقف خصومة سياسية بين متظاهرين وحاكم، بصرف النظر عن تحديد من المصيب ومن المخطئ، فاستعمال ضمير الجمع للتضامن والاتحاد في هذا الموقف المحتدم لا يبدو طبيعيا لا سيما حال كون الخطب الثلاثة نفسها تفكك هذه الوحدة بعدئذٍ في مواضع منها حيث تصبح الاتهامات السابقة من نصيب المعارضين وحدهم، دون أن يُسند إلى الرئيس أي تقصير في أي وقت من فترة رئاسته، فعلى سبيل المثال، توخي "صالح الوطن" الذي يفرضه الظرف الدقيق في الجملة الاستهلالية من الخطبة الأولى على الرئيس والمواطنين على حد سواء، سيصير هذا التوخي ـ في الخطب الثلاثة ـ مطلوبا من الشعب أن يحققه، وإنجازا للرئيس قد حققه، قارن مجموعتي المقتطفات (4)، (5) التالية:

> **(4) "إنني أهيب بشبابنا وبكل مصري ومصرية مراعاة صالح الوطن" (خ1) " يتعين أن يتعامل معه شعبنا، وقواتنا المسلحة، بأقصى قدر من الحكمة والحرص على مصالح مصر وأبنائها" (خ2)**
>
> **(5) "هو وطني ... دافعت عن أرضه وسيادته ومصالحه" (خ2) "أعلنت تمسكي ... بمسؤوليتي في حماية الدستور ومصالح الشعب حتى يتم تسليم السلطة" (خ3)**

تتدرج الخطب الثلاثة في اتهام المتظاهرين من التلويح إلى التصريح بدءا من الاتهام بتحوُّل طبيعة التظاهرات وأهدافها، كما في المقتطف (6) التالي، انتهاءً باتهامهم بالتورط في أحداث عنف سعت لقلب نظام الحكم، إذ "سرعان ما استغلهم من سعى لإشاعة الفوضى واللجوء إلى العنف والمواجهة وللقفز عن الشرعية الدستورية والانقضاض عليها" (خ2).

(6) "... كان ذلك واضحا في تعامل قوات الشرطة مع شبابنا. فقد بادَرَت إلى حمايتهم... قبل أن تتحول هذه التظاهرات لأعمال شغب تهدد النظام العام وتعيق الحياة اليومية للمواطنين[31]" (خ1)

يحسن التوقف قليلا عند جملة "تتحول هذه التظاهرات لأعمال شغب" في المقتطف (6) السابق؛ لأنها تمثل استعارة نحوية بالنسبة إلى النحو الوظيفي، وإن بدت تعبيرا حقيقيًّا بالنسبة للبلاغة العربية. والاستعارة فيها تكمن في تمثيل تتابع فعلين بالجملة البسيطة: تحوَّلَ فعلُ (التظاهر) إلى فعل (شغب) بدلا من جملتين بسيطتين تجمعهما جملة مركبة، وبعد تحويل الأفعال إلى مصادر صارت هي نفسها جاهزة لاحتلال موقع الفاعلية الاستعارية للفعلين "تهدد" و"تعيق". هذا التمثيل الاستعاري ـ وإن ترك المسؤولية عن أعمال الشغب مبهمة الفاعل غير مسندة صراحةً للمتظاهرين من ناحية، فإنه قد جعل "أعمال الشغب" صورة محوَّلة عن "التظاهرات" المسؤول عنها المتظاهرون. بعبارة أخرى، صار التحول الذي هو صفة تصيب المواد صفةً للأحداث.

عودًا على بدء، فقد جرى تخفيف حدة الاتهام والتعنيف المباشر في المقتطف (1) ـ دون أن تفقد الصيغة طبيعتها الأمريّة أو موقفية الإلزام ـ بالوسائل البلاغية التالية:

(أ) العدول عن صيغة الأمر إلى الخبر.

(ب) إسناد "الفرض" استعاريا إلى غير فاعله "المنطقي".

(ت) إدخال المتكلم نفسه في زمرة المُلزَمين، بقوله "علينا جميعا" باستعمال الضمير "نا"[32].

(ث) استعمال المصادر بدلا من أفعال الأمر التي قد تستلزم جعل المخاطبين فاعلا صريحا.

2.1.2.المقتطف (2) مغالطة الثنائية والتخيير الوهمي:

(2) "إن أحداث الأيام القليلة الماضية تفرض علينا جميعا شعبا وقيادة الاختيار ما بين الفوضى والاستقرار" (خ2).

يتطابق تحليل الموقفية والاستعارة هنا مع سابقه في المقتطف (1)، غير أن هذا المقتطف يذهب خطوة أبعد؛ فلا يجعل الأحداث هي الفاعل القاهر الذي يستوي أمام سلطانه الشعب وقائده، والذي يُلزِم الجميع بفعل بعينه هو "الاختيار"، بل يتعدى ذلك فيحصر الاختيارات في اختيارين متضادين، أحدهما

مرفوض قطعًا، وهو "الفوضى"، ومن ثم تؤول الثنائية التحكميّة إلى الوحدة، ويفقد الاختيار جوهره: التعدد. تتعاون هنا الموقفية والاستعارة على دعم المغالطة العقلية التي تحاول الإقناع بتقبُّل مسار حتمي من خلال تقييد أفق التفكير وحصر إمكانات الموقف واستبعاد التفاوض السياسي.

إن المعنى المقدَّم في المقتطف (2) المنتمي إلى الخطبة الثانية قد سبق تقديمه في إطار استعاري في الخطبة الأولى قبل أن يتأجج الخلاف (انظر المقتطف (7) التالي) وقُدِّم دون احتشاد له بمغالطة عقلية أو بموقفية إلزام، والحرية والاستقرار في المقتطفين (2) و(7) مرتبطان بمواصلة ما كان قائما قبل التظاهرات (كما سيأتي بيانه).

(7) "**إن خيطا رفيعا يفصل بين الحرية والفوضى**" (خ1).

3.1.2. المقتطف (3) الاستعارات دروع للهويات الاجتماعية:

(3) "**واقتناعا من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها، تفرض علينا جميعا تغليب المصلحة العليا للوطن... فقد رأيت تفويض نائب رئيس الجمهورية...**" (خ3)

لمرة ثالثة ترد الموقفية نفسها والاستعارة نفسها لتؤديا وظيفة جديدة، هي الحفاظ على الصورة الشخصية للحاكم عزيزا كريمًا. تقوم استعارة "اللحظة الفارقة" التي تفرض سلطانها على الجميع بتلك الوظيفة، بعد أن تعقّد الموقف وأخفق الخطاب والفعل السياسيان في تحقيق أهدافهما، فلم يعد ممكنا أن يخرج الرئيس فيعلن أن قرار التفويض اختيار حر تمامًا منه، وليس سهلا أن يتخلى عن كبريائه فيخرج مُعلنًا إذعانه لمطالب الشباب الذين نادوا برحيله. تقدم الاستعارة هنا مخرجا أنيقًا بمعونة عبارة "علينا جميعا" التي تؤكد أن الجميع سواسية أمام سلطان "اللحظة الفارقة"، فهي التي فرضت على الرئيس التفويض، وهي التي تفرض على الشعب القبول. فلو قال: (تفرض ***علـيّ*** تغليب المصلحة العليا للوطن) بالإفراد، لفتح الباب لخصومه أن يقولوا: (بل نحن من فرض عليك ذلك). وفي الوقت نفسه، تبقى للاستعارة قوة الصيغة الأمرية: (غلِّبوا المصلحة العليا للوطن مثلي).

بعد هذا "الفرض" الاستعاري الذي مارسته "اللحظة الفارقة" على الجميع، تعود الخطبة لتعطي الرئيس الفاعلية والرؤية الحرة التي نتجت (كما يوحي المفعول لأجله والفاء الدالة على الترتيب) عن

اقتناع: "واقتناعًا .....فقد رأيت تفويضَ ...". تجدر هنا ملاحظة أن "اقتناعا" و"رأيت" عنصرا موقفية يمكن التخلي عنهما ليقال: "فوَّضت" مكان "رأيت تفويضَ"؛ لكنهما ضروريان لأنهما يبرزان إرادة المتكلم وأن القرار كان داخليا لم يفرضه عليه أحد. وربما يتضح بهذا تعاون الاستعارة والموقفية لأداء تلك الوظيفة.

4.1.2. الموقفية غير الذاتية مُشهَرة في وجه الخصوم:

لعله قد اتضح من خلال ما سبق بعض إمكانات تنويع الموقفية حسب الوظائف التي ينشد المتكلم تحقيقها. إن لدى المتكلم طرقًا عديدة للتعبير عن رأيه أو وجهة نظره صراحةً، أو لادعاء الموضوعية وإخفاء حقيقة أنه يعبر عن ذلك[33]. أضاف البحث قسمًا جديدا لتقسيم هاليداي هو تقسيم الموقفية حسب عزوها، أينسبها المتكلم إلى نفسه أم إلى غيره؟ أعلى جهة الاستقلال بها ينسبها إلى نفسه أم على جهة الاشتراك وغيره؟ وعرض البحث نماذج لموقفيات (غير ذاتية) نسبها الرئيس إلى غيره، من الظروف والأحداث على جهة الاستعارة. في هذا القسم يتناول البحث موقفيات (غير ذاتية) أيضًا، ولكن ينسبها الرئيس إلى غيره، من الشعب على جهة الحقيقة. يرتكز تقسيم الموقفية بحسب العزو على أفكار منها فكرة الشهادة: حين تقع خصومة اجتماعية بين طرفين، تكون شهادة أحدهما لنفسه في الغالب غير معتبرة وتعد غير محايدة، وأقوى منها أن يشهد له من يُعتد بهم، وأقوى من هذه شهادة خصومه له. يُقدِّم المقتطفان (8) و(9) مثالين لموقفية: حكم (موقف من قضية)، مرتفعة، صريحة، غير ذاتية، في حيز حقيقي.

(8) "ويعلم الشعب الظروف العصيبة التي تحملت فيها المسؤولية وما قدمته للوطن حربا وسلاما" (خ2)

(9) "أثق أن الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب يعرفون من هو حسني مبارك، ويحز في نفسي ما ألاقيه اليوم من بعض بني وطني" (خ3)

على الرغم من الاتفاق في تحليل الموقفية في المقتطفين السابقين، ثمة فرق بينهما في الدرجة والوظيفة: فالمقتطف (8) يسند العلم إلى الشعب كله، ممثِّلًا إياه في صورة جمع متجانس، وعلى جهة الالتفات البلاغي من المخاطبين: "أنتم تعلمون" إلى الغائب، في سياق الفخر والإدلال بالإنجازات. تتعاون هنا الموقفية غير الذاتية والالتفات لتأكيد الحياديّة والصدق. أما المقتطف (9) من الخطبة الثالثة الأخيرة،

حيث اشتدت الأزمة السياسية، فيزيد على الموقفية غير الذاتية "يعرفون" والالتفات عن ضمير المتكلم "أنا" إلى اسم العلم المجرد من اللقب السياسي الذي يحكم طبيعة العلاقة بين الشعب وقائده (قارن ما في المقتطف بالبدائل الأخرى التي تحقق الالتفات أيضًا، مثل: الرئيس حسني مبارك، الرئيس، رئيس مصر، رئيسهم ...) . يزيد على كل ما سبق احتضانه في إطار موقفية ذاتية مرتفعة صريحة "أثق أن ...". تقوم الموقفية والالتفات في هذا السياق بوظيفة أساسية مختلفة، هي الدفاع عن هوية الرئيس التي تتعرض للانتقاد، وجدير بالملاحظة هنا أن الموقفية ليست مسندة إلى الشعب كله، على سبيل الاستغراق، كما في المقتطف (8)؛ فقد جرى إقصاء فئة المعارضين وتقليلهم، ومثَّلهم الخطاب على أنهم أقليَّة ضئيلة من أبناء الشعب الذين هم بدورهم جزء من الشعب. هذا التمييز الذي "صنعه" التمثيل السابق لهوية المعارضين يضفي من جهة شرعية على الرئيس الذي يشهد له الجميع "تقريبًا" ويحرض من جهة أخرى مَن مثَّلهم على أنهم "الأغلبية الكاسحة" ضد الأقليَّة الضئيلة[34].

2.2. تناقضات الخطاب وفاعلية الأقدار والزمن:

يُحلِّل هذا القسم تمثيل الموقفية لمسألة الإرادة: متى تتجلى صريحةً معلنة عن نفسها؟ ومتى تشحب ضمنيةً متوارية خلف أردية الاستعارة؟ ولماذا؟ وتبدو المفارقة في تمثيل الموقفين بين حالتين: **الحالة الأولى** هي موقفية الإرادة الحرة المؤكدة في مسألة عدم الترشح للرئاسة، في الخطبتين الثانية والثالثة، كما في المقتطف (10) (حيث موقفية فِعل، مؤكدة، مرتفعة دالة على الدوام، صريحة، ذاتية) والمقتطف (12) و(13).

(10) " **إنني لم أكن يوما طالب سلطة أو جاه**" **(خ2).**

وهو قول يناقض وقائع تاريخية مؤكدة هي تقدمه الدوري للترشح للرئاسة طوال فترات حكمه، ولعل إدراك هذا التناقض هو ما جعل الخطبة التالية الثالثة تعدل عن إطلاق كلمة "سلطة" إلى تقييدها بالوصف المقدَّر "زائفة"، وتستغني عن كلمة "جاه" لن يُستساغ وصفها بالزيف في تلك الحالة، حيث تقول:

(11) "**لم أسع يوما لسلطة أو شعبية زائفة**" **(خ3).**

(12) "**وأقول بكل الصدق وبصرف النظر عن الظرف الراهن إني لم أكن أنتوي الترشح لفترة رئاسية جديدة**" **(خ2).**

(13) "**لقد أعلنت بعبارات لا تحتمل الجدل أو التأويل عدم ترشيحي للانتخابات الرئاسية المقبلة**" **(خ3).**

في مقابل هذه الإرادة الحرة الصريحة المؤكدة تقع **الحالة الثانية** المناقضة رغم اتحاد الموضوع موضوع الترشح للرئاسة، حيث كانت الموقفية ـ في المقتطف (14) من الخطبة الأولى ـ موقفية فِعل، صريحة، غير ذاتية، غير مؤكدة، وغياب التأكيد ملائم لمجازية العبارة؛ فموقفية الإرادة معبَّر عنها استعاريًّا.

(14) "لا أتحدث إليكم اليوم كرئيس للجمهورية فحسب، وإنما كمصري، شاءت الأقدار أن يتحمل مسؤولية هذا الوطن" (خ1) (قارن بـ: شِئتُ أن أحمل...).

وأمام الفاعلية الاستعارية للأقدار تتلاشى حرية الاختيار، فالإرادة البشرية، فالمسؤولية الاجتماعية أمام المجتمع والقانون. في ضوء هذا التحليل لموقفية الإرادة، أفسِّر هنا وظيفة الالتفات من ضمير المتكلم (أتحمل) إلى ضمير الغائب (يتحمل) بهدف المبالغة في إخفاء أي فاعلية للذات والمبالغة في إضعاف موقفية الإرادة، ويعضد هذا الإضعاف اختيار الفعل المطاوع "يتحمل" وليس "يحمل": أي أنه حُمِّلها فتحملها. معنى هذا أن الموقفية والالتفات وفعل المطاوعة تتجاوب هنا وتتعاضد لأداء وظيفة واحدة. وقد فسر عماد عبد اللطيف هذا الالتفات بأنه يُكسب "السارد درجة من المصداقية التي يحوزها عادة مَن يصف مِن موقع الشاهد، ويقيم مسافة نصية بين ذات الموصوف (هو) وذات المتكلم (أنا)؛ بما يقلل من خطورة اتهامه بالتفاخر"[35].

مما يحسن تأمله أن الفاعلية الاستعارية هنا للأقدار وليس "للظرف الدقيق" ولا "للحظة الفارقة" كما رأينا آنفًا؛ لأن الاستعارة هنا مغلفة بمغالطة دينية. نحن لا نعرف أقدارانا إلا بعد أن نختار بإرادتنا أفعالنا، فنعلم حينئذٍ (بعد أن يدخل فعلُنا حيز الماضي) أنه قدر، وأنه كان سيقع لا محالة. ولو سلَّمنا بتلك المغالطة لما كان معنى لأن يعاقب القانون شخصًا على جرم ارتكبه، ولا معنى لمكافأة محسن على صنيعه أيضا.

من المفترض في دولة المؤسسات، إن وقعت خصومة بين الرئيس والشعب، أن يدعو الرئيس شعبه إلى الاحتكام إلى الدستور والقانون، ويكون القضاء هو الحاكم بينهما. إن صحت تلك المقدمة، فينبغي النظر في الفاعلية الاستعارية للتاريخ في المقتطف (15) التالي:

(15) "وسيحكم التاريخُ عليّ وعلى غيري بما لنا أو علينا" (خ2)

لا يصل التحليل الاستعاري في النحو الوظيفي ولا في البلاغة العربية إلى روح هذا التعبير ومقصده، حيث سيُردّ إلى تعبير حقيقي مثل: (سيظهر للناس مما سيقع مَن منا المصيب ومن المخطئ)، لكن البلاغة العربية تتميز هنا بقدرتها على استكناه دقائق هذا التعبير من زاوية أخرى. فهذا الأسلوب يُعرف فيها بـ "التعريض للإنصاف" ويستعمله المتكلم وهو يرى أن كِفة الحق والخير كفتُه وأن المخاطَب على عكس ذلك، وإن كان ظاهر الكلام هو الشك. ومن أمثلته قوله تعالى على لسان نبيه المصطفى: (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين)[36]. وقول حسان رضي الله عنه لمن هجا النبي:

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخيركما الفداء[37]

ويتضح في المقتطف السابق أثر الاستعارة وتمثيل المخاطبين بـ"غيري" في إحداث تعميم وتجريد، فلم تعد الجملة وثيقة الصلة بخصومة سياسية بعينها وفئات اجتماعية بأعينها، بل صارت صالحة لتقال في كل منازعة لا تحتكم إلى القضاء، بل صالحة لغير مواطن المنازعة. وستبدو تلك الوظيفة أوضح في القسم التالي.

3.2. من حِكَم الساسة: الاستعارة النحوية مصدر تعميم وتجريد

(16) "فالأخطاء واردة في أي نظام سياسي وفي أي دولة، لكن المهم هو الاعتراف بها وتصحيحها في أسرع وقت ومحاسبة مرتكبيها" (خ3).

من أين يكتسب المقتطف السابق كل هذا التعميم والتجريد؟ إنه يصلح لأن يقوله كل سياسي في كل أزمة. حين يُنظر إلى الجملة الاسمية "الأخطاء واردة" بعين البلاغة العربية تبدو تعبيرا حقيقيا[38] والورود فيها معناه احتمال الوقوع، لكن التحليل الوظيفي يرى فيها استعارة نحوية: وقع فيها تحويل اسمي، استُعمل فيها قسم نحوي هو المصدر(الأخطاء) مكان قسم آخر هو الفعل الماضي (أخطأ)، والدليل على استعاريتها أن:

1- الأخطاء مصدر دال على الحدوث، له فعل يقتضي فاعلا منطقيا غير مذكور في الجملة.

2- والخبر النحوي: "واردة" هو في حقيقته عنصر دال على الموقفية معناه احتمال الوقوع. (قارن بـ: *من الوارد أو المحتَمل* أن يُخطئ فلان –*يُحتمل* أن يُخطئ فلان).

فالتفسير النحوي الوظيفي هنا هو استعارة قسم نحوي للتعبير عن معنى قسم آخر. لاحظ أنه عند استعمال المصدر مكان الفعل، تُفقد الدلالة على الزمن، ومن ثم عند بناء البديل الحقيقي لا نستطيع في

بعض الأحيان أن نجزم بأنه الفعل الماضي أو المضارع. وهذا التحويل الاسمي يصاحبه استعارة تركيب مكان تركيب آخر: نمط وصفي مكان نمط فعلي، وهذه استعارة تمثيل[39]:

الأخطاء واردة. (س (صفته) ص: جملة تدل على الوصف).

أخطأ "فلان" بفعل "كذا" (فعل + فاعل: جملة تدل على فعل يحدث في الواقع).

وهذا التمثيل يتجاهل أن الواقعة هي عملية فعل، فيقدم الفعل في صورة المصدر كما لو كان اسم ذات أو اسم معنى غير دال على الحدوث كالذكاء والجَمال، وهذا الإجراء يختزل عنصر الزمن والمشاركين في عملية الفعل والجهة، فيضفي على العملية طابع الثبات الذي تمتاز به الجمل العلاقية (الخالية من الفعل التي تدل على علاقة بين طرفيها). هنا فرق شاسع بين أن تُقدّم الأخطاء على حقيقتها بوصفه فعلا اجتماعيا لابد له من فاعل اجتماعي يتحمل مسؤوليتها ويُعاقب عليها، وأن تقدم في هذه الصياغة الوصفية "الأخطاء واردة" كما لو كانت من الأمثال والأقوال السائرة. من الجدير بالملاحظة في هذا السياق أن الرئيس لم يقر بأنه أخطأ أو قصَّر في عمله في هذه الخطب الثلاثة في أي وقت من رئاسته الثلاثينية ولو خطأ واحدا، مع استفاضته ـ في المقابل ـ في ذكر إنجازاته. ويُقاس على ذلك التحويل الاسمي في "الاعتراف" و"تصحيحها". ما الأخطاء؟ ومن المخطئ؟ ومن المتضرر؟ ومن سيعترف؟ ومن سيُصحح؟ ومن سيحاسب؟

4.2. الاستعارة الكبرى وروافدها الجزئية: الإلحاح على الاستمرارية

في الخطب الثلاثة استعارة كبرى تصور "حكم الرئيس مسيرة" ناجحة آمنة مستقرة يجب أن تستمر، ويجب "استعادة أمن واستقرار الوطن"[40]. وتمثل ما رآه المتظاهرون ثورة (وعبرت عنه الخطب الثلاثة بمفردات التظاهر) على أنه ظرف عابر، وتصور كل ما يطلبه المحتجون على أنه "المزيد" مما هو قائم، فلا يجعل الرئيس المطالب هي إنجازاته فحسب[41] بل يرى أن حل الأزمة هو الاستمرار على "الطريق". ومن ثم فأهداف المتظاهرين ـ كما تُمثلها الخطبُ ـ هي الدعوة إلى "التغيير إلى الأفضل" (خ3)، وليس إلى تصحيح خطإ أو إيجاد معدوم أو إزالة موجود، بل إلى الانتقال من جيد إلى أجود مثل "تحسين مستوى المعيشة" (خ1). ومن ثم فمطالبهم "تطلعات مشروعة *لمزيد* من الديموقراطية *والمزيد* من الإسراع في جهود محاصرة البطالة"(خ1)، و"مطالب عادلة ومشروعة" (خ3). في داخل هذه الاستعارة الكبرى ثمة استعارات صغرى جزئية منها: استعارات الطريق (حيث الحكم مسيرة في طريق والتظاهرات

"مفترق" أو "ظرف دقيق" أو "لحظة فارقة" لا يصح استمرارها ويجب الخروج منها)، واستعارات الخطوات والمضي والاجتياز ووضع الأقدام وبر الأمان...إلخ. كما في المقتطفات (17) و(18) و(19) التالية التي تُلح بالاستعارة والتكرار اللفظي والمعنوي على فكرة ضرورة الاستمرار في المسار الذي يرسمه الخطاب.

(17) "... أتاحتها خطوات الإصلاح... وحرصت على ضبط سياسات الحكومة للإصلاح الاقتصادي كي لا تمضي بأسرع مما يحتمله أبناء الشعب ... اجتزنا معًا من قبل أوقاتًا صعبة ... عندما عرفنا طريقنا ووجهتنا وحددنا ما نسعى إليه من أهداف. إن طريق الإصلاح الذي اخترناه لا رجوع عنه أو ارتداد إلى الوراء. سنمضي عليه بخطوات جديدة تؤكد ... خطوات جديدة نحو ... خطوات جديدة لمحاصرة البطالة ... وخطوات جديدة للوقوف إلى جانب الفقراء ومحدودي الدخل. وليس أمامنا من سبيل لتحقيقها سوى بالوعي والعمل... حفظ الله مصر وشعبها وسدد على الطريق خطانا "(خ1)

(18) "لقد طرحت رؤية محددة للخروج من الأزمة الراهنة ... طرحت هذه الرؤية ملتزما بمسؤوليتي في الخروج بالوطن من هذه الأوقات العصيبة. وأتابع المضي في تحقيقها ... يضع أقدامنا على بداية الطريق الصحيح للخروج من الأزمة ويتعين مواصلته للانتقال به من الخطوط العريضة لما تم الاتفاق عليه إلى خريطة طريق واضحة ... تمضي يوما بعد يوم على طريق الانتقال السلمي للسلطة" (خ3)

(19) "إن مصر تجتاز أوقاتا صعبة لا يصح أن نسمح باستمرارها ... وعلينا أن نواصل الحوار الوطني الذي بدأناه ... كي نتجاوز بمصر أزمتها الراهنة ... إنني إذ أعي تمامًا خطورة المفترق الصعب الحالي واقتناعا من جانبي بأن مصر تجتاز لحظة فارقة في تاريخها ... حتى نبلغ بمصر وشعبها بر الأمان" (خ3)

(20) "إن اقتناعي ثابت لا يتزعزع بمواصلة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي" (خ1)

يحسن قبل الانتقال إلى القسم التالي التوقف عند المقتطف (20) السابق؛ لأهميته في بيان الفروق بين الأطر التحليلية في التقاط الظواهر اللغوية. ربما يركز التحليل البلاغي العربي على التوكيد[42] بـ "إن" وتنزيل المخاطبين منزلة الشاكّين بل المنكرين لأهمية مواصلة الإصلاح، وعلى ما تصنعه الاستعارة المكنية في "ثابت" و "لا يتزعزع" من تصوير ومبالغة حيث جرى تجسيد الاقتناع وتصويره راسخًا. وسيتميز عن التحليل الوظيفي ببيان الفروق الدلالية بين البدائل المعجمية الأخرى التي تُبرز خصوصية الاستعارة هنا. في المقابل، قد يقرأ التحليل النحوي الوظيفي هذه الاستعارة على أنها استعارة جملة وصفية "اقتناعي ثابت" مكان جملة فعل نفسي "اقتنعت بـ..."، مع تحويل اسمي في "اقتناعي" و"مواصلة"، وربما أشار إلى ارتباط الاقتناع بالأفكار والعزيمة بالأفعال، وأن الأصل "إني عازم كل العزم أن أواصل..." ومن ثم فدرجة الالتزام والتعهد في جملة النص أقل، وربما أشار التحليل إلى المفارقة بين الارتفاع الحاد في درجة الموقفية من ناحية وكون القضية الواقعة في حيز هذه الموقفية: "مواصلة الإصلاح" مما لا يرفضه أحد، من ناحية أخرى. لكن، يبدو ـ على أية حال ـ أن التحليلين لا يصيبان ما تصيبه التداولية من طريق أقصر؛ فمركز هذا التمثيل اللغوي والمناورة السياسية هو كلمة "مواصلة" التي تفترض سلفًا (presupposed) أن "الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي" موجود بالفعل. ومن ثم تتجاوب مع تمثيلات الخطاب السابقة كلها في "التغيير إلى الأفضل" و"المزيد" واستعارات الطريق.

5.2. موقفية اليقين ومفارقات صناعة المستقبل:

في مقابِل (الترهيب من مستقبل) الثورة في الخطبة الأولى، يأتي (الترغيب في مستقبل) السير على الرؤية التي طرحها الرئيس "للخروج من الأزمة" في ذيل الخطبة الثالثة الذي يُمثل بكتلته النصية سدس الخطبة تقريبا، ولا ترد فيه مفردة "مستقبل" أو "غد"، ولكن يتوالى فيه 19 فعلا دالا على المستقبل. يُحاجّ البحث هنا بأن ثمة مفارقة في تمثيلات المستقبل في هذا الجزء، للبرهنة على ذلك ينبغي التمهيد ببيان أن موقفية احتمال الوقوع تتدرج من أعلى درجاتها حيث "اليقين" إلى أدناها حيث "الشك" وأن المُحلِّل للنص يتوقع أن ترتبط موقفية اليقين بالحديث عن الماضي المؤكد بانقضائه أو الحاضر المعيش الممازج للحواس أو بالشرط كما في النص القرآني (لو تعلمون علم اليقين)[43] الذي تتناص معه جملة المقتطف (21) مع استبعادها أداة الشرط الدالة على الامتناع. في ضوء هذا، تنبع المفارقة من اقتران موقفية اليقين بالكلام عن المستقبل، وتتعاظم حين يبلغ اليقين أقصاه باستعمال أداة التوكيد "إن" والمفعول المطلق المؤكِّد وكلمة "اليقين" نفسها، فيبدأ ذيل الخطبة الثالثة كما يلي:

(21) "إنني أعلم علم اليقين أن مصر ستتجاوز أزمتها. لن تنكسر إرادة شعبها ستقف على أقدامها من جديد بصدق وإخلاص أبنائها كل أبنائها وسترد كيد الكائدين وشماتة الشامتين. سنثبت نحن المصريين قدرتنا على تحقيق مطالب الشعب بالحوار المتحضر والواعي، سنثبت أننا ... سنثبت ذلك... ستعيش هذه الروح فينا... ستعيش في كل واحد من فلاحينا ... ستبقى في قلوب شيوخنا ... وفي عقول وضمائر من لم يولد بعد من أبنائنا... وستظل مصر هي الباقية ... ستبقى حتى أسلم أمانتها... ستظل بلدا عزيزًا لا يفارقني أو أفارقه حتى يواريني ترابه وثراه، وستظل شعبًا كريمًا يبقى أبد الدهر ..." (خ3).

تصير مفارقة اليقين من المبالغة إلى الغرابة حين يُتجاوز استشراف مستقبل أبناء الجيل القائم إلى استشراف مستقبل أبنائهم ممن "لم يولد بعد" وما زال في رحم الغيب. يجدر هنا الالتفات إلى أن ذيل الخطبة الثالثة لا يتكلم عن ماض أو حاضر، حيث يسهل حينئذٍ مقارنة النص بالواقع الخارجي؛ ليعرف المُحلِّل: أيقوم النص بتمثيل ما هو خارجه تمثيلا انعكاسيا مباشرا أمينا[44] أم يقوم باختلاق ماض وحاضر يوافق أيديولوجياته؟ إن ما يحدث في المقتطف هو صناعة خالصة للمستقبل بما يوافق أهداف الخطبة وأيدولوجيتها. تتأكد المفارقة بمقارنة هذا العلم اليقيني بما سيحدث في تلك الحالة وما سبق في الخطبة الأولى في سياق التخويف من نتائج التظاهرات، كما في المقتطف (22):

(22) "أتمسك ... بعدم الانجراف بها وبشعبها لمنزلقات خطيرة تهدد النظام العام والسلام الاجتماعي ولا يعلم أحد مداها وتداعياتها على حاضر الوطن ومستقبله" (خ1)

6.2. صناعة الخوف وسلب الفاعلية:

في مقابل ما عرضه البحث في القسم السابق من صياغة الخطبة الثالثة للمستقبل بيقين من الرئيس وبفاعلية وإرادة من الشعب ـ صِيغت الموقفية في المقتطفين (23) و(24) من الخطبة الأولى ـ في سياق التخويف من مستقبل التظاهرات ـ بيقين من الرئيس ومفعولية وغياب إرادة من الشعب:

(23) "إن أحداث اليوم والأيام القليلة الماضية ألقت في قلوب الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب الخوف على مصر ومستقبلها، .... لن أسمح بذلك أبدا، لن أسمح لهذا الخوف أن يستحوذ على مواطنينا" (خ1)

وهذا الخوف الذي قُدِّم هنا بوصفه "مفعولا" لفاعل استعاري آخر هو "أحداث اليوم والأيام القليلة الماضية" ثم قُدم ثانيا بوصفه مُهدِّدا بالسيطرة على المواطنين ـ يُعاد صناعته في الخطبة الثانية استعاريا أيضا مع تكثيف انفعالي لإثارة المشاعر وزعزعة أمن النفوس:

(24) "نعيش معا أياما مؤلمة. وأكثر ما يوجع قلوبنا هو الخوف الذي انْتاب الأغلبية الكاسحة من المصريين وما ساورهم من انزعاج وقلق وهواجس حول ما سيأتي به الغد لهم ولذويهم وعائلاتهم ومستقبل ومصير بلدهم" (خ2)

ويتحقق هذا التكثيف الانفعالي والتهويل بالوسائل التالية:

أ- الألفاظ التي تنتمي لحقل المشاعر: (مؤلمة، تُوجع، قلوبنا،...)

ب- الترادف وشبه الترادف والتكرار: (انتاب/ساور)، (مؤلمة/ توجع)، (مستقبل/مصير)، (لذويهم/عائلاتهم). في الزوج الأخير الكلمة الثانية تندرج تحت الأولى اشتمالا.

ت- حشد مشاعر سلبية جديدة إلى جانب الخوف الذي ورد وحده في الخطبة الأولى: "انزعاج وقلق وهواجس".

من المهم ابتداء قبل تحليل الاستعارات، ملاحظة كيفية تمثيل الخطبة للشعب أو رسمها للشخصيات بلغة الأدب، إنها تقدمهم هنا بوصفهم "مفعولين" لمشاعر الخوف الذي صار "فاعلا" ولمشاعر الانزعاج والقلق والهواجس التي صارت أيضا فاعلا في المعنى، وبوصفهم "متأثرين" بالغد الذي صار "فاعلا" نشِطًا متحركا يتجه نحو بشر جمَّدهم الخوف في أماكنهم. وكأنهم ليسوا من قُدموا في الخطبة السابقة على أن مصر تتطلع إليهم لـ "يصنعوا مستقبلها" (خ1). وسيقدمون في الخطبة التالية بعد أن تخفق هذه الخطبة في تحقيق أهدافها على أنهم مَن "يحلم بالمستقبل ويصنعه" (خ3). يتضح من هذا دور الاستعارة هنا في بث الخوف في الناس من المستقبل المجهول بسلبهم القوة بوصفهم "فاعلين اجتماعيين[45]". يحسن هنا الانتباه إلى أن هذا الخوف ليس له سلطان على الرئيس[46]، شأنه شأن ظروف المظاهرات التي لا تنال من الرئيس، وإنما تنال من الشعب والوطن.[47]

(25) "أتحدث إليكم في أوقات صعبة تمتحن مصر وشعبها وتكاد أن تنجرف بها وبهم إلى المجهول. يتعرض الوطن لأحداث عصيبة واختبارات قاسية" (خ2). (قارن بـ: تمتحننا... تنجرف بنا... نتعرض)

جدير بالملاحظة هنا أن التنويع باستخدام "الأوقات الصعبة" و"الأحداث العصيبة" و"الاختبارات القاسية" مع تقارب مدلولاتها، واستعارة الألفاظ المشحونة عاطفيًّا مثل: (عصيبة وقاسية) يُحِدث أيضًا تكثيفًا وتهويلا، كما في المقتطف (24) بالوسائل البلاغية نفسها.

7.2. الآمال والوعود المشروطة واستعارة الرتبة النحوية:

يستطيع المتكلم باستعمال التحويل الاسمي أن ينخفض من رتبة الجملة المركبة إلى رتب دنيا، وهذا الانخفاض يعدُّه هاليداي استعارة، حيث تُستعار الرتب الدنيا للتعبير عن المعاني غير المخصصة لها. يقدم الجدول (1) مثالا على الانخفاض من الجملة المركبة إلى المركب الاسمي، يُصاحبه إبهام للعلاقات المنطقية والفاعلية المنطقية والزمن والجهة وغيرها من الدلالات. وتُقدِّم المقتطفات (26) و(27) و(28) نماذج لاستعارة الرتبة.

جدول (1) استعارة نحوية في الرتبة لإحداث إبهام في الدلالات

التركيب النحوي	الرتبة النحوية
متى يلتزم المواطنون بالضرائب، تتوافر الأموال لعمل المشروعات.	جملة مركبة
تتوافر الأموال لعمل المشروعات **وقتَ** التزام المواطنين بالضرائب.	جملة بسيطة
توافُرُ أموالِ المشروعات بالتزام المواطنين بالضرائب ...	مركب اسمي
الالتزامُ بالضرائب الموفِّرُ للأموال...	مركب اسمي

(26) "أكدت مرارا وسوف أظل أن السيادة للشعب، وسوف أتمسك دائما بحقه في ممارسة حرية الرأي والتعبير طالما تم ذلك في إطار الشرعية واحترام القانون" (خ1)

(27) "إن برنامجنا لمحاصرة البطالة وإتاحة المزيد من خدمات التعليم والصحة والإسكان وغيرها للشباب والمواطنين، تظل رهنا بالحفاظ على مصر مستقرة وآمنة وطنا لشعب متحضر وعريق لا يضع مكتسباته وآماله للمستقبل في مهب الريح." (خ1)

(28) "أما الاقتراح بإلغاء المادة 179 من الدستور فإنه يستهدف تحقيق التوازن المطلوب بين حماية الوطن من مخاطر الإرهاب وضمان احترام الحقوق والحريات المدنية للمواطنين بما يفتح الباب أمام إيقاف العمل بقانون الطوارئ فور استعادة الهدوء والاستقرار وتوافر الظروف المواتية لرفع حالة الطوارئ." (خ3)

تعتمد المقتطفات الثلاثة السابقة على التقنية نفسها، لكنها أوضح ما تكون في نموذج الخطبة الثالثة؛ فكل ما تحته خط على طوله هو مركب اسمي (في قوة كلمة واحدة نحويا) يحتوي على ثمانية مصادر: (إيقاف، العمل، فور، استعادة، الهدوء، الاستقرار، توافر، رفع) أربعة منها على الأقل تحتاج إلى فاعل منطقي. وقد تكون الجملة الشرطية المركبة الحقيقية مثل: متى يهدأْ (...) ويستقرْ (...) كما كان، وتتوافرْ الظروفُ المواتية لأن يرفعَ (...) حالةَ الطوارئ، يُوقِفْ (...) حالةَ الطوارئ. ليس غريبا أن تُفرض وتُرفع حالة الطوارئ في الخطب السياسية عامةً بقوة استعارية مثل الأوضاع الأمنية الحرجة والظروف المواتية، فليست هذه هي الإنجازات التي يتصدر فيها الفاعل المنطقي محتلا موقع المبتدإ في صدر جملته. يُلاحظ أنه حين يُجرى بناء البديل الحقيقي الأعلى رتبة تبرز مشكلة أن قسيمه الاستعاري في النص مبهم. إن الخطبة في هذا المركب الاسمي تقوم بتمثيل العالم الاجتماعي بأفعاله وفاعليها الاجتماعيين وأدوارهم ومسؤولياتهم كما لو كان عالما فيزيقيا كالذي في المركب الاسمي (...غليان الماء قُرب الوصول إلى مائة درجة مئوية) لا يُصرَّح بمن سيغليه، ولا يُحتاج إلى معرفته، ولا إشكال في استعمال المصادر مكان أفعالها.

أما في المقتطف (27) فالتحليل البلاغي العربي ـ وإن لم يتغلغل إلى الأصل النحوي الشرطي للمقتطف كله كما سيفعل التحليل الوظيفي ـ فإنه سيكشف عن التصوير في استعارة الرهن لمعنى تعليق شيء على شيء آخر، وخصوصية لفظ "الرهن" لأنه تعليق يثير في النفس الضيق والتوتر وتميل إلى إنهائه بفك الرهن ورد الملكية، وهذه المعاني لا يلتقطها التحليل النحوي الوظيفي؛ لأنها لا تؤثر على البنية التركيبية؛ فالاستعارة النحوية هنا تتحقق بلفظ الرهن ولفظ "مُعلَّقة" وكل لفظ مقارِب دون تفاضل. وسيكشف

التحليل البلاغي العربي أيضًا عن التعريض بالوصف في "شعب متحضر وعريق" احترازًا عن المخاشنة في التوبيخ، وهو على طريقة (المسلم لا يؤذي أخاه) حين تقال لمن يفعل، وهذه ظواهر لصيقة الصلة بالدلالات المعجمية وقد لا ترصدها مجاهر التحليل النحوي الوظيفي.

تبقى مجموعة من الاستعارات في الخطب الثلاثة لم يفصّل البحث القول فيها، بعضها من الاستعارات المستهلَكة في الخطاب السياسي والإعلامي عامةً كاستعارات الحرب، مثل: "محاصرة البطالة... ومكافحة الفقر والتصدي... للفساد" ومنها استعارات مثل: "زعزعة الاستقرار والانقضاض على الشرعية"، واستعارات الانجراف والانتكاس والمنزلقات واستحواذ الخوف[48] ومثل: "اعتلاء موجة هذه التظاهرات والمتاجرة بشعاراتها" (خ1) و"القفز عن الشرعية الدستورية والانقضاض عليها" (خ2). وهذه الاستعارات يرصدها التحليلان النحوي الوظيفي والبلاغي العربي على حد سواء، يراها الأول تحويلات اسمية ويتميز بربطها ببنية نحوية أكبر، ويراها الثاني استعارات مكنية ويتميز ببيان التصوير فيها وخصوصية معجمها.

خاتمة:

قدَّم البحث مفهومي الاستعارة النحوية والموقفية عند هاليداي، وحلَّل من خلالهما الخطب الثلاثة الأخيرة للرئيس المصري حسني مبارك، وناقش خلال ذلك علاقة هذين المفهومين بقضايا الفاعلية النحوية والمنطقية وتمثيل الفاعل الاجتماعي والهويات الاجتماعية في الخطاب. وقد افترض البحث أن ثمة فروقًا بين البلاغة العربية والنحو الوظيفي النظامي في الأسس النظرية والأهداف، وأن استخدامهما منهجيْ تحليل ربما يسفر عن نتائج مختلفة. وتبين أن كلا منهما ـ وإن اتفقا في التقاط كثير من الظواهر ـ يركز على زاوية بعينها من الظاهرة؛ فالبلاغة العربية في تحليل الاستعارة تركز عامةً على الجانب المعجمي. فمثلا، أي فاعل عاقل افتراضي ـ يحل إشكال التوتر الدلالي الذي يصنعه التشخيص أو الاستعارة المكنية ـ يتم به التحليل؛ فقضية التلاؤم المعجمي تأتي في المرتبة الأولى. في المقابل، نجد قضية الفاعل المنطقي قضية أساسية في التحليل الوظيفي النظامي؛ فالفاعلان النحوي والمنطقي يقفان على قدم المساواة، الأول ينتمي لتحليل الجملة بوصفها حدثًا تواصليا، والثاني ينتمي لتحليل الجملة بوصفها تمثيلا للواقع.

كشف تحليل الخطب الثلاثة عن أن بعض ما يُعد استعارة نحوية في التحليل الوظيفي النظامي يُعد تعبيرًا حقيقيا تمامًا في التحليل البلاغي العربي، في حين أن التحليل البلاغي العربي ـ بحكم أنه نابع من دراسة العربية ـ يتميز في إدراك دلالات أساليبها وبيان خصوصية انتقاء ألفاظها. من ناحية أخرى، احتاج نموذج هاليداي للموقفية إلى بعض التعديل ليلائم العربية؛ وهذا طبيعي لأنه موضوع بالإنجليزية لتفسير الإنجليزية.

من اللافت للانتباه أن الخطب الثلاثة على كثرة ما فيها من أمر ونهي وتوجيه، فقد خلت تمامًا من أفعال الأمر وأداة النهي؛ فقد اضطلعت بهذا الدور موقفية الإلزام والاستعارات التي جعلت الظرف واللحظة والأحداث والأقدار فواعل ذات قهر ومشيئة فوق الجميع. ومن اللافت أيضًا أن خلت الخطب الثلاثة من موقفية الشك والظن والتردد تمامًا حتى حين تمثيلها المستقبل تمثيل ترهيب أو ترغيب. فقد اقترن اليقين بالسلطة وبدا الرئيس على يقين وواثقًا وعازمًا.

ما تزال جوانب أخرى من التقدير الموقفي (Modal assessment) بحاجة إلى التأصيل والتحليل، وما يزال النحو الوظيفي النظامي عامةً يحتاج إلى العناية به ـ عرضًا وشرحًا، ومقارنة ونقدا ـ

في دراساتنا اللغوية النظرية والتطبيقية. وما يزال يحتاج إلى كثير من التعديلات الواعية بلغته وأسسه وأهدافه ليلائم العربية. وآمل أن يكون هذا البحث قد ألقى ضوءًا على بعض ما يمكن أن يُسهم به من رؤى واضحة واستبصارات ثاقبة في تطوير أُطر التحليل اللغوي العربي.

الهوامش:

* إبراهيم عبد التواب عبد الفتاح حمزة، قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، مصر.
ibrahim_syntax@yahoo.com

1 فيركلف، نورمان، *تحليل الخطاب: البحث النصي في البحث الاجتماعي*، ترجمة طلال وهبة، مراجعة نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009م. ص ص: 26-27

2 يُستثنى من هذا ما سهُل فهمُه أو قولبته مثل المعايير الخمسة للسبك التي أوردها في كتابه هو ورقية حسن "Cohesion in English" والتي شاعت في الدراسات العربية. والسبك ـ بلا مبالغة ـ لا يتعدى عُشر نحو هاليداي؛ إذ إنه فصل واحد من عشرة فصول تمثل كتاب مقدمة إلى النحو الوظيفي "An introduction to functional grammar" الذي يُعد المرجع الأساسي في نحو هاليداي.

3 الاستعارة النحوية مصطلح خاص بالنحو الوظيفي صاغه هاليداي في كتابه مقدمة إلى النحو الوظيفي " An introduction to functional grammar" أما الموقفية فمصطلح تدرسه علوم كثيرة كاللسانيات وعلمي الاجتماع والفلسفة، ويركز البحث على مفهومها عند هاليداي.

4 Matthiessen, C. M. I. M., Teruya, K. & Lam, M. (2010). *Key terms in systemic functional linguistics*. London and New York: Continuum. P. 109

5 في النحو الوظيفي لدى هاليداي، لا يستقل المستوى التداولي عن المستويين النحوي والدلالي، بخلاف النحو الوظيفي لدى سيمون ديك وأحمد المتوكل.

6 نورمان فيركلف، *تحليل الخطاب: البحث النصي في البحث الاجتماعي*، ترجمة طلال وهبة. ص 390

7 المرجع السابق. ص 398

8 كانت القسمة العقلية توجب وجود قسم ثالث للاستعارة عند هاليداي هو الاستعارة النصية (textual metaphor)، لكنها غير موجودة عنده، وقد اقترحها أحد أتباعه من رواد النحو الوظيفي النظامي هو جيف طومسون، راجع:
Thompson, G. (2014). Introducing functional grammar. 3rd edition. London & New York: Routledge. P. 251

9 أتجنب هنا ترجمتها بـ (التصورية) وإن كانت أدق عندي؛ حتى لا تلتبس بـ (conceptual) التي تترجم إلى تصورية أو مفهومية

10 Matthiessen, C. M. I. M., Teruya, K. & Lam, M. (2010). P. 111

11 البعلبكي، رمزي منير. *معجم المصطلحات اللغوية*، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م.

12 نورمان فيركلوف، تحليل الخطاب: البحث النصي في البحث الاجتماعي، 2009م. هامش ص 104. والعلة في موافقته هي الاجتماع حول ترجمة ما لإشاعتها والابتعاد عن التنوع غير المجدي، وإن كانت الترجمة إلى "الموقفية" ليست وجيهة في ذاتها؛ إذ يعيبها أنها قد تلتبس بترجمة مصطلح آخر من علم لغة النص هو (situationality).

13 Matthiessen, C. M. I. M., Teruya, K. & Lam, M. (2010). P. 141

14 العرض عند هاليداي مقصود به ما يفعله المتكلم وتكون المصلحة والمنفعة فيه للمخاطَب

15 Halliday, M. A. K. (1994). An introduction to functional grammar. (2nd ed.). London: Edward Arnold. P. 88-9

16 سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1988م، ج، ص ص: 119-120.

17 الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. *أسرار البلاغة*، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط1، 1991م.
ص326.

18 المتوكل، أحمد. *قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي – التركيبي*، دار الأمان، الرباط، 1996 م.
ص35.

19 المتوكل، أحمد. *المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد*، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2006م.
ص25.

20 Halliday، M. A. K., & Matthiessen, C. M. I. M. (2004). An introduction to functional grammar. (3rd ed.). London: Hodder Education. P. 613. Matthiessen, C. M. I. M., Teruya, K. & Lam, M. (2010). P. 141.

21 إفيتش، ميلكا. *اتجاهات البحث اللساني*، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م. ص224.

22 يقسِّم هاليداي التعبيرات الدالة على الموقفية بحسب بروز وجهة نظر المتكلم مما يقوله إلى قسمين: شخصية (مثل: أؤكد لكم...) وموضوعية، (مثل: بالتأكيد...) وبحسب التحقق النحوي إلى قسمين رئيسين: صريحة، وهي ما عبِّر عنها بالجملة، وضمنية، وهي ما عبر عنها بالفعل المساعد أو الظرف.

23 Halliday، M. A. K., & Matthiessen, C. M. I. M. (2004). P. 619.

24 Halliday, M. A. K., & Matthiessen, C. M. I. M. 2004. P. 135, 619.

25 لاحظ أن النحاة العرب عادة يستعملون مفهوم "الفاعل في المعنى" بوصفه وسيلة لإيضاح التحليل النحوي لا لربط النص بالواقع الخارجي، ويستعملونه في غير باب "الفاعل"، عند الكلام عن التمييز المحوَّل، وعن المفعول الأول للفعل الناصب لمفعولين، وعن أفعل التفضيل والتعجب، وفي هذه المواضع لا يكون "الفاعل في المعنى" فاعلا نحويا (فاعلا في الصناعة كما يسميه بعضهم).

26 هذا الهدف يعطيه نقطة قوة بوصفه منهجا للتحليل، ولكنها في ذاتها نقطة ضعف إن نظرنا إليه بوصفه نظرية في "النحو" بالمعنى التقليدي، أي يُنتظر منه تمييز صحيح الجمل من خطئها، ويغدو من هذه الزاوية فقيرا إن طُبق على لغة معربة كالعربية؛ لأنه نحو وُضع (بالإنجليزية) لتحليل (الإنجليزية) وهي غير معربة.

27 الاهتمام بدلالات التراكيب وبمفهوم الاختيار فيهما هو في حقيقته ما يسوغ هنا المقارنة بين نحو وبلاغة.

28 تناول عماد عبد اللطيف التمثيلات الأساسية لهوية الرئيس في الخطب الثلاثة تحت ما أسماه "الوجوه المتغيرة للسياسيين": الرئيس البطل المنقذ، والرئيس الأب، والرئيس المستفَز. عبد اللطيف، عماد، *بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة*، دار التنوير، لبنان، 2013م. ص ص 105–112. وثمة تمثيلات فرعية لهوية الرئيس في الخطب الثلاثة بوصفه مواطنا مصريا، وجنديا من القوات المسلحة، ومقاتلا خاض الحروب، وشابا في العسكرية المصرية.

29 قارن صورة التركيب هنا بصورته في قوله تعالى: (كُتِبَ عليكم الصيام) (البقرة: 183) حيث الأمر بالصيام، و(كتب عليكم) عنصر موقفية للوجوب.

30 يقصد هاليداي بالرتبة (Rank) مقياسا نحويا متدرجا من الكلمة فالمركب الاسمي فأشباه الجمل فالجمل البسيطة إلى الجمل المركبة. وتحوُّل الرتبة هو استبدال أو انتقال من رتبة لأخرى، مثل: استعمال المركب الاسمي (الإقراض المشروط)

أو (الإقراض المشروط بتعديل السياسات) مكان الجملة الاسمية (الإقراض مشروط بتعديل سياسات الدعم والضريبة) أو مكان الجملة المركبة (إنْ تُنفِّذ سياسات الدعم والضريبة، نُقرِضْك)

31 يجدر الانتباه هنا إلى مسألة كيفية تمثيل الخطاب لهوية المتظاهرين كما لو كانوا ليسوا مواطنين، قارن ما جاء في المقتطف بـ (تعيق الحياة اليومية *لغيرهم* من المواطنين).

32 الضمير "نا" يزيد معدل وروده ـ في الخطب الثلاثة ـ على ثلاثة أضعاف معدل ورود ضمير المخاطب، وفقا لإحصاء عبد اللطيف، راجع: ص298

33 Halliday, M.A.K. (1994). P. 355.

34 قدَّم عماد عبد اللطيف تحليلا لتقنيات مدح الذات والانتقاد المستتر للمحتجين ووظائف الوعيد والتهديد والتحريض، في الخطب الثلاثة. راجع: عبد اللطيف، عماد، *حروب بلاغية مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة*. مجلة ألف في البلاغة المقارنة الجامعة الأمريكية بالقاهرة عدد 32، (2012) ص ص: 289–292.

35 عبد اللطيف، عماد، *حروب بلاغية مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة*. ص 295.

36 [سبأ: 24]

37 ابن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان)، البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969 م. ص 111. وقد جعل الرماني هذا الأسلوب من "إخراج الكلام مخرج الشك للمبالغة في العدل والمظاهرة في الحجاج" الرماني، (علي بن عيسى بن علي بن عبد الله) *النكت في إعجاز القرآن*، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م. ص 105. وهو عند السكاكي من تجاهل العارف، أي: "سوق المعلوم مساق غيره لنكتة...كالتعريض" الصعيدي، عبد المتعال، *بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة*، مكتبة الآداب، القاهرة، ط17، 2005م، ج4، ص632. وهو من التعريض بارتكاب الباطل "ويُسمَّى المنصِف؛ لأنه يوجب أن يُنصِف المخاطَب إذا رجع إلى نفسه... ويسمى ـ أيضا ـ استدراجا؛ لاستدراجه الخصم إلى الإذعان والتسليم". الكرماني، شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن سعيد. *تحقيق الفوائد الغياثية*، تحقيق ودراسة: علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، 1424 هـ. 464/1

38 النظر إلى كلمة "واردة" على أنها استعارة ربما يكون فيه تعسف ـ وإن كانت استعارة فهي ميتة ـ فلم يعد أحد يفكر فيها لأول وهلة على أنها مرتبطة بالآبار والماء.

39 استعارة التمثيل (representation) في النحو الوظيفي لا تطابق الاستعارة التمثيلية في البلاغة العربية، وهي أعم منها.

40 من الخطبة الثانية وتتكرر بتعديل طفيف في الخطبة الثالثة أيضا. تجدر الإشارة إلى أن مفردات الأمن والاستقرار هي الأعلى تكرارا في الخطب الثلاثة (من غير أن يضاف إليها ما يقاربها في الدلالة مثل "النظام العام" و"السلام الاجتماعي" و"الهدوء": (مفردات الأمن (14) مرة والاستقرار (13)، والتقارب العددي سببه مجيئها متعاطفة غالبا)؛ فقد جعل الرئيس الأمن والاستقرار هما إنجاز الماضي والهدف الأول للحاضر، على الرغم من أنهما لم يكونا من أهداف المتظاهرين، فلم تُرفع لافتات تطالب بالأمن والاستقرار، بل استطاع المواطنون، تكوين اللجان الشعبية وحفظ الأمن بعد ما هُرب المجرمون لإشاعة الفوضى.

41 فسَّر عماد عبد اللطيف صياغة الخطب للمطالب بما أسماه "الاستلاب الخطابي" وهو "صياغة صورة للسياسات التي يتبناها الرئيس تتطابق مع السياسات المثالية التي يحلم المحتجون بتحقيقها" و"تحول مطالب المحتجين إلى إنجازات للنظام". عبد اللطيف، عماد، *حروب بلاغية مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة*. ص291

42 أشار عماد عبد اللطيف إلى شيوع وسائل التوكيد بوجه عام في خطبة 28 يناير؛ عبد اللطيف، عماد، بلاغة الحرية معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة. ص108

43 [التكاثر: 5]

44 هذا فرض مثالي في الغالب خاصة في الخطب السياسية والاقتصادية، وهو يُستعمل كمقياس فحسب.

45 من أجل شرح واف لمفهوم الفاعلين الاجتماعيين (Social actors) وتصنيفاتهم راجع:
Van Leeuwen, T. (2013). The representation of social actors. In Texts and practices. Routledge. pp. 41-79

46 حلَّل عماد عبد اللطيف دور هذا التمثيل في صياغة صورة الرئيس/البطل المنقذ. راجع عبد اللطيف، عماد، *حروب بلاغية مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة*. ص 305

47 قد يقال إن في هذا إفراطًا في التأويل؛ لأن الرئيس هو فرد من الشعب. والرد على هذا هو أن الاختيار في تلك الحالة يكون بضمير المتكلمين "تمتحننا...تنجرف بنا"، وأن الخطبة نفسها بعد ذلك تؤكد هذا الاستقلال: كما في: "شعبًا وقيادة" وكما ذكر البحث في تحليل الجملة الأولى من الخطبة الأولى.

48 راجع عماد عبد اللطيف لتحليل مفصل لبعض هذه الاستعارات. عبد اللطيف، عماد، *حروب بلاغية مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة* ص ص: 304–305

قائمة **المصادر**:

. الخطبة الأولى: 28 يناير 2011م

https://www.youtube.com/watch?v=L6rMTbxEXvU

. الخطبة الثانية: 1 فبراير 2011م

https://www.youtube.com/watch?v=y4Ty6UuuUL4

. الخطبة الثالثة: 10فبراير 2011م

https://www.youtube.com/watch?v=9_06qCKV3bE

. تاريخ الدخول (2019/2/18)

قائمة المراجع العربية:

. إفيتش، ميلكا. اتجاهات البحث اللساني، ترجمة: سعد عبد العزيز مصلوح، ووفاء كامل فايد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م.

. البعلبكي، رمزي منير. معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، 1990م.

. الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. أسرار البلاغة، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة، ط1، 1991م.

. الرماني، (علي بن عيسى بن علي بن عبد الله). النكت في إعجاز القرآن، مطبوع ضمن: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، ط3، 1976م.

. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط 3، 1988م.

. الصعيدي، عبد المتعال. بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط17، 2005م.

. عبد اللطيف، عماد:

- بلاغة الحرية: معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، دار التنوير، لبنان، 2013م.
- حروب بلاغية: مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة. مجلة ألف في البلاغة المقارنة الجامعة الأمريكية بالقاهرة. عدد 32، 2012م. ص ص: 283-311.

. فيركلف، نورمان. تحليل الخطاب: البحث النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة: طلال وهبة، مراجعة: نجوى نصر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2009م.

. الكرماني، شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن سعيد، تحقيق الفوائد الغياثية، تحقيق ودراسة: علي بن دخيل الله بن عجيان العوفي، مكتبة العلوم والحكم، المملكة العربية السعودية، 1424 هـ.

.المتوكل، أحمد:

- قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية: بنية المكونات أو التمثيل الصرفي – التركيبي، دار الأمان، الرباط، 1996 م.

- المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي: الأصول والامتداد، مكتبة دار الأمان، الرباط، 2006م.

ا. بن وهب (أبو الحسين إسحاق بن إبراهيم بن سليمان). البرهان في وجوه البيان، تحقيق: حفني محمد شرف، مكتبة الشباب، القاهرة، 1969 م.

المراجع الأجنبية

. Halliday, M. A. K. An introduction to functional grammar. (2nd ed.). London: Edward Arnold. 1994.

. Halliday, M. A. K., & Matthiessen, C. M. I. M. An introduction to functional grammar. (3rd ed.). London: Hodder Education. 2004.

. Matthiessen, C. M. I. M., Teruya, K. & Lam, M. Key terms in systemic functional linguistics. London and New York: Continuum. 2010.

. Thompson, G. Introducing functional grammar. 3rd edition. London & New York: Routledge. 2014.

. Van Leeuwen, T. The representation of social actors. In Texts and practices. Routledge. 2013.

التحليل النقدي للخطبة السياسية
من الفعل الخِطابي إلى فعل الاستجابة

محمد يطاوي *

الملخص:

تدرس هذه الورقة قضية التواصل البلاغي من جانبين: الفعل الخِطابي وفعل الاستجابة. وتركز على علاقة التفاعل بين بنية الخطاب واستجابات الجمهور على اختلاف أنماطها. كما تحاول تجاوز الاقتصار على دراسة الخطاب وصانعه، بالانفتاح على الأدوار التي تضطلع بها الجماهير في العملية التواصلية البلاغية؛ وخصوصا تأثيراتها البليغة على بنية الخطاب. وبذلك، تتبنى موقفا مفاده أن للجمهور تدخلاتٍ مباشرةً وغير مباشرة في تشكل الخطاب وفي نقده، إذ إن حضور الجمهور لا يتوقف على مجرد الاستهلاك السلبي، وإنما هو عنصر فاعل في إنتاج الخطاب وتفسيره؛ بل إن له استجابات قد تكون ناقدة أو مقاومة.

لذا، تقارب الورقة حدثا سياسيا شعبيا حرجا شهده الشارع الإيراني أواخر دجنبر 2017 وبداية يناير 2018، وهو الحراك الجماهيري المُطالِب بتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية. وتتوخى دراسة العلاقة بين تفاعلات الجمهور الإيراني المحتج وخطبة رئيس المؤسسة السياسية(روحاني) لغويا وبلاغيا، بالتركيز على تحليل تأثير الجمهور في بناء الخطبة لسانيا خِطابيا. ولعل الهدف من ذلك هو بيان قدرة الجمهور على التصرف في هياكل الخطب السياسية واختياراتها اللسانية، ثم طبيعة الاستجابات التي تنتجها بين القبول والمقاومة. لهذا الغرض، تستدعي الورقة إطارا نظريا ثنائيا يراعي تحليل الخطاب ونقده، ثم تحليل استجابات الجمهور، ونقصد المقاربة التاريخية في التحليل النقدي للخطاب، وبلاغة الجمهور؛ فالأول يدرس سلطة الخطابات من خلال تحليل الممارسة اللسانية في سياقها الاجتماعي والتاريخي، والثاني يدرس الاستجابات البلاغية الصادرة عن الجمهور وقدرتها على توجيه الخطاب أو عجزها أمام أطماع الهيمنة الاجتماعية عبر الاستخدام اللغوي الموارب.

الكلمات المفتاحية: سلطة الخطاب، بلاغة الجمهور، الفعل الخِطابي، فعل الاستجابة، الخطبة السياسية.

Critical Analysis of Political Discourse

From Discursive Act to Act of Response

Abstract:

This paper examines the issue of Rhetorical Communication on two sides: the rhetorical act and the act of response. It focuses on the relationship between the structure Discourse and the different responses of Audience. As well as trying to transcend the exclusive study of discourse and its creator, openness to the roles played by the Masses in the rhetorical communication operation; especially the eloquent effects on the structure discourse. Thus, it adopts a point of view that the Audience has direct and indirect interventions in shaping and criticizing the discourse. The audience's presence is not only limited on negative consumption, but it's also an actual element in the production and interpretation of Discourse; it has responses that may be critical or resistant

Therefore, the paper examines a grave popular political event was seen in Iranian street at late December 2017 and the beginning of January 2018, it's the mass movement demanding improvement of social and economic conditions. The study examines the relationship between the reactions of Iranian protester audience and the discourse of the president of the political institution (Rouhani) linguistically and rhetorically, focusing on analyzing of audience's influence in constructing of discourse, linguistically and rhetorically. The aim of this is to clarify the audience's ability to act in the structures of political discourse and its linguistic choices, and then the nature of the responses it produces between acceptance and resistance. For this purpose, the paper calls for a dual theoretical framework that takes into account discourse analysis and its criticism, then analyze audience responses; We mean the historical approach in Critical Discourse Analysis and Audience Rhetoric. The first examines discourse power through the analysis of linguistic practice in its social and historical context, and the second examines the rhetorical responses of the audience and its ability to directing discourse, or its inability to resist the greed of domination through manipulative language use.

Keywords: Discourse Power, Audience Rhetoric, Discursive act, Act of Response, Political Discours

المقدمة:

شهد حقل تحليل الخطاب منذ أواخر الثمانينيات وبداية التسعينيات ظهور موجة معاصرة تنظر إلى النص والخطاب نظرة مغايرة، إذ تجاوزت تحليل المضمون إلى تحليل قدرة اللغة على ممارسة السلطة في الإنتاج الخِطابي وتبعاته الاجتماعية. وقد تحققت هذه القفزة مع نظرية التحليل النقدي للخطاب التي ما عادت تقتصر على تفسير الفعل الخِطابي في حدود المتن المدروس والمادة اللغوية كما هو الشأن مع كل المقاربات والنظريات التي تقدمتها، وإنما تنظر إلى كل خطاب بوصفه ممارسة لسانية تستهدف مخاطبا مقصودا، وتقصد ممارسة سلطة من نوع ما بحسب القدرة على تفعيل طاقات اللغة بالموارية والمراوغة والتضليل.

من هذا المنطلق، ينخرط البحث في دراسة قضية تكتسي أهمية بالغة في مجال بلاغة الخطاب والجمهور، وهي علاقة تفاعلات الجمهور مع الخطابات السياسية، بالاختيارات اللغوية وغير اللغوية التي شكلت الخطاب، على اختلاف أنماط تلك التفاعلات. ويتخذ متنا للدراسة، أحدَ أحرج الأحداث السياسية التي شهدتها جمهورية إيران؛ وهي واقعة احتجاجات نهاية شهر ديسمبر 2017 وبداية شهر يناير 2018، ولا تزال ترخي ظلالها على المشهد السياسي المحلي والدولي.

وعليه، يتوخى هذا البحث تحليل تأثير عينة الجمهور الإيراني المحتج على تردي الأوضاع الاقتصادية وإغفال القضايا المجتمعية الحاسمة لصالح العلاقات الدبلوماسية الإقليمية والدولية في بناء الخطبة السياسية للرئيس روحاني(2018/01/28)[1]، ثم نقد فعل استجابة الجمهور بعد إلقاء الخطبة. والهدف من ذلك هو إيجاد تفسيرات بلاغية وخِطابية وواقعية لردود أفعال الاحتجاجات الشعبية بعد إعلان الموقف الرسمي: للمؤسسة السياسية في شخص(روحاني)، وتأتي العناية بتأثير الجمهور ونقد استجاباته من الوعي بضرورة تجاوز اقتصار البحث البلاغي منذ زمن طويل على صانع الخطاب وعلى الخطاب نفسه، والتأصيل لما بات يعرف ببلاغة الجمهور، بوصفها تخصصا ملحا في عصر أصبح فيه الخطاب أداة تطويعية ورأسمال سياسي.

لهذا الغرض، يجد المشروع ضالته في إطار نظري كفيل بالتفسير العلمي الأقرب إلى الدقة في هذه القضية، وهو نظرية التحليل النقدي للخطاب، وخصوصا المقاربة التاريخية للخطاب مع الرائدين: روث فوداك ومارتن ريزيغل (Ruth Vodak and Martin Reisigl). كما سيحاول استثمار مقترحٍ

للدمج بين (CDA)[2] وبلاغة الجمهور، كان قد اقترحه الدكتور عماد عبد اللطيف في دراسته المعنونة بـ: "**إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة**".

ويتألف البحث من شقين كبيرين: الأسس النظرية لمقاربة التحليل النقدي للخطاب وتخصص بلاغة الجمهور، ثم المناولة التطبيقية على نموذج خطبة روحاني؛ مع تخصيص الحيز الأوفر للتحليل التطبيقي. وأثناء الإجراءات التطبيقية، سيحاول البحث أن يركز، بالخصوص، على الاختيارات اللسانية في مستوى النص والخطاب، وإيجاد تفسيرات لها في علاقتها ببلاغة الجمهور الثائر(بوصفه المتغير الرئيس في معادلة الممارسة البلاغية) قبل الموقف الرسمي وبعده. كل ذلك للإجابة عن إشكال مركزي: ما السر الذي جعل استجابة الجمهور المحتج مخالفة لانتظارات منشئ الخطاب والسلط الممارسة؟ وهل له علاقة بالموقف البلاغي الذي تحكمه إشراطات المخيال المحلي، والعقيدة الشعبية الإيرانية، والكلمة، والصورة، وتكوين الجمهور، واجتهاد المحرِّك، والخطابة الطقوسية؟

كما سيستند البحث إلى بعض المراجع العربية الرائدة في مجال بلاغة الجمهور والتحليل النقدي للخطاب، وبالأساس: بعض الدراسات التطبيقية التي أنجزها الدكتور عماد عبد اللطيف في تحليل وقائع تاريخية وسياسية، مثل واقعة سقيفة بني عامر، وبيان التنحي، والخطابات السياسية الرسمية. فكيف تدخل الجمهور المحتج في بناء خطاب روحاني؟ وهل استطاعت خطبتُه ممارسة سلطته وتوجيه الجمهور إلى الاستجابات المرجوة؟

1. الإطار النظري

1.1. التحليل النقدي للخطاب: المقاربة التاريخية للخطاب/ (DHA)[3]:

التحليل النقدي للخطاب نظرية لغوية خِطابية معاصرة، ظهرت بداية تسعينيات القرن العشرين، وانبثقت من دائرة علمية بجامعة أمستردام الهولندية سنة 1989[4]. تُعنى هذه النظرية بدراسة لغة الخطاب في علاقته بالممارسة الاجتماعية، وتستهدف خصوصا سوء توظيف السلطة(على اختلاف أنواعها) بواسطة الاستعمال اللغوي الموارب والإمكانات الخَطابية والخِطابية المضللة[5]. كما تركز على تحليل مظاهر الهيمنة من البنى النصية إلى البنى الخِطابية، فتجلياتها في البنى الاجتماعية. وقد أفادت جل مقارباتها من تطور الدرس اللساني، وخصوصا مع النحو الوظيفي النسقي واللسانيات النقدية[6]، ناهيك عن تعالقها مع الدراسات الاجتماعية والنفسية والفلسفية والتربوية. وتعددت المقاربات الخائضة في الدراسات

النقدية للخطاب بحسب ستة توجهات: (المقاربة العلائقية الجدلية، والمقاربة التاريخية للخطاب، والمقاربة المعرفية–الاجتماعية، ومقاربة الفاعل الاجتماعي، والمقاربة التنظيمية للخطاب، ولسانيات المدونات)[7].

على غرار باقي مقاربات (CDA)، يشكل التعالق بين البنى النصية والتفاعلات الخِطابية والأنساق الاجتماعية المبدأَ الرئيسَ الذي يقوم عليه التحليل النقدي للخطابات والنصوص في إطار المقاربة التاريخية، سواء المكتوبة أو الملقاة تخاطباً أو خُطبةً؛ إذ تنظر إلى اللغة بوصفها ممارسة اجتماعية كغيرها من الممارسات الصادرة عن الأفراد والجماعات والمؤسسات. فـ"المقاربة التاريخية للخطاب تدرك اللغة المكتوبة والمنطوقة على أنها شكل من أشكال الممارسة الاجتماعية."[8]. غير أن ما تتجاوز به المقارباتِ الأخرى هو دراسة الخطاب بإضفاء طابع التاريخانية على التحليل، فالحدث الخِطابي في (DHA) ممارسةٌ اجتماعية مؤطَّرةٌ تاريخيا.

تتعاطى المقاربة التاريخية للخطاب بصرامة كبيرة مع الإجراءات التحليلية في الشق المتعلق بالممارسة التفسيرية النقدية، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى إحدى أهم مرجعياتها اللسانية: "اللسانيات النقدية.. كانت كذلك مؤثرة في تطور مقاربات نقدية أخرى في تحليل الخطاب، مثل مقاربة التحليل التاريخي للخطاب.."[9]. إذ إن نماذج التحليل اللغوي التي قدمها فاولر (Fowler) وآخرون (1979: اللغة والتحكم) في مجال اللسانيات النقدية، تُعد أبرز الأسس المنهجية المعتمدة من قبل فوداك (Ruth Vodak)وريزيغل(Martin Reisigl)؛ وهي نماذج تتصف بالإفراط الكبير في الجانب النقدي الفاضح.[10]

تربط هذه المقاربةُ الخطابَ بشروطه السياقية الاجتماعية، وتدرس المرحلة التاريخية التي جاء فيها مركزة على ما احتضنته من الأحداث السوسيو–اقتصادية والسياسية؛ فالخطاب ممارسة اجتماعية يؤطرها سياق اجتماعي في مرحلة تاريخية متصلة بمراحل أخرى سابقة ولاحقة. لذلك، تتبوأ التفاصيل الدقيقة للسياق التاريخي موقعا محوريا في شرح العلاقات بين الأبعاد اللسانية والتشكلات الخِطابية والعوامل الاجتماعية.

إن مقاربة التحليل النقدي للخطاب مقاربة ثلاثية تقوم على ثلاثة أقطاب: الخطاب، والمجتمع، والتاريخ. فبما أن الخطاب حدث اجتماعي تاريخي، فإن نمطه وتشكله وخرجه مستوياتٌ محددة بوسَاطة عواملِ الحقول الاجتماعية التي أفرزته. فيتطلب التحليل اللساني النقدي الإحاطة بكل حيثيات السياق الاجتماعي وأحداثه الكثيرة المتزامنة أو المتعاقبة تاريخيا، وتقديم تفسيرات تصل بين نطاقات الممارسة

النصية، والممارسة التفاعلية الخِطابية، والممارسة الاجتماعية؛ لأن البعد التاريخي يحتضن الكل. ولعل **الهدف من الاشتغال النظري بهذا المعنى هو التنوير الصحيح والمثمر حول المواقف التاريخية والاجتماعية**[11].

عناية المقاربة التاريخية للخطاب القصوى بمفهوم السياق راجعة إلى تبنيها للموقف التداولي من الخطاب كما تأصَّل مع جل النماذج الوظيفية، وخاصة نموذج النحو الوظيفي النسقي مع هاليداي(Halliday)[12]. فكل دراسة تنطلق من هذا الموقف تدرك مبدئيا أن السياق متحكم في الاختيارات اللغوية(السياق يتحكم في الجملة/الخطاب). وفي هذا الصدد تقول فوداك(Ruth Vodak) وريزيغل (Martin Reisigl): "تستند مقاربتنا الثلاثية إلى مفهوم السياق الذي يأخذ في الاعتبار النص المباشر، واللغة، أو النص الداخلي من الكلام الواحد(التمثيلات المعجمية، الخصائص المتشابكة، والدلالات، والآثار، والافتراضات المسبقة، فضلا عن التماسك المادي والنحوي)."[13]. غير أنهما تجاوزتا تعامل النحو الوظيفي النسقي مع الخطاب بِعَدِّ الممارسة اللغوية مؤثرةً هي كذلك في الممارسة الاجتماعية ضمن أي سياق تاريخي.

إن العلاقة الجدلية بين العوامل التاريخية وأنساق التغيير الاجتماعية هي التي جعلت السياق المنطلقَ والمنتهى للتحليل النقدي التاريخي، لأن فوداك (Ruth Vodak)وريزيغل (Martin Reisigl)توليان الأهمية الكبرى لعلاقات السيرورات التاريخية بما يحدث من تغيرات وتحولات في بنية المجتمع في كل مرحلة لها خصوصياتها التي تميزها عن غيرها؛ في ذلك تقول فوداك: "يتم ،دائما، تحليل السياق التاريخي ودمجه في تفسير الخطاب والنص. فقد أصبح مفهوم التغيير متأصلا في تفسير النص والخطاب."[14].

تقدم مقاربة التحليل النقدي للخطاب وصفا بنيويا للاختيارات اللغوية في مستويات النص العميقة، وتمثيلاتها التفاعلية الاجتماعية والتاريخية في مستوى الخطاب. ثم تتقدم نحو بناء تفسيرات قائمة على رصد التغيرات الاجتماعية في السياق التاريخي المُحتضِن، فتحاول القبض على العلاقات المتوارية التي تربط بينها وبين الاختيارات اللغوية. لذلك، تستدعي ما يلائم من النظريات والمقاربات والمباحث اللسانية[15] الكفيلة بذلك، مثل: لسانيات النص، وأفعال الكلام، والتلفظ، والتركيب الوظيفي، والصرف

والمعجم، والبلاغة، وخاصة نظرية الحجاج[16]. كما تنهج مسارا تحليليا استقرائيا في التوصيف الدقيق وكشف شبكات العلاقات اللسانية ومقابلاتها الاجتماعية والتاريخية(الحدَثية).

يوَجَّه التحليل وفق المقاربة التاريخية للخطاب باستحضار خمسة أسئلة[17] يُعتبر الجواب عنها تطبيقا فعليا للمقاربة النقدية في تحليل الخطاب من زاوية تاريخية، ويمكن تلخيصها كما يلي: كيف يُسمى المشاركون ويحال إليهم لغويا؟ ما هي الصفات المنسوبة إليهم؟ ما المخططات الحجاجية والحجج المعتمدة؟ من أية زاوية ينظر الخطاب إلى المشاركين؟ هل أُعلنت العبارات والألفاظ الحاملة للمواقف أم إنها مضمرة؟[18] وتُظهر هذه الأسئلة أن مقاربة فوداك (Vodak) وريزيغل(Reisigl) تستقرئ أهداف السلطة الممارسة على الجمهور عبر التوظيف اللغوي الموارب والمضلل، كحال المقاربات الأخرى.

2.1. بلاغة الجمهور:

ركزت البلاغة التقليدية –سواء اليونانية أو العربية– بشكل كبير على الخطاب بوصفه المادة اللغوية المتداولة في السياقات التواصلية المختلفة والتي تستطيع تحقيق أغراض المخاطِب. فكانت الطرق والتقنيات اللغوية والنَّظمية والحجاجية والأدائية التي قُدمت لإنجاح الممارسة البلاغية على مستوى التنظير والنقد والتعليم، متصلةً كلها بالبعد النصي والخِطابي والتخاطبي. وإن كانت البلاغات القديمة قد نبهت مرارا إلى أهمية معرفة خصائص المتلقي في الخطابة أو المناظِرِ في الجدل، فإن القول بحضور ما يسمى اليوم ببلاغة الجمهور قديما، يكاد يمتنع إذا ما نظرنا إلى ما ناله تحليل الجمهور ونقد استجاباته وموقعه داخل الخطاب في البلاغة الحديثة من عناية، خصوصا مع الانفجار الكبير الذي أحدثه التطور العلمي على مستوى وسائل التواصل الاجتماعي في العصر الراهن.

لا نقصد أن علماء البلاغة القدامى لم يأخذوا الجمهور بعين الاعتبار، وإنما نفصل بين الاقتصار على طبيعة الجمهور وانتماءاته الطبقية والسياسية ومستوياته المعرفية والثقافية قديما، وقيام تخصص بلاغي خالص هو (بلاغة الجمهور) حديثا؛ وهو الذي أُصِّل له ولتحليله منذ أواسط القرن العشرين، بمناهج علمية وأجهزة مفهومية بينية؛ أي مستمدة من التفاعل بين حقول عديدة من العلوم الإنسانية كالفلسفة، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والأنتروبولوجيا، والتواصل، واللسانيات وتحليل الخطاب.

لقد ارتبط ظهور مصطلح الجمهور في الثقافتين اليونانية والعربية –بالمعنى البلاغي لا الأصولي أو الشرعي– بسياقات التواصل المعرفية من خلال المواجهة المباشرة بين الخطباء والجماهير في ساحات

الجدل الفكري والتجمعات الأدبية، والمشاورات القضائية، والصراعات اللغوية والبلاغية والسياسية والنقدية والفلسفية. غير أنه من الواجب التمييز بين الجمهور في العصور القديمة ونظيره في المرحلة الحديثة والمعاصرة؛ فقديما ارتبط الجمهور بالسماع والاستماع والقراءة[19]، في حين لا يمكن حصر الجمهور أو توطينه زمانا ومكانا وصيغةً في العصر الراهن. فمع الثورة العلمية التكنولوجية بات من الصعب تحديد الجمهور أو رصد خصائصه المشتركة أو قنوات تلقيه للخطابات البلاغية.

انتقل البحث البلاغي خلال القرن العشرين من التركيز على منشئ الخطاب إلى التركيز على متلقيه، فحظي الجمهور بعناية بالغة في التحليل البلاغي؛ خصوصا في إطار تخصص البلاغة الجديدة مع بيرلمان وتيتيكا (Perlman Tyteca 1969) اللذين أخرجا النظرية بالحفر في تاريخ البلاغة اليونانية، فأسعفتهم النماذج التي قدمها أرسطو في التأصيل لبلاغة الحجاج. وقد أثبتا أن البحث في الحجاج لا يمكن أن ينفصل عن تحليل الجماهير ورصد الأدوار التي تضطلع بها معتقداته. وفي هذا الصدد، صنفا الجمهور إلى ثلاثة أنماط: الجمهور الذات(المجادلة الذاتية الداخلية)، والجمهور الكلي(المثالي)، والجمهور المحدد(الواقعي). ويقوم التمييز بين المحدَّد والكلي بناء على ثنائية الواقعية والمثالية، فالأول واقعي يمكن استهدافه، والثاني لا يمكن التواصل معه عبر أية قناة لأنه مثالي وغير متحقق[20].

عاش تصورُ البلاغةِ سلطةً لعصور طويلة إلى أن وُلد منافس جديد لها، وهو سلطة الجمهور. فقديما كانت البلاغة وسيلة كافية لفرض الهيمنة على العقول والأذواق، وكان للبليغ المتمكن كافة السبل للسيطرة على جمهوره بناء على طاقاته اللغوية والخَطابية[21]. ومن العلماء من قصر البلاغة وجودة الخطابة على الخطيب المفلح في الهيمنة على الجمهور بالخطاب أو بغيره[22]. أما اليوم، فإن للجمهور حضورا بارزا في ميزان القوى البلاغية؛ لذلك أصبح الالتفات إلى سلطة الجمهور شرطا لا محيد عنه كما يقول الدكتور عماد عبد اللطيف: "لا مفر من تأسيس بلاغة للجمهور تسعى إلى تخليص علم البلاغة من جزء من تاريخه السلبي الطويل في خدمة السلطة على حساب الجمهور"[23].

والحق أن سلطة الجمهور تتجاوز سلطة البلاغة في العصر الراهن على صعيدين: فإذا كانت سلطة البلاغة تشتغل ساعة الإلقاء أو القراءة، فإن سلطة الجمهور تشتغل في جميع أطوار الممارسة التواصلية البلاغية، عند تأليف الخطابات وبنائها، وفي أثناء إلقائها أو توزيعها، وساعة تلقيها؛ فمنشئ

الخطاب يستحضر معتقدات الجمهور المستهدَف وبنيته الإدراكية، لذلك فتأليفه محكوم بعناصر معرفية وفكرية من مجموع عناصر بنية الجمهور ويسترعيها، وأداؤه مسير ومتحول بحسب تأثر الاستجابات الجماهيرية إبان إلقاء الخطبة/الخطاب، لينتظر –بعد فراغه من إلقائه– الاستجاباتِ النهائية للجمهور الذي يصبح المتحكم الوحيد في مسار الخطاب وفي نتائجه. ولعل الجمهور في هذه المرحلة أقوى سلطةً من صاحب الخطاب، لأن استجاباته النهائية تتغذى من سرعة انتشار الخطابات عبر وسائل الاتصال الاجتماعي، فهي استجابات تتلقى العون المقصود وغير المقصود في تفكيك شفرات الخطاب المستقبَل من قبل النقاد والإعلام وأنداد صانع الخطاب بسرعة قياسية. لذلك، لا يمكن الحديث –من جهة أخرى– عن استجابات جماهيرية خالصة، وإنما هي استجابات موجهة من خارج بنية الجمهور نفسه، أو لنقل هي معدلة أو متصرَّف فيها.

يتصف الجمهور المعاصر بخصائص يمكن أن نقول عنها إنها خطيرة ومهدِّدة، لأنها تجعله أقدر على مواجهة سلطة البلاغة، بل يستطيع أن يقضي على جميع مخططات صناع الخطاب وانتظاراتهم. وهي خصائص مكتسبة من العالم الافتراضي، ومن أبرزها نذكر: الانتشار، والجرأة، والمقاومة، وإنتاج خطابات معارضة بسرعة وتعميمها، والمواجهة بالأيقونات، وتوحيد الشعارات، وسهولة التنظيم، والتسمية...؛ ولعل هذه الخصائص هي ما جعلت الجماهير تقف رقيبةً على إنتاج الخطابات المؤسسية، بل انتقل من كُلٍّ مشتت وغير متجانس إلى ما يمكن أن نصطلح عليه بالجمهور المؤسسة، ثم الجمهور الجماعة. فالجمهور يكون مؤسسة إذا ما كان يفرض على مؤسسات الخطاب الحذرَ والتقية في كل ما يصدر عنها، ويكون جماعة كلما فرض على صناع الخطابات استحضار تجانسه البنيوي، وهويته المشتركة، والثقافة الرائجة، والعقائد الموحدة للمقصودين في صياغة النصوص والاختيارات اللغوية، وكذا انتقاء سبل تصريفها.

3.1. مقترح الدمج بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور:

نعتمد في هذه الدراسة مقترحا للدمج بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور، وهو نموذج مؤسس على رأي سديد اقترحه الدكتور عماد عبد اللطيف في عدد من دراساته، وأبرزها: "إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة"[24] و "تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية"[25]. فقد أشار إلى وجود فجوة في منهجية التحليل لدى رواد (CDA) في

مرحلة تفسير الممارسة الاجتماعية، وهي غياب أي استثمار لاستجابات الجمهور في رصد علاقات التشكلات النصية والتفاعلات الخِطابية بطبيعة الممارسات الاجتماعية في الإنتاج والتفسير، إذ يقول: "ثمة بعد غائب في الإطار التحليلي الذي اقترحه فيركلف[26]، وتم تطبيقه في عشرات –وربما مئات– الدراسات الأكاديمية. هذا البعد يخص العلاقة بين الخطاب والاستجابات الفعلية للجمهور الذي يتلقاه"[27].

ولتجاوز هذه الفجوة، ارتأى عماد عبد اللطيف أن يوفق بين المجالين لتقديم نموذج كفيل برد الاعتبار لبلاغة الجمهور وسلطته في دراسات تحليل الخطاب النقدية، وعن ذلك يقول: "وقد حاولت تجسير هذه الفجوة في الإطار الذي اقترحه فيركلف (Fairclough) لتحليل الخطاب، بواسطة اقتراح توجه في الدراسة يبحث في العلاقة بين الظواهر اللغوية المكونة لخطاب ما، والاستجابات الفعلية التي ينتجها المستهدَفون بهذا الخطاب، والعلاقة بين السلطة واستجابات الجمهور، وأساليب التلاعب بهذه الاستجابات. وقد أطلقت على هذا التوجه اسم بلاغة المخاطَب/الجمهور"[28]. وعليه، فإن هذا الإطار المقترح هو المعتمد في دراستنا الحالية، غير أننا نقتصر على الدمج بين بلاغة الجمهور ونموذج واحد من بين مقاربات التحليل النقدي للخطاب، وهو المقاربة التاريخية للخطاب(DHA) المشار إليها أعلاه. كما لن نقتصر على نقد الاستجابات فقط، وإنما نضيف إلى مقترح الدكتور عماد عبد اللطيف نقد تأثير بلاغة الجمهور في تشكل الخطاب؛ بذلك نكون أمام مرحلتين لنقد ممارسة الجمهور وأفعاله: ما قبل الخطبة وما بعدها.

2. من الفعل الخِطابي إلى فعل الاستجابة

1.2. سياق الحدث:

يشكل السياق التاريخي المحتضن للحدث موضوع الخطاب المدروس –وفق المقاربة التاريخية للخطاب– المحورَ الذي تؤول إليه كل التوصيفات النصية–الخطابية والتفسيرات الاجتماعية. لذلك، ننظر في المرحلة المتأخرة من الحياة السوسيو–اقتصادية والسياسية التي عرفتها إيران. وعموما، عاشت إيران خلال سنة 2017 أزمات اقتصادية واجتماعية تعتبر انعكاسات لسياستها الداخلية والخارجية؛ وأبرز مظاهرها حسب مركز الإحصاءات الإيراني: غلاء الأسعار والتضخم(8%)، وارتفاع نسبة الفقر، وفقدان بعض البضائع الأساسية من السوق المحلية، وبعض المشاكل البيئية المضرة بصحة المواطنين(على حد تعبير خامنئي وروحاني)، إضافة إلى خسارة شريحة عريضة من المواطنين لمبالغ مهمة بسبب وعود زائفة

بالاستثمار من لدن مؤسسات مالية ائتمانية، وارتفاع معدلات البطالة؛ إذ تواجه الحكومة الإيرانية مشاكل اقتصادية نتيجة لارتفاع نسبة البطالة التي بلغت (12.4%) في السنة المالية 2017، وهو ما يعني ارتفاعا بنسبة (1.4%) مقارنة بسنة 2016. وحسب المركز نفسه، وصل عدد عاطلي إيران التي يبلغ عدد سكانها ثمانين مليون نسمة، نحوَ ثلاثة ملايين ومائتي ألف عاطل.

أما خارجيا، ما تنفك الحكومة الإيرانية تنخرط في كل الصراعات والحروب الناجمة عن حراك الربيع العربي بالمنطقة منذ 2011، خاصة بسوريا ولبنان واليمن، ناهيك عن العراق والقضية الفلسطينية. مما يعني تركيز السلطات الإيرانية على ملفات إقليمية تستوجب ضخ رؤوس أموال طائلة في سبيل تدعيم حضورها في الشرق الأوسط، والرفع من الاستثمارات العسكرية لمسايرة سباق التسلح. وبالنظر إلى الشعارات المرفوعة من لدن المحتجين، تتأكد الصلة الوثيقة والواقعية بين حيثيات هذا السياق التاريخي، والحدث الأساسي الذي هو خروج المتظاهرين إلى شوارع إيران للاحتجاج على تردي أوضاع الفرد الاقتصادية والاجتماعية لصالح الملفات الخارجية على حد تعبيرهم في هتافاتهم: "لا غزة لا لبنان.. حياتي لإيران/ الموت لروحاني/ الموت للديكتاتور/ انسحبوا من سوريا وفكروا بنا/ حولتم الإسلام إلى سلّم فأذللتم الشعب..."[29]. ولعل الدراسة ستتخذ هذه الإضاءة السريعة حول سياق الحدث المدروس، سندا ماديا وتاريخيا لتوصيف الممارستين: اللسانية والاجتماعية.

2.2. توصيف الممارسة اللسانية:

يتخذ البحث وفق الإطار التحليلي للمقاربة التاريخية للخطاب في (CDA) مسارا استقرائيا ينطلق من الوصف اللغوي الداخلي لبنية النص ثم بنية الخطاب، في انتظار تحصيل المستنتجات اللسانية التي تستثمر في التفسير الاجتماعي التاريخي خلال مرحلة وصف الممارسة الاجتماعية. وإذ كان الاشتغال لسانيا على النص والخطاب، فإننا نقترح أن نطلق على مرحلتي التوصيف اللساني –مجتمعتين– تسمية: **توصيف الممارسة اللسانية**؛ على اعتبار أن عمل اللساني في هاتين المرحلتين ينكب على تفكيك شبكات النص الداخلية والتفاعل الخِطابي بين المخاطِب والخطاب والمخاطَب.

1.2.2. التهديد والتخيير بالمعجم:

تزدحم في خطاب روحاني خمس خانات معجمية تُجلي التقاطعات الدلالية التي توضح ما يتوقاه في ما يلقي من كلام، والجهات المقصودة بالمواقف السياسية المتبناة، سواء المصرح بها أو المضمرة. لننظر في الجدول: (1)

القدرة	الوجوب	الهدم	الترهيب	الاستعطاف
حاضرون/يستطيعون/ يعبروا	يجب(16 مرة)/ بالتأكيد	تخريب/الاغتراب	قاطعين/قاطعية	شبابنا الأعزاء/الشعب العزيز/ العائلات الكريمة/ العائلات العزيزة

تغطي هذه الخانات المعجمية الأطرافَ الفاعلة والمتفاعلة ضمنيا في الخطبة وفي السياق التاريخي المحتضن للاحتجاجات، وهي: صاحب الخطاب(روحاني)، ثم كل الفاعلين في المشهد السياسي(جميع الطوائف وجميع الأجنحة)، فالشعب الإيراني. إضافة إلى المسؤولين الحكوميين، والجمهور المحتج(مجموعة).

بالتركيز على معجم القدرة، يتضح أنه أُسند حصريا إلى جميع الطوائف والأجنحة السياسية والشعب الإيراني، وهو إسناد يعكس الرهان الخِطابي الأول لدى روحاني، أي تسويق تمتع الأفراد والمؤسسات غير الحكومية في إيران بحرية التعبير والرأي؛ فقد ربط فعل القدرة هنا بوسائل الإعلام، وربط فعل الاستطاعة بفعل التعبير. مما يؤكد أن الرئيس الإيراني انتقى –من بين ما انتقاه من الألفاظ– ما يمكن أن نعده استجابة منه للحشد المتظاهر في الشوارع الإيرانية، خصوصا إذا ما استحضرنا بعض المطالب المتعلقة بالتعتيم الإعلامي وقمع حرية التعبير. وبذلك يكون الجمهور –ومعه الحدث التاريخي– قد تصرف بطريقة غير مباشرة في الاختيارات اللغوية في مستواها المعجمي–الدلالي، ودليل ذلك هو توكيد روحاني لحق التعبير عن الرأي، لكنه قيده بالسير والحركة والصوت(**إذا كانت هناك مشكلة يجب على الناس أن يبينوا ذلك بوضوح، ولكن بالصوت والحركة في المسير**).

استهدف روحاني بمعجم الوجوب طرفين اثنين: الشعب الإيراني(يجب أن يشعر الناس والشعب أيضا أنهم يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم) والمسؤولين الحكوميين(وهنا، الآن، أقول للوزراء ونواب

الوزراء وجميع المسؤولين التنفيذيين، أقول لهم: يجب أن..). وقد أكدت الألفاظ الدالة على الوجوب والموجهة إلى الشعب، فرضيةَ الرهان الأول الذي تناضل من أجله الخطبة السياسية في السياق التاريخي الإيراني الراهن، وهو إثبات احترام المؤسسة السياسية الإيرانية لحرية التعبير. أما ألفاظ الوجوب الموجهة إلى المسؤولين الحكوميين، فقد كشفت عن مراوغة من روحاني للشعب وللرأي العام الدولي، إذ تكشف المُؤَكِّدَاتُ بعد العبارة(يجب أن..) في إحدى عشرة مناسبة ما يندرج ضمن المهمات الدستورية والقانونية التي يضطلع بها الوزراء ونوابهم والمسؤولون التنفيذيون؛ مما يكرس نية التبرُّؤ من الورطات الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التي قامت لأجلها المظاهرات في الشوارع الإيرانية، ورمي جمرة المسؤولية على القائمين الفعلين في جميع القطاعات. وهي تخص: إطلاع الشعب على المشاكل والحلول المقترحة، وعدم التخلي عن الشعب في مواجهة مشاكل السوق، وقلة العرض وكثرة الطلب، وعدم اكتراث المسؤولين الحكوميين بالوضع المزري اقتصاديا وبيئيا، والمشاكل المالية الائتمانية، وغياب التواصل مع الشعب وتقريبه من المستجدات.

وهنا، مرة أخرى، يتضح أن الجمهور المحتج استطاع أن يشكل ما نطلق عليه مصطلح (الجمهور المؤسسة)؛ لأنه أثر بشكل كبير في الاختيارات المعجمية والدلالية التي توجِب إلصاق المسؤولية بغير منشئ الخطاب، أو لنقل إن المتظاهرين الإيرانيين، ومن خلال جميع أنماط التعبير المنطوقة والمكتوبة، استطاعوا أن يفرضوا على المؤسسة الإيرانية بناء الخطاب السياسي وفق ما ينسجم مع تطلعاتهم؛ فخانتا القدرة والوجوب تعكسان الإقرار المبطن بكل المطالب المرفوعة بُغية احتواء الحدث التاريخي وإلقاء المسؤولية على غير منشئ الخطاب.

يتحدث الرئيس الإيراني ويدرج الألفاظ في خطبته مفرقا بين مستهدَفيْن: الشعب الإيراني والمتظاهرين؛ وكأنه يعتبر من يحتج غير إيراني، فيكون قد اعتمد الإقصاء والقصر من خلال التوظيف المعجمي–الدلالي الموارب. ودليل ذلك هو أن ما دل على حرية الرأي ووجوب التواصل مع المواطنين وحل مشاكلهم مقصور –في جميع الحالات– على (الشعب). أما ما دل على المتظاهرين، فقد ارتبط بخانة معجمية يمكن أن نقول عنها إنها إقصائية؛ فقد أحال إليهم باسم نكرة وغير محدد العدد(مجموعة)، إضافة إلى أنه توجه إليهم بخانة معجمية عنوانها الهدم كما في الجدول، إذ نعتهم بالمخربين وخالقي التغريب في المجتمع الإيراني(نحن أمام مجموعة تريد أن تخرب الأموال العامة أو أن تعمل على خلق الاغتراب في المجتمع). ولعله يود بهذا التصنيف أن يتوجه إلى جمهورَيْن: الأول هو مجموع المواطنين

غير المحتجين في أفق إعطائهم حججا مقنعة على ما لا يدعو إلى الاحتجاج، والثاني هو الرأي العام الدولي لغاية إيقاف الإدانات لقمع الشرطة للمتظاهرين، خصوصا أن السياق التاريخي الذي جاء فيه الحدث يوثق تصريح إيران بإدانة القمع في كثير من الحروب بمنطقة الشرق الأوسط.

يؤكد المعجم الموظف في الخطبة السياسية أن روحاني يسعى إلى تطويق جمهور المحتجين ومنع ارتفاع أعدادهم بسوء توظيف سلطة اللغة، وهذا واضح من خلال ما استُخدم من ألفاظ تفيد الترهيب؛ فقد وصف المؤسسة السياسية بأنها ستكون(**قاطعة**) في حالة استمرار الاحتجاجات، وأنها ستتعامل بقاطعية. ولعل الوصفين: قاطعين/قاطعية يحيلان إلى أمرين: توعد المحتجين وتحذير غيرهم. وفي جميع الحالات، يؤكد هذا الاختيار المعجمي أن روحاني مستجيب لخطاب الجمهور، سواء بالاعتراف بأحقية الاحتجاجات أو بالتهديد؛ مما يدل على أن الجمهور متحكم في القدر الكبير من بنية النص والخطاب.

2.2.2. التقابل الدلالي ورهانات الخطبة السياسية:

يراهن روحاني في خطبته على تحقيق مرامٍ مخصوصة يود إقرارها من خلال سلطة الخطاب، ولأجلها سخر اللغة والاختيارات التركيبية ومؤداها الدلالي على شاكلة تزكي فرضياتٍ يمكن الانطلاق منها لاستخلاص تلك الرهانات ومُحقِقاتها اللغوية على مستوى الخطاب، ونتائجها المنتظرة على صعيد الممارسة الاجتماعية في السياق التاريخي المحتقن داخليا وخارجيا؛ والفرضيات هي: لعل روحاني قد استشعر خطورة المظاهرات فانكب على تبرئة نفسه من الأفعال السياسية التي يقف المحتجون مناهضين لها، ولربما تكون خطبته مبنية على أساس خلق هوة وصراع بين المحتجين وغير المحتجين من الشعب الإيراني. فكيف ذلك؟

أقام روحاني تقابلات دلالية متتالية ومتعالقة وفق نسق مراوغ، يتأرجح بين غايتين: إما تهدئة الأوضاع وثني المحتجين أو التخلص من المسؤولية. هذه التقابلات هي:

– التقابل الأول: بالتسمية وتقدير الحجم: الإحالة إلى المحتجين بلفظ(المجموعة) # الإحالة إلى غير المحتجين بألفاظ تفيد الكثرة(الناس، الشعب، شعبنا)

– التقابل الثاني: بالإثبات ونمط الفعل الاجتماعي: حرية التعبير بالنسبة للكثير من الشعب الإيراني # التخريب وخلق الاغتراب بالنسبة للمحتجين

– التقابل الثالث: بالتخيير والتهديد: حدة الاحتجاجات # تصرف الحكومة بقاطعية أكبر

– التقابل الرابع: بالاستفهام والجواب: احتجاجات وعدم استقرار # تراجع الظروف الاقتصادية وتحسينها.

بالنسبة للتقابل الأول، يسمي روحاني المحتجين بالمجموعة فقط، وهي تسمية تفيد التقليل والتبخيس بغية التضييق عليهم ووصفهم بالعدد المحتشم. وفي المقابل، يطلق على نقيضهم(غير المحتجين) ألفاظَ(الناس والشعب وشعبنا). ويتأكد ذلك في ثنايا الخطبة كلما تغير الأسلوب والفعل الموصوف، فعندما يمرر صيغة تهديدية تجده يخاطب المجموعة فقط، أما في الحالات التي دعا فيها الوزراء والمسؤولين التنفيذيين إلى التواصل مع المواطنين وإيجاد حلول لمشاكلهم، أو أراد أن يلطف خطابه مع الشعب، فإن الجمهور المخاطَب يتحول من مجموعة محدودة إلى شعب بأكمله، بل إلى الناس عامة(المحتجين وغير المحتجين).

التقابل الثاني متصل بالأول، ففي الحديث عن الشعب عامة يثبت فعل حرية التعبير، أما في الحديث عن المحتجين الموصوفين بالمجموعة، فيثبت فعل التخريب وخلق الاغتراب. وهو بهذين الإثباتين يصنف الشعب الإيراني إلى صنفين: الأول هو غير المحتجين، فيعترف لهم بروح القانون وحقوق الإنسان(حرية التعبير)، والثاني هو المجموعة(المحتجين) فيجرم كل أفعالهم بعَدها تهديداتٍ للأمن الداخلي للبلاد في سياق تاريخي حساس للبلاد والمنطقة.

أما التقابلان الثالث والرابع، فيلتقيان معا في قرار الاختيار الذي يتأرجح طرفاه بين خيار الاستمرار في الاحتجاج المقرون بالوعيد والتصرف بحزم وعنف من قبل الحكومة، وخيار التراجع المقرون بتحسين الأوضاع الاقتصادية. والحق أن توعد المحتجين بالرفع من حدة التعاطي مع الاحتجاجات يقر بأن روحاني كان متخوفا من ارتفاع عدد المتظاهرين وحجم الجمهور. وبذلك يضيق على عامة الشعب هامش الاختيار، وهو تضييق يتأكد من خلال توظيف أسلوب الاستفهام: (هل إذا كان هناك عدم استقرار في المجتمع، سيكون عملنا أفضل وستكون ظروف الناس أفضل للناس؟). ففي الأدبيات البلاغية والتخاطبية العربية القديمة –مثلا– يعتبر السؤال بحرف الاستفهام (هل) سؤال حجر أو منع[30]؛ معنى ذلك أن السائل يسيج جواب المخاطَب ويطرح أمامه جوابين لا ثالث لهما: الأول هو الإثبات والاستمرار في

الاحتجاج، والثاني هو النفي والتراجع عن الاحتجاج. فبالجواب الأول ستصعد الحكومة في تعاطيها مع الوضع، وفي الثاني هناك انتظار لتحسين الأوضاع خشية الاصطدام ونتائجه.

هكذا تكون الخطبة السياسية قد فرضت على الجماهير المقصودة –على اختلافها– من المحتجين وغير المحتجين، والمؤسسة الدينية، والولايات المتحدة الأمريكية– مواجهات مباشرة؛ وهنا يظهر سوء توظيف السلطة من طريق لغة الخطاب، فالهدف الأول لروحاني هو تبرئة صفته الرئاسية مما آل إليه الوضع أو ما سيؤول إليه في حالة استفحال مسار الاحتجاجات، ثم خلق شرخ في المجتمع الإيراني وتوسيع الهوة بين الشعب من جهة والمحتجين ومن يساندهم داخليا وخارجيا من جهة أخرى. بذلك تظهر هذه المواجهات في الآتي:

(2)الشعب ضد مجموعة المحتجين/ الشعب والحكومة ضد مجموعة المحتجين/

الحكومة والأمن ضد مجموعة المحتجين/ الحكومة والشعب ضد ولي الأمر(خامنئي)/

الحكومة والشعب ضد المشاكل/ الحكومة والشعب ضد الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد استطاع روحاني أن يرسم معالم الهوة الفاصلة من خلال سلطة الخطاب والاختيارات اللغوية والمنطقية أعلاه، فعبر التقابلات الدلالية الأربعة أخرج نفسه من دائرة الخطاب بالرغم من أنه منشئه؛ إذ أعلن المواجهة الأولى بين المحتجين والشعب الإيراني(نحن أمام مجموعة تريد أن تخرب الأموال العامة#شعبنا يريد الهدوء والأمن)، ثم الثانية حيث وطن حكومته في صف الشعب الذي يريد الهدوء والأمن ضد المجموعة المحتجة (الحكومة لن تتحمل وحتى الشعب لن يتحمل)، أما في الثالثة، فيُظهر الحكومة والأمن قائمين من أجل مصالح الشعب ضد المجموعة بعد أن أظهرها عدوة ومهددة للأمن العام(أنا مع المسؤولين الأمنيين وقوات الشرطة)،

أما الرابعة والخامسة، فتكشفان نيته المبطنة في تصريف الورطة إلى المؤسسة الدينية، فوضع خامنئي في مواجهة مباشرة مع الحكومة والشعب(أنا ليس لدي أدنى شك بأن حكومتنا بصفتها حكومة منتخبة من الشعب – وكذلك الشعب وولي الأمر – هنا نستطيع الحكومة والشعب.. يستطيعان برحب القضاء على المشاكل)؛ فبالتركيز على هذا المقطع يظهر أن روحاني يستثني خامنئي من القدرة على حل المشاكل بدليل أنه بدأ الحديث عن الحكومة، ثم في جملة اعتراضية أدرج الشعب وولي الأمر، وبعد الاعتراض أخرج الشعب من الجملة الاعتراضية وأدخله في حكم الفاعل النحوي والواقعي بضمير المتكلم

الجمع(نستطيع)، ثم أكد ذلك بالتكرار الذي يجاور بينهما دون ذكر ولي الأمر الذي ظل داخل الجملة الاعتراضية، بل إنه وظف حتى أسلوب العدول بالانتقال من المتكلم الجمع إلى المتكلم المثنى(تستطيعان القضاء على المشاكل) حتى لا يفهم القارئ أن فعل الاستطاعة ينطبق على الأطراف الثلاثة.

وفي المواجهة السادسة، يقحم طرفا آخر هو الولايات المتحدة التي صورها عدوا للحكومة والشعب؛ وهو تصوير مرده إلى نيته في إسقاط ما غرد به الرئيس الأمريكي على إحدى صفحاته الإلكترونية. ولعله يتوجه بذلك إلى المحتجين والشعب عموما بالتحذير من عدوهم الأول وإن كان يضفي الشرعية على ما يقع، ذلك ما نوضحه بأمرين: الأول هو الحديث عن شخص الرئيس الأمريكي بالإحالة المقامية البعيدة لا بالاسم(كل يوم يخلق المشاكل، الشخص الذي يقوم بشكل يومي وبصورة مستمرة ضد الشعب الإيراني)، والأمر الثاني هو توظيفه للحجاج بالمثال الذي قدمه عند تحذيره من الدخول في مرحلة انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي(فالشعب الأمريكي لن يتحمل القلق على الظروف الاجتماعية والسياسية الموجودة)؛ وقصد روحاني أن الرئيس الأمريكي يزرع الفتنة ويستهدف الأمن الداخلي وإن كان لا يسمح بالاحتجاجات من قبل شعبه بشتى الطرق.

هكذا فرض السياق التاريخي لإيران داخليا(الأزمة الاقتصادية الاجتماعية) وخارجيا(سياق الحروب المجاورة وتربص الولايات المتحدة الأمريكية) على روحاني أن يبني المحتوى الدلالي على منطق التقابل حتى يقف هو والشعب الإيراني في الضفة البريئة، ويوطن المحتجين وولي الأمر والرئيس الأمريكي في ضفة الإدانة، وإن كان يرمي بمسؤولية تردي الأوضاع على كاهل خامنئي. كل ذلك تأتى له بالتسمية وأساليب النحو الملائمة كالتحذير والإثبات وسؤال الحجر، ثم بعض الاختيارات البلاغية كالعدول وحجة المثال. والحقيقة أنه استطاع أن يبسط هيمنته على دائرة الخطاب وشيد لنفسه موقعا بريئا في خضم كل ما يقع، كما نجح في إقرار الهوة بين المحتجين وغير المحتجين على صعيد الخطاب.

3.2.2. الهدم بالإضمار والتعدية:

لم يقتصر رئيس المؤسسة السياسية الإيرانية على فرض سلطته الخطابية على عينة الجمهور المحتج بهدم المشترك بين عناصرها، وإنما حاول هدم المعزز الخارجي الذي يصادق على أفعالهم ويحاول الدفع بهم إلى سياق الحروب الداخلية كباقي دول المنطقة. هذا المعزز هو الرئيس الأمريكي الذي أردف أربع تغريدات في الأيام الثلاثة الأولى للاحتجاجات، وكلها تدين الحكومة الإيراني في تعاملها مع

المحتجين وتؤكد حريتهم في التعبير وقبوعهم تحت هامش الفقر والجوع. لذلك وظف روحاني الإضمار ليقلل من قيمة التغريدات والموقف الأمريكي برمته. فقد أسند إليه ستة أفعال دون أن يذكر اسمه أو صفته، ففعلان في الماضي(وصل/تحدث) وثلاثة في المضارع(يخلق/يقوم/يسعى) وواحد في المستقبل(لن يستطيع). كما أنه أحال إليه في المناسبة السابعة باسم يصف المتحدَّث عنه بعديم التأثير وإن كان معلوما(الشخص الذي..).

أما على المستوى تركيب الجمل المقصود بها الرئيس الأمريكي، فالملاحظ أن أربعة من الأفعال المسندة إليه جاءت متعدية، ومن المعلوم أن التعدية تقر للفاعل القدرة والاستطاعة والوصول؛ فما الذي يستطيعه هذا الفاعل وما لا يستطيعه؟ من هذه الأفعال الأربعة ثلاثة كلها مثبتة(يخلق/يقوم/يسعى)، وفي جملها كلها يتعدى الفاعل إلى المفعول، ولكن مدلولات هذه المفاعيل جميعها هي في حقيقة الأمر ضد مصالح الشعب الإيراني(يخلق المشاكل/ يقوم.. ضد الشعب الإيراني/ يسعى ضد الشعب الإيراني). أما الفعل الخامس المتعدي إلى مفعول ذي مدلول خادم للرئيس الإيراني، فقد جاء منفيا بـ(لن) في المستقبل(لن يستطيع القول إنني مع الشعب الإيراني). من ذلك يتضح أن الخطبة السياسية انتقت الفعل المتعدي المثبت وجعلت في مفعوله الذي يصل إليه ما يشوش على المحتجين ويدعوهم إلى إعادة النظر في موقف المعزز الخارجي للمشترك الجماهيري في حاضر المرحلة التاريخية، ونفت الفعل المتعدي الذي وصل إلى مفعول مستحيل التحقق في المستقبل.

إذن، يظهر أن الخطبة السياسية قد سخرت الاختيارين التركيبي والدلالي لهدم التصور الذي بناه الجمهور المحتج عن موقف الرئيس الأمريكي بوَسَاطة الإضمار المُغرض والتعدية الفاضحة إلى الكلام الباطل وغير الصادق على حد تعبير الرئيس الإيراني.

4.2.2. الهيمنة على الخطاب بالاستمالة والتعمية:

تسعفنا المعطيات المحصل عليها من دراسة وظائف التقابل الدلالي والتعدية والإضمار وأنواع الأفعال التي مورست بها السلطة على مستوى الخطاب في فضح مساعي الهيمنة المقصودة اجتماعيا من لدن روحاني في خطبته السياسية. فقد يسرت له هذه الوظائف السلطوية القائمة على الاختيارات المعجمية والتركيبية والدلالية إمكانية الجمع بين نمط الخطاب التهديدي المتجَه به إلى المحتجين وغيرهم من

المرشحين المرتقبين للاحتجاج، ونمط آخر عنى به بقية الشعب غير المحتجة، وقد يتجه به أيضا إلى المحتجين أنفسهم في آن واحد؛ ونقصد هنا أنماط الاستمالة والتلطيف والتعمية.

كان من أول الفاعلين الاجتماعيين الذين استمالتهم خطبة روحاني كلُ الطوائف والأجنحة والشعب الإيراني قاطبة(يجب أن تشعر جميع الطوائف وجميع الأجنحة بأنهم حاضرون في وسائل الإعلام. ويجب أن يشعر الناس والشعب أيضا بأنهم يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم). وبالمقارنة بين الممارسة السلطوية التي أتاحها المعجم والتركيب والدلالة من خلال أنماط التهديد والتخيير والتسمية والإضمار من جهة، والاعتراف بأحقية هؤلاء الفاعلين الاجتماعيين من جهة ثانية، فتبرز المفارقة التي لا انسجام بين طرفيها: الحزم والتهديد ثم الاعتراف بالوجوب. وهي مفارقة نعللها بتوظيفه لأسلوب الإضراب حينما يقول مثلا: "ولكن في نفس الوقت نحن أمام مجموعة تريد أن تخرب الأموال العامة أو أن تخلق الاغتراب في المجتمع".

معنى ذلك أن دلالة الإضراب تقف دائما بين نمط الخطاب التهديدي والآخر المثالي لغاية تلطيف حدة الوعيد باستثمار إمكانات اللغة على صعيد الخطاب، وتصريف صنفين من المواقف السياسية لإدارة البلاد على صعيد الممارسة الاجتماعية، وهما الوقوف في صف الجهة غير المحتجة من الشعب ومباركة موقفها، ثم المواجهة الصارمة للجهة المحتجة. تأكيد ذلك متاح من خلال تعقب أسلوب الإضراب وما أُضرِب عنه ثم ما أُضرِب لأجله؛ فقد حضرت صيغ الإضراب في خطبة روحاني في أربع مناسبات هي:

(3) ولكن في نفس الوقت نحن أمام مجموعة تريد أن تخرب/

خلق الاغتراب في المجتمع

(4) ولكن في نفس الوقت يجب أن يكون هناك الانتقاد

(5) ولكن بالصوت والحركة في المسير من أجل حل هذه المشكلة

(6) ولكن من أجل أمن البلاد وأمننا نحن سنتصرف بنفس القدر

تتوسط أداة الإضراب(لكن) في هذه المواضع ضفتين اثنتين، إحداهما تأتي –في جميع الحالات– في إطار نمط التهديد والإدانة والثانية تنخرط في الاستمالة. بالنسبة للحالة(3)، استدرك منشئ الخطاب

بالإدانة لأعمال التخريب ورمي جمهور المحتجين بتهمة خلق الاغتراب داخل المجتمع، بعد أن أقر أحقية الجميع في الاحتجاج والمعارضة. أما في (4)، فصل الإضراب بين التأكيد على ضرورة الانتقاد للفعل السياسي واستحالة تحمُّل الحكومة والشعب لما ادعاه روحاني بالتخريب والاغتراب. وفي(5) دعا إلى أن تكون الاحتجاجات سلمية بالمسير والحركة فقط، بعد أن افترض إمكانية وجود مشكلة ما(بالإفراد لا الجمع). في حين أنه في (6) استدرك بإشعار جميع الأطراف بأن أمن البلاد مهدد وبأن الحكومة سترد الاحتجاجات، على طلبه من الشرطة التريث والصبر على ما صدر عن المتظاهرين من أعمال تخريب(على حد تعبيره).

أمكن من خلال هذا الجرد لحالات الإضراب أن نلم مجموع ما أضرب عنه ونَفصله عما أُضرب لأجله لنستبين حقيقة الموقف السياسي المُعَمى بالاستمالة المضمرة كما يلي: (7)

ما أُضرب عنه	ما أُضرب لأجله
. إقرار حق حرية التعبير . عدم القدرة على تحمل أفعال المحتجين . إمكانية وجود مشكلة ما . دعوة رجال الأمن إلى تفادي أية صدمة	. اتهام المحتجين بالتخريب وخلق الاغتراب . قبول الانتقاد للفعل السياسي . الدعوة إلى الاحتجاج بالسير والحركة فقط . اتهام المحتجين بتهديد أمن البلاد

أبرز ما يمكن ملاحظته هو أن الخطبة السياسية لم تستقر على تخصيص جهة ما بعد أداة الإضراب لأحد الموقفين السياسيين(التهديد / محاولة الثني) في الحالات الأربع، وإنما كان الاستدراك تارة لصالح الموقف الأول كما في (3) و(6)، وتارة أخرى لفائدة الموقف الثاني كما في (4) و (5). مما يزكي التساوي في هيمنة نمطي الخطاب معا(التهديد والوعيد في حالتين، ومحاولة الإقناع بالاستمالة في حالتين أخريين. وهو ما يعني تداخل الموقفين لبسط نوعين من السلط على الخطاب لتأطير النماذج الذهنية المتباينة لدى الجمهور في السياق التاريخي الراهن: فسلطة سياسية رادعة للنماذج المتظاهرة، وأخرى عاطفية مستدرِجة للجميع.

لا ننسى هنا أن ما أُضرب به في (5) كان مستدرَكا به على مجرد افتراض لإمكانية وجود مشكلة ما، إذ يسجَّل أن الخطبة أدت دلالة الافتراض بأسلوب الشرط(إذا كانت هناك مشكلة يجب على الناس أن

يبينوا ذلك بوضوح) الذي يرسخ لدى الجمهور اعتقاد أن الرئيس روحاني لا يعلم أصلا إن كان الشعب يواجه أية مشكلة. وقد استثمر في ذلك حتى اختيارات العدد والتنكير والوصف بالتنكير، لأنه قلل من حجم المشاكل التي يعاني منها الشعب الإيراني بافتراض مشكلة واحدة فقط(مشكلة) جاءت نكرة، ثم نعتها بـ(ما) النكرة التامة؛ فمن أغراض التنكير التقليل والتحقير، وروحاني هنا لم يقل(إذا كانت هناك مشاكل/المشاكل) بالجمع والتعريف، وإنما ارتأى إفرادها وتنكيرها ليقلل من حجمها وقيمتها، ثم ليظهر أنه ليس على علم بهذه المشكل وأنه مستعد لمناقشتها. كل ذلك يؤكد أنه يسوِّق جهله بالمشاكل المطروحة ويستميل المحتجين للتوضيح بالحركة والمسير فقط، أي بدون رفع شعارات مسيئة لشخصه كما تم في ساحة الاحتجاج.

إن تداخل موقفي الإدارة السياسية(التهديد والاستمالة) وانخراطهما في ممارسة السلطة على مستويي الخطاب والممارسة الاجتماعية المرتقبة من طريق التعمية والاستعمال الموارب للغة يزداد وضوحا بالانتقال إلى قضية لغوية أخرى، وهي الربط بين جملتين اثنتين تؤدي إحداهما دلالة الموقف الأول وتفيد الثانية دلالة الموقف الثاني كقوله عند تحدثه عن المشاكل وطريقة معالجتها:

(8) يجب أن توضح من خلال إطار قانوني.

أما اختيار بعض الأساليب لربما تكون خطيرة..

فالربط بأداة التفصيل(أما) يشبه حالات الاستدراك الأربع قبله؛ إذ إن الربط بالتفصيل هنا استدراك على طلب توضيح حيثيات المشاكل الاجتماعية والاقتصادية بخطورة الرد في حالة استمرار الاحتجاجات بما سماه أساليب قد تكون خطيرة. فيظهر أن هذه الجملة الأخيرة تلخص موقف الإدارة السياسة من سياق الاحتجاجات عموما، لأنه يدعو إلى توضيح المشاكل طارحا إمكانية التواصل وهو يضمر الاستمالة، وفي الآن نفسه يلوح بورقة الخطورة التي تتطلب الرد العنيف بنوع من التعمية، لأنه يشير إلى أن أساليب المحتجين تهدد أمن البلاد ومستقبله(خطيرة على أمن بلدنا ومستقبله)؛ وعساه يقصد أن ما يهدد أمن البلاد والمستقبل يستحق الردع والرد بقاطعية.

لقد استنزف روحاني ما استطاع من إمكانات اللغة والأساليب التي تؤدي نمط خطاب الاستمالة بنوع من الكبرياء، ذلك ليمحو اقتران اسمه بالأوصاف المعلنة في حقه على مستوى الممارسة الاجتماعية في سياق تاريخي تترصده أطراف معادية داخليا وخارجيا، وتحميل غيره المسؤولية الكاملة. ومن قبيل ذلك إقامتُه للمجاورة بين الشرط والتوكيد(إذا كانت هناك.. يجب) لتوجيه شعارات الجمهور نحو غيره من

المسؤولين التنفيذيين والوزراء؛ ففي جميع الصيغ الشرطية التي تحدث بها عن المشاكل والمسؤولين عن قطاعاتها، جعل جملة الشرط افتراضا لوجود مشكلة، وسخر جواب الشرط لإصدار أوامر للمسؤول المباشر عن قطاعها في إحدى عشرة صيغة:

(9) يجب أن يعرف الشعب/ يجب أن يضطلع الناس/ يجب ألا يعرفوا من السوق/
يجب أن يكون هناك استيراد قبل أن يشعر السوق/ يجب أن يشعر المسؤول بذلك/
يجب أن يتحدث رئيس المصرف المركزي/ يجب أن نبين ذلك لأفراد الشعب/
يجب أن نوضح/ يجب أن نوضح للناس/ يجب أن نتحدث إلى الناس/
يجب أن نحاور الناس.

ويتضح من خلال هذه الصيغ أن روحاني يرمي المسؤولية على عاتق رؤساء القطاعات التي تعرف أحرج المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والخدماتية، ويأمر في أجوبة الشرط بضرورة إيجاد حلول لها. غير أن ما يعزز محاولته تبرئة شخصية الرئيس السياسي هو أنه لم يقحم نفسه عند تعداده لمسميات المشاكل، بل لم يظهر شخصه حتى الوصول إلى جواب الشرط في الصيغة الشرطية السابعة حيث بدأ يدعو إلى التحاور والتواصل مع الشعب في خمس مناسبات(يجب أن نبين، يجب أن نوضح، يجب أن نوضح، يجب أن نتحدث، يجب أن نحاور). ولعله الأمر الذي لم يتيسر في الصيغ الشرطية الست الأولى حيث كان يتوجه بشكل مباشر ومفضوح إلى المسؤول عن قطاع كل مشكلة من بين المشاكل التي دعت الجمهور إلى الاحتجاج(إذا كانت هناك أنفلوانزا/ إذا كانت هناك أية بضاعة غير متوفرة/ إذا كانت هناك أية قلة عرض/ إذا كانت مشكلة على سبيل المثال في المؤسسات الائتمانية قبل أي شخص يجب أن يتحدث رئيس المصرف المركزي..). والدليل الدامغ على ذلك هو أن الإعلام الإيراني قد عرض المواقف والصور والفيديوها وتصريحات عدد من المسؤولين الحكوميين إلا موقف روحاني الذي ظل محجوبا؛ وخير مثال على ذلك وكالة أنباء فارس التي لم تعلن أية مادة إخبارية لروحاني في الموضوع طيلة أيام. ومن المؤكد أنه توخى بذلك تمرير نوع من التوبيخ والمعاتبة لكل هؤلاء المسؤولين التنفيذيين أمام أنظار الجمهور وأسماعهم على الهواء مباشرة.

وتتجلى الاستمالة هنا في خروجه مرة أخرى من صف المسؤولين عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والخدماتية، ليقف في صف الجمهور المحتج. بذلك يكون الجمهور قد تحكم بشكل كبير في

بناء نمط خطاب الاستمالة في هذه الخطبة السياسية من خلال الإضراب والتوكيد والشرط والنعت والتنكير والوصف والربط بالتفصيل. وهي كلها أساليب فرضت سلطة عاطفية وأخرى سياسية مخاتِلة.

5.2.2. إسقاط معتقد الجمهور بالتلطيف اللغوي:

تنضاف الإجراءات اللغوية أعلاه إلى إجراء آخر أشد توكيدا لارتباك الرئيس روحاني في سياق تاريخي داخلي مفاجئ للسلطة الإيرانية، وهو التلطيف اللغوي الذي كان مفضوحا في حقيقة الأمر. فبالنظر إلى ما تناقلته الوسائل الإعلامية التلفزيونية والإلكترونية من مشاهد قمع الشرطة للمحتجين، وما صرح به في خطبته السياسية، يبدو أنه حاول قصارى جهده أن يخفف من خطورة أفعال الشرطة الإيرانية في الشارع. ذلك ما يوضحه المقطع الآتي من الخطبة:

(10) أنا مع المسؤولين الأمنيين وقوات الشرطة الذين تصرفوا مع الناس تصرفا لم يكن تصرفا عنيفا. فليحافظوا على صبرهم من أجل ألا يتعرض أحد لأية صدمة ولي أيضا.

مقصد روحاني في هذا المقطع هو أن يعدِّل نظر الجمهور المحتج إلى أفعال الشرطة، وإسقاط قناعة أكدتها الممارسة الاجتماعية المتجلية في القمع وسقوط بعض القتلى والاعتقالات الواسعة. ثم التصرف في مواقف عناصر بنية الجمهور بصدد ما برره الإعلام بمواد ملموسة كالصور والفيديوهات الموثِّقة للمواجهات على أرض الواقع. لذلك اختار الفعل (تصرف) الذي يحيل إلى حسن التدبير والحكامة في التعاطي الأمني مع المسألة بدلا من أن يعبر عن ممارسات الشرطة بأفعال من قبيل(تَدخل/ واجه/ أوقف/ قَمع/ كَبح/ شَتت...). ويزداد التلطيف اللغوي وضوحا بالنظر إلى الإخبار عن هذا التصرف بنعت منفيٍّ يفيد السلم والهدوء ويُكذب الاصطدام(لم يكن تصرفا عنيفا).

نعثر في المقطع نفسه على دليل آخر يبرز ما نهجته الخطبة السياسية من سبل لإظهار موضوعية الشرطة في التعامل مع الاحتجاجات. من قبيل ذلك أن روحاني يثبت للمخاطَب أن الشرطة تحلت بالحكامة والروية في تعاطيها مع حيثيات السياق التاريخي والوضع في الشارع؛ إذ أقر بأن عناصرها كانوا صبورين على المحتجين من خلال إصداره أمرا آنيا لهم بالمحافظة على الصبر(فليحافظوا على صبرهم). وقد أدى أسلوب الأمر هنا دلالة واحدة ممتدة في الأزمنة الثلاثة: أي إنهم كانوا صبورين خلال الأيام الأولى للمظاهرات، وهم في الحاضر صبورون كذلك، وآمرهم بأن يبقوا صبورين في قادم المستجدات. ما أفاد هذا الامتداد الزمني لصبر الشرطة وسلمها هو صياغة جملة الأمر بلام الأمر والفعل

المضارع؛ فمعنى ذلك أن فعل الصبر قد انطلق من الماضي القريب وهو قائم في المضارع وسيظل كذلك في المستقبل، لأن لام الأمر هنا تفيد الاستقبال والفعل المضارع لا يفيد الانقطاع بل الاستمرار في العمل. ثم إنه لم يقل (فليصبروا)، لأن الأمر المباشر بالصبر هو تأكيد على انعدام قيامه قبل إصدار الأمر، فالمتكلم هنا يأمر بالمحافظة على شيء قائم وواقع من ذي قبل.

لعل أهم ما نستطيع أن نحصله من هذين النموذجين هو أن اللغة مارست سلطة مستعملها على مستوى الخطاب لهدم ما كان قائما في البنى الذهنية للجمهور، وتعديله أو بناء جديد قد يكون سببا في تفريق المحتجين أو إحداث تضارب الآراء في أوساطهم. فجل ما أظهرت وسائل الإعلام من العنف الموثق أصبح مهددا بالتكذيب وموضع شك من خلال وصف أعمال الشرطة بغير العنيفة ووصف عناصرها بالصبر الذي لا ينقطع.

6.2.2. الاستعطاف والتلاعب بالضمائر:

أخر روحاني الاستعطاف إلى المقطع الأخير من خطبته، ثم قرنه بإجراء لم يعمده في المقاطع الأولى، وهو بروز ضمير المتكلم المفرد في الجمل الفعلية والاسمية. فبمجرد أن فرغ من نمطي التهديد والاستمالة لتبرئة شخصه والتلويح بورقة القوة والعنف –وإنْ كان قد حجب نفسه في النمطين بعدم توظيف ما يعود عليه من الضمائر المفردة– أظهر نفسه صراحة لا تعمية، إذ يقول:

(11) ما أريد ما أريد اليوم/ أرجو/ وأقول للعائلات الكريمة/
وأنا على ثقة/ أنا ليس لدي أدنى شك/ أتمنى أن يكون هناك

ما يثير الانتباه في هذه النماذج هو اقتران إظهار منشئ الخطاب لأناه بمقطع الاستعطاف، وهو اقتران يكشف بالقوة والفعل أن روحاني يلقي الخطبة مستشعرا خطورة السياق التاريخي الحافل بالمآزق السياسية التي ينضاف إليها حديثا وعيٌ وتعبير بالسخط على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والخدماتية داخليا. بذلك يكون الجمهور المحتج ومعه بقية الشعب قد تحكموا في بنية الخطاب، فالفئة الأولى اضطرته إلى تخصيص الحيز الأكبر من خطبته لمواجهتها بالتهديد والتخيير، أما الاستمالة والاستعطاف فكانا للجميع(محتجين وغير محتجين). ولعل تكرار الفعل (أريد) بالتتابع والتجاور وإلحاقه بفعل(أرجو) خير دليل على استشعار الأزمة والإحساس بالورطة والخوف من تفاقم الوضع. ولننظر في النعوت الآتية وأصحابها:

(12) أرجو من شبابنا الأعزاء/ الشعب العزيز/ أقول للعائلات الكريمة للعائلا العزيزة للشباب أيضا/ أفراد الشعب الإيراني يختارون القانون والمنطق

إن أول ما نقف عنده في هذه النماذج هو الانتقال إلى الترجي والتمني بعد التهديد والتعمية والاستمالة، فالخطبة السياسية عرفت منحى تنازليا ونسقا هابطا على صعيد الاختيار اللغوي الأسلوبي، ومعه هبطت صرامة شخصية القائد السياسي: (13)

ومن شأن هذا الهبوط في النسق الأسلوبي والأغراض المؤدات أن يُضعف الخطبة السياسية ويُقوض السلط الممارسة لغويا وخِطابيا، خصوصا وأن السياق التاريخي يعرف تصاعدا في وتيرة الاحتجاجات الشعبية على صعيد الممارسة الاجتماعية. ونعلل ملاحظة هذا الهبوط والارتخاء الخِطابي الذي أظهره روحاني مع اقتراب إنهائه الخطبةَ بتكرار فعل(ما أريد ما أريد اليوم) الذي أدى وظيفة دلالية مستلزَمة هي التوكيد على أحق ما يصبو إليه صانع الخطبة؛ ناهيك عن انتقاء أوصاف مؤثرة تتوخى استدراج الجمهور إلى التعاطف مع المؤسسة السياسية. فقد انتقل الخطاب من خلق الهوة بالفصل بين المحتجين وبقية الشعب الإيراني في الوصف والتسمية والإضمار والتهديد والتخيير، إلى قصد الجميع(شبابنا/الشعب/العائلات/أفراد الشعب الإيراني) بأوصاف من قبيل العزة والكرم والحكمة والرشد(يختارون القانون والمنطق)، فلم يستثنِ المحتجين من خانة المخاطَبين والأوصاف المحمودة. فكيف ستكون استجابات الجمهور؟

3. توصيف الممارسة الاجتماعية:

ننتقل في هذه المحطة من توصيف الممارسة اللسانية نصا وخطابا، وربطها بمقابلاتها الحدثية التاريخية، إلى النظر في الممارسة الاجتماعية ومدى قدرتها على التحكم النسبي في متن الخطبة السياسية، ثم تغير السياق الحدثي التاريخي بعد إلقائها. وهنا تستوجب طبيعة الاشتغال في إطار المقاربة التاريخية للخطاب أن ننظر في المرحلة التي تقدمت الخطبة السياسية وما أسفرت عنه سلطتها اللغوية

الخطابية بعدها. لابد في هذا الصدد أن نستدعي في المقاربة بلاغةَ الجمهور؛ لأن الفاعل الاجتماعي الحقيقي قبل الخطبة وبعدها هو جمهور المحتجين، لنختبر قدرة الاختيارات اللغوية والخطابية للرئيس روحاني على تحقيق مراميه ورهاناته التي نطق بها توصيف الممارسة اللسانية. مع العلم أن روحاني لا يواجه بخطابه جمهورا واحدا، وإنما هي جماهير مختلفة المقاصد والبنى والطبيعة: المحتجين، وغير المحتجين، والعالم الافتراضي، والإعلام، والرأي العام الدولي، والأعداء الاستراتيجيين.

1.3. تأثير الجمهور واستجاباته:

1.1.3. تأثير الجمهور في خطبة المؤسسة السياسية:

جاءت خطبة روحاني لكبح اضطرابات تاريخية ناجمة عن تغيرات أصابت الأفكار والقناعات التي كانت راكدة منذ أحداث سنة 2009؛ فالجزء المحتج من الشعب لا يمثل فئة محدودة، وإنما المطالب المرفوعة على لسان الجمهور(بوصفه فئة محدودة ومشتتة) صوتٌ لجميع الشرائح المتضررة، خصوصا إذا ما استحضرنا أرقام البطالة ومشاكل الصحة والبيئة وندرة بعض السلع الضرورية حسب مركز الإحصاء الإيراني. إن هذا الاختلاف في الفعل الاجتماعي بين عدد محدود يحتج وآخر أكبر يراقب ويتابع هو ما تصرف في تصميم الخطبة السياسية لروحاني التي توزعت إلى خمسة مقاطع دلالية(قبول حرية التعبير وتهديد المحتجين/ إظهار عداوة الإدارة الأمريكية/ تحميل الوزراء والمسؤولين الأمنيين والتنفيذيين المسؤولية/ إخراج المؤسسة الدينية من دائرة القدرة على حل المشاكل/ استعطاف الشعب). وعبر هذه المقاطع مارست الخطبة أصنافا من السلط كهدم الوعي المشترك لدى عناصر بنية الجمهور، وتطويق المحتجين بتهم التخريب وخلق الاغتراب وتهديد أمن الوطن ومستقبله. وبذلك فالتباين في الرؤى لدى أفراد الشعب كان القاعدة الأصل التي جعلت خطاب روحاني يتأسس على الفصل بين فئات الشعب في حالة استمرار الاحتجاجات، والوصل بينها في حالة التراجع عن التظاهر.

توقفنا في توصيف الممارسة اللسانية مع روحاني عند تواريه في جميع المراحل(التهديد والتخيير والاتهام والإدانة)، وظهوره في حالتي الأمر بالتواصل مع الشعب واستعطافه. ومرد هذا الحضور اللافت لثنائية الاختفاء والظهور، إلى رغبة صانع الخطبة في استدراج المحتجين إلى سحب الأوصاف اللاذعة التي وُجهت إليه من قبل الجمهور من قبيل(الموت لروحاني/ الموت للديكتاتور/ انسحبوا من سوريا وفكروا بنا/ حولتم الإسلام إلى سلّم فأذللتم الشعب...). فبالنظر إلى زمن ولاية روحاني السياسية والرئيس أحمدي

نجاد قبله، لم يسبق للشعب الإيراني أن وجه لأي منهما مثل هذه الأوصاف والاتهامات العنيفة. لذلك، فقد أرغمته على توطين نفسه خارج خانة المسؤولين الفعليين عن المشاكل المطروحة، والحجة على ذلك في المقطع الذي اتجه فيه إلى رؤساء القطاعات الحيوية في الصيغ الشرطية أعلاه.

خيار التلطيف اللغوي بواسطة التوظيف المعجمي اللين وفعل الأمر إلى الشرطة بالمحافظة على الصبر الممتد في الأزمنة الثلاثة، أملاه السياق التاريخي للإدارة الإيرانية التي تتناقض فعلا وممارسة مع ما تدعو إليه في كثير من البؤر الساخنة في الشرق الأوسط، وخاصة في اليمن؛ فتخفيف الخطبة السياسية من حدة تدخل عناصر الشرطة فيه نوعٌ من التعمية والجحد إزاء ما وُصف بالصورة والصوت عبر القنوات والمواقع الإعلامية. فالخطبة قد نهجت التورية والحجب عمدا لتليين العلاقة مع المحتجين وتكذيب الأصداء الصادحة بالتدخل العنيف والاعتقالات وسقوط الأرواح.

ضرورة احترام القانون وحقوق الإنسان أملت على روحاني كذلك توظيف معجم يعكس الإيمان والإقرار بمشروعية التعبير عن المواقف والاعتراض من لدن الشعب. وإنما العامل الأبرز الذي رشح معجم القدرة والوجوب –مثلا– هو اتهامات رئيس الإدارة الأمريكية الذي ندد عبر الإنترنيت بالقمع الممارس على المحتجين، فجاء الاعتراف بحرية التعبير محاولة لتكذيب لهذا الموقف الأمريكي. وبنفس المنطق فرض السياق التاريخي على روحاني إعلان مواجهات بين جميع أطراف الممارسة الاجتماعية الواقعية والافتراضية والداخلية والخارجية عبر أسلوب الإضراب والتقابلات الدلالية التي أخرجت شخصه –على الأقل على مستوى الخطاب والنص– من دائرة الاتهام. فتكون الجماهير –وخاصة جمهور المحتجين– قد تدخلوا في بناء الخطبة السياسية بالتأثير العميق في البنية الذهنية والاختيارات اللسانية لصاحبها.

إن من أقوى العوامل المؤثرة في خطبة روحاني تلك المتعلقة بنسق التفكير لدى الجمهور المحتج، لأن الجماهير لا تتبنى الأفكار بشكل عقلاني، وإنما تتبناها دفعة واحدة أو ترفضها كذلك. فما رُفع من شعارات يجلي وجهة نظر الشعب الإيراني –بنسبة أكبر– إلى الإدارة الإيرانية؛ وهو ما تترجمه أوصاف وأحكام معممة من قبيل الديكتاتور والموت لروحاني وأذللتم الشعب.

لا يمكن الحديث عن تكوين ذهني للجمهور، بقدر ما يمكن الحديث عن تراكم للوعي التاريخي بالتخلي عن المواطنين لصالح القضايا الخارجية. ولذا فالشعارات والكلمات والمسيرات والتحركات تجسد

أقوى أنواع الأعاصير الشعبية. ومن ثمة فالجمهور متأثر بعوامل داخلية وأخرى خارجية أرغمت الإدارة السياسة على مجابهتها بشكل غير مباشر في شخص الجمهور المتظاهر. فباتت الخطبة السياسية تمارس محاجات عقلية تستهدف البعيد الغائر في النماذج الذهنية الإيرانية على اختلاف مواقفها إزاء الوضع. فالورطة السياسية الحقيقية هي التغيرات على صعيد الأفكار الجذرية المترسخة لدى الشعب الإيراني بفعل الاضطرابات التاريخية التي انخرطت فيها إيران منذ عقود؛ فتكون إيران قد استوردت للشعب اضطرابات خارجية أثرت إلى حد أقصى في الوضع الداخلي الذي بدأ يخسر استقراره. وتكون النتيجة الطبيعية هي اضطرابات خارجية مزعزعة للأفكار الإيجابية السائدة التي تحولت إلى مقاومة شعبية للسياسات الاقتصادية والاجتماعية داخليا، ليصل الجميع إلى مرحلة الاضطرابات التاريخية الداخلية. هذه الأفكار الإيجابية السائدة هي ما يسميها غوستاف لوبون(Gustave Le Bon) بالأفكار الكبرى الأساسية: "وفي أيامنا هذه نلاحظ أن الأفكار الكبرى الأساسية التي عاش عليها آباؤنا قد أصبحت مهتزة أكثر فأكثر. وبالتالي فإن المؤسسات التي ترتكز عليها قد أصبحت مزعزعة إلى حد كبير"[31].

نستحضر في هذا المقام موقف منظري الإنشاء والتواصل الشفهي خلال الستينات أمثال (بوث Booth)؛ فقد عني أصحاب هذا التخصص بتأثير الجمهور أثناء الإنشاء والإلقاء والتخاطب، فأكدوا أن الجمهور حاضر بأفكاره القديمة والجديدة في وعي الصانع المنشئ. وفي ذلك يقول (بوث1963): "ضع الجمهور في الاعتبار، وقم بتعديلات للتكيف مع المستمعين، والمناسبة والاستجابات المرغوبة"[32]. وصحيح أن روحاني حاول تعديل قناعات الجمهور وتكييف مواقف عناصر بنيته مع أطروحة الإدارة السياسية بالتركيز على تمتع المواطن الإيراني بالقدر الكبير من حرية التعبير، لأنه سطر أهدافا يتوقعها استجابات مرتقبة من الشعب الإيراني كالانصياع لمضامين خطبته والتخلي عن الشعارات الحادة والمحرجة، ثم نيله عطف المواطنين بمحاولة التأثير في وطنيتهم وانتمائهم.

2.1.3. بلاغة الجمهور وتأجيج الصراع بين الخطبة الدينية والخطبة السياسية:

نعد أخطر تأثير صادر عن الجمهور الإيراني المحتج تلك القدرة غير المقصودة على جر المؤسسة السياسية والأخرى الدينية إلى المواجهة غير المعلنة ولا المقصودة، فمن بين مقاطع خطبة روحاني نلفي واحدا متضمنا لإحدى محاولات الخطيب لتبرئة نفسه وتقديمها بوصفها الأقدرَ على حل

المشاكل وتجاوز الأزمة. وأصدق دليل على ذلك هو تصريفه للورطة السياسية الداخلية إلى المؤسسة الدينية:

(14) أنا ليس لدي أدنى شك بأن حكومتنا بصفتها حكومة منتخبة من الشعب – وكذلك الشعب وولي الأمر – هنا نستطيع الحكومة والشعب.. يستطيعان برحب القضاء على المشاكل

يظهر هذا المقطع أن روحاني نفي عن خامنئي القدرة على حل المشاكل بحجة أنه استهله بالحديث عن الحكومة، ثم داخل جملة اعتراضية أدرج الشعب وولي الأمر، وبعدها أخرج الشعب من الجملة الاعتراضية وأدخله في حكم الفاعل بضمير المتكلم الجمع(نستطيع). وكرر ما يدل عليه وعلى الشعب(الحكومة والشعب) دون ذكر ولي الأمر. بل إنه عَدَلَ عن ضمير المتكلم الجمع إلى المتكلم المثنى(يستطيعان القضاء على المشاكل) كي لا يفهم القارئ أن فعل الاستطاعة ينطبق على الأطراف الثلاثة، وإنما على اثنين. وتترجم اختيارات العدول والاعتراض والتكرار في هذا المقطع رغبة روحاني في توريط خامنئي ووضعه تحت مجهر الفئة المحتجة والإعلام.

إن هذه الاختيارات المقصودة ونفي قدرة ولي الأمر على حل المشاكل نتيجة لتأثير حدة الأوصاف القدحية التي خص بها الجمهورُ روحاني دون خامنئي، وهنا عوض الحديث عن استجابات الجمهور ينبغي أن نتحدث عن استجابات الخطاب لتأثير بلاغة الجمهور الذي دفع صاحب الخطبة إلى قصد المؤسسة الدينية مباشرة. ويمتد مفعول تأثير الجمهور إلى الخطبة الدينية كذلك، ففي خطاب خامنئي[33] بتاريخ 2018/01/09 في ذكرى الثورة الإيرانية التي تزامنت مع الاحتجاجات، لم تذخر المؤسسة الدينية جهدا في الرد المبالغ فيه على روحاني . لننظر في بعض النماذج من خطبة خامنئي:

(15) . من بين آلاف المدراء قد يكون هناك عشرة أشخاص أو اثنا عشر شخصا فاسدين.

. لا شك أن هناك عدة قضاة غير صالحين.

. نثر الأموال بلا حساب ولا كتاب لن يصل بنا إلى نتيجة.

. إنني أُكثر من التنبيه والتذكير.

. حين ترون أنني أقول شيئا في العلن بعض الأحيان فهذا لا يشكل

حتى واحد بالعشرة من تذكيراتنا وتعنيفاتنا وتحذيراتنا لهؤلاء السادة.

يطفو إلى سطح الممارسة الخطابية صراعٌ غير مباشر بين المؤسسة الدينية والمؤسسة السياسية، فالنماذج أعلاه تلخص ردود أفعال خامنئي تجاه موقف روحاني من ولي الأمر وانعدام قدرته على حل المشاكل. إذ إن توجهه بأصابع الاتهام إلى المدراء والقضاة الفاسدين، وفضح نثر أموال الدولة تعسفا، ثم الإخبار بقيام المؤسسة الدينية بالمراقبة المستمرة إدانةٌ فعلية وصريحة للمؤسسة السياسية التي يجدر بها أن تمنع مثل هذه الخروقات، لكنها غير مباشرة. هكذا فإن تأثير بلاغة الجمهور لم يبلغ الخطبة السياسية فقط، وإنما تجاوزها إلى الخطبة الدينية كذلك؛ فإذا كان روحاني يتجرد مما وُجه إليه من اتهامات وأوصاف سلبية ويوجهها للمؤسسة الدينية بالاختيار اللساني، فإن خامنئي كان صريحا وواضحا في ردها إليه، بل كشف عن مواطن الضعف السياسية لا الدينية. ولعل الجمهور قد تسبب في مسلسل من الكر والفر بين المؤسستين على مستوى الممارسة الخطابية، وقد تكون له جولات أخرى مستقبلا.

2.3. استجابات شبه نهائية:

كشف تحليل الممارسة اللسانية عن توزيع روحاني مقاطع خطبته السياسية بين موقفين: تهديد المحتجين وتخييرهم بين الكف عن التظاهر واستقرار الأوضاع والشروع في إيجاد حلول للمشاكل العالقة، ثم استمالة مجموع الشعب واستعطافه للتراجع والتنبيه إلى ضلوع أعداء إيران في تأزيم الوضع. وقد سخر لكل تلك الرهانات ما أمكن من طاقات اللغة على صعيد النص والخطاب. كما أظهر تحليل الممارسة الاجتماعية قبل الخطبة السياسية أن بلاغة الجمهور كانت جد مؤثرة في تصميمها وبنائها، وفي تشكيل موقف المؤسسة السياسية. غير أن مرحلة ما بعد إلقاء خطبة روحاني تؤكد أن كل ما بذله رئيس السلطة السياسية على صعيد الخطاب لم يوصله إلى تحقيق مراميه الفعلية، بل إنه زاد من حدة التظاهر.

يؤكد واقع المظاهرات الشعبية بعد خطبة روحاني أنه لم يحقق أية نتائج مسطرة من لدنه أو السلط التي مارسها باللغة على مستوى الخطاب؛ إذ لم يبدِ الجمهور أية استجابة، بل واجه مضامين الخطبة بالمقاومة. ومن مظاهر مقاومة الجمهور لخطبة روحاني نذكر تزايد أعداد المتظاهرين واتساع رقعة الاحتجاجات لتشمل قرابة سبعين مدينة خلال اليوم الذي ألقيت فيه الخطبة. كما احتدم الصراع بين المتظاهرين والشرطة وشملت الاعتقالات أعدادا كبيرة[34]. فلماذا؟

في خطبة روحاني ضعف على مستوى البناء وتصميم النص والأداء الخِطابي، وأبرز الخلل في ذلك هو دفاعه المستمر عن براءته مما آل إليه الوضع مع تحميل غيره المسؤولية، وهو الموقف الذي استمات في فرضه من خلال سلطة اللغة وأساليبها. ثم مشكل الفصل بين المحتجين وبقية الشعب عند التهديد والوعيد بالإضراب والتقابل الدلالي والمعجم الإقصائي، ومخاطبة الجميع في سياقات الاستعطاف والاستمالة. إن العنوان الأبرز لاستجابات الجمهور هو فشل الموقف البلاغي لروحاني الذي طالما حاول التأثير في المخاطَب وهدم قناعاته المشتركة وبناء أخرى من طريق التمويه والاستدراج. وهنا يظهر أن للجمهور بلاغة مقاوِمة لبلاغة الخطيب؛ بل إن بلاغة الجمهور أقوى من بلاغة الخطيب.

إن الأساليب الموظفة في الخطبة كالإضراب والتكرار والوصف والأمر، والصيغ الشرطية والعلاقات المعجمية والدلالية كالتقابل الدلالي وألفاظ القدرة والوجوب والهدم والترهيب والاستعطاف، لم تثمر أي شيء من انتظارات روحاني، لأنها لم تلامس حاجات الشعب ولم تتعزز ببعض الحجج المنطقية الملائمة لطبيعة الجمهور الذي توحده مطالب موضوعية. ثم إن الاختيارات اللسانية لم تؤدي المنتظر منها لأسباب ليست منها، بل لأسباب في شخصية الخطيب الذي كان مجرد محرك منشط مؤقت[35]؛ إذ إنه حاول التأثير في البعد العاطفي لمخاطَبه دون انتقاء المثير العاطفي الملائم. كما أنه لم يلبث أن أساء إلى المحتجين في عديد من المواضع حيث ميزهم عن بقية الشعب إلى حد اعتبارهم أعداء للوطن يهددون أمنه ويخربون الممتلكات ويخلقون الاغتراب. كما أن التلطيف اللغوي الذي أظهر الشرطة بريئة أشعر الجمهور بالتعمية المقصودة وإخفاء الحقيقة من قبل رئيس البلاد؛ وفي ذلك استضعاف لعناصر بنية الجمهور الذين احتجوا من أجل مطالب اقتصادية فقوبلوا بقمع مادي ورمزي.

لقد أثمرت الخطبة السياسية نتائج عكسية بسبب الخلل الذي اعتراها، إذ تحولت مطالب الجمهور من الاحتجاج على الأوضاع الاقتصادية والسياسية إلى رفع شعارات سياسية مناهضة للنظام السياسي الإيراني مثل: (لعبة الإصلاحيين الأصوليين انتهت/ الموت للديكتاتور(في إشارة إلى روحاني)..). ومن النتائج العكسية كذلك انخراط طلاب الجامعات في المظاهرات وإطلاق شعارات الحركة الخضراء سنة 2009. كما تمت مهاجمة مقرات للحرس الثوري ومراكز للشرطة في العاصمة طهران. إن ضعف خطبة روحاني وانكشاف خطة وضع قطيعة بين المحتجين وغير المحتجين رفعت من سقف الاحتجاجات وأشكالها، إذ أُضرمت النيران في بعض الشوارع ودخل المحتجون في مواجهات مع قوات الأمن، مع

التنديد الحاد بالصفير واللافتات والصور ورشق قوات مكافحة الشغب، ناهيك عن الاحتجاج الرمزي المحرج على مواقع التواصل الاجتماعي.

وعموما، لا يمكن لخطبة سياسية قائمة على الفصل والوصل والتمييز بين عناصر بنية الجمهور أن تحقق ما رامته من الأهداف والأفكار؛ كما أن منشئها لم ينتبه إلى النسق الهابط لموقفه السياسي الذي بدأ بالتهديد ثم انحدر إلى التحدير فالاستمالة ليُختتم بالترجي والاستعطاف. ومن المؤكد أن مقطعها الأخير الذي خُصص لاستعطاف الشعب الإيراني شبابا وعائلات هو ما فضح ضعف الموقف السياسي داخليا، وتخوفَ مصدره من المستقبل القريب؛ إذ لم يُبدِ أية شجاعة بلاغية تبقي على النسق الذي استهل به الخطبة. من جهة أخرى، لم يستطع روحاني أن يلامس لاوعي الجمهور، لأنه: "حتى بعد أن تتعرض الفكرة لتحولات تجعلها في متناول أيدي الجماهير فإنها لا تفعل فعلها ولا تؤثر إلا بعد أن تدخل إلى اللاوعي وتصبح عاطفة متماسكة أو متينة مبلورة من قبل مجريات مختلفة"[36]؛ بل إنه راهن على استعطاف الشعب واستمالته من معبر المحاجات العقلية التي لا تنسجم مع أنماط التهديد والاستعطاف.

والحق أن وتيرة الاحتجاجات انخفضت حتى اختفت من الشارع في اتجاه نهاية شهر يناير، ولكن ليس استجابة من الجمهور لخطبة روحاني، وإنما بفضل تأثيرات خطبة المؤسسة الدينية التي استدركت على مواطن الضعف الغزيرة في الخطبة السياسية. ومادامت الخطبة السياسية قد فشلت في تهدئة الجمهور وثنيه قبل الخطبة السياسي، فيمكن أن نقول إن استجابات الجمهور المقاوِمة كانت شبه نهائية، أو لنقل إن الاحتجاجات انتصرت سياسيا وأُخمدت دينيا بفعل رمزية ولاية الفقيه واستثمار خامنئي للدين الشعبي الذي أقدره على الظفر بصراع البلاغات الثلاث: بلاغة الجمهور المحتج، بلاغة الخطبة السياسية، وبلاغة الخطبة الدينية.

خاتمة:

أسعفنا مقترح الدكتور عماد عبد اللطيف الدامج بين آليات التحليل النقدي للخطاب والتخصص المعاصر الذي دعا إليه في جل كتاباته التطبيقية والنظرية تحت مسمى بلاغة الجمهور/المخاطب، في استنطاق الممارسة الخطابية في خطبة روحاني السياسية و أفعال الجمهور؛ فاتضح من خلال تحليل الممارسة اللسانية وعلاقتها بالممارسة الاجتماعية لعناصر بنية الجمهور قبل الإلقاء وبعده، أن للمخاطَب بلاغة مزاحمة لبلاغة صناع الخطب، وسلطة أقوى من سلطتهم. فقد تبين في متن هذه الدراسة أن الجمهور الإيراني المحتج كان حاضرا في بناء الخطبة السياسية واختياراتها اللغوية النصية والخطابية، كما تبين أن السلط الممارسة عبر هذه الاختيارات اصطدمت بسلطة جماعية ومقاومة جماهيرية كشفت الخلل في أداء منشئ الخطبة ومحاولاته لتضليل النماذج الإدراكية، وتغيير الأفكار واقتيادها إلى بناء وعي جديد خادم لمصالحه الآنية.

بمقدورنا أن نطمئن إلى هذا المقترح الموفق بين التحليل النقدي للخطاب وبلاغة الجمهور في ما يتعلق بالفجوة الواقعة فعلا في تحليل الممارسة الاجتماعية لدى رواد (CDA)، فقد أمكننا مع بلاغة الجمهور تتبع تأثيرات الجمهور واستجاباته التي أثرت عملية نقد الممارسة اللسانية نصا وخطابا، أن نفسر عدم قدرة الخطبة السياسية المدروسة في تحقيق مراميها ورهاناتها بفعل ما أظهره الجمهور من مواجهة بلاغية قبل المواجهة المادية والسلوكية على صعيد شوارع إيران.

ونسجل أن بلاغة الجمهور تسببت في إحراج الخطاب الرسمي للمؤسسة السياسية الإيرانية، وأرغمته على بذل قصارى الجهد البلاغي والخطابي لتعديل القناعات وبناء أخرى بديلة. كما أحرجته بالمقاومة البلاغية المتمثلة في عدم الرضوخ لأنماط خطابات التهديد والتخيير والوعيد، وكشفت ضعف الموقف السياسي من خلال ضعف الموقف البلاغي في متن الخطبة. غير أننا نشير إلى أن ما لم يتحقق للخطبة السياسية مع روحاني، قد تحقق للخطبة الدينية مع خامنئي. لذلك، ستكون لنا دراسة أخرى في الموضوع نفسه، ولكن بالتركيز على نجاح الخطبة الدينية وآليات نجاحها وفرضها سلطة أوقى من سلطة الجمهور.

الهوامش:

* محمد يطاوي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المملكة المغربية.

1 ألقى روحاني هذه الخطبة ارتجالا يوم 31 دجنبر 2017 على الساعة العاشرة مساء، وبُثَّ على الهواء مباشرة في التلفزيوني الإيراني الرسمي، وفي قناة الجزيرة مباشر مع الترجمة العربية؛ والخطاب منشور صورةً وصوتا وترجمة على موقع القناة بتاريخ 31 دجنبر 2017: (http:///www.aljazeera.net/news/international). كما نُشر على الموقع الرسمي لليوتيوب في اليوم نفسه على الرابط: (https://www.youtube.com/watch?v=tREgARx27S4&t=133s). وإن كانت الخطبة مرتجلة، فإن العناصر التي طرحتها وناقشتها تؤكد أنها معدة مسبقا؛ ذلك بدليل أن روحاني توجه إلى جميع المشاركين بالترتيب وبحس الأهمية، ورد على المحتجين ورئيس الولايات المتحدة الأمريكية وكذا الفئة غير المحتجة من الإيرانيين. دون أن ننسى ما قصد به المسؤولين التنفيذيين والوزراء والشرطة والمؤسسة الدينية.

2 اختصار لـ: Critical Discourse Analysis

3 اختصار لـ : Dsicourse Historical Approach.

4 محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018، ص359.

5 المرجع السابق، ص366.

6 المرجع السابق، ص.ص 261-262.

7 المرجع السابق، ص.ص 363-378.

8 Ruth Vodak and Martin Reisigl, Ltd 2001: Discourse and Racism, in Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers, p383.

9 Paul Baker and Sibonile Ellece, 2011: Key Terms in Discourse Analysis, p27.

10 محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، أبريل 2018، ص360.

11 Gilbert.Wiess and Ruth Wodak, 2003: Critical Discourse Analysis, Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan, p02.

12 Halliday- M.A.K.: 1978, "an interpretation of the functional relationship between language and social structure", p60.

13 Ruth Vodak and Martin Reisigl, Ltd 2001: Discourse and Racism, p385.

14 Ruth Vodak, 2002, Aspects of critical Discourse Analysis, Zeitschrift fur Angewandte Linguistk, Lancaster University.

15 أُنظر: محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، أبريل 2018، ص358.

16 Paul Baker and Sibonile Ellece, 2011: Key Terms in Discourse Analysis, p26.

17 محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، أبريل 2018، ص367.

18 Ruth Vodak and Martin Reisigl, Ltd 2001: Discourse and Racism, p385.

19 توماس أ. سلوان، ترجمة نخبة، موسوعة البلاغة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، مراجعة عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016، الجزء الأول، ص 216.

20 المرجع السابق، ص.ص 221-222.

21 عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، العدد 83-84، خريف/شتاء 2012-2013، ص 517.

22 أوفى مثال على ذلك ما قاله رالف والدو إميرسون: "تتناثر أكبر هدايا المجتمع تحت أقدام الخطيب الناجح، ويخفت صوت كل شهرة عند ذكر شهرته، إنه الحاكم الحقيقي". أُنظر:
Ralph Waldo Emerson, The Essays of Ralph Waldo Emerson, Introduction by Alfred Kazin, Harvard University Press, April 1987, p 87.

23 عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، العدد 83-84، خريف/شتاء 2012-2013، ص 517.

24 عماد عبد اللطيف، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، مجلة الخطاب، العدد 14، الجزائر، مارس 2013.

25 عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، العدد 83-84، خريف/شتاء 2012-2013.

26 نورمان فيركلف أول رواد نظرية التحليل النقدي للخطاب، وأحد الباحثين الذين انخرطوا في اجتماع أمستردام سنة 1989 حيث وضع الحجر الأساس لهذه النظرية. للمزيد أُنظر: محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، العدد الثامن، أبريل 2018.

27 عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، ص 512.

28 المرجع السابق، ص 512.

29 أُنظر: http://www.alarabiya.net/ar/iran/2017/12/28/html.

وأُنظر أيضا: http:///www.aljazeera.net/news/international/2017/12/31

30 من أمثلة التعريفات التي قدمت لاستفهام الحجر أو المنع، ما ساقه الجويني في كتابه الكافية في الجدل: "ينقسم سؤال السائل إلى وجوه: منها ما يعين الحكم عليه بالسؤال، فيقول: النبيذ حرام أم حلال؟ فيجب كون جوابه جزءًا من السؤال؛ فتقول: حلال أو حرام؟ فهذا يسمى سؤال حجر أو منع." للمزيد أُنظر:
الجويني، عبد الملك، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979، ص80.

31 غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، 1991، ص82.

32 توماس أ. سلوان، ترجمة نخبة، موسوعة البلاغة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، مراجعة عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016، ج1، ص 225.

33 نُشرت خطبة خامنئي مترجمة إلى اللغة العربية بالموقع المسمى بـ(الموقع الرسمي لقائد الثورة الإيرانية): http://arabic.khamenei.ir/news/2485

34 أُنظر: مركز الروابط للدراسات الاستراتيجية والسياسية: http://rawabetcenter.com/archives/58879/amp.

وأُنظر أيضا: http://www.bbc.com/arabic/middleast-42544838

35 ميز غوستاف لوبون في كتابه "سيكولوجية الجماهير" بين القائد المحرك المؤقت، والآخر النشط الدائم؛ ويهمنا في هذا الصدد الصنف الأول من محركي الجماهير، أي المؤقت الذي وصفه بذي الإرادة الآنية الذي لا يمارس الخطاب إلا بالعنف والتظاهر بالشجاعة والجرأة، والذي ليست له طاقة دائمة على التحريك، وإنما هي طاقة تؤول إلى الضعف المدهش دائما. ص130.

36 غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، 1991، ص84.

ملحق: خطبة روحاني

.. يجب أن تشعر جميع الطوائف وجميع الأجنحة بأنهم حاضرون في وسائل الإعلام، ويجب أن يشعر الناس والشعب أيضا بأنهم يستطيعون أن يعبروا عن آرائهم، ولكن في نفس الوقت نحن أمام مجموعة تريد أن تخرب الأموال العامة أو أن تعمل على خلق الاغتراب في المجتمع. بالتأكيد الحكومة لن تتحمل وحتى الشعب لن يتحمل مثل هذه الأمور. شعبنا يريد الهدوء ويريد الأمن، ولكن في نفس الوقت يجب أن يكون هناك.. في الانتقاد موجود نعم، بلسان (صالح النعم): إذا كانت هناك مشكلة يجب على الناس أن يبينوا ذلك بوضوح، ولكن بالصوت والحركة في المسير من أجل حل هذه المشكلة. هل إذا كان هناك عدم استقرار في المجتمع، سيكون عملنا أفضل، وستكون ظروف الناس الاقتصادية أفضل للناس؟ يجب ألا نسمح على الإطلاق لأمريكا التي توجد داخلها وعلى أرضها كل هذه المشكلات، فالشعب الأمريكي لن يتحمل القلق على الظروف الاجتماعية والسياسية الموجودة.

منذ اليوم الأول الذي وصل فيه إلى البيت الأبيض تحدث ضد الشعب الإيراني فيما يتعلق باستصدار التأشيرات وكذلك المسائل المالية وكذلك المسائل المصرفية. كل يوم يخلق المشاكل، الشخص الذي يقوم بشكل يومي وبصورة مستمرة ضد الشعب الإيراني ويسعى ضد الشعب الإيراني. بالتأكيد هذا لن يستطيع أن يقول بأنني مع الشعب الإيراني. بالتأكيد هناك دولة أو دولتان طوال هذه السنوات كانتا تتحركان ضد الشعب الإيراني طوال هذه السنوات، لا تستطيع هذه الدول أن تقولا بأننا مع الشعب الإيراني.

أنا مع المسؤولين الأمنيين وقوات الشرطة الذين تصرفوا مع الناس تصرفا لم يكن تصرفا عنيفا. فليحافظوا على صبرهم من أجل ألا يتعرض أحد لأية صدمة ولي أيضا. ولكن من أجل أمن البلاد وأمننا نحن سنتصرف بنفس القدر، نحن يجب أن نكون قاطعين/حاسمين أيضا، ونتصرف بقاطعية/بحزم أيضا.

وهنا، الآن، أقول للوزراء ونواب الوزراء وجميع المسؤولين التنفيذيين، أقول لهم: يجب أن نضع الأمور مع الناس يوميا، إذا كانت هناك أية مسألة أو أي موضوع يجب أن يعرف الشعب، إذا كانت هناك إنفلونزا على سبيل المثال، وتتسبب في إحداث مشكلة للماشية، يجب أن يضطلع الناس في تلك اللحظة، ويجب ألا يعرفوا من السوق أو بعد أسبوع على سبيل المثال. إذا كانت هناك أي بضاعة غير

متوفرة بالقدر الكافي، يجب أن يكون هناك استيراد قبل أن يشعر السوق بذلك، هناك قلة عرض يجب أن يشعر المسؤول بذلك ويقوم بسد هذه الفجوة. إذا كانت هناك مشكلة على سبيل المثال في المؤسسات الائتمانية غير القانونية، قبل أي شخص، يجب أن يتحدث رئيس المصرف المركزي ويوضح ذلك للشعب. ونحن إذا قمنا بأي خطوة، خاصة إذا كانت خطوة إيجابية مع السعي الدؤوب، يجب أن نبين ذلك لأفراد الشعب. وإذا كانت هناك مشكلة البيئة، يجب أن نوضَح، يجب أن نوضح للناس، يجب أن نتحدث إلى الناس، ويجب أن نحاور الناس. لا يمكن أي مسؤول بلا صلة وبلا توضيح للشعب، أن يكون موفقا في عمله، ليس هناك أي مسؤول.

ما أريد ما أريد اليوم، أن أرجو من شبابنا الأعزاء ومن الشعب العزيز في هذه الظروف الحساسة في المنطقة وفي البلاد: يجب أن نكون يقظين أكثر. وأقول للعائلات الكريمة للعائلات العزيزة.. لأصدقائهم.. للشباب ،أيضا، هؤلاء الذين يريدون أن ينتقدوا والذين لديهم مشاكل: نحن رأينا أنه خلال الأسابيع الماضية هناك بعض المجموعات التي لديها مشاكل، تحدثت وأبدت وجهات نظرها، فلم تكن بيننا أية مشكلة. فتوضيح المشاكل.. توضيح المواضيع التي تخص مجموعة ما أو البلد، يجب أن توضح من خلال إطار قانوني. أما اختيار بعض الأساليب الأخرى لربما تكون خطيرة على أمن بلدنا ومستقبله. وأنا على ثقة وأنا على ثقة بأن أفراد الشعب الإيراني يختارون القانون والمنطق. في هاته الأجواء التي يستطيع العدو أن يستغلها استغلالا سيئا. وبعض الأفراد الذين يستفيدون من هذه الظروف، يجب ألا نسمح لهذه الظروف بأن تتبلور هذه الظروف في البلاد.

الطريق هي مساعدة الناس وحضور الناس، وكذلك إبداء وجهات نظرهم، وكذلك النظر إلى المستقبل، والنظر إلى النتائج في المستقبل.

أيضا، أنا ليس لدي أدنى شك بأن حكومتنا بصفتها حكومة منتخبة من الشعب، وكذلك الشعب وولي الأمر، هنا نستطيع الحكومة والشعب.. تستطيعان برحب القضاء على المشاكل، وحل هذه المشاكل. وبعض المشكلات التي تحتاج إلى فترة زمنية، يجب أن نتحلى بالصبر . وكذلك، آمل بأن نوضح لجميع الناس بأن ظروف النقد أيضا.. والاعتراض في إطار القانون حاضرة، هناك حرية لهذا الأساس، الجميع أحرار في ذلك.

بالتأكيد أجواء الفوضى وأجواء الشغب.. شعبنا لن يقبل بذلك. أتمنى أن يكون هناك السعي الدؤوب من قبل الجميع من أجل إيران المستقبل والقضاء على المشاكل. والسلام عليكم ورحمة الله.

قائمة المراجع:

. توماس أ. سلوان، ترجمة نخبة، موسوعة البلاغة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، مراجعة عماد عبد اللطيف ومصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2016.

. الجويني، عبد الملك، الكافية في الجدل، تحقيق فوقية حسين محمود، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1979.

. عماد عبد اللطيف، تحليل الخطاب بين بلاغة الجمهور وسيميائية الأيقونات الاجتماعية، مجلة فصول، العدد 83-84، خريف/شتاء 2012-2013

. عماد عبد اللطيف، إطار مقترح لتحليل الخطاب التراثي تطبيقا على خطب حادثة السقيفة، مجلة الخطاب، العدد 14، الجزائر، مارس 2013.

. غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي، ط1، بيروت، 1991.

. يطاوي، محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب(في الأصول ونقد المناهج)، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018.

. Baker Paul and Sibonile Ellece, 2011: Key Terms in Discourse Analysis.

. Gilbert.Wiess and Ruth Wodak, 2003: Critical Discourse Analysis, Theory and Interdisciplinarity, Palgrave Macmillan.

. Halliday- M.A.K.: 1978, "an interpretation of the functional relationship between language and social structure".

. Ralph Waldo Emerson, The Essays of Ralph Waldo Emerson, Intruduction by Alfred Kazin, Havard University Press, April 1987.

. Ruth Vodak and Martin Reisigl, Ltd 2001: Discourse and Racism, in Handbook of Discourse Analysis, Blackwell Publishers.

. Ruth Vodak, 2002, Aspects of critical Discourse Analysis, Zeitschrift fur Angewandte Linguistk, Lancaster University.

مصادر الخطبتين:

1. خطبة روحاني:

– التلفزيون الإيراني الرسمي بتاريخ 31 دجنبر 2018 على الساعة العاشرة مساء بتوقيت مكة المكرمة

– قناة الجزيرة مباشر بتاريخ 31 دجنبر 2018 على الساعة العاشرة مساء بتوقيت مكة المكرمة

- موقع قناة الجزيرة الإخبارية: http:///www.aljazeera.net/news/international

- موقع اليوتيوب: https://www.youtube.com/watch?v=tREgARx27S4&t=133s

2. خطبة خامنئي: الموقع المسمى بـ(الموقع الرسمي لقائد الثورة الإيرانية): http://arabic.khamenei.ir/news/2485 .

الاستعارة في الخطاب السياسي

مقاربة نقدية لخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار"

حسين البعطاوي *

"الاستعارات نادرة ما تكون محايدة: فإنشاء شيء بمفردات شيء آخر تنتج عنه وجهة نظر معينة حول الشيء موضوع التساؤل" إيلينا سيمينو، الاستعارة في الخطاب، ص80.

ملخص:

تتناول هذه الدراسة الاستعارةَ في الخطاب السياسي، متخذةً من استعارة "ما دون البغل وفوق الحمار" متنا للمقاربة اللغوية النقدية، وناظرةً إليها بوصفها خطابا تضليليا مؤثرا في المستمع، ومستندا إلى سلطة المرجع الفكري: "الحديث النبوي". لا تنظر الدراسة إلى الخطاب الاستعاري باعتباره عنصرا لغويا تزيينيا، وإنما تقارب –بالتحليل والنقد– ما استثمره من استراتيجيات خِطابية. كما تنفتح هذه المقاربة على ما تلقته الاستعارة المذكورة من انتقادات جماهيرية في الفضاء الافتراضي، وبعض أنماط الاستعارات البصرية والكاريكاتورية المقاوِمة والساخرة.

الكلمات المفتاحية: الاستعارة؛ الخطاب السياسي؛ البلاغة؛ التأثير؛ السلطة.

The Metaphor in political discourse

A Critical Approach to the Discourse "Without the mule and above the donkey"

Houssine El-Bouataoui

Abstract:
This study deals the metaphor in political discourse, taking the metaphor of "without mule and above donkeys" as corpus to critical linguistic approach, looking it as an Influential manipulator discourse to listener, based on the power of the intellectual reference "Hadith". The study does not consider metaphoric discourse as a Decorative linguistic element, But rather, it will treat - in analysis and criticism - what he invested in the strategies of rhetoric. This approach also opens up to the received metaphor from mass criticism in the virtual space, and some forms of visual and caricature metaphors which are Resistant and sarcastic.

Keywords: Metaphor; political discourse; rhetoric; influence; Power.

المقدمة:

تنطلق هذه الدراسة من افتراض أن استعارة **"ما دون البغل وفوق الحمار"** عند منشئها في الخطاب السياسي، ليست واقعة تخييلية أو عملا تزيينيا فحسب، وإنما هي إجراء بلاغي وإقناعي تأسس عنده بالانفتاح على نصوص واستعارات أخرى تمثل مرجعيته الفكرية، بقصد التأثير في المستمع وإقناعه، مخرجا إياه من مقام التواصل الخطابي، إلى مقام المناورة الخطابية واللعب على ما أتاحته الاستعارة الميتة للنص الديني (الحديث النبوي). فكيف جرى التمثيل لها إذن؟ وكيف أوقعت في فخ البلاغة؟ وما حدودها بين الخطاب السابق واللاحق؟ وكيف تم نقدها في الخطاب الكاريكاتوري الساخر؟

وحتى لا تكون دراستنا موغلة في التنظير، راسخة في التجريد، ارتأينا أن نصل هذا بذاك، وذلك بالوقوف على عمل "جورج لايكوف ومارك جونسون" في كتابهما "الاستعارات التي نحيا بها"؛ اعتبارا للنزعة النقدية التي أُعيدت فيها الاستعارة إلى المجال الإنساني التداولي لكونها جزءا من نسقنا التصوري، وهي تؤدي دورا تواصليا نعيش ونحيا ونتعامل بها يوميا، وليست ظاهرة لغوية بلاغية قائمة على المشابهة(تشبيه شيء بشيء).

ولتبيان كيفية اشتغال الاستعارة في الخطاب، آثرنا مقاربة خطاب رئيس الحكومة المغربية السابق عبد الإله بنكيران، في حديثه عن وضعيته المالية، واستفادته من المعاش الاستثنائي، مركزين بالأساس على استعارة نص الحديث النبوي "ما دون البغل وفوق الحمار"، وإسقاطها على وضعيته المالية، باحثين عن أوجه هذه الاستعارة قديما وحديثا مع الحدث نفسه "معاش الوزراء"، وهي استعارة أوقعته في فخ البلاغة، بعد المناورة. ومنفتحين أيضا على الخطاب المستعار نفسه لكن هذه المرة من بوابة الفضاء الإلكتروني وما أتاحه الرسم الكاريكاتوري الساخر من طرائق خطابية لنقده وتفكيكه.

وقد استأنسنا في كشف تجليات الخطاب المستعار، وتبيان آليات اشتغاله في المحورين التطبيقيين، بمنهج البلاغة النقدية باعتبارها علما مختصا في تحليل الخطابات التي تناشد الاحتمال أو التأثير أو هما معا.

1. الاستعارة معطى إنسانيا ثقافيا:

تعتبر الاستعارة من المواضيع المهمة التي لاقت الاهتمام البارز لدى عدد من المفكرين والنقاد، والفلاسفة الغربيين، الذين أعادوا إليها بريقها باعتبارها معطى حياتيا تصوريا، يعيش مع الإنسان، وبها يبرر وجوده[1].

يأتي رد الاعتبار للاستعارة بعد الإنجازات التي حققها الفكر الأرسطي، لكونه من واضعي الأسس الجنينية الأولى للتفكير البلاغي. وتوالت الأبحاث والدراسات بعده عند كل من فونتانيي (Fontanie)، ورومان جاكبسون (R. Jakobson)، وميشيل لوغرين (M. Lougrin)، وجون كوهن (Jon Kohen)، وجماعة مو البلجيكية (Group Mu). فالاستعارة بدءا من أرسطو لم تتجاوز المعطى اللغوي، باعتبارها محسنا وطلاء أسلوبيا، وزخرفا خطابيا، تنتقل بالمعنى وتحمله إلى معنى آخر بناء على القياس والتناسب[2]. والاستعارة عنده تنطوي على وظيفتين اثنتين جاءتا ممثلتين في كتابيه "الخطابة/فن الشعر": وظيفة بلاغية غايتها الإقناع persuasion، ووظيفة شعرية ترمو التطهير (Catharsis) من الانفعالات، وإثارة الشفقة والخوف[3].

وإذا كان أرسطو قد شيد أركان الاستعارة ومهد لها، فإن ضرورة تجاوز هذا الإرث ورد الاعتبار لها بما هي نظرية معرفية تصورية تفاعلية، تتضمن كل الممارسات الثقافية والاجتماعية للإنسان، أُنيط إلى جورج لايكوف ومارك جونسون (j. Lakoff, M. Johnson). ويعتبر الكتاب المشترك "الاستعارات التي نحيا بها"، وكتاب "حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتل"، بالإضافة إلى "النظرية المعاصرة للاستعارة" أهم العناصر الممثلة للتجربة[4].

تعد كتابات لايكوف وجونسون في حقل الاستعارة، من المقاربات المؤسسة في هذا الحقل، وذلك بالنظر إلى الرؤية النقدية التي أعادوا فيها قراءة موروث الاستعارة، وبخاصة أصحاب النزعة الموضوعية الذين كرسوا اختزالها على أنها ذات ارتباط لغوي فحسب: "تمثل الاستعارة بالنسبة لعدد كبير من الناس أمرا مرتبطا بالخيال الشعري والزخرف البلاغي. إنها تتعلق في نظرهم بالاستعمالات اللغوية غير العادية، وليس بالاستعمالات العادية. وعلاوة على ذلك يعتقد الناس أن الاستعارة خاصية لغوية تنصب على الألفاظ، وليس على التفكير أو الأنشطة. ولهذا يظن أغلب الناس أنه بالإمكان الاستغناء عن الاستعارة دون جهد كبير"[5]. لقد أتى هذا الرد إذن عندهما انطلاقا من هيمنة الأسلوب المزخرف، وديكتاتورية العبارة المستعارة، التي يعرف حدّها ومنتهاها. ليس لها إلا وظيفة اختزالية تزيينية. ولذلك فهي عندهما "لا تعلم شيئا (مسلمة الإعلام الصفر)، المجاز لا يعلم شيئا، إن له وظيفة زخرفية، وهو موجه للإمتاع بترتيب الكلام، وتلوين الخطاب، وكساء العبارة المجردة"[6]. هذا التلوين قد يأتي عبارة عن حصيلة نقل انزياحات من جنس إلى نوع، أو من نوع إلى جنس، أو من نوع إلى نوع، أو يتم بحسب درجة التناسب بين العبارات[7]؛ وبالرغم من النقل، فهي تبقى أسيرة اللفظ الواحد، متضمنة معنيين: الأول حقيقي، والثاني مجازي.

وأمام هذا الوضع المختزل، أتت الوجهة النقدية عند لايكوف وجونسون، مخالفة للاعتقاد السائد، معتبرة الاستعارة نتاجا ثقافيا وثيق الصلة بحياة الإنسان ونشاطاتهم اليومية، والذهنية. إنها قبل أن تكون لغة فهي تصور ذهني معيش: "لن تكون الاستعارة مظهرا لغويا صرفا، بل تكون مظهرا ثقافيا عاما تتأثر به اللغة كما تتأثر به سائر المظاهر الأخرى مثل السلوكات والأنشطة التي نباشرها"[8]. ويضيف في نفس السياق قائلا:" يتبدى أن النظرية الكلاسيكية زائفة (false) ذلك أن التعميمات الحاكمة للتعبيرات الاستعارية الشعرية ليست في اللغة، وإنما في الفكر: إنها ترسيمات عامة (General Mappings) عبر مجالات تصورية (Conceptual Domains)،..

باختصار، إن موقع الاستعارة ليس في اللغة على الإطلاق، وإنما في الكيفية التي نمفهم[9] (Conceptualize) بها مجالا ذهنيا ما وفقا لمجال آخر"[10]. إن السلوك البشري مظهر لغوي مصور، وتصويره يُبْنى استعاريا في لا شعوره، وكل ما يحوم حوله ويتفاعل معه، فهو مبني على علاقة استعارية ذهنية متفاعلة مع باقي خصائص العالم الخارجي. وبهذا يكون الزمن، والأوضاع، والتغير، والسببية، والغرض، كلها مفاهيم استعارية، وهي تُنتج حسبه بوصفها ترسيمات عابرة للمجالات: "إن جزءا هاما من تجاربنا وسلوكاتنا وانفعالاتنا، استعاري من حيث طبيعته"[11]. وبهذا المعنى لا يمكن للجسد أن يوجد بمعزل عن الذهن، لأنه بكل بساطة يلعب دورا مهما بحواسه في إدراك العالم.

ولذلك نراه يقف ندا قويا، وخصما معاندا معارضا، ومنتقدا للنظريات الكلاسيكية (النزعة الذاتية والنزعة الموضوعية)، بعد أن وقف على مكامن الخلل فيها. ومن بين التعليقات التي أوردها على أصحاب النزعة الموضوعية:

. تأتي المعرفة بصفة مباشرة أو غير مباشرة بالنسبة للتجريبيين من الإدراك الحسي، وتبنى انطلاقا من الإحساسات.

. يرتبط الصدق عندهم بمطابقة الألفاظ للعالم

. تقوم نظرية المعنى في اللغة الطبيعية على نظرية الصدق، وهي مستقلة عن الطريقة التي يفهم بها الناس اللغة ويستعملونها.

. المعنى عنصر موضوعي، ومستقل عن ما يفهمه الإنسان.

. الجمل موضوعات مجردة.

. يحصل المعنى انطلاقا من معاني الجمل وبنائها.

. التواصل عنصر ثابت ينقله المتكلم نحو السامع.

. فهم معنى ما مرتبط بالاعتقاد والسياق الذي قيل فيه[12].

ويضيف في نفس السياق، منتقدا، مبينا عيوب اللغات الطبيعية، وزيف افتراضاتها: "كل لغة الحياة اليومية العرفية حرفية، وليس فيها ما هو استعاري. كل موضوع من موضوعات البحث يمكن أن يكون مفهوما بشكل حرفي، بدون استعارة. اللغة الحرفية فقط يمكن أن تكون –تبعا للظروف– حقيقية أو زائفة. كل التحديدات المعطاة في معجم لغة ما حرفية، وليست استعارية. المفاهيم المستخدمة في نحو لغة ما كلها حرفية، وليس منها ما هو استعاري"[13].

واضح إذن، ومن خلال ما تقدم إيلاء العنصر الداخلي للفهم المرتبط بالأشياء (الموضوعات)، وما يبني معانيها. فكل ما يجده الفرد دالا أو ذا معنى، مرتبط أساسا في بنية الألفاظ؛ أي ما يعتقده الناس عن هذا الملفوظ مع مراعاة سياق تشكيله. ذلك أن العقل البشري حسب هذا التوجه مجرد تصوير مخيِّل، يعتمد اللغة الخيالية ولذلك كانت الاستعارة عندهم أشبه بـ" جرثومة لغوية لا تسهم في إنتاج الحقيقة والمعرفة، فسبيلها سبيل الوهم والخداع والإغواء"[14] وليس آلة تبدع الواقع. أو لنقل بعبارة أخرى إنها استعارة ميتة.

إن عملية إبداع الواقع، وبناء نظرية جديدة تُرجع الاستعارة إلى مكانتها الحقيقية، وإلى موقعها الطبيعي؛ حيث الذهن والمعرفة والمعاني والأفكار، تتفاعل مع المحيط الخارجي، تنطلق عندهما –لايكوف وجونسون– من النزعة التجريبية التفاعلية؛ تفاعل بين الماضي الذي جعل من الاستعارة خصيصة لغوية خيالية، ومن الحاضر المعتمد على العقل.

تتحقق النزعة التجريبية، من خلال تفاعل ثقافي عبر تقاطع مجالات مختلفة في الفكر البشري: نزعة حسحركية، نزعة عاطفية، نزعة اجتماعية، نزعة فردية واجتماعية تتكون لدينا انطلاقا من تفاعلنا مع الغير باعتبارنا كائنات تعيش في إطار مجتمع بشري يتفاعل في ما بينه دوما.

إن اعتماد "النزعة التجريبية" كعنصر مخلخل للنزعة الموضوعية والذاتية، التي انطلقت مع أرسطو، وتكرست مع توالي الأبحاث، تعيق المشروع المعرفي التجريبي، الذي حاول أن يقترحاه (لايكوف وجونسون)، كمشروع بديل ومتمم، قائم على هدم التسيُّد الذي بَنَتْهُ النزعتان أو الأسطورتان[15].

من أجل هذا كله، فهما حينما ينتقدان، يعطيان بديلا يزكي تصورهما، منطلقين من أمثلة توضح الرؤية. نقتطف نصوصا وعلى كثرتها من الكتاب للاستشهاد: "إن الألفاظ والعبارات التي نعتبرها أمثلة للتصورات الاستعارية (مثل: هضم في قولنا: "لا يمكن أن أهضم هذا الكلام") لن يعتبرها ذوو النزعة الموضوعية أبدا أمثلة للاستعارة الحية. إن هضم في نظرهم لها معنيان حرفيان (موضوعيان) مختلفان

متمايزان: هضم$_1$ للأكل، وهضم$_2$ للأفكار، وبحسب هذا التفسير، ستكون لدينا كلمتان مشتركتان لفظيا كما في اللفظين عين (=منبع الماء، وحاسة البصر).. وقد يسلم أصحاب النزعة الموضوعية، بدون شك، بأن للفظين هضم$_1$ وهضم$_2$ معنيين متشابهين، وأن هذه المشابهة هي أساس الاستعارة الأصلية، وهذا يفسر برأيه، استعمال نفس اللفظ للتعبير عن معنيين مختلفين: فقد كان الأمر بدءا استعارة، ثم أصبحت هذه الاستعارة جزءا من اللغة متواضعا عليه، ثم ماتت وأصبحت متحجرة. وبذلك أضحى معناها الاستعاري القديم معنى حرفيا جديدا"[16].

من منطوق النص أعلاه، تتأسس نظرة نقدية للنزعة الموضوعية اعتبارا لتمكينها الأمثلة المقدمة على اللغة وما يقابلها من معنى، والذي بدوره يعطي فهما ينتج صادقا يطابق بمقتضاه العالم الخارجي. فما يهم إذن أصحاب هذا التوجه المعتمد على اللغة الطبيعية هو "الصدق في المشابهة" وهو يستقل عن الفهم البشري ويتجرد منه، ويحمل على معنى ثابت ينقله المتكلم إلى المخاطب (هضم$_1$=الأكل، هضم$_1$=الأفكار). فكلمة هضم التي استعيرت للدلالة على الأفكار، استعارة ميتة بحسب الاستعارة التصورية؛ لأنها –أي النزعة الموضوعية– أعطت للاستعمال الاستعاري لعبارة هضم الفكرة[17] معنى واحدا. فالصدق الذي أنتج عن هذا المثال ينظر إليه من زاوية النسق التصوري النسبي، لأنه وبكل بساطة "لا يوجد صدق موضوعي تماما أو غير مشروط أو مطلق"[18].

وعليه، ومن أجل عدم تموضع هذا المثال المقدم، تستدعي الاستعارة التصورية استعارات أخرى تتأسس على مشابهات قائمة بينها، ملازمة للأفكار والذهن البشري، من قبيل: استعارات (الأفكار أغذية)، استعارة (الذهن وعاء)، استعارة (المجرى)، وكلها استعارات أنطولوجية[19] تفاعلية "تعكس الكيفية التي ندرك بها الظاهرة الذهنية"[20]، كما تعكس نسقنا التصوري:

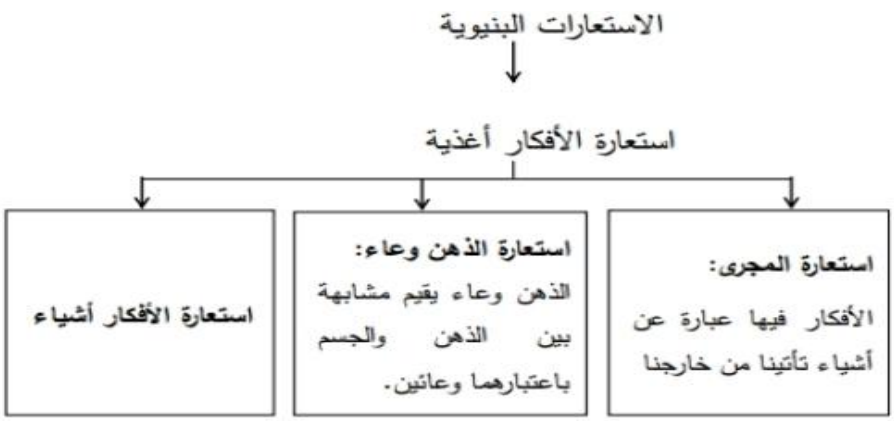

وما قيل عن النزعة الموضوعية، ينساق إلى أصحاب الأسطورة الذاتية. تتأسس الموضوعات عندها على الشكل الآتي:

. الأنشطة اليومية للإنسان ترتبط بالحواس، وما يدركه، وما يقوله الآخر رهين بتسليم حواسنا وحدسنا.

. كل ما يرتبط بحياتنا اليومية يتعلق بالأحاسيس والذوق الجمالي، والممارسة الأخلاقية، والوعي الروحي، وكلها عناصر خالصة.

. الوصول إلى الحقيقة والوعي يتم عبر الخيال وليس العقل. فبالخيال نفهم حقيقة مشاعرنا وحدسنا[21].

تبرز إذن المواضيع عند النزعة الذاتية وكسابقتها، انطلاقا من أن الفهم البشري يتشكل من الحدس المرتبط بالحواس والوعي، في إطار نسق مطلق ومحايد. في حين أنها –على عكس ذلك– أغفلت الطريقة التي نفهم بها العالم وما يتيحه محيطنا الثقافي والفيزيائي[22]، وبعبارة أخرى إن الفهم الاستعاري حتى وإن كان خياليا يفترض بمقابله وجود اقتضاء استعاري خيالي يدخل في ما هو عقلي.

وتبقى هذه النزعة عموما، واحدة من الرؤى النقدية الداعية إلى إعادة قراءة الإرث البلاغي، الذي حشر البلاغة في الصور، والمحسنات البديعية، حيث أضحت مقتصرة على ما هو تخييلي، صوري، نمطي، منحصرة فقط في التعليم، ومبعدة البعد الإنساني الخَطابي التداولي، من مجال اهتمامها. وما فعله لايكوف وجونسون، يعد وسيلة معرفية تتيح لنا معرفة حصول المعاني عند الإنسان، وكذا كيفية اشتغالها، وذلك انطلاقا من خصوصية الإدراك البشري، وعوامل التجربة والتفاعل الثقافي فيه، وكلها عمليات استعارية نحيا بها.

2. نحو نقد خِطابي للاستعارة في الخطاب السياسي

1.2. سقوط الخطاب السياسي في فخ البلاغة:

كيف يقع الخطاب السياسي في فخ البلاغة؟ وما دور البلاغة في مثل هذه الحالة؟

البلاغة والخطاب السياسي وجهان لعملة واحدة. ينهل الخطيب السياسي من الصور (Figures)[23] والمحسنات البديعية، والاستعارات والتشبيهات، محاولة منه لإيجاد الدلالة السياسية اللازمة لقضيته أو إشكاليته؛ فالخطاب السياسي ليس عملا برهانيا حقيقيا، إنه "مزيج من العقل والأهواء، ولا نأخذ منها الأصح، لكن ما يشبه الحقيقة*(vraisemblable) أو الأوْلى بالانتقاء، ولا يأتي هذا أو ذاك لا بالبيّنات والبرهان ولا بالتجربة، لكنه يأتي بالحجاج والاقتناع (Persuasion) بواسطة فن الخطابة"[24]،

فيتم اللعب بالكلمات[25] منفتحا على حقول عدة يستعير منها ما يحقق له الغاية، وهي محاولة الإيقاع بالمستمَعauditoire [26]، متخذا لذلك مجموعة من الخصائص والاستراتيجيات الخطابية. فالمستمع – حسب الخطاب المدروس– ليس خاصا بمن حضروا من شبيبة العدالة والتنمية، لكنه يتجاوز إلى مستمع كوني يوجه إلى فحوى الخطاب كما سنرى. يأتي في مقدمتها:

. البساطة، وذلك بالاعتماد على لغة تراعي كفاءة المستمَع auditoire وقدراته المعرفية في الاستدلال، مع الأخذ في عين الاعتبار بالقيم المشتركة بين الخطيب ومستمعيه.

. أنماط الاستدلال، كل ما يُستدَّل به، من أجل بيان قوة العلة المحتج بها، وهي تنطوي على استدلال أخلاقي مرتبط بالخطيب وهيئته، واستدلال تداولي يتعلق بمدى فعالية الحجة وتأثيرها في المستمع.

. اختيار القيم، تتعلق بكيفية اختيار القيم المشتركة بين المستمَع حتى تتناسب مع قناعاته وقناعة أنصاره، مع مراعاة العوائق التي تحول دون تحقيق هذا المطلب.

. الحجج: كل ما يؤهل الخطيب للإقناع، والحث على فعل أمر ما، وتتأرجح هذه الحجج بين حجج درامية، عبر تثوير عواطف المستمع، أو بالاعتماد على مقومات أسلوبية، وحجج إيتوسية موزعة على إيتوس السلطة كشخص، وإيتوس السلطة كجماعة، أو حجج افتراض البديهة[27].

هذا حال البلاغة مع الخطاب السياسي في جزئها الأول، من جهة الكلام المنشأ، المرتبط بالتجميل والإعجاب والاستمالة والإقناع. أما الوجه الثاني فهو ذاك الخطاب الواصف الذي يقف على آليات اشتغاله، وكشف مزالقه، وعيوبه. يقول محمد العمري: "البلاغة تنصرف حسب السياق إلى أحد معنيين، أو إليهما معا: المعنى الأول: الكفاءة التعبيرية، أو حسن الكلام، وهما يتضمنان الفعالية والإعجاب.. والمعنى الثاني: هو العلم الذي يصف هذه الكفاءة وهذا الحسن"[28]. هكذا إذن تتحدد علاقة البلاغة بالخطاب السياسي، من جهتين: الأولى إنشاء، والثانية علم، يُسند إلى الوجهة الثانية مهمة نقد هذا الخطاب، والكشف عن المسكوت عنه؛ معيدة الخطاب الأول (المنشَأ) إلى صوابه، يكون من مهمتها إحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإرجاء العدل، كما حق لأبي حيان التوحيدي وصفها[29]. فكل ما فسُد أو اعوج يحال على محكمة البلاغة. إنها "علم الخطاب المؤثر القائم على الاحتمال"[30] والاحتمال يكون تخييلا (إغرابا)، أو تداولا (مناسبة)، كلاهما أو أحدهما.

عرفنا الآن كيف يقع الخطيب السياسي في فخ البلاغة ودورها، ومن أجل إعطاء فسحة لما قيل، سنحاول توسيع هذا الأمر على خطاب سياسي، لاقى انتشارا واسعا منذ طلقته الأولى، يتعلق الأمر بخطاب رئيس الحكومة المغربية السابق عبد الإله بنكيران[31].

2.2. توصيف المتن المدروس:

تقترح الدراسة الاشتغال بمنهج بلاغي في إطار محدود على خطابه[32]، مركزين بالأساس على الاستعارات التي جاءت مضمنة في خطابه، وبدرجة أكبر كلامه عن معاشه الاستثنائي الذي حظي به (ابتداء من الدقيقة 38 و22 ثانية).

ودرءا لأي خوض في العموميات التي يمكن أن تزيغ بالدراسة عن إطار البحث العلمي الرصين، وتفاديا للخوض مع الخائضين، ومحاولة دفع التهمة من عدمها، تبقى الدراسة في منأى عن كل هذا. وتأخذ من البلاغة شعارا يدافع عنها، جراء الهروب بالخطاب من فلك إلى فلك.

ويأتي اختيارنا لهذا الخطاب متنا للدراسة والتحليل، لسببين اثنين: بعدما لوحظت ازدواجية في الخطاب السياسي الذي حمله بين دفتيه؛ خطاب سابق مدافع عن أحقية الفقراء والمساكين والضعفاء في الاستفادة من المعاش الذي يتقاضاه الوزراء[33] بمجرد انتهاء مهمتهم الحكومية، وخطاب آني ادعى فيه عبد الإله بنكيران بأحقيته في المعاش لتدهور وضعيته المعيشية، فضلا عن تضفير الخطابين استعارة دينية وُظفت بطريقة دغمائية، مع اختلاف المقامين (كنائب برلماني، وكرئيس للحكومة). يبقى إذن التحايل على النص الديني لخدمة مآرب شخصية من سمات الخطابين، رغم بعد الزمن بينهما.

يعود الخطاب موضوع التحليل إلى تاريخ 21 يناير 2019 وهو عبارة عن كلمة ألقاها عبد الإله بنكيران أمام شبيبة العدالة والتنمية بمنزله بالرباط. تمتد مدته الزمنية في ساعة وتسع وعشرين دقيقة. تعددت مواضيعه بين التذكير بالمسار التاريخي لحزب العدالة والتنمية، وبين التوعية والتوجيه والإرشاد، وتارة يذكر بمسار الزعيم القائد للحزب، وأحيان أخرى تدخل الدعابة متسللة إلى الأسماع كعادته.

يتميز هذا الخطاب في عمومه بطول مدته الزمنية، وبعفويته اللغوية(عامية خالصة، أو فصحى، أو المزج بينهما)، وبساطته التعبيرية (أحيانا) من جهة الأسلوب، مع الارتجالية في العرض؛ ارتجالية جعلت المخاطِب عبد الإله بنكيران يتيه بين المواضيع دون أي رابط بينهما. فالخطاب لم يأتِ بموجب ذكرى أو مناسبة، ولذلك طغى عليه تعدد المواضيع مع قلة مستمعيه. وعليه، يمكن أن نصف هذا الخطاب بأنه أقرب ما يكون إلى خطاب دعوي؛ يجمع بين خطاب الفقيه الداعية (الجلباب والعمامة، والسبحة...) و خطاب السياسي الذي خبر مجال السياسة من بوابة رئيس الحكومة السابق.

أتى هذا الخطاب ثاوياً لتسع وحدات خطابية، كل وحدة خطابية تستقل بموضوعها، قد تأتي سردا تاريخيا أو توجيها دعويا، أو تطاوساً خطابيا، أو هم جميعا. وتتوزع مضامين الخطاب كما ما يلي:

1. (بداية الخطاب/15:59 دقيقة): صورة الخطاب الدّعوي

2. (19:56/17:00 دقيقة): صورة الخطيب بين الأمس واليوم
3. (20:58/20:00 دقيقة): عودة الخطاب الدّعوي
4. (35:15/21:00 دقيقة): سرديات الماضي: من الدعوة (الدين) إلى السياسة (الآخر هو الجحيم)
5. (38:00/37:15 دقيقة) الرجم بالغيب
6. (49:39/38:22 دقيقة) الخطاب السياسي بين الأمس واليوم: استعارة المرجع الديني لخطاب ما دون البغل وفوق الحمار
7. (49:50/ 51:32 دقيقة) الاحتجاج المقيد
8. (1:00:36/51:48 دقيقة) العودة لخطاب المعاش: محاولة للتبرير
9. (1:29:23/1:01:17 دقيقة) عموميات.

نكتفي بتسليط الضوء على ثلاث وحدات خطابية (وحدة6، وحدة7، وحدة8) وذلك لإثارتها موضوعا قديما، أعيد إنتاجه بخطاب ملتبس، يتعلق الأمر بمعاش الوزراء الذي كان عبد الإله بنكيران من أبرز المدافعين عنه، قبل أن يسقط في فخ المناورة الخطابية، باستعارة مستدعاه.

3.2. الاستعارة في الخطاب بين الأمس واليوم:

تتحدد فاعلية الخطاب السياسي عند عبد الإله بنكيران في كونه يمارس سلطته السياسية من اتجاه ديني مستدعٍ، معتمدا على تحريك الأحداث والوقائع عن طريق اللغة التي يروم من خلالها تحقيق مقاصده. فالاستعارة من المرجع الديني، لسلطته وقوته[34] (Autority and Power) على الفئات الاجتماعية التي تمثل هذا النوع، ولقدرته على الإلزام بالتسليم والطاعة، كثيرا ما تعتبر طريقا عنده في العبور والاختيار والتمثيل، وتستدعى إما تكتيكا أو ضرورة خطابية. غير أن هذا الاستدعاء الاستعاري عادة ما يجعله في منأى عن تحديات عصره. لأنه "خطاب يبحث عن واقع آخر"[35] مما يسقطه في فخ الشبهة.

يقع الخطاب في بداية الوحدة الخطابية السادسة بعد الفراغ من توجيه كلمات ينصح فيها عبد الإله بنكيران شبيبة العدالة والتنمية، متمما إياه بخطاب (راجما بالغيب)[36] أطرافا غير محددة في التشهير بعناصر من حزبه[37] بقوله:

(1) بالعامية: "بقاو شادين في القيم ديالكم، بقاو شادين في الله، وخليهم صيفطو المصورين لباريس ولإسطنبول"

بالفصحى: "اثبتوا على قيمكم، اثبتوا على دين الله، واتركوهم يبعثون مصورين لباريس وإسطنبول"

ينتقل منشئ الخطاب بعد هذا المقطع إلى الحديث عن سر حصوله على معاشه الاستثنائي:

(2) بالعامية: "قَالُو آهْ عْلاَشْ عَنْدُو مَعَاشْ اسْتِثْنَائِي؟ جِيتُو عَوَّالِينْ عْلَى هَادْ السُّؤَالْ يَاكُو (مخاطبا الشبيبة) (ضحك وقهقهة)، أَجِي لَهْنَايَ وَصْرَفْ عْلَى هَادْ الدَّارْ، وْمَلِّي تْكَمَّلْ أَدِّي لِّي بْقَا صَافِي. دَابَا هَادْ النَّاسْ دَابَا كَيْجَبْدُونِي، وْأَنَا كَنْحَاوَلْ نَتْجَنَّبْ وَلَكِنْ كَنْكُونْ مَضْطَرْ".

بالفصحى: "قالوا لماذا يملك معاشا استثنائيا؟ أتيتم لأجل هذا السؤال، أليس كذلك؟ (ضحك وقهقهة) تعال هنا (يقصد منزله) وأنفق على هذا المنزل، وعندما تنتهي خذ ما تبقى. هؤلاء الأشخاص يستفزونني وأنا أحاول أن أتجنبهم، ولكن أكون مضطرا".

بنى المنشئ[38] خطابه هنا على مسلَّمة خطابية حاول أن يستثمرها لبناء استراتيجيته الخطابية (باتوس)، صِيغت بادئ الأمر عبر سؤال (أتيتم لأجل هذا السؤال أليس كذلك؟)؛ وهو سؤال توخى التسليم[39] بعد الاختيار الذي رام من خلاله التحقق من كون المستمعين على بيِّنة من الأمر. السؤال معزول عن السياق بالنظر إلى ما تقدمه، لكنه توخى المعرفة بأطروحة (Thesis) المعاش الاستثنائي بعد أن جرى تقليبها مباشرة بمقدمة استقرائية تحاول أن تزيل اللبس عن دعوى مطالبة المنشئ بمعاشه كرئيس سابق للحكومة، متراوحة ألفاظها بين التصريح والإيحاء والتمويه: "أَجِي لَهْنَايَ وَصْرَفْ عْلَى هَادْ الدَّارْ، وْمَلِّي تْكَمَّلْ أَدِّي لِّي بْقَا صَافِي= تعال هنا وأنفق على هذا المنزل، وعندما تنتهي خذ ما تبقى".

حين يدرس المنشئ ذاكرة مخاطبيه، ويسجل احتياجاتهم وما يرغبون فيه، ويحدد القيم المشتركة بينهم التي يدافعون عنها، يسهل التأثير والإقناع: "فلكي نقنع الجماهير ينبغي أولا أن نفهم العواطف الجياشة في صدورها، وأن نتظاهر بأننا نشاطرها إياها ثم نحاول بعدئذ أن نغيرها عن طريق إثارة بعض الصور المحرضة، بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء. وينبغي أن نعرف في كل لحظة كيف نتراجع، ثم ينبغي بشكل خاص أن نخمن في كل لحظة العواطف التي نولدها.. فالخطيب الذي يتبع فكره الخاص وليس فكر المستمعين يفقد بسبب ذلك وحده كل تأثير"[40]؛ وهو تأثير يغتال العقل، لأنه

يقتات على حساب المرجعية التواصلية، ويضمنها قاموسا سياسيا مستحدثا معارف جديدة عنده. تلكم هي بعض من الصفات المستحدثة عند المنشئ.

يستمد الخطاب مرجعيته من الذاكرة الجماعية للمغاربة، ويبني عليها استراتيجيته الخطابية، في سبيل الاستفادة من المعاش الاستثنائي الذي حظي به:

(3) بالعامية: "دَابَا هَادُو مَشْطُونِينْ بِيَّا كُنْتْ تَنْضَنْ غَايْحَشْمُو لِأَنَّ الْمَصْدَرْ دْيَالْ هَادْ الْمَعَاشْ الإِسْتِثْنَائِي هُوَ سِيدْنَا اللهْ نَصْرُو جَلاَلَة الْمَلِك حَفِظَهُ اللهْ, قُلْتْ أَنَا زَعْمَا يْلاَ مَا وَقْرُونِيشْ أَنَا غَايْوَقْرُو سِيدْنَا حْشُومَا وَاحَدْ الْحَاجَة الْقَرَارْ دْيَالْهَا جَاتْ مَنْ عَنْدْ سِيدْنَا آشْ دَاهُمْ دَخْلَو فِيهَا وَلَيْتِي بْنَادَمْ لِي مَتَيْحْشَمْشْ مَتَيْحْشَمْشْ"

بالفصحى: "إنهم منشغلون بي كنت أظن أنهم سيستحيون لأن مصدر هذا المعاش الاستثنائي هو سيدنا نصره الله جلالة الملك حفظه الله، قلت إذا لم يوقرونني سيوقرون سيدنا. يا للخجل.. قرار أتى من عند سيدنا ما الداعي لكي يخوضوا فيه، لكن الإنسان الذي لا يستحي لا يستحي"

لم تعد ذات منشئ الخطاب –حسب الخطاب في (3)– تنتقي من أجل الفقراء والمساكين والأرامل والضعفاء الذين كان يدافع عنهم من ذي قبل، في سبيل حصول الوزراء على المعاشات والتعويضات. فقد تنازل عن أديولوجيته (عقيدته الدينية) من أجل مصلحته لأنه الأولى. لذلك نصّب نفسه في مرتبة عليا(عبد الإله بنكيران= المحمي من لدن الملك) أو "أنا رئيس الحكومة ديالو/أنا رئيس حكومته".

لم يعد قائما على صرخة غرغرة البطن في قبة البرلمان يوم كان نائبا برلمانيا، واقفا في وجه استفادة الوزراء من المعاش، عندما وضع في الواجهة آنذاك ضعفاء وفقراء المسلمين، كحلقة يدافع عنها. قال بعظمة لسانه مستندا إلى حجة تاريخية مستقاة من سيرة عمر بن الخطاب:

(4) بالعامية: "..وَلَكِنْ حْنَا مِنَ النَّاحِيَةِ الْمَبْدَئِيَّة بِكُلِّ صَرَاحَة السّيدْ الوَزِيرْ حْنَا دَوْلَة إِسْلاَمِيَّة وَالْمَبَادِئْ دْيَالْ الإِسْلاَمْ كَتَبْنِي عْلَى أَنَّ الدَّوْلَة كَتَهْتَمْ أَوَّلْ مَاكَتَهْتَمْ بَالضُّعَفَاءْ وَالْفُقَرَاءْ وَالْمُحْتَاجِينْ. سِيدْنَا عُمَرْ كَانْ كَيْقُولْ لْكَرْشُو مَلِّي كَتَبْدَا تْغَرْغَرْ غَرْغِرِي أَوْ لاَ تُغَرْغِرِي فَلَنْ تَذُوقِي سَمْنًا وَلاَ زَيْتًا حَتَّى يَشْبَعَ فُقَرَاءُ الْمُسْلِمِينَ أَوْ ضَرَرُ الْمُسْلِمِينَ. فَبَاشْ تَهْتَمُّو بَالْوُزَرَاءْ السَّابِقِينْ مَزْيَانْ وَلَكِنْ

خَاصْ أَوّلاً وَقَبْلَ كُلِّ شَيْء تَهْتَمُّو بْغُمُومْ الْمُوَاطِنِينْ الَّذِينَ لَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْء أَمَّا الْوُزَرَاءْ السَّابِقُونْ فَالْغَالِبْ يَتَدَبَّرُونَ شُؤُونَهُمْ.."

بالفصحى: "ولكن نحن من الناحية المبدئية بكل صراحة السيد الوزير(مخاطبا وزير العدل آنذاك فتح الله ولعلو) نحن دولة إسلامية، ومبادئ الاسلام تبنى على أن الدولة أول ما تهتم بهم هم الضعفاء والفقراء والمحتاجين. سيدنا عمر كان يقول لبطنه عندما تغرغر. غرغري أو لا تغرغري فلن تذوقي سمنا ولا زيتا حتى يشبع فقراء المسلمين أو ضرر المسلمين. لأنه عندما تهتمون بالوزراء السابقون جيد، ولكن يجب أولا وقبل كل شيء الاهتمام بعموم المواطنين الذين ليس عندهم شيء، أما الوزراء فغالبا ما يتدبرون شؤونهم".

بمعارضة الخطاب في (3) ونظيره في (4)، يُطرح سؤالٌ ملح للغاية: هل شبع فقراء المسلمين وضررهم –بلغة المتحاور المدافع اليوم– حتى يشبع منشئ الخطاب (عبد الإله بنكيران)؟ سؤال ربما كان في حاجة لإسقاطه أيضا عندما طالب بحقه في المعاش كرئيس سابق للحكومة. هكذا تقتضي مصلحة الخطاب (المبدئية كما صورها) حتى لا يقع في فخ البلاغة والازدواجية بين الفكر (العقيدة الدينية) والممارسة (علم السياسة)، وبين ممارسة السياسة (بوصفها توجها دينيا).

يمارس منشئ الخطاب المدروس السياسة من خلال استدراج الذاكرة (التخييلية/العقدية) لا من داخل الخطاب السياسي القائم على برنامج سياسي واضح. إنه يسيِّسُ خطابه على ألسنة غيره، فبدل أن يتكلم (عبد الإله بنكيران) يسخر لذلك شخصا آخر (مستدعا/مستعارا)، شبيها بعمل بيدبا الفيلسوف الهندي في كليلة ودمنة، وقصة الأسد والثور، والبوم والغربان، والقرد والغيلم.

استنادا إلى وجهة النظر الغابرة هذه، يصنف التصور الظاهر (الآني) لخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار" نفسه في خانة أقصى حالات التشخيص والتجريد بوصفه خطابا أسطوريا وخرافيا، متكئًا على معجم "الحيوانات" بغية وصل الحاضر السياسي بالماضي العقائدي. فالاستعارة تكتمل عنده عبر إسقاط فعل متخيل، على فعل الاعتداد بالتملك (الكمي والكيفي). لكنه خطاب لا يزيل لبسه سوى بالبرهنة وبالأرقام والحساب. فما هو هذا المخلوق الأسطوري الذي يتخذ الموقع بين فوق ودون، ولا يشبه البغل لكنه قريب من الحمار؟ قد تحتاج الإجابة قفزةً إلى زمن الأساطير اليونانية والميتولوجيا الغريبة الخرافية.

إذا كان الاستدعاء الاستعاري لخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار"، قد تأسس عند منشئ الخطاب على المزاوجة بين تسميتين اثنتين: الأولى تعتبر قاعدة مرجعية يمتح منها، وهي قاعدة بيانية سلطوية ومؤثرة في مضمونها عند المستمَع، معتمدا تضمينا خطابيا مؤلفا بين القولين. والثانية قاعدة مضمرة يحاول أن يطمس بها الحقيقة. فالتخييل الذي تضمنته القاعدة المرجعية لحديث الإسراء والمعراج[41]، زُجَّ به ليقابل النص السياسي مع قلب نص الحديث جهلا منه، أو خيانة للمضمون الحرفي.

وعليه، فعندما يُقرن البعد الديني بالبعد السياسي عبر إسقاط لغوي لخطاب مستعار، فمعنى ذلك أن الخطيب يجنح إلى التمويه والتضليل والهروب بالخطاب من فلك الإجابة الصريحة، ومحاولة تعطيل الرد بعد أن أدخل المستمَع في إيجاد حقيقة هذا الشيء المتحدث عنه "تقريبا تقريبا تقريبا"؛ تعطيل يجعله منشغلا بالبحث عن قدر هذا البغل/الحمار؟ طوله؟ حجمه؟ لونه؟ شكله؟

إن استخدام استعارة الخطاب "ما دون البغل وفوق الحمار" استعارة اتجاهية بتحديد لايكوف، مرتبطة بالتفضية[42]، بُرمج فيها المعنى فوق–تحت؛ وهو معنى حيادي يستلهم فعل التخييل، معتمدا سياقا خطابيا آخر للإنجاز، لا يخدم أي معنى في كلتا الحالتين. فالوصف التخييلي "الماورائي" للبراق (الدابة) في حادثة الإسراء والمعراج مجرد. ومن ثم إذا استطاعت الذاكرة تمثيل (تخيلا) هذا البغل والحمار فكريا أو لاشعوريا، آن له أن يقارن أو يحاول المقارنة. وهي معادلة خطابية مستعصية، ومناورة خطابية أكسبته التباسا وغموضا، جراء تصديره لموقف ديني باحثا عن إضفاء المشروعية (Relegitimation) على الراهنية السياسية، بالرغم من الدعابة الرامية إلى التزيين، متبوعا بقهقهة لم تشفع له:

(5) بالعامية: (قهقهة).. كَانْ السِّي الزِّيتُونِي اللهْ يرَحْمُو دْيَالْ فَاسْ وَلْدُو مَلِّي خْرَجْ مَسْكِينْ مَنْ السِّجْنْ، كَانْ تَيْجِي عَنْدِي رَجُلْ بَسِيطْ جِدًا رَجُلْ مُؤْمِنْ مَسْكِينْ قَالِّيَا تَنَمْشِي عَنْدْ النَّاسْ دْيَالْ الأَمْنْ تَيْسَوْلُونِي كِيفْ دَايْرَا الْوَضْعِيَّة الْمَالِيَة دْيَالْكُمْ، قَالِّي تَانْقُولْهُمْ: مَا دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارْ. الَحَمْدُ للهْ عِشْنَا مَسْتُورِينْ"

بالفصحى: "(قهقهة) كان الزيتوني رحمه الله يقطن بفاس عندما أُفرج عن ابنه، كان يأتي إلي وهو رجل بسيط جدا، رجل مؤمن، قال لي: أذهب عند رجال الأمن فيسألونني: كيف هي وضعيتكم المالية؟ قال لي: أقول لهم: ما دون البغل وفوق الحمار. الحمد لله عشنا في ستر".

يتعدى الخطاب الاستعاري كونه تجميلا وتزيينا لغويا مداعبا، إلى اعتباره مكونا بنائيا ودلاليا أسهم في التأثير والإقناع، مُكثِّفا إياه في صورة كاريكاتورية هزلية (دُعابة Humor). فالدعابة الموظفة أو المستدعية هنا راعت الزمان والسياق، في كيفية تعيين الوضعية المالية أقل من وأكبر من، وهي بلاغة مراوغة تمتح من التاريخ الثقافي المشترك بين المنشئ ومحاوريه. إنها: "استراتيجية تواصلية مهمة، وفي الوقت نفسه لا تعرف الدعابة الاستقرار أو الطريق المستقيم، فتقاوم القواعد والتجريدات، وتفضل اللحظة العابرة، والظرف الملابسة للفعل.. ولكن تأثيرها عادة ما يكون مألوفا، ويمكن التنبؤ به بدرجات متفاوتة لا غير. أما بذاءتها فتزعزع القواعد الثابتة"[43]، وتبقى القاعدة الثابتة التي حاولت زعزعتها هي التصوير التقابلي المخيل لعنصري البغل والحمار والوضعية المالية.

ومهما يكن، فإن الحديث وخطاب المنشئ كليهما اعتمدا الوصف التخييلي (التقريبي) الذي لا يطابق الواقع. مستغلا ثقافة النص الديني وما يتيحه من امتيازات سلطوية، لا تقبل المجادلة والفحص عند الآخر؛ لأنه –منشئ الخطاب– جزء من التاريخ السياسي والديني لهذه الأمة، وعندما يحدد الأمة فهم مجموعة من الفقراء والمساكين والأرامل والضعفاء الذين يعتبرهم المعنيون قبل غيرهم. وهي استراتيجيات تواصلية تقوم عنده: "على الربط بين سياق سياسي ظاهر، وبين سياق ديني مضمر. وهذا الرابط لا يقوم على استثارة مصلحة، بل التذكير بانتماء إلى عقيدة. وبهذه الصفة، أو عبر هذا الرابط يتم تنشيط ذاكرة تعج بالأبطال، كما تعج بالعدالة والنقاء"[44]. فالقاعدة المرجعية مشتركة بين المنشئ ومستمَعيه (طرفا الخطاب)، لذلك لم يكن محتاجا إلى تفصيل هذا الخطاب المستعار. لأنه يعلم أو يتظاهر بأنهم على علم به. فالبراق (الدابة) هو الوضعية المالية عنده.

لهذه الحكاية المستعارة إذن، كما صيغت تركيبا دلاليا، وجهان يستدل بهما، الأول ظاهر: النص/الحديث، بنص/الخطاب السياسي، أخذت فيها الحبكة العجائبية المعتمدة على التخييل. والثاني باطني استهوائي حاول أن يحجب حقيقة الادعاء بما يملكه المنشئ، فَرَاغَ إلى البحث عن حلول عاجلة خارج النص، مجتهدا كي يجعل خطابه أكثر فعالية وتأثيرا. فينتج له أوهاما خطابية ملتبسة: "في هذين المستويين، السياسي والديني، يقترن واقع الجمهور بخياله، وتنتج له أيديولوجيات أو ثقافات قمعية وأخلاقية (تطويعية: إعادة النظر في شكل الفرد وأكله وعبادته، بعد غسل دماغه سياسيا).. حيث تتساكن في أنسجته الاجتماعية البدائية جرثومة العنف، وجرثومة الخيال، مع استبعاد المعرفة النقدية"[45].

هذه السيرورة الاستعارية الطويلة سبقتها تيمات مخيالية إيتوسية ذات النزعة الاستهوائية، لاعبة على وتر العاطفة لمن تخندق حوله، ومغرقة في الوصف التقريبي كعادة الخطاب الأول. قال في خطاب طويل جعله مقدمة تمهيدية لخطاب وصف معاشه بما دون البغل وفوق الحمار:

(6) بالعامية: "..لإخوان القضية بسيطة. أنا حياتي كلها وأنا مَعَمْرُو ما كان عندي شي حاجة تقريبا تقريبا تقريبا تقريبا. أنا مَكَنْعِيشْ بُوحْدِي. هاد الدار دابا قولو لي شْحَالْ فيها دْيالْ الناس، خْلِّيوْكُمْ نْتُومَا مَنْهَدْرُوشْ عليكم، قولو لي شْحَالْ غَايْتْغَدَّاوْ عَنْدْنا دْيَالْ الناس. آه، والله ما عارف أنا بِيدِّي مَاعَارْفْشْ، تَنْهْضَر أنا والسيدة شي نهار كتقولي: حْنا هاذْ النهار فهاد الدار 20،30،25 وهاذْ شِّي من نْهار لي كنت وماشي ما كْسْبْتْشْ.. كْسْبْتْ على قَدْ لْمُسْتَطَاعْ.."

بالفصحى: "إخوتي، القضية بسيطة. في حياتي كلها لم يكن لدي شيء إلا تقريبا تقريبا. أنا لا أعيش وحدي. هذا المنزل الآن، فلتقولوا لي كم فيه من شخص، دعكم أنتم لا نتكلم عنكم، فلتقولوا لي كم من شخص سيأكل الطعام عندنا. (يقصد شبيبة العدالة والتنمية الحاضرة في منزله) آه، والله لا أعرف أنا شخصيا لا أعرف، أتكلم أنا وسيدتي (يقصد زوجته) في يوم من الأيام فتقول لي: اليوم يوجد بالمنزل 20،30،25 وهو أمر من يوم أن كنت، هذا لا يعني أنني لم أكسب، كسبت على قدر المستطاع".

ينحو الإيتوس العاطفي مسار تحقيق أمر خاص بالذات المنشئة. فادعاءه بعدم علمه بمن يقصد منزله، أو يسكن فيه كل يوم، فيه محاولة لرد بوصلة الخطاب نحو إحقاق السلوك الأخلاقي عنده، مع أدلجته ضمنيا (الجود، الإطعام، السخاء، العطاء، الكرم...). لذلك، جعل معاشه دائما ترجيحيا، نسبيا، تقريبيا. فالنسبية تدخل عنده في باب التوضيح، لكنها تخفي تطَاوُسًا خطابيا واستعلاء (أنا حياتي... أنا معمرو...أنا مكنعيش...أنا بيدي...أنا والسيدة...أنا حياتي...)، وهي أداته الوحيدة في البرهان والاستدلال.

فبدل النسبية (اللاتحديد) وتأجيج الإيتوس العاطفي، كانت الاستراتيجية الخطابية تقتضي صب سيرورة الإقناع داخل لغة الحساب، ما دام أنه أتى معلنا الحرب على الريع السياسي، والفساد السياسي، (ربط المسؤولية بالمحاسبة) قبل أن يدخل غمار السياسة من بوابة رئيس الحكومة. فكيف يفسَّر عنده هذا

اللاتحديد إذن بلغة الرياضيات؟ عشرون سنة بأجرة أربعة ملايين في الشهر بصفته نائبا برلمانيا عن حزب العدالة والتنمية، و ثمانية ملايين شهريا عن خمس سنوات قضاها كرئيس للحكومة، فضلا عن الامتيازات والتعويضات. المصلحة تقتضي لغة الأرقام لا لغة البغل والحمار، والفوق والتحت، واللاتحديد، والتطاوس الخطابي، وحينئذ فليتنافس المتنافسون، أو فليختلف المختلفون.

ظل المنشئ ماسكا بنظم الصعود والنزول، باحثا عن قدمٍ صدقٍ، وبدون تحديد دقيق، أو استخدام للغة الأرقام التي من الممكن أن تزيل اللبس وتقرب الفهم، حتى بداية سرد قصة كيفية مطالبته بالمعاش. يقول:

(7) بالعامية: "ذاك شِّي بْسيط جدا ماعَنْدي والو حتى حاجة عْشْتْ دائما هكذا الحمد لله مْلِّي وَلِّيتْ رئيس الحكومة كنت تَنْعْطِي للحزب النصيب دْيالوا وْشِّي لَاخُرْ تَنْصَرْفُوا في الدار الحمد لله، مْلِّي خْرْجْتْ من رئاسة الحكومة عْطَاوْنِي واحد التَّعْوِيضْ فيه شِي 300 ألف درهم ولاَّ شِي حاجة إلى آخره، وْكْنْتْ جامْعْ شي حاجة حتى لرئاسة الحكومة عاد وْلِّيتْ تَيْكُونْ عْندي 10000 درهم زايْدَة 10000 درهم ناقصة واحد الوقت مْلِّي وْلِّيتْ رئيس الحكومة ذاك 10000 درهم وْلَّاتْ 100000 ألف درهم أو تقريبا".

بالفصحى: "شيء بسيط جدا، ليس لدي أي شيء، عشت دائما هكذا ولله الحمد. عندما أصبحت رئيسا للحكومة كنت أمنح الحزب()يقصد العدالة والتنمية) نصيبَه، والجزء الآخر أنفقه على داري والحمد لله. وعندما أنهيت مهمتي في رئاسة الحكومة، أعطوني تعويضا يصل ثلاث مائة درهما أو شيء من هذا القبيل وإلى آخره، وكنت أذخر شيئا ما.. ولم يكن لدي مال إلا بعد وصولي إلى رئاسة الحكومة، عندها باتت ذخيرتي 10000 درهما زائدة أو 10000 درهما ناقصة. في وقت معين، تلك 10000 درهما أصبحت 100000 درهما".

لا تهمنا البرهنة بالأرقام في هذا الموضع، ولا نتوفر على المعطيات التي تقف موقف المعارض أو المؤيد، وما يعنينا هنا هو التلاعب والمناورة بدءا بالعزف على وتَر أنه لا يقطن لوحده. فتُطرح أسئلة

من قبيل: لِمَ كل هذا الاستعلاء الخطابي[46] الذي جعله فاتحة للحديث عن معاشه؟ أليس فيه تنويم مغناطيسي واستهتار بمتلقي الخطاب؟

3. **الاستفراد بالأنا: تهويل وتعظيم:**

اختفى الآخر فرادى وجماعات (مساكين، فقراء، ضعفاء، أرامل، عمال، فلاحون...)، واختفت معه الصور البرغماتية التي رسمت في الواجهة بدءا؛ لأنه في اعتقاده أنهى مهمته، أحسن إليهم (بالمفهوم الديني) ولم تعد بطونهم تغرغر كما صورت، بل إنه كما يقول:

(8) بالعامية: "حَنِّينَا عْلَى الْمَسَاكِينْ وَالْفُقَرَاءْ"

بالفصحى: أشفقنا على المساكين والفقراء"[47]

لقد انحاز منشئ الخطاب إلى الأنا في الدفاع عن معاشه؛ لأنه لم يعد يملك شيئا "مَاعَنْدِي وَالُو"، وأضحت المعادلة الخطابية كالآتي: "المنشئ (الأنا) = الفقير، المسكين=(الآخر)". لم يعد المنشئ يطيق "تْزَيْرَاتْ عَنْدِي الْقَضِيَّة/ صعُبتْ وضعيتي". وبدأت غرغرة بطنه من جديد(قياسا على الخطاب المستعار). لذلك، لم يجد بدا من المطالبة بمعاشه. نقتطف خطابا له متبوعا بتصوير مقطع هو بمثابة مشهد بانورامي، بعد أن أصبح نجما للشاشة (أوسكار oscar)، يقول:

(9) بالعامية: "...وْشْ غَانْدِيرْ؟ بَاشْ غَايْعِيشْ عَبْدْ الإِلَهْ بَنْكِيرَانْ؟ خَاصُّو يْقَلَّبْ عْلَى خَدْمَة، أَيِّهْ قُلْتْ نَخْدَمْ، وَلَيْتِي كِيفْ غَانْدِيرْ نَخْدَمْ، وْكِيفْ غَايْدِيرْ هَاذْ عَبْدْ الإِلَهْ بَنْكِيرَانْ يَخْدَمْ، مَصَّابْ لاَمْشِيتْ شِي مَكَانْ يْخَلِّيوْنِي غِيرْ نَشْرَبْ كَاسْ دْيَالْ قَهْوَة فْخَاطْرِي وَلاَّ حَاشَاكُمْ نَدْخَلْ الْمِرْحَاضْ وْنَخْرَجْ فْخَاطْرِي".

بالفصحى: ماذا سأفعل؟ بماذا سيعيش عبد الإله بنكيران؟ هو ملزم بالبحث عن عمل، نعم، قلت سأشتغل، لكن كيف سأشتغل؟ وكيف سيشتغل عبد الإله بنكيران؟ ليتني ذهبت إلى مكان ما وتركوني فقط لأحتسي كوبا من القهوة في راحة، أو أن أدخل إلى المرحاض وأخرج في راحة".

ترسم الذات لنفسها إيتوسا خطابيا على هيئة (بطل/ممثل)، مجسدا إياه من خلال حجم الشعبية التي تتمتع بها الذات، تلك الشخصية الفاعلة التي منحها المغاربة أصواتهم. صورة جديدة في القاموس السياسي عن الزعيم/الممثل، لم يحظ بها من كانوا قبله، لأنه محب ولذلك منحوه رئاسة الحكومة وأعادوا

انتخابه لولاية ثانية. فهي تعكس في نظره الحب ولا يدعونه وشأنه. فالذات ببحثها عن قوت يومها لن يكفيها التخلص من شر (أو خير) المتحلقين حوله.

فاللحظة التواصلية تبني حججها عبر سرد لصور إيتوسية. وكأنه يعيد خطاب "يَاكْ الْمْغَارْبَة صَوْتُوا عْلِيَّا مَرَّه ثَانِيَه؟/ ألم يصوت لي المغاربة مرة أخرى؟ ولهذا فإن البحث عن دلالة هذه التزكية هي ما يوحي بعدم قدرته على التخلص ممن يلتفون حوله، إنه ما زال يرسم لنفسه طريقا سيتحقق مستقبلا، رجل يده نظيفة، وهم بحاجة إليه مرة أخرى رغم تجميد حكومته:

(10) بالعامية: "مْلِّي كَانْكونْ داخل شِي كَيْبُوسْ شِي كَيْعَنَّقْ شِي تَيْتْصَوَّرْ، مْلِّي تَنْكُونْ خَارج نفس شِّي، كَنْمْشِي كَنْصَلِّي...كَنْجِي كَنْجْرِي للدار، وهاذوكْ الناس طبعا ماشي كلهم لِّي تَايْجيوْ بَاشْ يْبُوسُوكْ وْيْعَنْقُوكْ وْيْتْصَوْرُو معك لو كان ذاك شِيِّ، شِي باس ما كايْنْ، واخَّا شِي وَحْدِينْ كايْجِي يْتْصَوَّرْ معك كَيْلْوِي عْلِيكْ شِي لَوْيَه حتى تْقُولْ يا ربي غِيرْ تْسَرْبِي هاذ التَّصويرة...المهم من الحب ما قتل"

بالفصحى: عندما أكون داخلا إلى... منهم من يقبّلني، منهم من يعانقني، منهم من يطلب صورة، عندما أخرج الأمر نفسه، أذهب لأصلي...أعود إلى المنزل مهرولا. أما هؤلاء الأشخاص لا يأتون جميعهم لتقبيلك أو تعنيقك، أو أخذ صورة معك، لو اقتصر ذلك على هذا فلا بأس به، مع العلم أن بعضهم يأتي لأخذ صورة معك ويضمك إليه، حتى تطلب من الله أن تُلتقط هذه الصورة على عجلة...المهم من الحب ما قتل".

تواصل ذات منشئ الخطاب تماديها في رسم صورة خطابية تزيينية عن نفسها، باسطة سلطتها ومعلنة عن حجم المعاناة التي تعانيها داخل وخارج الفضاءات، محاولة التأثير والإقناع بشخصيته المميزة لتلك المرحلة السياسية. لذلك استعار خطاب "من الحب ما قتل". ولهذا سيكون من العبث المخاطرة إن أراد البحث عن قوت يومه (خدمة). لأن الآخرين في مأمن ومنأى عن هذا كله:

(11) بالعامية: "تقولكم صراحة أنا دابا ما بْقِيتْشْ تانْقْدْر، دابا نْتوما خاصْكُمْ تكونوا سعداء لِّي كاتقدروا تْخُرْجوا وْتَمْشيوْ في الشارع وف الزنقة وْتْمْشيوْ للجامع وللسوق والقهوة وْتْكَلْمو"

بالفصحى: أقول لكم صراحة، أنا الآن لم أعد أقدر، الآن أنتم يجب أن تكونوا سعداء لأنكم تستطيعون الخروج والتجوال في الشارع والأزقة وتذهبون إلى المسجد والسوق والمقاهي وتتكلمون".

2. الفضاء الإلكتروني: نقد للخطاب المستعار "ما دون البغل وفوق الحمار"

بات تفكيك الخطاب السلطوي وإنتاج خطابات (استجابات) بلاغية مضادة له، مع اكتساح "الوحش الإعلامي"[48] نمطنا التواصلي اليوم، سهلَ المنال. بفضل ما يتيحه هذا الأخير من إمكانات لذلك[49]، متجهة –الخطابات البلاغية– نحو التنفيس وإزالة الرهبة التي خلفتها القنوات التواصلية التقليدية، مكسرة معها جدار الصمت؛ بحيث تهاوت المسلّمات حتى استعصى على منتجي الخطاب السلطوي ترويض هذا الوحش. وبهذا سيتحول الوحش الإعلامي، إلى فضاء بلاغي فاعل ومنفعل؛ فاعلا عندما ينتج لنفسه خطابات مؤثرة وأحيانا مقنعة، ومنفعلا بما قُدِّم له، أو تجاوب معه.

قياسا على هذا الوصف سنحاول أن نتبين درجات تفكيك أحد الخطابات السياسية المستعارة ونقده، كما وُظفت عند منشئها، بعد أن قايضت النص المستعار وظفَّرته لصالحها، منطلقين من عينة من خطابات استقيناها من الشابكة حاولت نقد الخطاب المستعار، إما سخرية أو دعابة، أو تقابلا بين موقفين سياسيين؛ موزعة على صور كاريكاتورية وتعاليق على موقع الفايسبوك:

(12)

مثلت صورة الكاريكاتير الساخرة أحد الخطابات البلاغية التي شكلت نقدا للخطاب المستعار"ما دون البغل وفوق الحمار"، مستمدة بلاغتها من سخرية الرسم والاسم، والخطوط، والكتلة، والمضمون معا.

لتقدم للمخاطب خطابا تواصليا من نوع آخر، يجمع بين التقرير والإيحاء، ومضمنا مستوى تعيينيا وآخر تضمينيا. وللكشف عن سمات هذه الخطابات البلاغية، اخترنا نماذج ساخرة ضمت خطابا سياسيا مضمرا تعبيرا عن اللحظة السياسية التزامنية.

جرى تفكيك الخطاب المستعار عبر اللجوء إلى التشكيل البصري الساخر، معتمدا على الرسوم والأشكال والشخوص(حيوانية، بشرية)، مع احتوائه خطابا لغويا(DH–الدرهم، ووضعيتي المالية ما دون البغل وفوق الحمار، مواطن).

يستمد الكاريكاتير خطابه من المعجم الذي استعاره المنشئ للتعبير عن وضعيته المالية، موظفا لذلك رسومات مشخصة للحدث، تجمع بين رسم لشخصية منشئ الخطاب(عبد الإله بنكيران)، راكبا عربةً يجرها حيوان (بغل/حمار)، على متنها أكياسٌ ممتلئة بالنقود، وتحته رسم لشخص (مواطن)، بعد دهسه بالعربة.

تهدف هذه المقاربة الساخرة إلى محاولة تقريب المشهد المستعار، ناقلة إياه من مشهد اللاتحديد والنسبية والتخييل (فوق–تحت)، إلى فعل (مشهد) إقناعي؛ آخذا بالحسبان الوضعية "ما دون...وفوق". فالقاعدة الإقناعية لـ(ما دون...) حُوِّرَتْ برسم جرافيكي(مواطن)، أما القاعدة الإقناعية (فوق..) فهي شخصية منشئ الخطاب(عبد الإله بنكيران)، بعد أن تغطرس وأثقل عربة حصانه بالأموال فتهاوت على المواطن. لتتحول وضعيته إلى "ما دون"، ووضعية المنشئ إلى "فوق".

لقد بنى الخطاب الإقناعي بوصفه كلا، لغته على أقوال استعارية تصورية "حية" بدوره؛ شكلت في مقابلها قرائن حجاجية في نقد القول المستعار "الميّت"، وكوّنت رزمة مفاهيمية تتجسد في رواسب الرموز والأشكال (الدابة؛ العربة؛ الأكياس؛ المواطن؛ المنشئ)، وكلها أدوات استعارية خطابية فعالة، أسقطت التأويل الملتبس، وأكسبتها أفكارا ومعاني منطقية.

استنادا إلى التصور أعلاه، يمتص الرسم الكاريكاتوري في الصورة أدناه مفارقته الساخرة للاستعارة الميتة لما دون البغل وفوق الحمار، من التخييل البصري، موظفا طرائقَ خطابية لتحقيق المقاربة الإقناعية للخطاب المستعار مع مقابلتها لفظا ورمزا.

(13)

يشيد الكاريكاتير معناه عبر تقابل بين الخطاب المستعار عند منشئه، وبين ما يقابله لفظا "الحَمْدُ للهْ اَلْوَضْعِيَّة الْمَالِيَة دْيَالِي مَا دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارْ؛ بْصَحْتَكْ...نَسْتَاهَلْ أَنَا لِي صَوَّتْ عْلِيكْ/الحمد لله وضعيتي المالية ما دون البغل وفوق الحمار... بصحتك، أنا أستحق لأنني أنا من صوت لصالحك" وشكلا ممثلا في وضعيتي "ما دون/ وفوق". أكسبت وضعية الرمز المشخّص وضعية دونية–تحتية، عاكسة إياه الأرجل الحافية، والثياب الرّثّة (المَخِيطَة). وعلى النقيض من ذلك تقف الذات/المنشئة، في وضعية فوق/محمول، شُخِّصت تشخيصا صارخا لمدى عمق الهوية الاجتماعية بينهما والمستوطنة في أغواره بعد أن حققت فعلها، مثمنة قيمتها المالية والمادية. وتوظيف اللباس الرثّ والأرجل الحافية وهيأة المشخّصين، أشكال تواصلية غير لفظية Non–verbal forms of communication [50]، لا تعني شيئا في ذاتها، لكنها أتت مفعِّلة نص الاستعارة وخادمة للعلاقة المشابهة بين الرمز والمرموز.

لتوظيف اللباس المخيط إذن معنى تواصلي (means of communication) تم تعزيزه بوضعية–ما دون "الشخص" أولا، وبرسالته الملتفظ بها "بصحتك...نستاهل أنا لي صوت عليك/ بالصحة... حُقَّ لي ذلك، أنا الذي منحتك صوتي"، تُدْمغ الصورة وتجرح (مجازا) المعنى الذي قصده منشئ الخطاب في استعارته أولا.

إن إقرار وضعيته المالية تحقق بفعل فاعل (التصويت)، تقول الرسالة اللغوية لخطاب "ما دون"، وهي سبب في نيل الذات/المنشئة وضعية "فوق"، ولذلك فهي تنعم في النعيم بفضل ما تكدست لديه من أموال. وعليه يُنْظر إلى السخرية من الشخص في الصورة رسما وشكلا، سخرية تخييلية/نقدية فاضحة للمعنى المستعار عند منشئها، لكنها إقناعية في مبناها، عندما قابلت المعنى بضده. إنها المكون

الحجاجي و: "الدلالي الذي يمتد من أقصى درجات الوضوح إلى أقصى درجات الغموض والمفارقة"[51]، مفارقة تمييزية بين الاستعمال الاستعاري والاستعمال الساخر والناقد له.

يُصبح الخطاب الساخر (الناقد لخطاب السلطة) رسماً وتشخيصاً، آلية خطابيةً حربية دفاعية ومقاومة للقهر والتّسلط، وهو يحل محلَّ الغريزة الحيوانية (التناطح)، باعتباره أداة تعدِّل السلوك الإنساني بنظرة مخالفة؛ معتمدا الإيحاء والترميز بدل القذف واللكم، سلاحه في ذلك اللون والشكل والريشة وما جرى مجراهما، يهاجم ويعتدي في صمت مقابلا الخطاب بالخطاب. ويتم ذلك من خلال الاستعارة أيضا عندما يقيم علاقة تواصلية مع الذات المنشئة للخطاب عبر "الاستعارة البصرية Visual metaphor"[52]، يكون فيها المشبه منشئ الخطاب عنصرا أساسيا في نقل الاستعارة البصرية، أما المشبه به فهو ذاك التمثيل البصري للعنصر الأول شكلا، أو رمزا، أو تشخيصا تخييليا.

ذلك ما سعت إليه الخطابات الكاريكاتورية الساخرة السابقة في تفعيله، عندما أنزلت المعادلة الداروينية الجديدة (ما دون البغل وفوق الحمار) في القاموس السياسي منزلة الاستعارة البصرية، مخرجة إياها من نطاق الذهن إلى الكون/الوجود.

يتعاضد التقرير مع الإيحاء في الصورة الآتية ليخطَّ معنى ضمنيا، يجمع بين الازدواجية في القول:

(14) بالعامية: "وَاللهْ أَخُوتِي يْلاَ رَانِي عَايَشْ غَا بَالسَّتْرَة دْيَالْ سِيدِي رَبِّي"

بالفصحى: "والله يا إخوتي إني لأحيا فقط برحمة من ربي".

فالصورة الآتية رمزية في معناها وتحتمل الصدق والكذب، وليس الغرض كشف صدقها أو كذبها، بقدر ما يهم معناها في علاقتها بموضوع الخطاب المستعار (الوضعية المالية).

(15)

ترفض الصورة أن تكون مجرد علامة ميتة تتوقف فيها المعاني عند حدود الرسالة اللغوية "وَاللهْ أَخُوتِي يْلاَ رَانِي عَايَشْ غَا بَالسَّتْرَة دْيَالْ سِيدِي رَبِّي". لكنها تمتد لتقاربها وتسقطها على نحو معاكس، برسالة كاريكاتورية صامتة، مفعمة بالمفارقة لما هو عليه واقع الحال بالنسبة للمدعي.

يؤثث الشكل الأيقوني لمنشئ الخطاب علامة فارقة عندما تنتظم وتمتزج الرسالة اللغوية بخطاب الاستعارة التصورية، وذلك بالاستعانة بالتمثيل التشكيلي لتقريب الدلالة عبر استعارة الثياب المَخيطة، والدموع، والسبحة لتعكس التشخيص المرتبط بمعطيات إدراكية عن منشئ الخطاب. وهي استعارات مخصصة في ارتباطها مع نُظُمِ الخطاب عند صاحبها. لأنها استدعاء تصوري ممثلٌ أصلي، مستقر في الأذهان عنه. لكن في المقابل، تقف الاستعارة الصامتة للذات المشخصَّة خطاباً كاشفاً، يقرُّ به وضع متعارض دلاليا مع الاستعارة الأولى (التقية؛ الورع؛ التعفف؛ الزهد...). إنها تُعيد تركيب الاستعارة البصرية مع تحديد مدلول الادعاء "والله يا إخوتي إني أحيا فقط برحمة من ربي" بأن حقيقته باطلة. أجازه شكل اليد الذي عبر فيه عن المكشوف عنه.

ومنه، تكون الاستعارة البصرية الصامتة بواسطة التشخيص، قد نابت عن إعطاء المدلول الحقيقي للاستعارة الأولى في علاقتها بالرسالة اللغوية، لتصبح مكونا بصريا بلاغيا وأيقونيا، تتحقق به فرضية الادعاء، متجها صوب الوظيفة الإقناعية التي أريد بها حجب المعنى.

خاتمة:

بعد رصد الاستعارة في الخطاب السياسي المغربي لعبد الإله بنكيران، وما أثارته استعارته المؤدلجة "ما دون البغل وفوق الحمار" من تحليل ومتابعة، نتوصل إلى مجموعة من الخلاصات نوردها كالآتي:

- تتجاوز استعارة "ما دون البغل وفوق الحمار" كونها خطابا لغويا تزيينيا، مزخرفَ البنية، إلى اعتبارها وحدة تأثيرٍ وتحريكٍ لعواطف المستمَع.
- الاستدعاء الاستعاري المعبر عنه قديما وحديثا على مستوى الخطاب، بحاجة إلى أن يعيد التفكير في الممارسة السياسية، حتى لا يقع الخطاب السياسي في الازدواجية وتضارب المواقف.
- الميل نحو التخييل والتجريد، أكسب الخطاب الاستعاري للحظة السياسية التباسا وهروبا. مما عبر عن هشاشة في الممارسة السياسية.
- يتأسس اللاتحديد المعبر عنه في الخطاب السياسي على استراتيجية تضليلية مموهة مؤثرة، تمارس فعل السلطة الخِطابية خارج زمنها بعيدة عن عصرها.
- الخطاب الكاريكاتوري الساخر، الذي وُظف لنقد الخطاب المستعار من قبل منشئه، لم يشتغل بشكل منعزل ومنفرد، وإنما تفاعلت الاستعارات المشخصة مع الأشكال والرسومات لتوليد دلالات محددة للمعنى الذي أريد له، ناقلا إياه من مستوى اللاتحديد إلى المحدد.
- أفرزت المواربةُ القائمة على استثمار الاستعارة من الخطاب الحديثي والمنقضة للواقع والمشترك الاجتماعي خطابا جماهيريا مقاوِما، تجسد في التعبير الأيقوني الساخر على مواقع التواص الاجتماعي.

الهوامش:

* حسين البعطاوي، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال، المملكة المغربية
Etudient.houssine.elbouataoui@gmail.com

1 من أبرز ممثلي هذا التوجه نذكر تمثيلا لا حصرا: شاييم بيرلمان، مارك جونسون وجورج لايكوف، آيفور آرمسترونغ ريتشاردز.

2 بول ريكور، الاستعارة الحية، ص:54.

3 للاطلاع على التأريخ للاستعارة في البلاغة الغربية، يمكن الرجوع إلى كتاب، عبد العزيز حويدق: نظرية الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان الطبعة الأولى 2015. في تأريخه هذا يلاحظ إهماله لأعمال بول ريكور (Paul Ricoeur)، وبخاصة كتابه "الاستعارة الحية".

4 اقتصرنا فقط على جورج لايكوف ومارك جونسون، باعتبار النزعة النقدية التي أحيط بها.

5 جورج لايكوف، مارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ص:21.

6 بول ريكور، الاستعارة الحية، ص:108.

7 المرجع السابق، ص:65.

8 جورج لايكوف، مارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها، ص:12.

9 الفعل (نمفهم) هنا منقول وفقا للترجمة.

10 جورج لايكوف: "النظرية المعاصرة للاستعارة" ص:6.

11 جورج لايكوف، مارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها، ص:12.

12 المرجع السابق، ص:190.

13 جورج لايكوف: "النظرية المعاصرة للاستعارة" ص:10.

14 عبد العزيز حويدق: نظرية الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، ص:263.

15 أطلق على النزعتين الذاتية والموضوعية اسم الأسطورة، لأنهما يكرسان الحقيقة المطلقة للأشياء والموضوعات، ينظر الفصل 25 (من ص181 إلى ص199)، الاستعارات التي نحيا بها.

16 جورج لايكوف، مارك جونسون، الاستعارات التي نحيا بها، ص:202.

17 المرجع السابق، ص:203.

18 المرجع السابق، ص:184.

19 الاستعارة الأنطولوجية: هي الاستعارة التي تستخدم لفهم الأحداث، والأعمال، والأنشطة، والحالات، ونحن إذ نتصور كل هذا نتصوره استعاريا، باعتبار الأعمال والأنشطة أشياء، والأنشطة باعتبارها مواد، والحالات باعتبارها أوعية، وهي تستخدم في مجال واسع من حياتنا. ينظر، المرجع السابق، ص: 45 وما بعدها.

20 المرجع السابق، ص:204.

21 جورج لايكوف، مارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها، ص:184

22 كل ما يرتبط بمحيطنا الفيزيائي، أطلق عليه لايكوف وجونسون الاستعارات الاتجاهية orientational métaphores لأن "أغلبها يرتبط بالاتجاه الفضائي: عال–مستقل، داخل–خارج، أمام–وراء، فوق–تحت، عميق–سطحي،

مركزي–هامشي،" وكلها استعارات تعطي لتصوراتنا بعدا فضائيا. ينظر: جورج لايكوف، مارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها، ص:46

23 figure ترجمة لصورة وهي كلمة " لها اتصال بمجال التصوير والتشكيل والصوغ الذي يربط الجزئيات بالجوهر"، محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص:209

* الشبيه بالحقيقة ترجمة لمصطلح le vraisemblable من اقتراح الأستاذ الحسين بنو هاشم باعتباره يدخل في الخطاب الاحتمالي ولا مجال فيه للحقيقة.

(24)BerTrand Buffon « Perlman et la relégtimation du politique » p :42

25 للاطلاع على أوجه اللعب بالكلمات في الخطاب السياسي، ينظر: عماد عبد اللطيف: بلاغة الحرية، ص24/23

26 Auditoire ترجمة لكلمة مستمَع، من اقتراح الدكتور محمد العمري. تجمع بين صيغة "مجتمع" و صوت "سمع". مستمعون (auditoires). يحمل المستمع صفتين اثنتين: مستمع كوني (auditoire universel)، ومستمع خاص(auditoire particulier). ينظر: محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص220

27 باتريك شارودو "حول الإقناع في الخطاب السياسي"، ص90 وما بعدها.

28 محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص:71/70.

29 أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، ص:85.

30 محمد العمري، المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة، ص:71.

31 عبد الإله بنكيران، رئيس الحكومة السابق، عينه الملك محمد السادس رئيسا للحكومة، لخمس سنوات من 2011 إلى 2016، تم إعفاءه من تشكيل الحكومة لولاية ثانية بعد التجميد(البلوكاج) الحكومي، أو ما يعرف بالزلزال السياسي. ينظر في هذا الصدد كتاب: بلال التليدي: الزلزال السياسي دينامية السياسة قبل وبعد السابع من أكتوبر، عقول الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء ط1، 2018.

32 الأصل في هذا الخطاب كلمة ألقاها عبد الإله بنكيران في منزله بالرباط أمام شبيبة العدالة والتنمية، والمشهور عنه خطاب "مادون البغل وفوق الحمار". نص الخطاب متاح على الرابط الآتي: (تاريخ الدخول 2019/02/09 على الساعة 23:16) https://www.youtube.com/watch?v=xbUD_5OrfoM.

33 خطاب تدخل به عبد الإله بنكيران في إطار سلسلة الأسئلة الشفهية باعتباره نائبا برلمانيا عن فريق العدالة والتنمية سنة 2007، خطاب متاح على الرابط الآتي (تاريخ الدخول 2019/02/08 على الساعة21:45) https://www.youtube.com/watch?v=jhTyn5fY67s.

34 للتفريق بين القوة والسلطة في الخطاب ينظر:

Constantin Salvastru: Rhétorique et Politique: le Pouvoir du Discours et le Discours du Pouvoir, p :127/129.

35 محمد عابد الجابري الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، ص:65.

36 مصطلح استعرناه من عند محمد العمري، وهو مصطلح يستعمل في المحاججة عندما يرمى الآخر دون بيّنة أو برهان.

37 حادثة نزع البرلمانية أمينة ماء العينين حجابها بباريس، والتشهير الذي طالها بمواقع التواصل الاجتماعي.

38 المنشئ أو المخيل، مصطلح استعرناه من عند محمد العمري، ويعني عنده: كل من يصنع الصور ويدعي الكذب ويقيم قرائنا على كذبه، ويظل خطابه محتملا الصدق أو الكذب. والمنشئ الذي نتحدث عنه هو "عبد الإله بنكيران".

39 عبد الله البهلول، الحجاج الجدلي، ص:116.

40 غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ص:124

41 الحديث رواه أنس بن مالك، وأخرجه مسلم (حديث 162/باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات)، ورواه مالك بن صعصعة وأخرجه البخاري (حديث 3207/باب ذكر الملائكة)، مع اختلاف الصيغتين في الرواية. وهذا نصه "عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أتيت بالبراق (وهو دابة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل. يضع حافره عند منتهى طرفه) قال، فركبته حتى أتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط بها الأنبياء. ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين... " إلى آخر الحديث...

42 جورج لايكوف، مارك جونسون: الاستعارات التي نحيا بها، ص 33.

43 توماس أ. سلوان: موسوعة البلاغة، ص:196/192.

44 سعيد بنكراد: سيميائيات النص مراتب المعنى، ص:205.

45 خليل أحمد خليل: سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط المعاصر، ص:21.

46 محمد العمري، تحليل الخطاب الأصولي عوائق الحوار، ص:78

47 رددها في أكثر من مناسبة، ولعل الأشهر واقعة تارودانت (انتخابات 2016) وهي متاحة على الشابكة ينظر: سعيد بنكراد: سميائيات النص، ص:206/194.

48 عبد الله محمد الغذامي: الثقافة التلفزيونية، ص:47.

49 ينظر: عماد عبد اللطيف: الخطابة السياسية في العصر الحديث، ص:64.

50 Malcolm Bernard: Fashion as Communication, p :26

51 محمد العمري: البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ص:88.

52 Dawe wendey: Visual Metaphor and the ironic glance, p: 52

قائمة المراجع:

- **باللغة العربية:**

. **أبي حيان التوحيدي:** الإمتاع والمؤانسة، اعتنى به وراجعه هيثم خليفة الطعيمي، المكتبة العصرية، صيدا بيروت، (2011).

. **أبي العباس المبرد:** الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، تحقيق زكي مبارك، مطبعة مصطفى الباني الحلبي وأولاده، مصر ط1، (1936)

. **أحمد خليل (خليل):** سوسيولوجيا الجمهور السياسي الديني في الشرق الأوسط المعاصر، المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط1، (2005)

. **بنكراد (سعيد):** سميائيات النص مراتب المعنى، منشورات ضفاف دار الأمان الرباط، ط1،(2018)

. **البهلول (عبد الله):** الحجاج الجدلي خصائصه الفنية وتشكلاته الأجناسية في نماذج من التراث اليوناني والعربي، د ط، ط1،(2013)

. **التليدي (بلال):** الزلزال السياسي دينامية السياسة قبل وبعد السابع من أكتوبر، عقول الثقافة للنشر والتوزيع الدار البيضاء ط1، 2018

. **حويدق (عبد العزيز):** نظرية الاستعارة في البلاغة الغربية من أرسطو إلى لايكوف ومارك جونسون، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، عمان الطبعة 1، (2015).

. **ريكور (بول):** الاستعارة الحية، ترجمه وقدم له محمد الولي، مراجعة وتقديم جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، الطبعة1، (2016)

. **سلوان (توماس):** موسوعة البلاغة الجزء الثالث، ترجمة مجموعة من المؤلفين، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، مراجعة عماد عبد اللطيف، مصطفى لبيب، المركز القومي للترجمة القاهرة، ط1، (2016)

. **شارودو (باتريك)** " حول الإقناع في الخطاب السياسي " ترجمة محمد الولي، مجلة البلاغة وتحليل الخطاب عدد2015/6

. **عابد الجابري (محمد):** الخطاب العربي المعاصر دراسة تحليلية نقدية، مركز دراسات الوحدة العربية لبنان، الطبعة5، (1994)

. **عبد اللطيف (عماد):** بلاغة الحرية معارك الخطاب السياسي في زمن الثورة، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ط1،(2013)

- الخطابة السياسية في العصر الحديث المؤلف الوسيط الجمهور، دار العين للنشر القاهرة الطبعة 1، (2015).

. **العمري (محمد):**

- البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، أفريقيا الشرق المغرب ط2،(2012).
- المحاضرة والمناظرة في تأسيس البلاغة العامة مواجهة بين زمن الجرجاني وزمن القزويني، أفريقيا الشرق (2017)
- تحليل الخطاب الأصولي، عوائق الحوار قراءة حجاجية في خطاب الأصوليين المغاربة مساهمة في تخليق الخطاب السياسي، فالية للطباعة والنشر والتوزيع بني ملال، ط1،(2015)

. **لايكوف (جورج) جونسون (مارك):**

- الاستعارات التي نحيا بها، ترجمة عبد المجيد جحفة، دار توبقال للنشر المغرب، الطبعة 2، (2009)
- "النظرية المعاصرة للاستعارة" ترجمة طارق النعمان، مكتبة الاسكندرية مصر (2014)

. **لوبون (غوستاف):** سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم هاشم صالح، دار الساقي بيروت لبنان ط7،(2016)

. **محمد الغذامي (عبد الله):** الثقافة التلفزيونية، سقوط النخبة وبروز الشعبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ط2،(2005).

- **باللغات الأجنبية:**

. **Buffon (BerTrand)** « Perlman et la relégtimation du politique » pour Perlman le renouveau de la rhétorique coordonné par Michel Mayer, presses universitaire de France (2004)

. Salvastru **(Constantin),** rhétorique et politique le pouvoir du discours et le discours du pouvoir, l'harmattan (2004)

. **Bernard (Malcolm)**: fashion as communication, routledge, london and new York, (1996)

. **Wendey (Dawe)**: Visual metaphor and the ironic glance, the interaction between artist and viewer, Birmingham city university, (1991).

- **الشابكة الإلكترونية**

(تاريخ الدخول 2019/02/15 على https://www.youtube.com/watch?v=xbUD_5OrfoM

(تاريخ الدخول https://www.youtube.com/watch?v=jhTyn5fY67s الساعة 23:16)

2019/02/14 على الساعة21:45).

القسم الثالث

التحليل النقدي لخطابات الفن والتربية والتاريخ

1. التحليل النّقْدي للخِطَاب السّينِمائِي وفقَ المنهج التّنْظِيمي: فيلم "خلف الأبواب المغلقة.. نساء لسن للبيع" لمحمد عهد بنسودة أنموذجا.

رشيد طلبي

2. تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ لقياسِ انقرائيَة النّصوص العربيّة وفق مقتضياتٍ لسانيّةٍ–معرفيّةٍ وديدكتيكية

رشيد شاكري

3. تحليل الخطاب منهجا تاريخيا

عبد الرحيم رياض

التحليل النّقْدي للخِطَاب السّينِمائِي وفقَ المنهج التّنْظِيمي
فيلم "خلف الأبواب المغلقة.. نساء لسن للبيع"[1] لمحمد عهد بنسودة"[2] أنموذجا

رشيد طلبي*

الملخص:

تنحو هذه الدراسة منحى التعريف بالتحليل النقدي للخطاب **(C.D.A)** نظريا وتطبيقيا، باعتماد منهج من أهم المناهج التي تخوض في المقومات الفكرية والجمالية للخطاب الفني والأدبي، في أفق الربط بين الخطاب والسلطة والمجتمع بشكل من الأشكال. ويتجلى هذا المنهج في التحليل التنظيمي للخطاب **(DA)** الذي ينبني على ما جاء به كل من بيير بورديو **(Pierre Bourdieu)** وميشال فوكو **(Michel Foucault)** وألكسيج ليونيف**(Alekej Leun'ev)**؛ أي الربط بين نظام الخطاب لإبراز معالم السلطة المتضمنة فيه، ونظرية التنشيط للوقوف عند مدى تأثيره في الممارسة الاجتماعية. وقد اخترنا لهذا الغرض، تطبيقا على الخطاب السينمائي باعتماد فيلم "خلف الأبواب المغلقة... نساء لسن للبيع" للمخرج المغربي محمد بن سودة متنا للدراسة.

الكلمات المفتاحية: التحليل النقدي للخطاب؛ المنهج التنظيمي؛ الخطاب السينمائي؛ السلطة.

Critical Analysis of Cinematic Discourse According to Dispositive Approach "Behind the Closed Doors: Women Not For Sale" by Mohamed Ahed Bensouda as Model

Abstract:

This study tends to define the critical discourse analysis (C.D.A) theoretically and practically, by adopting one of the most important approaches that deal with the intellectual and aesthetic components of the artistic and literary discourse, on the horizon of linking the discourse, power and society in some way. This approach is reflected in the organizational analysis of the speech (DA), which is based on the statements of Pierre Bourdieu, Michel Foucault and Alekej Leun'ev, that is, linking the speech system to the salient features of the power, And the theory of activation to determine the extent of its impact in social practice. For this purpose, we chose to apply the film "Behind the Closed Doors ... Women Not for Sale" by Morocco's director Mohamed Ben Souda as model.

Keywords: Critical Discourse Analysis; Dispositive approach; Cinematic discourse; Power.

مقدمة:

عرف النقد العربي تطورات مهمة مرت بمراحل كبرى، سواء في شكله التزامني المرتبط بالكاتب والنص ثم القارئ، أو في شكله التعاقبي المرتبط باللغة والنص ثم الخطاب؛ في ارتباط عضوي بالأجناس الأدبية، أو بالخطابات المتضمِّنة للقضايا السياسية والتاريخية والاجتماعية. وإذا كان النقد يحوي جانبا فنيا، وإن بالمعنى الضيق، فإنه لا يحيد عن كونه يسعى إلى إنتاج "المعرفة الفكرية"[3].

بذلك، تحول النقد من الاهتمام بالكاتب واللغة، إلى الاهتمام بـ"النص". مادام الكاتب لا يمتلك ناصية المعنى، واللغة لا تعكس حقيقة الوجود إلا من خلال سياقها الاستعمالي: "وهذا يعني أن الحقيقة ليست مقصورة على أحد دون غيره، [أو] على توقد ذهنية إنسانية بعينها اعتمادا على موروث مكتسب وإنما تعتمد على وسيلة الصراع الاتصالي"[4]. وقد تحكم في هذا التحول ظهور مفهوم المنهج العلمي في ارتباطه بالعلوم الحقة والنظريات الفلسفية، بغية تحقيق شرط الصرامة العلمية، مادامت: "قيمة أي منهج ليست كامنة فقط في نوع الأدوات التي استعملها الباحث، سواء أكانت صالحة أم غير صالحة، لمجرد أن البحث، أو أن –الموضة– تقتضي نوعا من المناهج، ولكن قيمة أي منهج رهينة بما يحققه في نطاق رؤيته وهدفه"[5].

وإذا كان النقد في ارتباطه بالنصوص، قد جاء في سياق المناهج البنيوية التي أسهمت في بناء وعي بجوهر النص الذي لم يعد يقتصر على مواقف أيديولوجية أو اتجاهات نفسية أو المحتوى الذهني، بل على العلاقة المضطربة بين الدال والمدلول، فإن مناهج ما بعد البنيوية مثل التفكيكية، والسيميولوجيا، والتأويل، ونظرية التلقي وغيرها، اهتمت بالخطاب في تجلياته المتعددة وفق اختلاف النصوص والأجناس الأدبية، وهذا ما جعل "جوليا كريسيفا" "J.Kristiva" تعتبر أن: "العملية المحتملة الدلالية تجميع لوحدات دلالية متناقضة.. في علاقة استبدال متبادلة أو في علاقة حصر. وبما أن المحتمل يلعب على انقسام الدليل إلى دال ومدلول، فإنه توحيد للدوال فوق المدلولات المغلقة: إنه يقدم نفسه كتعدد معمم. ويمكننا القول بأن المحتمل هو التعدد الدلالي للوحدات الكبرى للخطاب"[6].

تبعا لهذا، أسهمت اللسانيات ولسانيات النص والخطاب بشكل عام، في انفتاح النقد على أفق جديد من الدراسة والتحليل، خاصة نظرية النحو الوظيفي النسقي مع "هاليداي"، باعتبارها من النظريات اللسانية الأولى التي تعاملت مع الخطاب وربطته بالممارسة الاجتماعية، الشيء الذي أسفر عن بزوغ "التحليل النقدي للخطاب" (CDA) مع "نورمان فيركلف""Norman Fairclough " منذ التسعينات من القرن الماضي.

من هنا، فالإشكال المطروح هو مدى قدرة مناهج التحليل النقدي للخطاب على إبراز أوجه السلطة في الممارسة الاجتماعية، وقد خصصنا القول عن المنهج التنظيمي في علاقته بالخطاب السينمائي، باعتباره من أهم منهاج(C.D.A) التي تُعنى بالخطاب الفني والأدبي. وبذلك، نفترض أن هذا المنهج سيسفر عن نتائج تربط بين الخطاب والسلطة والمجتمع من خلال الاشتغال على المتن المذكور.

وفق هذا السياق، سنعتمد منهجَ التحليل التنظيمي للخطاب الذي ينبني على ما جاء به كل من "بيير بورديو" "Pierre Bourdieu"، و"ميشال فوكو" "Michel Foucault"، و"ألكسيج ليونيف" "Aleksej Leon'ev"، في أفق سبر أغوار الخطاب الجمالي، وإبراز معالم السلطة المتضمنة بين ثناياه، ومدى تأثيرها في الممارسة الاجتماعية.

لهذا، تنقسم هذه الدراسة إلى شقين؛ شق نظري وآخر تطبيقي. ففي الشق النظري سنحاول التعريف بالتحليل النقدي للخطاب عموما، والتحليل التنظيمي للخطاب خصوصا؛ بالتركيز على ما يقوم عليه من نظريات. مع إلقاء نظرة على مفهوم الخطاب السينمائي ومقوماته النظرية.

أما الشق التطبيقي، فقد خصصناه لتحليل فيلم "خلف الأبواب المغلقة...نساء لسن للبيع) للمخرج المغربي "محمد عهد بنسودة"، من خلال ثلاثة مستويات: المستوى الأول تمثل في المؤثرات الصوتية، والمستوى الثاني تمثل في العلامات اللغوية، بينما تمثل المستوى الثالث في العلامات البصرية. وقد مثلنا لكل مستوى بعناصر تتناسب مع طبيعة الخطاب السينمائي من وجهة نظر التحليل التنظيمي للخطاب.

1. التحليل النقدي للخطاب: المنهج التنظيمي

1.1. التحليل النقدي للخطاب:

ظهر التحليل النقدي للخطاب في سياق جملة من الكتابات التي خاض فيها كل من " نورمان فيركلف" Norman Fairclough" بمؤلفه (اللغة والسلطة)، وروث فوداك "Ruth Wodak" وميشال مايير "Michael Meyer " في مؤلفهما (مناهج التحليل النقدي للخطاب)، حيث تأسست هذه المقاربة منذ 1991 بجامعة أمستردام؛ في نطاق ربط العلاقة بين (اللغة والخطاب) و(المجتمع والسلطة)، تجاوزا للهوة القائمة بين 'تحليل الخطاب والحياة الاجتماعية بمختلف مستوياتها"[7].

وتبعا للوعي القائم على مدى أهمية العلاقة الوثيقة بين الخطاب والمجتمع، يسعى التحليل النقدي للخطاب إلى تحليل العلاقات بين الخطاب بشتى أنواعه، والعناصر الأخرى المشكلة للممارسة الاجتماعية، حيث يُعنى بوجه مخصوص "..بالتغيرات الجذرية التي تلحق الحياة الاجتماعية المعاصرة:

موقع الخطاب في سيرورات التغيير، والتحولات في العلاقات بين الخطاب وسيرورات المعنى عامة من جهة، والعناصر الاجتماعية الأخرى في شبكات الممارسات من جهة أخرى"[8].

إنه مقاربة في تحليل الخطاب، وفي اللغة باعتبارها ممارسة اجتماعية، تسعى إلى تحقيق مآرب سلطوية بتلاوينها المتعددة، وطرق تعبيرها عن الأيديولوجيات ومظاهر القوة التي تكرسها. أي محاولة رصد مظاهر السلطة بأنماطها المتعددة عبر الممارسة الخطابية.

لذلك، انبنت هذه المقاربة على أسس نظرية ومعرفية، أهمها الاندماج بين النتاج الإبستمولوجي لمدرسة فرانكفورت واللسانيات النقدية في نهاية السبعينات. من هنا: "بدأت رحلة التفكير في مقاربة اللغة والخطاب وفق منظور يقوض أطماعها السلطوية والأيديولوجية المتمثلة في الهيمنة الاجتماعية"[9]. مما أسفر عن بروز مناهج عدة، تعتمد أساسا البحث اللساني، في أفق الانفتاح على طبيعة النقد ومرجعياته المختلفة. وتتمثل في (مقاربة التحليل الجدلي العلائقي/(DRA)، المقاربة التاريخية للخطاب/ (DHA)، المقاربة المعرفية الاجتماعية/ (SCA)، مقاربة الفاعل الاجتماعي/ (SAA)، لسانيات المدونات/ (CL)، والتحليل التنظيمي للخطاب/(DA)).

2.1. المنهج التنظيمي: المقومات والأفق النقدي:

1.2.1. المقومات النظرية:

ينبني المنهج التنظيمي – ضمن مناهج "التحليل النقدي للخطاب"– على نظريتين هامتين في نطاق العلاقة الموضوعية التي تربط بين (اللغة والنص والخطاب) و(المجتمع)، تتمثل الأولى في ما جاء به "ميشال فوكو" في علاقة السلطة بالمجتمع. أما الثانية فتتمثل في "الدافعية/ نظرية التنشيط"، التي من خلالها يتم تتبع الخطاب وتأثيراته في الممارسة الاجتماعية، حيث تقارب المتغيرات من وجهة نظر نفس– سلوكية.

- **نظام الخطاب: السلطة والمجتمع:**

تقوم المقاربة التنظيمية في التحليل النقدي للخطاب على نظرية "ميشيل فوكو" في الخطاب الذي يعد مجموعة غير متجانسة من العناصر اللغوية وغير اللغوية. والنظام بين هذه العناصر، يسهم، بشكل من الأشكال، في تشكيل الخطاب، فهو توليفة متباينة من جميع هذه المواد، والربط بين الأصناف والأنماط والأشكال يحتل أهمية بالغة في تحليل "فوكو" للممارسة الخطابية واللاخطابية للنظام. إن هذا التباين، في حقيقة الأمر، يوحي بما يمتاز به الخطاب في نطاق علاقات شبكية خفية، حيث يمارس تأثيره

لتحقيق الاستجابة لحاجاته وأهدافه، نحو تحقيق الرغبة والسلطة، في أفق تحويل إرادة الإنسان نحو إرادة الإنسان.

ويتأسس نسق الخطاب عند "فوكو" من خلال رؤيتين؛ الرؤية النشوئية والرؤية النقدية. وإذا كانت الرؤية النشوئية من التحليل ترتبط "بسلاسل التشكل الفعلي للخطاب"[10]، ذلك أن "موضوع الدراسة النشوئية هو التشكل المشتت والمتقطع والمنتظم في نفس الوقت للخطابات"[11]، فإن الرؤية النقدية لا تختلف عنها في الموضوع أو في المجال، "بل في نقطة المعالجة وفي المنظور وفي التحديد"[12]، حيث تهتم في التحليل بما يغلف هذا الخطاب. وهنا تجدر الإشارة إلى أن تحليل نسق الخطاب، وفق هذا المنظور، "لا يكشف عن شمولية المعنى، بل يبرز لعبة الندرة المفروضة، بجانب قدرة أساسية على الإثبات"[13].

تبعا لهذا، تضم الرؤية النشوئية منظومتين من حيث القواعد التي ينبني عليها الخطاب؛ فالمنظومة الأولى تختص بالقواعد العامة، وتتمثل في خضوعه لـ"مبدأ القوانين"، حيث يرتبط الخطاب بالمؤسسة، وهو المكان الذي أعد له و".. إذا حصل أن كانت له بعض السلطة فإنه يستمدها منَّا ومنَّا فقط "[14]. و"مبدأ المنع أو الحجر"؛ ذلك أن ".. ما نصارع من أجله، وما نصارع به، وهو السلطة التي نحاول الاستيلاء عليها"[15]. ثم "مبدأ التعارض أو إرادة الحقيقة"، من خلال اعتمادها ".. على دعامة وعلى توزيع مؤسسيين تميل إلى أن تمارس نوعاً من الضّغط على الخطابات الأخرى وكأنها سلطة .."[16].

أما المنظومة الثانية، ضمن نفس الرؤية، فتختص بالقواعد الخاصة، وتتمثل في "مبدأ المؤلف"، وليس المؤلف طبعا ".. هو الفرد المتحدث الذي نطق أو كتب نصّاً، بل المؤلف كمبدأ تجميع للخطاب، كوحدة وأصل لدلالات الخطابات، وكبؤرة لتناسلها .. وبؤر(ة) تماسكها، واندراجها في الواقع"[17]. و"مبدأ التعليق/ الحواشي" الذي يحد من صدفة الخطاب بأن يخصص له نصيبا، "فهو يمكّنُ من قول شيء آخر غير النص نفسه، لكن شريطة أن يكون النص نفسه هو الذي قيل وأنجز إلى حد ما"[18]. ثم "مبدأ الفرع المعرفي" (Discipline) الذي يعد "مبدأ لمراقبة عملية إنتاج الخطاب. فهو يعيِّنُ له حدودا بواسطة لعبة هوية تأخذ شكل عملية بعث دائم للقواعد"[19].

أما بخصوص الرؤية النقدية التي تشكل ضمن نسق الخطاب عند "فوكو" المنظومة الثالثة، فتهم قوانين تقويض الخطاب. وتتمثل أولا في "مبدأ القلب" الذي وإن كان يفرض، تبعا للتقاليد، التعرف على منبع الخطابات: "وعلى مبدأ غزارتها واستمرارها، عبر الأوجه التي يبدو أنها تلعب دورا إيجابيا .. يجب بالأحرى أن نعين مبادئ التقليل هاته (حين) نكف عن اعتبارها كهيأة أساسية وخلاقة.."[20]. وثانيا "مبدأ عدم الاتصال"، وفي سياق أنساق التقليل من الخطابات، لا يعني هذا أن فوق هذه الخطابات أو وراءها

خطابا كبيرا متصلا صامتا، لابد من الكشف عنه أو منحه كلمته الأخيرة، بل "يتعين معاملة الخطابات على أنها ممارسات غير متصلة، ممارسات تتقاطع، وتتقارب أحيانا، لكنها تتجاهل بعضها، وتستبعد بعضها أيضا"[21]. وثالثا "مبدأ الخصوصية"، ذلك أن الخطاب ليس سابقا عن دلالاته، مادام العالم ليس واضح المعالم يمكن قراءته بسهولة وانتظام، مادام ليس طوع معرفتنا، و"ليس هناك سلطة فكرية سابقة على الخطاب تهيئُه لصالحنا (بل) يجب تصور الخطاب كعتق نمارسه على الأشياء (...)"[22]. ورابعا "مبدأ القاعدة الخارجية"، ويعني هذا أنه لا ينبغي الانطلاق من الخطاب نحو نواته الداخلية الخفية، بل نحو قلب الدلالة، حيث الانطلاق من الخطاب نفسه "وانطلاقا من ظهوره وانتظامه نحو شروط إمكاناته الخارجية أي نحو ما يتيح من الفرصة لظهور السلسلة العرضية لهذه الأحداث وما يرسم لها من حدود"[23].

وتجدر الإشارة إلى أن المؤطرَ لهذه المبادئ هو فكرتا "التاريخ" و"الصدفة"، فالتاريخ لا يعني فكرة العلاقة بين سبب نتيجة، في أفق بناء: "سلاسل مختلفة ومتقاطعة ومتنافرة غالبا، لكنها مستقلة عن بعضها، سلاسل تمكِّنُ من الإحاطة بموقع الحدث، وبهوامش عرضيته وبشروط ظهوره"[24]. أما "الصدفة" فينبغي قَبُولها "في عملية إنتاج الحدث"، مع أخذٍ بعين الاعتبار، قصور العلم في إنتاج نظرية تصور العلاقة بين الصدفة والفكر بشكل من الأشكال.

- **الدافعية: نظرية التنشيط:**

تقوم الدافعية على مفهومين اثنين هما: مفهوم "التنشيط" الذي جاء به كلارك هيل "Clark Hel" ، ومفهوم "التوازنية" الذي جاء به كانُن والتر برادفورد "Cannon Walter Bradford". ويمكن التمييز في نظرية التنشيط/ الاستثارة، ضمن هذا السياق، بين تجَمُّع اهتم فقط بالجانب النفسي، حيث اعتبر أن المستوى الأفضل من الاستثارة هو المطلوب لا أقل ولا أكثر. وتجَمُّع ثانٍ، اهتم بالجانب النفس–سلوكي، حين ركز على الاستثارة في السلوك مع المتغيرات الأخرى في اتجاه الدافع. لكن مع تطور الأبحاث التي جمعت بين الجانب البيولوجي والنفس– سلوكي، تم التركيز على التنشيط بوصفه نوعا من التوازن في نطاق التوصل إلى السلوك المنشود اعتمادا على الدافع.

وتجدر الإشارة إلى أن العلاقة بين الاستثارة والدافع، تقوم على قانون يركيس–دودسن (Yerkes–Dodson) وهو قانون (حرف Uمقلوب)، الذي يذهب نحو تحقيق مبدإ التوازن على مستوى الاستثارة في اتجاه الدافع. في حين أن قانون/ نظرية كانن–بارد (Cannon–Bard) ذهب إلى أن الاستثارة لا تنبعث من منطقة تدعى في الدماغ "الثلاموس" بل من العلاقة بين منطقتي "الهايبوثلاموس" و"الجهاز الجوفي".

وتختلف سرعة الربط بينهما باختلاف كل شخص على حدة. وخلاصة هذه النظرية عموما؛ هي أنه كلما تحقق مستوى أفضل للاستثارة كما ينشدها الناس، وتم التوصل إليه، كانت سلوكياتهم أكثر فاعلية.

لهذا، تتعدد الدوافع الفطرية والمكتسبة عند الإنسان، وأهمها، وفق هذا السياق، الدوافع الاجتماعية التي يذهب فيها "ألبريت" مذهب انعدام دافع اجتماعي فطري، حيث "تتوقف قوة كل واحد من الدوافع المكتسبة على الظروف المحددة التي تم تعلمه فيها، والتي قد تختلف باختلاف الأسرة، والطبقة الاجتماعية، والمجتمع. وبذلك، يتمكن ميللر ودولارد من تفسير التفاوت الهائل الذي نجده بين الدوافع الاجتماعية (...)"[25]. كما صنف "هنري أ. موراي" الدوافع الاجتماعية إلى قائمة مبدئية من عشرين دافعا اجتماعيا تتمثل في (العمل المضاد، الدفاع،الاحترام، السيطرة، العرض، تجنب الأذى، تجنب الدونية، الحنو، الاتضاع، الإنجاز، الانتماء، العدوان، الاستقلال، التنظيم، اللعب، الرفض، الحسية، طلب المساعدة، الجنس، الفهم. –مأخوذ عن: C.S.H all and G. lindzey;Theories of personality; New York:Wiley;1957–)[26].

2.2.1. الأفق النقدي:

إذا كان "المنهج التنظيمي لتحليل الخطاب" يراهن مثل باقي مناهج التحليل النقدي للخطاب على الربط بين الخطاب والسلطة والمجتمع، في نطاق الوقوف على تلاوين هذه السلطة، باختلاف تشكلات خطاباتها، وكيفية تأثيرها في الممارسة الاجتماعية، فإنه يفتح أفقا جديدا، يتسم بميسم قادر على الخوض في بعض المقومات الجمالية التي يقوم عليها الخطاب الفني والأدبي، وربما هذا ما يميزه عن باقي المناهج الأخرى، التي تهتم بالقضايا المتضمنة في الخطابات السياسية أو الاجتماعية أو الاقتصادية أو غيرها.

ووفق سياق هذه الدراسة، تبرز أهمية استثمار "التحليل التنظيمي للخطاب/ (DA)" باعتباره امتدادا للتحليل النقدي للخطاب، حيث لا يُعْنَى بشكل من الأشكال بالمستوى الجزئي للخطاب، بل بمستواه الكلي، كما لا يقتصر فقط على العلاقة بين الخطاب والسلطة، بل ينفتح على بعد جمالي أيضا، وهذا ما جعله أكثر ملاءمة مع الخطاب الأدبي والفني، كما هو شأن الخطاب السينمائي، باعتباره عاملا من العوامل المعدلة بغية الوقوف على التغيرات وسيرورات التحول التي يمارسها هذا الخطاب في علاقته بالسلطة والمجتمع.

2. الخطاب السينمائي: المفهوم والمقومات:

يفرض المنطق المنهجي، بعد التطرق إلى المنهج التنظيمي المعتمد في هذه الدراسة، الوقوف عند المتن المدروس. وقبل الخوض في تحليل الفيلم، لابد من بسط مفهوم الخطاب السينمائي وبعض مقوماته النظرية.

1.2. الخطاب السينمائي:

إن مفهوم الخطاب يرتبط باللغة، ومادامت هي وعاء الفكر الإنساني، فإن الخطاب تعبير عن هذا الفكر بواسطة الكلام الشفهي والآني. وبذلك فهي الآن، ذات علاقة بالكلام من جهة، ومن جهة أخرى ذات علاقة بالخطاب[27] الذي توسع مفهومه مع ظهور السيميائيات: "ليشمل كل نمط من الإنتاجات الاجتماعية التي تولد معنى"[28].

ويذهب الألسني "إميل بنفنيست" (Emil Benveniste) إلى أن كلمة خطاب هي ضد الحكاية أو القصة، "وهو يميز الخطاب بوجود علامات بيانية (البيانيات) مفترضا شخصا يتحدث إلى المخاطب (مرسل إليه).. والحال أن كل نص مكتوب أو فلمي، سواء كان توهميا أو وثائقيا إنما ينظمه شخص ما بخلاف الواقع –الذي لا ينطقه أحد– (متز Metz)، حتى لو كانت آثار الجهاز الحاكي مخفية ليست الحقيقة أبدا هي ما نراه، بل خطاب منطوق عن الحقيقة.."[29].

أما السينمائي، فمن (السينمائية) في مقابل (الفلمية)، وهو تمييز وضعه جلبر كوهن سات (Gilbert Cohen–Seat) عام 1946. حيث ".. يعرف الفلمي بأنه ما يتعلق بجمالية العمل الفلمي ورسالته، بينما السينماتوغرافي (أو السينمائي) يغطي ما في الفيلم من أمور تتعلق بوسائل التعبير الخاصة بالصورة المتحركة، كما يغطي من جهة أخرى ما يتأتى من جانب السينما الاجتماعي أو التقني أو الصناعي"[30].

وفي الخطاب والسينما (Language et Cinéma)، المقال الصادر عام 1977، استعاد كريستيان متز (Christian Metz) هذا التمييز من خلال الوقوف عند الكودات، حيث اقترح لكل مفهوم مصطلحا: "فلمي: (مجموع كودات الأفلام، من نوعية أو غير نوعية، بواسطة عبارة تقول: وهكذا نستعمل الكود الشفوي دون أن يكون نوعيا). وسينماتوغرافي فلمي: (كودات خاصة بالسينما ضمن الواقع الفلمي؛ وهذا هو حال حركات الكاميرا). وسينماتوغيرافي غير فلمي: (ويتعلق بكل ما له علاقة بالمؤسسة من إنتاج وتقانة وجمهور...)"[31].

2.2. مقومات الخطاب السينمائي:

نشأت السينما بالموازاة مع المسرح منذ 1907، من خلال "لعبة الصورة" واللعب الفوتوغرافي" والفوتودراما"[32] وغيرها، لتتعدد لغتها تبعا لتعدد إواليات بناء خطابها. لذلك، لا "تستجيب ضرورة لصرامة المنطق اللساني، فهي خزان رموز يطغى عليه الشكل الجمالي، ويستمد بعض مكوناته الرمزية من اللغة نظرا لضرورات توتره الجمالي"[33]. ومما يزيد الأمر تعقيدا، أنه ينبني على الصورة القائمة على عملية "التوليف" (Editing)، حيث ينعكس التواصل السينمائي في الآليات المنتجة للغة الإشارية بشكل موازٍ لخطية/ السرد الفيلمي[34].

لذلك، يقوم الفيلم في بناء خطابه السينمائي على ركيزتين رئيستين، هما: "الصورة" و"الصوت"؛ فالصورة من خلال "التوليف"[35]، وباعتماد عدة تقنيات مثل (التبئير والتأطير والحركة وزاوية الرؤية ...) تلعب أدوارا متعددة كالوصف، والحكي، وتعيين الزمان والمكان (...). أما الصوت فيعمد إلى الآليات التلفظية وغير التلفظية (....)[36]، ومن ثمة فالمزاوجة بينهما يجعل الخطاب أكثر تشعبا "بل ما يجعل الفيلم أكثر قربا للشعر، وهو الذي يقدم عدولا عن اللغة المعيار في الصوت والصورة"[37]. وارتباطا بالجانب الدلالي في نطاق العلاقة بين "الدال" و"المدلول" و"الدليل"، وفق المنظور السيميائي عند "شارل ساندرس بورس" (Charles Sanders Peirce)، ينبغي الوقوف عند مستويين: جانب المحتوى والجانب التعبيري؛ سواء تعلق الأمر بالكلام التقريري أو الإيحائي.

تبعا لهذا السياق، يظهر أن نظام الفيلم كنظام سيميائي، يتسم بنوع من الصعوبة، وفقا لما يحتوي عليه من لغات متعددة؛ الصورة، الصوت، الموسيقى، المؤثرات..؛ وداخل كل مجال من هذه المجالات، نكون إزاء لغات داخلية ترتبط بكل واحد على حدة. "فالصورة السينمائية، على سبيل المثال، يتدخل فيها الدور الخلاق لآلة التصوير من حيث حركاتها وتدخل هذه الحركة بحجم الصورة وطبيعة إطار الصورة والتكوين.."[38]، والأمر نفسه بخصوص "التوليف" الذي يعمل على توظيف الصورة، من حيث الانتقال بها، من خلال المؤثرات البصرية مثل الظلام والنور والمزج والظهور..، ناهيك عن الأزياء والمكان والزمان إلخ.. وإذا كانت "الصورة تضم كل هذه اللغات فكيف بعناصر اللغة السينمائية جميعا ...؟"[39].

ربما هذا ما جعل "دوليك" يقول: "هناك ست وثلاثون ألفَ طريقة لرؤية فيلم ما. وقد تكون أجودها المرة السادسة والثلاثين ألفا"[40]. يتبين من خلال هذه القولة أن عملية تلقي الخطاب السينمائي عملة معقدة، حيث يمكن أن يتوصل المشاهد في كل مرة يشاهد فيها الفيلم، إلى فكرة جديدة، دلالة على أن الصورة ستظل مفتوحة دائما على قراءات وتأويلات متعددة، بتعدد زوايا النظر.

3-التحليل التنظيمي لفيلم: (خلف الأبواب المغلقة...)

1.3 قصة الفيلم:

يعالج هذا الشريط السينمائي ظاهرة "التحرش الجنسي"، من خلال قصة بطلتها (سميرة) التي تعيش حياة هنيئة مع زوجها (محسن) وابنتها، وتستمتع بعملها في الشركة. لكن، وبمجرد انتقال مدير هذه الشركة، وتعيين آخر جديد (مراد القادوري)، تغيرت حياتها، ودخلت في صراع معه، لأنه لا يكف عن التحرش بها خلال فترات العمل.

وبذلك، فمجريات أحداث الفيلم ترصد محاولات البطلة في تجاوز هذه الأزمة. وبالمقابل، يشير المخرج إلى التحرش في صفوف الطبقة العاملة (حارس العمارة) مع عاملات النظافة؛ دلالة على تفشي هذه الظاهرة بين طبقات المجتمع المغربي.

لكن، نظرا لوعي الطبقة التي تنتمي إليها البطلة (سميرة) (الطبقة البورجوازية المتوسطة)، أهّلَها إلى البحث عن مجموعة من الحلول، أهمها كان حين لجأت إلى إحدى جمعيات المجتمع المدني المدافعة عن حقوق النساء، وهو الحل الذي طغى على مجريات الفيلم، من خلال جلسات متكررة مع المحامية والبطلة رفقة زوجها. في أفق لفت الانتباه إلى الفراغ الذي يعرفه القانون المغربي.

تبعا لهذا، لم تفلح (سميرة) في إيجاد حل، حيث بادرت إلى صد مديرها. وحين استفحل الأمر، بعد أن استنفذ وسائل الإغراء المتاحة، وبدأ في أساليب التهديد التي تطورت إلى حدود إمكانية الطرد من العمل، لجأت إلى المدير العام الذي يظهر أنه في وضعية تواطؤ معه، بسبب علاقة القرابة التي تجمعه بأحد الوزراء. كما لجأت إلى زوجها الذي فشل بدوره في الأمر، بمساعدة صديق مشترك بينهما (الزوج ومدير الشركة). ثم استعانت بزوجته (دكتورة في الصيدلة)، لكنها لم تعرها اهتماما. ومع مرور الأحداث، اختار المخرج أن يكون الحل هو فعل المناورة التي استخدمتها (سميرة) حيث أخبرت زوجته بمكان وزمان اللقاء، فأوقعت به أمامها. في حين أن الحل الذي اختاره للطبقة العاملة، هو استعمال العنف. لنخلص إلى انعدام قانون من شأنه أن يحمي النساء العاملات خلف الأبواب المغلقة.

2.3. مكانة الفيلم في سياقه التاريخي:

جاء الفيلم "خلف الأبواب المغلقة" في سياق تاريخي يشهد استفحال ظاهرة التحرش الجنسي، التي عانى منها المغرب منذ سنوات مضت، تبعا للتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عرفها، خاصة بالنسبة إلى المرأة، حيث ارتفعت نسبة النساء العاملات في مختلف القطاعات الحكومية أو غير الحكومية، وإن بشكل نسبي: "فبعدما كانت نسبة النساء النشيطات، تصل إلى 30% سنة 1999، انخفضت لتنحصر في معدل 25.3 ٪ في 2014، مقابل 72.4٪ للرجال، أي بفارق يتجاوز 47 نقطة

بينهما"[41]. هذا، علاوة على ارتفاع حصول المرأة على الشهادت العليا والدبلومات التي أصبحت تخول لها الاندماج في سوق الشغل بمختلف مجالاته.

لذلك، فهو دعاية للأهداف الحقوقية والاقتصادية والسياسية التي يسعى المغرب جاهدا إلى تحقيقها ومن أهمها: تحقيق مبدأ المساواة بين الجنسين، و توازنات السياسات العمومية، مع العمل على الرفع من النمو الاقتصادي في المغرب، في ظل مجتمع محافظ، لازال يعتقد أن المكان الحقيقي للمرأة هو البيت. لهذا، ذهبت بعض الدراسات المختصة في علم النفس الاجتماعي إلى أن التحرش الجنسي بمثابة رد فعل عدواني، سببه هو اقتحام المرأة لمجالات عدة، كانت حكرا على الرجل بامتياز؛ الشوارع ومجال العمل والأماكن العمومية وغيرها.

بعد الفيلم بسنة، أي سنة 2015، تم توقيع مسودة القانون الجديد الذي يُجَرِّمُ فعل التحرش الجنسي. و قد أعطى مشروع القانون الجنائي تعريفاً قانونياً للمتحرش الجنسي، وهو كل شخص "أمعن في مضايقة الغير في الأماكن العمومية، أو غيرها، بأفعال أو أقوال أو إشارات جنسية، أو كل من وجه رسائل مكتوبة أو هاتفية أو إلكترونية أو تسجيلات أو صوراً ذات طبيعة جنسية أو لأغراض جنسية"[42].

كما نص القانون على "معاقبة المتحرش جنسياً بالسجن لمدة تتفاوت بين شهر واحد إلى ستة أشهر، وغرامة من ألفين إلى 10 آلاف درهم، وتضاعف العقوبة إذا كان مرتكب الفعل زميلاً في العمل، أو من الأشخاص المُكلفين بحفظ النظام والأمن في الفضاءات العمومية أو غيرها"[43]. وذهب أيضا إلى "معاقبة من ارتكب التحرش الجنسي من طرف أحد الأصول، أو المحارم، أو من له ولاية أو سلطة على الضحية، أو كان مكلفاً برعايتها أو كافلاً لها، وإذا كان الضحية قاصراً دون الثامنة عشر من عمره، بالسجن من سنة واحدة إلى ثلاث سنوات، وغرامة مالية"[44].

3.3. السلطة، نحو "العوامل المعدلة":

نظرا لما ينبني عليه الخطاب السينمائي من مقومات، فإننا سنحاول الوقوف عند مستويات ثلاثة، وهي مستوى المؤثرات الصوتية وتتمثل في: أغنية الجينيريك، والموسيقى الداخلية، و الأصوات الانفعالية. ومستوى العلامات اللغوية، من خلال دلالة العنوان، وطبيعة اللغة، ثم الحوار خاصة في البنية الوثائقية. ومستوى العلامات البصرية المتمثلة في رمزية المرأة، وخلفية الصورة الموظفة، ثم رمزية البطل.

1.3.3. المؤثرات الصوتية:

تحتل المؤثرات الصوتية مكانة هامة في بناء الخطاب السينمائي، فهي بمثابة علامات/ روابط، تسهم في إقحام المشاهد ضمن سيرورة الأحداث، كما تسهم في الربط بين المشاهد واللقطات، والتمييز بين طبيعتها. وهي متعددة ومتنوعة وفق رؤية المخرج ومدى إبداعيته في خلق التناسب بينها تأسيسا لمقصدية الخطاب. وفق هذا السياق، يمكن الوقوف عند بعضها، وهي كما يأتي:

- **أغنية الجنيريك:**

اعتمد المخرج محمد عهد بنسودة أغنية الجينيريك من أسلوب "الراب"، وهي باللغة الدارجة المغربية. ومن جملة ما جاء فيها:

> **(1) بالعامية: "محتاجين لِيكُوم، مَنْ هَادْ الحَالَة مَلِّيتْ، مَن النّاس لِّي يْشُوفْ رَاسُو فَايَقْ، وأَنَا نْشُوفُو عَايَقْ، أُو هُوَ فْرَاسُو ضَايَقْ. بْغِيتْ قَانُونْ يَحْمِي خْتَكْ وَاخْتِي، يَحْمِي مُكْ، يَحْمِي لَمْرا لِّي تْرَبِيكْ انْتِ... ضدْ العُنْفْ، ضَدْ الظُّلْمْ، ضَدْ التّطْلِيقْ.....ضد...ضد...؛ شْحَالْ تْعَامِينَا؟ دِيرُوstop بَاشْ خُوتْنَا يْعِيشُو فِي لَمَانْ... بَاشْ نْشُوفُو غَدْوَة حْسَنْ.. بَاشْ نْشُوفُو بْلَادْنَا حَامْيَة بْنَاتْنَا و زَايدَا للقُدَّام (...)".**
>
> **بالفصحى: نحتاج إليكم، مللت من هذه الحال. من الناس من يرى نفسه محنكا وأنا أراه جاهلا، لكنه جاهل. أريد قانونا يحمي أختك وأختي يحمي أمك، يحمي المرأة التي تُربِّيك.. ضدْ العُنْفْ، ضدْ الظُّلْمْ، ضدْ التّطْلِيقْ.....ضد...ضد... تغافلنا كثيرا، أوقفوا هذا كي يعيش إخواننا في أمان، كي نرى المستقبل جميلا، كي نرى بلادنا تحمي بناتنا ومتقدمة.**

تزامنا مع المقطع الأخير من هذه الأغنية، يورد المخرج لقطة التقاء بطلة الفيلم (سميرة) رفقة زوجها (محسن) في السيارة، وجها لوجه مع مديرها الجديد (مراد القادوري)، لحظة انتظار الضوء الأخضر للمرور، دون أن يعرف أحدهما الآخر، وهو يداعبها بنظراته، في الوقت الذي كانت تضع أحمر الشفاه، وتتفقد وجهها على المرآة الداخلية للسيارة.

إن التعارض الذي يتبدى بين الأغنية واللقطة التي شكلت نقطة انطلاق مجريات أحداث قصة الفيلم، يعكس مدى التناقض الذي يعيشه المجتمع المغربي، حيث يصوره المخرج بمستوى المجتمعات

الغربية على مستوى التحديث بمختلف مستوياته المادية، لكنه لازال يعاني من حداثة معطوبة، لأنه لم يحسم بعد مع بعض السلوكات مثل "التحرش الجنسي" الذي هو عصب موضوع هذا الشريط السينمائي، وهذا ما عبرت عنه أغنية الجينيريك خاصة في تقريضة: "**وهوَ فِي رَاسُو ضَايَق/وهو جاهل**".

لهذا، فأغنية الجنيريك تحاول أن تلفت انتباه المشاهد إلى هذه الحلقة المفقودة، التي لابد من العمل على الحد منها على أرض الواقع، من خلال فضح هذا السلوك بوسائل عديدة، ومن ثمة التأسيس لخطاب قانوني كفيل بتحقيق الحماية للمرأة التي أصبحت مضطهدة خاصة في مجال العمل، لذلك عمل المخرج على فضح هذه السلطة الرمزية والمادية التي تعانيها المرأة، وهي سلطة مزدوجة؛ سلطة الرجل في مجتمع لازال ذكوريا بامتياز، والسلطة السياسية والاقتصادية بحكم حداثة المرأة في النسيج الاجتماعي والاقتصادي. وبهذا العمل على تحقيق نوع من التوازن بين "دافع الانتماء" أي محاولة الاهتمام بالقيم المجتمعية الخاصة بالمجتمع المغربي، و"دافع الإنجاز" الذي يعد من الدوافع الكفيلة بتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية، في ظل إدماج المرأة في سوق الشغل.

إن حجة الشهادة التي تؤطر هذا الشريط السينمائي، في علاقتها بأغنية الجنيريك، أهلت المخرج إلى أن يدق ناقوس الخطر تجاه المؤسسة القانونية، معلنا فراغا قانونيا قد يعيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي يصبو إليها المغرب المعاصر، وذلك عبر قنوات، أهمها سلطة المجتمع المدني حيث العمل على تأسيس سلطة قانونية، انطلاقا من مبدإ "إرادة الحقيقة"، في ظل مجتمع موسوم بحداثة معطوبة، ويكتفي فقط بمظاهر التحديث.

- **الموسيقى الداخلية:**

ينقسم هذا الفيلم إلى بنيتين: فالبنية الأولى ذات طبيعة سينمائية، ترصد أحداث قصة البطلة (سميرة) مع مديرها في الشركة (مراد القادوري). في حين أن البنية الثانية ذات طبيعة وثائقية، يحاول أن يبين المخرج من خلالها الحيثيات القانونية لظاهرة التحرش الجنسي. وهي لقطات ثابتة على مستوى المكان والشخصيات؛ (المحامية والبطلة (سميرة) والزوج (محسن))، والمتغير فيها هو مجريات الحوار بين هذه الشخصيات الثلاث. والدمج بين هذين البنيتين، يوحي باعتماد "تقنية الاسترجاع".

خلال الانتقال من بينة إلى أخرى، عبر مجريات الفيلم، يعتمد المخرج صوتاً ضاجّاً يُسمع من خلاله صوت انكسار الأواني المتكرر. ويروم المخرج من خلاله هذا الصوت تنبيه المشاهد إلى تلقي الخطاب الذي يؤسس له، وهو خطاب معاكس لخطاب مجريات القصة. فبمجرد سماع هذا الصوت،

تظهر شخصية "المحامية" وأمامها الضحية وزوجها، في محاولة الإحاطة بحيثيات هذه الظاهرة من خلال استقراء مجرياتها، وتوثيق تفاصيلها، من وجهة نظر قانونية.

إن صوت الانكسار دال على مدى انكسار شخصية المرأة أمام سلطة مديرها، وهي سلطة متعددة الأوجه؛ سلطة الرجل الذي يسعى إلى تلبية رغبته تحت "دافع الجنس"، وسلطة الإدارة، بحكم وضعيتها الإدارية في العمل، وسلطة التواطؤ بين مديرها والمدير العام. وهلُمَّ سُلَط...، وهذا التلازم بين هذا الصوت وهذه البنية، بشكل متكرر، دال على حدة الوضعية المأزقية التي تعانيها البطلة (سميرة) في علاقتها بهذا الموضوع/ الظاهرة.

تبرز المنظومة الرمزية التي يفضحها المخرج من خلال الانتقال من بنية إلى أخرى، حيث تعمل البنية الثانية دور المرآة الكاشفة لحقيقة البنية الأولى. وبذلك، فهي بمثابة "أدوات تواصل ومعرفة تشكل بنيات يخضع العالم لبنياتها، تؤدي وظيفتها السياسية من حيث هي أدوات لفرض السيادة وإعطائها صفة المشروعية التي تساهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى"[45].

- **الأصوات الانفعالية:**

تجدر الإشارة إلى أننا اعتبرنا الأصوات الانفعالية، ضمن المؤثرات الصوتية، وإن ارتبطت بالحوار داخل الخطاب السينمائي، لدواع ذات صلة بطبيعة الفيلم نفسه، والتي تتسم بالهدوء في معالجة ظاهرة "التحرش الجنسي". وبذلك، فهذه الأصوات ذات صلة بالدوافع، حيث "تستثار الانفعالات بواسطة طائفة متنوعة من أنماط المثيرات الفطرية والمثيرات المتعلمة والمواقف الاجتماعية..."[46].

إن الأصوات الانفعالية، ضمن هذا السياق، وإن كانت جد قليلة، فهي ذات أهمية في بناء مقصدية الخطاب، حيث يمكن أن نميز بين نوعين منها؛ يرتبط النوع الأول بالبطلة (سميرة) محط التحرش الجنسي، ويرتبط النوع الثاني بمدير الشركة (مراد القادوري) القائم بهذا الفعل. والتقابل بين هذين الصوتين يجسد في حد ذاته صراع الدوافع بشكل سلطوي في أفق تحقيق الرغبة. ويظهر هذا منذ الوهلة الأولى من خلال نوع اللغة المستعملة.

يتجسد النوع الأول، على سبيل التمثيل لا الحصر، في اللقطة (35:00-35:50) حيث تظهر البطلة وهي تحادث صديقتها في مقهى الشركة، لحظة أخذ قسط من الراحة عن رغبة المدير:

(2) "- سميرة في حالة حزن مطبق تسألها صديقتها: مَالَكْ (ماذا بكِ؟)

- سميرة: وَخّا نْقُولْ لِيكْ مَتّيْقِنِيشْ (لن تُصدّقِين ما سأقول لَكِ)

- سميرة: المُدِير جْدِيدْ (المدير الجديد)

– الصديقة: مالُو (ماذا بِهِ؟)

– سميرة: قَالِيكْ بْغَا يَنْعَسْ مْعَيَا"(يرِيدُ مُضَاجَعَتِي)"

فأجابت الصديقة بصوت انفعالي لفت انتباه الحاضرين آنذاك:

(3) "–الصديقة: أَوِيلِي... (يا ويلي)"

وبحركة يد على خذها وكأنها تندب حظها هي، أعقبت قائلة:

(4) "هَادْشِّي كَامَلْ قَالُو لِيكْ وَخَّا عَارْفَكْ مْزَوْجَة وْكُلْشِي

(قال لكِ كل هذا؟، وهُو يَعرفُ أنّكِ مُتزوِّجة؟)".

في مقابل هذا، نجد الانفعال المضاد بدافع السلطة، ويتجسد في رد فعل مدير الشركة (مراد القادوري) في اللقطة (30:30–29:00)، حين وجد موظفة وقد غادرت مكتبها للحصول على وثيقة الإحصاء من موظف آخر، فكان رد فعله، بعد أن أمرها بالالتزام بمكانها، بدعوى وجود (العون) المتنقل بين المكاتب لتلبية طلبات الموظفين. لكن باللغة الفرنسية:

(5) "Attendez... écoutez-moi bien" à vous tous là. Je passe mon week-end, mon week-end à corriger toutes vos erreurs, c'est pas normal ça, c'est pas normal, je distribue des promotions à ce qu'est mérite, et je distribue des blâmes à ce qu'est mérite aussi..."

"انتظروا...أنصتوا جيدا إلي جميعا، أمضيت آخر الأسبوع في تصحيح أخطائكم، فهذا غير معقول، لذلك، سأجازي من يستحق، وسأعاقب من يستحق أيضا (...)"

وإذا كان النوع الأول من الانفعال دالا على عدم التوازن الذي تعيشه شخصية البطلة، نتيجة موقفها من العلاقة المقترحة من قبل مديرها، بدافع الاستقلال الذي ينبغي أن تتمتع به. فإن النوع الثاني مضاد بدافع الجنس، من خلال اعتماد سلطة بيروقراطية من الصعب أن تنفلت منها الضحية، وإن كانت مصطنعة، بعد محاولات الإغراء المتعددة التي يئس منها مدير الشركة لتلبية رغبته الجنسية.

2.3.3. العلامات اللغوية:

تجدر الإشارة إلى أننا سنعمل على الوقوف عند العلامات اللغوية المنسجمة مع مقصدية التحليل، وأهمها (العنوان) و(طبيعة اللغة المستعملة) و(حوار البنية الوثائقية). وذلك في أفق إبراز طبيعة بناء الخطاب ومدى تأثيره في الممارسة الاجتماعية عند المشاهد/ المتلقي.

- **دلالة العنوان:**

(6) "خلف الأبواب المغلقة... نساء لسن للبيع"

ورد في "معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة" أن العنوان هو: "مقطع لغوي أقل من الجملة نصا أو عملا فنيا"[47]، وإن بدا هذا التعريف قاصرا نوعا ما؛ حيث اعتبره أقل من الجملة، لكنه يرفعه إلى مستوى النص، انطلاقا من مصطلح "مقطع" سواء كان نصا بعينه أم عملا فنيا قائما بذاته. ويتوافق هذا مع ما ذهب إليه "جيرار جنيت" الذي اعتبر العنوان "نصا موازيا"، يدخل ضمن المتعاليات النصية، وبذلك فهو جنس أدبي له مقوماته ومبادئه التكوينية وخصائصه التجنيسية[48].

يتضمن عنوان هذا الشريط السينمائي، بنيتين دلاليتين. فالبنية الأولى (خلف الأبواب المغلقة) ذات دلالة سوسيو–ثقافية، مادامت توحي بالطابو (الجنس) الذي يعد من الدوافع الغريزية عند الإنسان، وقد منحها بعدا ثقافيا ودينيا واجتماعيا. وبما أن التحرش الطريق الأولى نحو الطابو، فإنه لا يتم إلا خلف الأبواب المغلقة، إذ يصعب إثباته من الناحية القانونية، خاصة في مجال الوظيفة والعمل، وفق سياق هذا الفيلم محط هذه المقاربة.

أما البنية الثانية (نساء لسن للبيع)، فهي بمثابة استدراك على البنية الأولى، واحتجاج على وضعية المرأة. وهنا، يمكن استحضار تاريخ المرأة في ثقافات عدة، حيث كانت تباع وتشترى، لكن الأوضاع الثقافية والاقتصادية والحضارية قد تغيرت، فنحن في زمن يمكن الاحتكام فيه إلى سلطة القانون، وهذا ما دفع بالمخرج إلى فضح هذا السلوك عبر بنيتين؛ بنية القصة السينمائية وهي تجسد فعل التحرش الجنسي الذي يقع خلف الأبواب المغلقة، والبنية الوثائقية التي تحاول أن تجد حلا قانونيا لهذه الظاهرة.

ولا غرو أن تكون لهذا الاحتجاج مدعاة تروم منح سلطة القانون للمرأة المغربية، نظرا لكونها وجدت نفسها عارية من حماية الدولة في ظل تحقيق التنمية البشرية والنهوض بالمجتمع المغربي اقتصاديا واجتماعيا، في مقابل سلطة الرجل المتغلغلة داخل جل القطاعات وبمختلف مستوياتها، وذلك في أفق تحقيق الاستزادة من نفع مفهوم الاستقلال الوظيفي، في ظل قيم مجتمعية جديدة، تكتسب فيها شخصية

المرأة صبغة ذاتية لمنحها صفة البقاء، "وقد أظهرت تجارب عدة أن (الأفراد) يتحسن أداؤهم في الأعمال إن كانت هذه الأعمال متعلقة بذواتهم"[49].

لكن، وبالمقابل، لا يخلو هذا الطرح من تأثير أيديولوجي، بسبب التصنيفات السياسية التي تقع تحت قناع مشروعية التصانيف الدينية أو الفلسفية، يله القانونية التي "تدين المنظومات الرمزية بقوتها الذاتية لكون علاقات القوة التي تعبر عن نفسها لا تتجلى فيها إلا في شكل علاقات بين معاني (التحويل)"[50].

- **طبيعة اللغة في الخطاب السينمائي:**

إن طبيعة اللغة المعتمدة في بناء الخطاب السينمائي لهذا الفيلم ذات أهمية بما كان. فهي علامة دالة على المقصدية التي يرمي إليها المخرج؛ إذ نجد أن 90% من لغة الفيلم باللغة الفرنسية، و10% منها فقط خصصت للهجة المغربية. وقد أسهمت طبيعة اللغة هذه في التمييز بين بنيتين فنيتين داخل الفيلم نفسه، فالبنية الأولى ذات السرد الفيلمي لقصة التحرش الجنسي غلبت عليها اللغة الفرنسية، مع استعمال الدارجة المغربية بين الفينة والأخرى، في حين أن البنية الثانية وهي بنية وثائقية؛ تعكس القراءة القانونية لمجريات الأحداث، عمد فيها المخرج إلى اللغة الوسطى القريبة من اللغة العربية الفصحى. وهذا يعني أن اللغة أصبحت تشكل عالما ثقافيا موازيا للعالم الواقعي المعيش، من خلال قدرتها على التمثيل الرمزي له، فـ"المرجع الأدبي .. وحدة ثقافية تقدم لنا بعض خصوصيات النص (السينمائي) وبنية الواقع التاريخي التي يسير إليها (هذا) النص"[51].

إن استعمال اللغة الفرنسية داخل البنية الأولى، واللهجة المغربية مستقلة في البنية الثانية، دلالة على مبدإ التعارض الذي أسس عليه المخرج نظرته إلى المجتمع المغربي من هذه الزاوية، في أفق رصد التناقض الذي يعيشه، معتمدا الكشف عن الحياة اليومية للطبقة البورجوازية المتوسطة التي تعد عنصرا فاعلا في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولا تفوتنا هنا، الإشارة إلى حياة الطبقة العاملة، التي اقتُصر فيها على اللهجة المغربية. وبذلك، فهذا التعارض هو تعارض بين ثقافتين؛ ثقافة متحررة قوامها اللغة الأجنبية، وثقافة محافظة قوامها اللهجة المغربية. وهنا يمكن القول إن المخرج في نطاق علاقة الخطاب بالممارسة الاجتماعية ينتصر لدافع "الانتماء" في مقابل دافع "الإنجاز"، بل يرمي إلى تحقيق التوازن بينهما من خلال التأسيس لخطاب يدين ظاهرة التحرش الجنسي بين صفوف الطبقتين من زاوية قانونية غير متحققة بعد. و"في الواقع، إن استعمال اللغة (فحوى الخطاب) وكيفية إلقائه في ذات الوقت،

يتوقفان على المقام الاجتماعي للمتكلم، ذلك المقام الذي يتحكم في مدى نصيبه من استعمال لغة المؤسسة واستخدام الكلام الرسمي المشروع"[52].

- **الحوار في البنية الوثائقية:**

إن اعتماد "اللغة العربية الوسطى" في البنية الوثائقية بهدف التأسيس لخطاب قانوني من خلال الحوار بين شخصيات ثابتة: البطلة (سميرة) والزوج (محسن) والمحامية (التي تمثل المجتمع المدني)، فذلك لإبراز نوع من الجدل مع البنية الخاصة بالسرد الفيلمي لأحداث القصة، مادامت تمثل واقع الصراع الذي يجسد السلطة بتشكلاتها المتنوعة التي تتبدى من خلال شخصية مدير الشركة (مراد القادوري) في مسعاه لإخضاع البطلة لرغبته الجنسية، ضاربا بالقيم الدينية والمجتمعية عرض الحائط.

بذلك، جاء الحوار، وفق هذا السياق، قراءة لحثيات التسلط في العمل وتطوراته وأساليبه التي يعتمدها "المتحرش" للإطاحة بفريسته/الضحية. وقد انطوت هذه البنية على سبع لقطات تفسر بوضوح "ظاهرة التحرش الجنسي" وطبيعته وسبل إثباته. وقد جاءت اللقطة الأولى (22:12–22:55) تعبيرا عن مفهوم التحرش، حيث تقول (المحامية):

(7) بالعامية: "التحرش الجنسي هُو كلْ سُلوك تَيَصْدَرْ عنْ شخص تَيَسْتَغَل السُّلطة المُخوّلة ليه أوْ تَيْقُوم بتصرف عنْدُو طَابَع جِنْسِي؛ كاسْتِعْرَاض الأعضاء التناسلية، حركات، لمَسَات، اقتراحات كلمات ذات إيحَاء جِنْسِي. أشْنُو هُوَ بالضبْط نَوْع التحرُّش لِّي تَيَتْحَرَّشْ بيكْ المُدِيرْ دْيَالَكْ".

بالفصحى: التحرُّشُ الجنْسِي هو كلّ سُلُوكٍ يَصْدُرُ عنْ شَخْصٍ يسْتَغِلُّ السُّلْطة المُخوّلة لهُ ويَقُوم بتصرُّفٍ يحملُ طابَعاً جنْسِيّا، كاستعْرَاض الأعضاء التناسلِية، حركات، لَمسات، اقتراحات، كلمات ذاتُ إيحاءٍ جِنْسي. ما هو بالضبط نوع التحرش الذي يقومُ بِهِ مُديرُكِ تُجاهَكِ)".

وفي مسار البحث عن طبيعة التحرش، وتحديد نوعه، كانت اللقطة الثانية (33:33–34:08):

(8) "– المحامية: عَمْرُو ما حَطْ يَدُّو عْليكْ؟(هل قَامَ بِلَمْسِكِ؟)

– سميرة: تَايْقُول بْغَانِي نْقَصَّرْ مْعَاه لِيلة وَحْدة و يَبَعَّدْ مَنِّي

(يقول إنهُ يُرِيدُ مضاجعتِي ليلةً واحدةً، ولنْ يُزْعِجَنِي مرّةً أخْرَى).

– المحامية: آش تَيْكُونْ الجواب دْيَالْكَ، (وماذا كان جَوابُكِ؟).

– سميرة: تَنْفَهْمْ لِيهْ بِلاّ هَدَاكْ النّهَار عَمرُو مَا يَحْلَمْ بِيه

(أُفهمه أن ذلك يوم لن يأتي أبَداً). (نظرات محرجة نحو الزوج محسن).

– المحامية: عَمْرُو مَا حَطْ يَدُّو عْلِيكْ؟ (هل قَامَ بِلَمْسِكِ؟)".

لكن، تبعا لهذا المسار، تتم الإشارة إلى القصور البارز الذي يعرفه القانون المغربي في الإشارة إلى هذه الظاهرة، علاوة على اهتمامه بالدليل المادي للإثبات، علما أن الأمر لا يتم إلا وراء الأبواب المغلقة. وهذا ما عبرت عنه اللقطة الثالثة (43:39–42:25):

(9) "– المحامية: مـعَ الأَسَفْ القانُون دْيَالْنَا، سواءٌ الجنائي أو قَانُون الشُّغل أو قانون الوَظِيفَة العُمُومية مَكايَنْشْ ما بِين مُقْتَضَياتُو النّص تَيْعَرَّفْ عَنْ التّحَرشْ الجِنْسِي، كَايَنْ فَرَاغْ تَشْرِيعِي كْبِير فِي هادْ المَجَالْ (للأسَف قانوننا، سواءٌ الجِنائي، أو قانون الشغل، أو قانون الوظيفة العمومية لاَ يتضمّنُ بين مقتضياته نصاً يُعرّفُ فيه التحرّش الجنْسي، هناك فراغٌ تشريعيٌّ مُهْول فِي هذا المَجال).

– سميرة: إذَنْ أَشْنُو المَعْمُولْ؟ (إذَنْ مَا العمَل؟).

– المحامية: مَا كَاينْ شِي طَرِيقَة بَاشْ تَبْتِي بالدّلِيل المَادِي هَاتَشِّي لِّي تَتْعَرْضِ لِيهْ (أليْست هنَاك طرِيقة مُعيّنة لإثْبَات التحرّش بدليلٍ مادي).

– محسن: par exemple (مثلا).

– المحامية: شُهُود مثلاً.

– سميرة: شْهُود، شْكُونْ هدَا لِي يَبْغِي يَشْهَدْ لِيكْ (شهود؟ من سيقحم نفسه في هذه المشكِلة؟).

– المحامية: (مبتسمة) عَنْدَكْ الحَقْ، شْكُون يَشْهَدْ لِيك. غَالِباً التحرش تَيْكُون وراءَ الأبْواب المُغْلَقَة (فعلا، من يشهَدُ لك على هذه الواقعة، مادام التحرّش يقع خلْف الأبْواب المغْلقة).

– محسن: يَعْنِي قانُونياً مَا عَنْدَنَا مَا نْدِرُو (هذا يعْنِي أنه لاَ طَائلَ من اللُّجُوءِ إلى القَانُون).

– المحامية: أَنَا مُحامية و تَنَعْرَفْ القَانُون أَسِّي مُحسن، أَشْنُو نْدِرُو فِي غَياب وَسائل الإثْبَات (أنا محامية أعْرِفُ القانون السيد محسن، لكن ماذا سنفعل في غياب وسائل الإثبات)

– سميرة: أَشْنُو دَبا؟ أَنَا غَنَبْقَى هَكَّا حَتَّى تَمْشِي لِيَ خْدَمْتِي؟ (وماذا بعد؟ لا نقومُ بأيّ خطْوةٍ إلى الأمام حتّى أُطرَدَ من العَمَل؟)".

ومع توالي لقطات البنية الوثائقية، بدأت رحلة البحث عن الدليل المادي، إعلانا عن صعوبة التوصل إليه، لتحقيق الإدانة القانونية. بالمقابل يظهر أن البطلة (سميرة) أصبحت تعاني ضغطا نفسيا مرهقا، نظرا لصعوبة الموقف، موازاة مع المشاكل المختلقة في العمل، والمتمثلة في خضوعها للمسطرة التأديبية بسبب الإهمال، والتي يمكن أن يترتب عليها الطرد من العمل، والملفت للنظر أن الزوج يدافع عنْ هذه الفكرة، وتعويضه بعمل آخر..!

وخلال مسيرة البحث هذه، تمت الإشارة في اللقطة الرابعة، (48:22–48:50)، إلى المأزق الحقيقي الذي وقعت فيه البطلة (سميرة) وهو فقدان العمل حيث قالت:

(10) "المُدِير دَيالِي تَيْهَدَّدْنِي تَيْقُول إلاَ مَا لَبِّيتْشْ الرّغْبَة دْيَالُو غَادِي يَطْرَدْنِي من الخَدْمَة دْيَالِي (إنّ مُديري في العمل يُهدِّدُني، إذا لم أقُمْ بتلْبِيَة رغْبَته فسيَطْرُدُني من عَمَلي)".

لذلك، كانت اللقطة الخامسة (1:11:26–1:11:56) معبرة عن الخطوات العملية التي بإمكانها أن تسفر عن دليل مادي للإثبات عوض الشهود، ولا تعدو أن تكون هذه الخطوات/الخطوة العملية إلا عملية إثبات بطريقة تضاهي مسألة الشهود، بطريقة أخرى لا غير:

(11) "–المحامية: الخُطْوَة العملية الأُولَى لِي يَمْكَنْ لِيكْ دِرِي هُوَ تْكَتْبِي شِكاية للمدير العام للمؤسّسة دَيَالكْ أوْ طَلْبِي مُنْوُّ الإنْصَافْ أُو حَاوْلِي تْحَصْلِي عْلَى جَوَاب كِتَابِي نَعْتَبْرُوهْ كَوثيقَة تَسْمَحْ لِينَا نْرْفْعُو دَعْوَة قَضائِية عْلَى هادْ الشّخْص لّي تَيْتْحَرّشْ بِيكْ.(إن الخطوَة العمليـة الأولـى التـي ينبغي القيامث بِها، هِي كتابَة شكايَةٍ للمدير العام للمؤسسة التي تشْتَغِلين بِها، تلتمسين منه رفع الضرر عنك، وذلك في جواب كِتَابِي، نحصلُ علَيْه كوثيقة إثبات لمقَاضاة هذا الشّخْص الذي يتحرّشُ بِك).

–سميرة: أُ تَظَنّي أنّو غَادِي يْجَوبْنِي كِتَابِياً؟ (أتظُنّينَ أنّهُ سيُجيبُني كتابياً؟).

-المحامية: حَاوْلي آشْ غَدَا تْخَسْرِي (حاوِلِي لن تخسرِي شيئاً) (نبرة منخفضة وحزينة)."

بناء على ما سبق، يظهر أن المأزق القانوني دال على أزمة حل المشكل، وقد دل على هذا المدة الزمنية المتقلصة جدا للحوار حول هذه المسألة، مما نحا بالمحامية العمل على مساندة الضحية نفسيا. سواء كانت مساندة فردية تجلت من خلال اللقطة السادسة (قبل الأخيرة في البنية الوثائقية) (1:15:13-1:16:19)، حيث بدأت تحكي للبطلة (مسيرة) معاناتها مع نفس الظاهرة أيام سنوات الجمر والرصاص. وعن ذلك تقول:

(12) بالعامية: "أَنَا مْقَّدْرَة ظُروفكْ أو عَارفَة أشْنُو تَتْحَسِّي. رَاجْلِي كَان مُناضِل سِيَاسِي فِي أيام سنوات الرّصاص، مَتْصَوْرِيشْ الإهانات لِّي تْعَرّضتْ لِيهَا وُ التحرُّشَات لِّي دَارَتْ عْلِيَ أنَا لِّي جالسة قْبَالتَكْ، ولكن، كُلْشِي كَيْدُوزْ. الجمعية هَذا هُوَ هَدَفْهَا؛ حِمَايَة النّساء و النِّضَال حَتّى نْحَصْلُو عْلَى نص قَانُونِي شفَّافْ وُ وَاضَحْ تَيَحْمِي المرأة المغربية مِنْ آفة التحرُّش

بالفصحى: (إنّني أقدّرُ ظرُوفَكِ، وأشعر بما تُعَانِيه، زوجي كان مناضلاً سياسياً فترة سنوات الجمر والرصّاص، لن تتصوري حجم الإهانات التي تعرّضتُ لها، والتحرُّشات التي عانيتُ منْهَا، أنا الجالسة أمامَكِ الآن. ولكن كلّ شيء يمر. هذا هو هدف الجمعية، حماية النساء، والنضالُ، بهَدَفِ الحُصُول على نص قانُوني شفّاف، وواضح، يحمي المرأة المغربية منْ آفةِ التحرّش".

أو مساندة جماعية، تجلت في اللقطة السابعة والأخيرة، وذلك، من خلال لحظة خطابية تقول:

(13) "مِنْ أجْلِ قوانِين تَحمِي المرأة، يمكنُ أن نَقُولَ جَمِيعاً اليوم: لا. لا لكلِّ أشْكَالِ العُنْفِ ضدّ النّسَاء، نقف اليَوْم باسْمِكُنَّ جَمِيعاً ضَحَايَا العُنْف والتحرُّش الجنْسِي".

3.3.3. العلامات البصرية:

إذا كانت السينما تنحو منحى بناء خطاب يعمد في الأساس إلى آليتين هما "الصورة (Image) و"التوليف" (Montage)، فإن العلامة البصرية تحتل مكانة مهمة عند المشاهد. لذا، لابد من الوقوف عند بعضها، تبعا لهذا السياق، في أفق الكشف عن العلاقة بين سلطة الخطاب والمجتمع. وتتمثل هذه العناصر في ما يأتي:

- **رمزية المرأة:**

تحتل صورة المرأة الموظفة في الخطاب السينمائي مكانة هامة، نظرا لطبيعة الموضوع المطروق، والمتعلق بظاهرة "التحرش الجنسي" الذي تعد المرأة ضحيته، خاصة المندمجة في سوق الشغل. وقد تكررت في مجموعة من الصور، قصد منح دلالة معينة لشخصيتها. ومن خلال عملية التنويع هذه، يروم المخرج تشكيل ملامح جديدة للمرأة في سياقها التاريخي الراهن، والتي قد تبدو مخالفة لما دأب عليه المشاهد المغربي، بل صادمة له أحياناً.

إن الصورة الأولى التي شكلت نقطة انطلاق الفيلم، هي صورة واقعية، تدخل في نطاق "الشهادة"، وهنا تظهر تقنية الوثائقية التي تم اعتمادها في بنية الفيلم. حيث أورد شهادة امرأة تحكي عن ما تعرضت له في العمل، وقد تم طردها لأنها رفضت الرضوخ لفعل التحرش هذا. وبذلك، يؤكد المخرج "سلطة محققة تعمل على بناء سلطة الشهادة"[53]؛ كأنه الوضع الحقيقي للمرأة العاملة. وتعكس هذه الشهادة، صورة المرأة الضحية، ضحية سلطة الرجل، وسلطة المؤسسة التي لم تعرها حماية قانونية.

من خلال صورة المرأة/الضحية، ينطلق المخرج عبر مجريات أحداث الفيلم لتغيير هذه الصورة، بإبراز رمزيات أخرى، وذلك عبر صورة البطلة (سميرة) التي تعمل في شركة فاعلة في المجال الاقتصادي، وهي امرأة متحررة، من خلال الزي، وطريقة حياتها اليومية، والاعتناء بجسدها، وما هي عليه من التزام في العمل، واحترامها للقيم المجتمعية. وبذلك، يتشكل وعي جديد، ونظرة جديدة نحو المرأة العاملة المنتمية للطبقة البورجوازية المتوسطة.

ولتدعيم هذه الصورة الجديدة، تم الاشتغال على أنماط أخرى من شخصية المرأة، مثل (المحامية) وهذا نوع آخر من المرأة المناضلة، دليلا على أن المرأة قطعت أشواطا في تحقيق مكانتها في المجتمع، وتناضل من أجل تغيير وضعها بطريقة قانونية، سعيا إلى إحراز سلطة أخرى، علاوة على السلطة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية، ولِمَ لا السياسية أيضا.

هذا، علاوة على شخصية زوجة مدير الشركة، التي لم تهتم في البداية لشكوى الضحية، لكن بعد تفكير وتأمل عميقين، قررت مساعدتها، وذلك حين اتفقتا حول مكان وزمان اللقاء بزوجها. وهذه صورة أخرى للمرأة الحريصة على بيتها وعلى تهذيب حيوانية الرجل بدافع "الانتماء". فالحل لم يكن قانونيا وإنما كان قيميا. ويبرز مدى سلطة المرأة المستقرة ماديا على الرجل، فهي مالكة لبعض القرارات الحاسمة في الحياة الزوجية.

نخلص من خلال هذا، إلى أن صورة المرأة مخالفة لما دأب عليه المشاهد، حيث أصبحت ذات كيان مستقل في مقابل الرجل. وأنها قادرة على الدفاع عن نفسها، ضد السلطة الذكورية خلف الأبواب المغلقة. وهنا، يمكن القول: "إن عملية بناء خطاب في أفق حذف واقع الخطاب، لابد أن يتم من خلال الذات المؤسسة (الكتابة) .. حيث يستعمل الخطاب علامات يلغي نفسه من خلالها حين يضع نفسه في مستوى الدال"[54].

وبالمقابل، إذا كان المخرج قد عمل على بناء شخصية المرأة بهذه الرمزية، المرأة المنتمية إلى الطبقة البورجوازية المتوسطة، فإنه أهمل صنفا آخر من النساء، وهو المرأة العاملة المنتمية إلى الطبقة الفقيرة، (عاملات النظافة). وقد أورد نموذجين منها، النموذج الأول نموذج خانع لفعل التحرش الممارس عليه من قبل شخصية الرجل (حارس العمارة). بينما النموذج الثاني، كان رافضا لهذا الفعل، باستعمال العنف. وهذا في حد ذاته إدانة بوعي أو بغير وعي لهذه الطبقة، من خلال هذين النموذجين. لذا، فمحاولة صياغة قانون اجتماعي يخضع في هذه الحالة إلى الرأسمال الثقافي والاقتصادي، أي "فعل التمكين"[55] الذي يتوافق مع عوامل أخرى، تكفل له قوته حتى تعمل الآليات الاجتماعية لصالح ما تتوخاه الطبقة، في ظل النموذج الآخر الذي يفتقد للعوامل الداعمة له.

- **خلفية الصورة:**

تخضع الصورة السينمائية لعدة إواليات، وتتكون من مجموع رموز ودلالات تتمثل في (الرمز الفوتوغرافي ورمزية الألوان، والرمز الحركي، ورمز المجال، ورمز العناصر...)، حيث تحتاج إلى منهجية خاصة لقراءتها وتحليلها. وإذا كانت الصورة –مجملا– تلعب دور "الوظيفة المرجعية"، فإن بعض عناصرها تميل إلى تحقيق **الوظيفة المعرفية**: "التي تتطلع إلى توريط المستقبل للخطاب"[56]. ومن أهم هذه العناصر "خلفية الصورة". ويمكن الوقوف عند نماذج منها تتميز بنوع من الثبات، صورة زوج الضحية "محسن"، وصورة "المحامية"، وصورة مدير الشركة "مراد القادوري".

وما يميز هذه الخلفيات في علاقتها بهذه الشخصيات، هو أن كلا من المحامية والزوج (محسن) يحاولان حل الأزمة الجسدية والنفسية التي تورطت فيها البطلة (سميرة). في حين أن مدير الشركة شخصية أسهمت في تأزيم مجريات الأحداث، باعتباره فاعلا مهما في ممارسة التحرش تجاه البطلة.

لذلك، يمكن أن نبدأ بالخلفية التي تظهر من خلال صورة شخصية مدير الشركة، هذه الشخصية التي رسم لها المخرج أبعادا عدة، تمثلت في المستوى الراقي من الوعي والثقافة، ولها نفوذ أهلتها لمنصب مدير شركة عتيدة، وهي شخصية معتدة بمكانتها الاجتماعية، لكنها تعاني انحرافا في السلوك، الذي تمثل في ممارسة التحرش ضد البطلة (سميرة). وقد جاءت هذه الإدانة على فمها، حين قالت له:

(14) "تْتَ وَاحَدْ بْنَادَمْ مْرِيضْ" (أَنتَ إِنْسَان مَرِيضٌ)؛

اللقطة(33:03-33:16).

لكن الغريب بخصوص هذه المسألة، أنه يمكن القول إن المخرج لم يعتمد على خلفية ذات بال بخصوص هذه الشخصية، بل اعتمد "الواجهة الأمامية للصورة" -إن صح هذا القلب- وهي صورة الضحية التي ظلت مرافقة له على طول مجريات أحداث الفيلم، سواء في البيت أو العمل أو الشارع. لأنه هو المشكل لخلفية صورة البطلة، باعتباره يمثل سلطة لا تعلو عليها أخرى.

وبخصوص خلفية صورة الشخصيات المسهمة في البحث عن حل لأزمة التحرش، فقد تميزت بالوضوح والثبات. فالخاصة بصورة شخصية الزوج (محسن)، عبارة عن لوحة تشكيلية ذات مربعات ملونة بألوان مختلفة، شبيهة بلعبة الشطرنج. وإذا ما ربطنا هذه الشخصية بطبيعة هذه اللعبة، فهي تعتمد على (البيادق) وأهمها (بيدق الملك)، وكأنها هي شخصية (محسن) التي دخلت في حرب مع شخصية (مدير الشركة). والحرب التي نشبت بينهما تُلْعَبُ على مساحة هذه الرقعات.

أما خلفية صورة شخصية المحامية، فهي عبارة عن لوحة لصورة المرأة التقليدية، يتبدى هذا من خلال زيها القديم، وحملها لقلة الماء على ظهرها، إنها امرأة/سيدة تعود إلى ستينات أو سبعينات القرن الماضي. بالربط بين هذه الخلفية وشخصيتها، يظهر أنها تعبر عن المسار النضالي الذي قطعته المرأة المغربية للرقي بوضعيتها الحقوقية المزرية آنذاك، إلى هذه الوضعية التي تبدو عليها المحامية نفسها مدافعة عن حقوق المرأة في مجتمع المغرب المعاصر.

- **رمزية البطلة (سميرة):**

إن اعتماد المخرج "محمد عهد بنسودة" على بطلة الفيلم في صورة شخصية (سميرة)، لها دلالات عدة وذلك من خلال جملة من المواصفات الخارجية التي تظهر من خلال اللباس وحياتها اليومية. لكن، لا يعني هذا التفسخَ الأخلاقي كما يمكن أن يُتَصَوَّر. مادام التناقض بين صورة الجسد عند هذه الشخصية ومواقفها القيمية، قد تم رصده بهدف بناء وعي جديد يرتبط برمزية حرية الجسد. لذلك، وُفقت هذه الشخصية في أن تعكس هذا الوعي عبر سيرورة مجريات أحداث الفيلم، حيث تتناسب هذه الحرية مع وضعها الاجتماعي والثقافي.

ولم يعتمد في هذا على قناعات دينية، لأنه حاول أن يعالج هذا من خلال شخصية أخرى هي صديقة البطلة؛ المرأة المتحجبة التي تعرضت بدورها للتحرش من قبل زميلها في العمل، لكنه أقل عنفا من الذي تعرضت له البطلة. كما لم يعتمد على قناعات طبقية، حيث لم يربطه بسلوكات أخرى مصاحبة لحرية الجسد بالمفهوم السلبي. بل اعتمد في هذا على قناعات تاريخية ذات صلة بطبيعة المستوى الحداثي الذي أصبحت بعض الأسر تعيشه في مجتمع المغرب المعاصر.

فالجسد لا يتم إدراكه إلا من خلال عملية التطابق التي تبدو مستحيلة بين الفكر والإدراك؛ فإذا كان الفكر يجهد نفسه في إدراك الجسد في الفضاء والعالم، فإن الإدراك لا يأتي إلا من خلال صورة الآخر التي تعجز الذات عن تحقيقها إلا من الداخل. وبذلك، فمفهوم الجسد يتقاسمه العالم الشخصي وعالم الآخر. وهذا ما جعل "باختين" يقول: ".. لا أملك سوى الصلاحية الداخلية إنها صلاحية لا يمكنني إسقاطها على تعبيريتي الخارجية بما أن هذه الأخيرة منفصلة عن إدراكي الداخلي وهو ما يجعلها بالنسبة لي وهمية وغارقة في فراغ مطلق من القيم"[57]. أما الفعل فهو الضامن لتحقق فضائية الجسد، باعتباره فعلا موجها نحو المستقبل. لهذا، فالأفعال لا تمنح نفسها لنا إلا من خلال الوعي الداخلي بها.

4.4.3. مقصدية الخطاب السينمائي:

ترتكز مسألة الوقوف عند مقصدية الخطاب السينمائي على محاولة الربط بين كل من الخطاب والسلطة والمجتمع، للتوصل إلى طبيعة السلطة التي يرتبط بها هذا الخطاب في تحقيق نوع من التعديل في البنية الذهنية، والذي تتم ترجمته على مستوى الممارسة الاجتماعية بشكل من الأشكال.

- **الخطاب:**

يتجلى خطاب المخرج "محمد عهد بنسودة" من خلال فيلمه "خلف الأبواب المغلقة... نساء لسن للبيع"؛ في خلخلة بعض الصور النمطية التي دأب عليها المشاهد المغربي تجاه المرأة المغربية المندمجة في سوق الشغل على وجه خاص.

وبذلك، بنى خطابا منحازا لهذا النوع الأكثر عرضة لظاهرة التحرش الجنسي خلف الأبواب المغلقة. فعلاوة على مكانتها الاقتصادية والاجتماعية، ما زالت تحتاج إلى حماية قانونية، يعضد وضعها الانتمائي أولا، والإنجازي ثانيا، وبالمقابل محاولة تحجيم السلطة الذكورية، في مجتمع لازال يعاني من هوسها على الرغم من التحولات التحديثية التي عرفها.

لهذا، كان الخطاب ينحو منحى عقلانيا، بغية إعادة بناء وعي جديد نحو هذه الظاهرة. فكلما ارتفع مستوى المرأة اجتماعيا وثقافيا، كلما ارتفع مستوى تحقيق كينونتها، ليست كأنثى، بل كامرأة. في أفق تجاوز مفهوم المجتمع المعاق؛ وتحقيقا لنوع من التوازن بين سلطة المرأة وسلطة الرجل، في نطاق التنمية البشرية التي سعى إليها المجتمع المغربي منذ بداية الألفية الثالثة.

- **السلطة:**

وتبعا للعامل "المُعَدِّل" المتمثل في الخطاب السينمائي، عمل المخرج على اختيار زاوية نظر ذات بعد سلطوي، وإن ضحَّتْ هذه النظرة ببعض المقومات الجمالية في بناء الفيلم، فإنه كان موفقا إلى حد ما في بناء خطاب سلطوي قادر على تغيير البنية الذهنية للمشاهد، بوضع المرأة في مكانتها المتسمة بالرفعة والمصداقية والعفة، معضدا موقفه هذا، بمستواها الاجتماعية والثقافي، كعامل حقيقي في الظفر بحقوقها المهضومة، في مجتمع المغرب الراهن.

لذلك، تعددت مظاهر السلطة في هذا الخطاب، حيث تجلت في الرموز والصور والحوار والعلاقات بين الشخصيات، في نطاق خلق الاستثارة والدافعية، لتغيير الممارسة الاجتماعية تجاه هذه المسألة. ونظرا لقناعة المخرج بصعوبة هذا الأمر، في ظل مجتمع تقليدي محافظ، رفع من سلطة الخطاب إلى مستوى السلطة القانونية التي اشتغلت عليها (المحامية)، في ثنايا البنية الوثائقية، وهي شخصية تمثل مدى تكتل المجتمع المدني في الدفاع عن حرية المرأة ومكانتها في ظل التحولات الراهنة الدولية والمجتمعية، وهذا ما يفسر مستوى سلطة هذا الخطاب.

- **المجتمع:**

إن اعتماد المخرج على المرجعية السلطوية، جعل الخطاب السينمائي يلعب دورا فاعلا في التأثير على المشاهد، في أفق تغيير الممارسة الاجتماعية التي دأب عليها داخل المجتمع. وقد خلق بهذا دافعا مهما يتأرجح بين الاجتماعي والفردي في أفق تحقيق التوزان المؤطر للمرأة داخل مجال العمل.

لذا تم التركيز، وفق هذا السياق، على دافعي "الانتماء" و"الإنجاز"، نظرا للعلاقة الواضحة بين الدوافع، التي تكون لدى الأفراد، وبين القيم السائدة في المجتمع، "كذلك، من الممكن جدا أن تكون هناك علاقة في ما بين هذه الدوافع الفردية والقيم الاجتماعية من ناحية، والنمو الاقتصادي، والتكوين السياسي والمستوى الحضاري من ناحية أخرى"[58].

بل هناك من أضاف إلى هذه العلاقة، المثيرات البيئية، كما ذهب المؤرخ أرنولد توينبي (Arnold J. Toynbee)، حيث يقول ببساطة: ".. إذا توفرت المثيرات البيئية والاجتماعية المناسبة –فلا تكون مفرطة في السهولة أو مفرطة في الصعوبة– أمكن للمجتمع أن يقدم استجابته الإبداعية"[59].

خاتمة:

يظهر من خلال هذه الدراسة، أن التحليل التنظيمي للخطاب السينمائي قد كشف عن مدى تأثير طبيعة هذا الخطاب في الممارسة الاجتماعية، باعتباره "عاملا معدلا" في تحقيق سلطة موازية لسلطة الرجل، بحكم التحولات الدولية والوطنية المراهنة على تحقيق التنمية البشرية في صورتها الشمولية. وبذلك، تم اعتماد هذه الزاوية، زاوية "السلطة القانونية" المدافعة عن حرية المرأة وحقوقها، مادامت تشكل آلية جديدة تتضافر في بناء السلطة الاقتصادية والاجتماعية.

تبعا لهذا، تأسست سلطة الخطاب على الجمع بين الاستناد إلى الواقع من خلال سلطة خاصة، واستدعاء سلطة خارجية، تجسدت في المجتمع المدني، والمقترحات القانونية؛ دفاعا عن حرية المرأة ضد أشكال العنف والتحرش الجنسي. هذا مع "تنويع ثالث"[60] شكل حالة قوية خاصة، تمثلت في الاستناد إلى مظاهر خفية لسلطة المتلقي نفسه، لجعله يقبل وجهة النظر كما يطرحها الفيلم.

بذلك، لعب الخطاب السينمائي دورا هاما في بناء عالم اجتماعي آخر، بالموازاة مع العالم الحقيقي لإقامة نظام معرفي بوعي جديد، "فالمعنى المباشر للعالم (والعالم الاجتماعي على الخصوص) يفترض ما يدعوه دوركهايم "المحافظة المنطقية وأعني: مفهوما متجانسا عن الزمان والمكان والعدد والعلة، وذلك المفهوم الذي يسمح للعقول بأن تتفاهم فيما بينها"[61].

وهنا، يظهر مدى قيمة الفن السابع في المجتمع، الذي يعمل على رصد بنيات الواقع وتحولاته، من خلال تغيير بنيته أو تقويضها أو إعادة بنائها، من خلال الكشف عن بعض معوقات التنمية الاجتماعية بشكل أو بآخر.

الهوامش:

1 حاز الفيلم على جائزة لجنة التحكيم في الدورة 46 من مهرجان هيوستن الدولي للفيلم، بولاية تكساس الأميركية، كما احتل المرتبة الأولى في لائحة الأفلام التي حققت أعلى المداخيل في القاعات السينمائية المغربية خلال التسعة أشهر الأولى من سنة 2014. ويعد أول فيلم مغربي يوزع ببلدان الخليج وبطلب منها، فقد اختير من طرف الإمارات والكويت وقطر وسلطنة عمان ليتم توزيعه بقاعاتها السينمائية. كما سبق للفيلم أن حصل على جوائز من مهرجانات عربية ودولية من بينها جائزة الخنجر الذهبي لسينما المرأة في إطار مهرجان مسقط بسلطنة عمان، وجائزة أحسن سيناريو في مهرجان تريبون بالولايات المتحدة.

2 ولد محمد عهد بن الطاهر بن سليمان بن الطيب بن يحيى بن زكرياء ابن سودة بتطوان المدينة الساحلية في شمال المغرب بتاريخ 1969/07/17، يحسن عدة لغات: اللغة العربية الفصحى، الفرنسية، الإنجليزية والإيطالية. حصل محمد عهد ابن سودة في دراسته الجامعية على شهادة الإجازة في التاريخ والأدب الفرنسي في كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمدينة فاس المغربية بين عامي 1989 و1991. واستكمل دراسته الجامعية في ميدان السينما (Cinéma) بجامعة السوربون (Sorbonne) باريس 1. كما نال شهادة تاريخ الفن وعلم الآثار في نفس الجامعة.

* رشيد طلبي، الأكاديمية الجهوية درعا-تافيلالت، المغرب.

3 رينيه ويليك، مفاهيم نقدية، ت: محمد عصفور. عالم المعرفة. ع110. فبراير 1987. ص10.

4 ميجان الرويلي وسعيد البازعي، دليل الناقد الأدبي (إضاءة أكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا)، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت- البيضاء. ط2. 2000. ص202.

5 عباس الجراري، خطاب المنهج، منشورات السفير، ط1. 1990. ص18.

6 جوليا كريستيفا، علم النص، ت: فريد الزاهي، دار توبقال، الدار البيضاء، ط2، 1997. ص55.

7 محمد يطاوي، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات، المجلد الثالث، العدد الأول، أبريل 2018. ص359.

8 نورمان فيركلف، تحليل الخطاب: التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ت:طلال وهبة، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2009، ص26، نقلا عن محمد يطاوي. مرجع سابق. ص357.

9 محمد يطاوي، مرجع سابق. ص360.

10 ميشال فوكو، نظام الخطاب، ت: محمد سبيلا، التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، ط3، 2012، ص50.

11 المرجع السابق، ص47.

12 المرجع السابق ص48.

13 المرجع السابق، ص51.

14 المرجع السابق، ص7.

15 المرجع السابق، ص9.

16 المرجع السابق، ص14.

17 المرجع السابق، ص20-21.

18 المرجع السابق، ص20.

19 المرجع السابق، ص27.

20 المرجع السابق، ص38.

21 المرجع السابق، ص39. (بتصرف).

22 المرجع السابق، ص39.

23 المرجع السابق، ص39. (بتصرف).

24 المرجع السابق، ص41.

25 إدوارد ج. موراي؛ الدافعية والانفعال. ت: أحمد عبد العزيز سلامة ومحمد عثمان نجاتي. دار الشروق. ط1. 1988. ص172.

26 المرجع السابق، ص192.

27 Raphaelle Costa de Beauregard; L'analyse du descours filmique: la problématique des fondemet théorique revisitée…Modèles linguistiques,40,1999,p2.

28 ماري–تيريز جورنو؛ معجم المصطلحات السينمائية. ت: فائز بشور. ص32.

29 المرجع السابق.

30 المرجع السابق، ص19.

31 المرجع السابق.

32 Pierre Chemartin; Définir le langage cinématographique. La lignes de fuite. La revue électronique du cinéma. P04.

33 محمد شويكة؛ مرجع سابق. ص96.

34 Pierre Chemartin;Idème. P05.

35 Raphaelle Costa de Beauregard; Ibide..p07.

36 Ibid.

37 طه حسن الهاشمي؛ شعرية السرد السينمائي والتركيبات الحكائية في الشكل الفلمي. الأكاديمي. العدد 52. لسنة 2009. ص139.

38 المرجع السابق. ص133.

39 المرجع السابق.

40 نقلا عن محمد اشويكة. سابق. ص79:

Jacques Lourcelles; Dictionnaire du cinéma (Les films).Collection Boutiques. Robert Lafont.Paris.1992.

41 أُنظر جريدة الصباح: نسبة العاملات تراجعت إلى 25%. 15 مارس 2017؛ موقع جريدة الصباح 2019.

42 حسن الأشرف، قانون مغربي يجرم التحرش وسب الذات الإلهية، جريدة العربي الجديد، بتاريخ 02–04–2015.

43 المرجع السابق.

44 المرجع السابق.

45 بيير بورديو؛ الرمز والسلطة. ت: عبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشر. ط3. 2007. ص51.

46 إدوارد ج. موراي؛ مرجع سابق. ص106.

47 سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبوعات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء، ط1، 1984، ص89.

48 أُنظر جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، مجلة عالم الفكر، مج25. ع3، 1997، ص105–106.

49 إدوارد ج. موراي، مرجع سابق. ص184.

50 بيير بورديو، مرع سابق. ص55.

51 أحمد بوحسن، في المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمان، الرباط، ط1. 2004، ص16 (بتصرف).

52 بيير بورديو، مرجع سابق، ص58–59.

53، فيليب بروطون، مرجع سابق، ص86.

54، ميشيل فوكو، مرجع سابق، ص37 (بتصرف).

55–يُعرفُ باللغةِ الإنجليزيّة بِمُصطلحِ(Empowerment) ، وهو من الوسائل المستخدمة في تعزيزِ دور الموظفيّن في اتخاذ القرارات الجماعيّة ضمن المنشأة، ممّا يساهمُ في زيادةِ كفاءتهم وفاعليتهم الوظيفيّة. وهو دعم الفاعليّة عند الموظف من خلال تمكينهِ من الحصول على استقلاليّتِهِ ضمن بيئة العمل، مع الحرص على أن يحافظَ على تطور أدائه، والاستفادةِ من خبرتِهِ لتحقيق الأهداف المطلوبة منه. أُنظر موقع لفيف. مفهوم التمكين: https://mawdoo3.com/.

56 محمد شويكة، الصورة السينمائية (التقنية والقراءة)، سعد الورزازي للنشر، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط1.، 2005، ص94.

57 ميخائيل باختين، جمالية الإبداع اللفظي، ت: شكير نصر الدين، دار رؤية، 2017. ص29.

58 إدوارد ج. موراي، مرجع سابق، ص203.

59– المرجع السابق، ص204.

60 أُنظر فليب بروطون، مرجع سابق، ص82.

61 بيير بورديو، مرجع سابق، ص49.

الملاحق

الملحق (1)

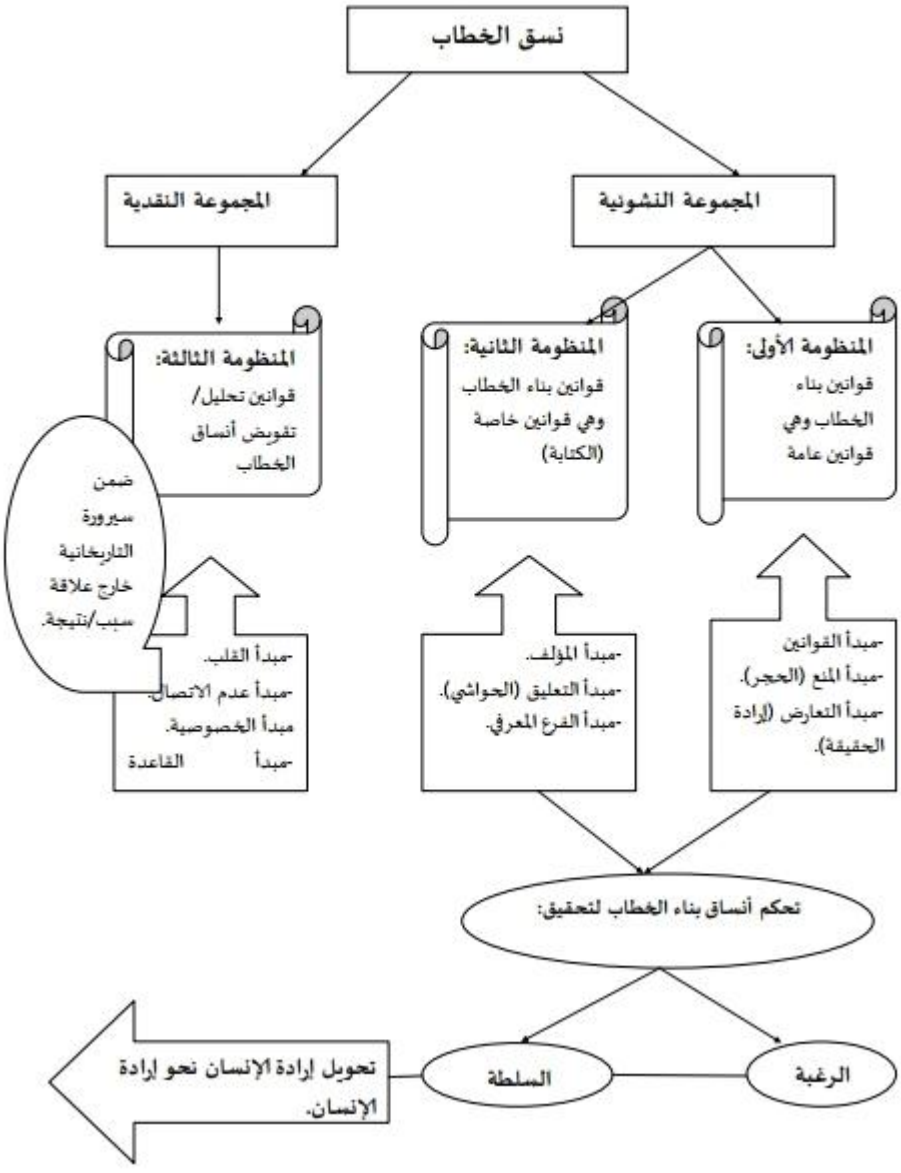

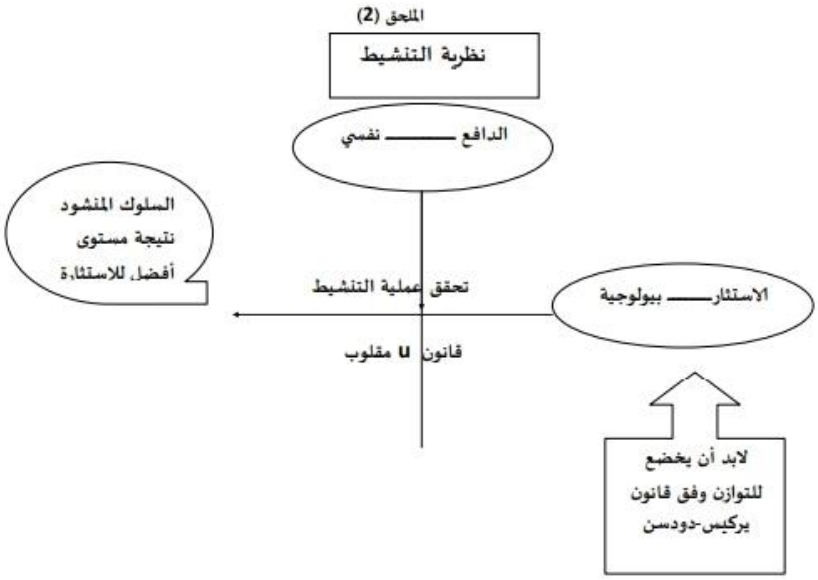
الملحق (2)
نظرية التنشيط
الدافع ـــــــ نفسي
السلوك المنشود
نتيجة مستوى
أفضل للاستثارة
تحقق عملية التنشيط
الاستثار ـــــ بيولوجية
قانون u مقلوب
لابد أن يخضع
للتوازن وفق قانون
يركيس-دودسن

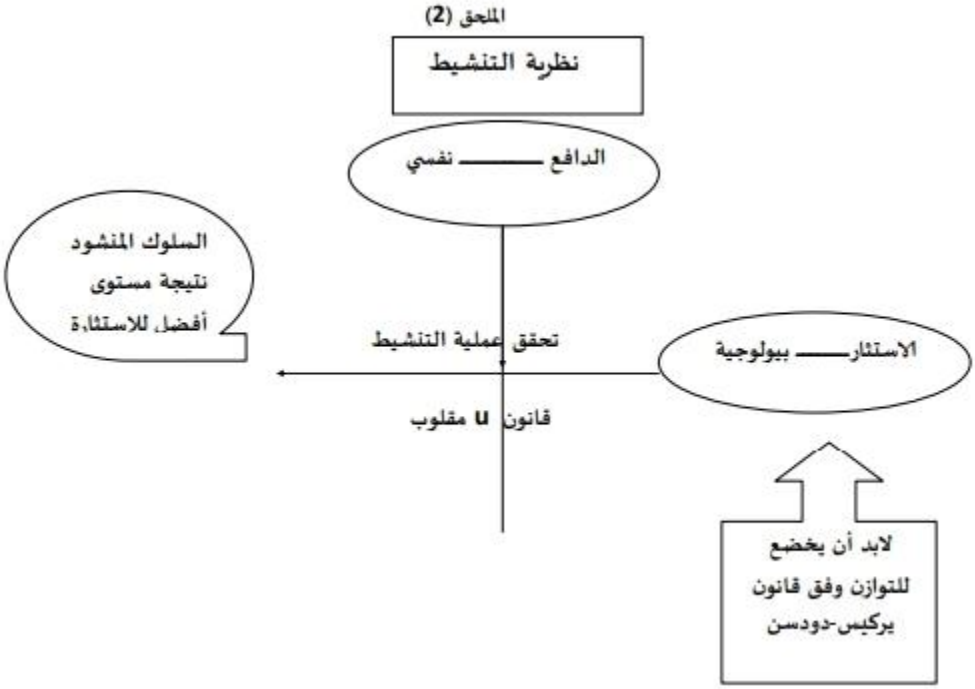
الملحق (2)
نظرية التنشيط
الدافع ـــــــ نفسي
السلوك المنشود
نتيجة مستوى
أفضل للاستثارة
تحقق عملية التنشيط
الاستثار ـــــ بيولوجية
قانون u مقلوب
لابد أن يخضع
للتوازن وفق قانون
يركيس-دودسن

الملحق (4)

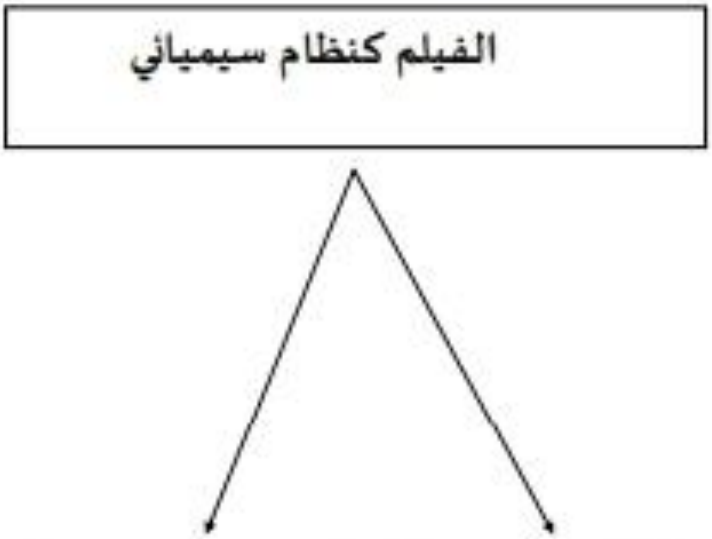

استدلال[64]	اتصال
نظام شفري	نظام إشاري
قدرة	إنجاز
لغة	كلام
تجريد	تجسيد

الملحق (5).

بطاقة تقنية للفيلم السينمائي

خلف الأبواب المغلقة	
(خلف الأبواب المغلقة: بالعربية)	
تاريخ الصدور	15 يناير 2014
مدة العرض	100 دقيقة
البلد	المغرب
اللغة الأصيلة	اللهجة المغربية
المخرج	امحمد عهد بنسودة
الكاتب	عبد الإله الحمدوشي
البطولة	زينب عبيد كريم الدكالي أمل عيوش أحمد ساكية

قائمة المراجع:

- باللغة العربية:

. باختين ميخائيل؛ جمالية الإبداع اللفظي. ت: شكير نصر الدين. دار رؤية. 2017.

. بوحسن أحمد؛ في المناهج النقدية المعاصرة. دار الأمان. الرباط. ط1. 2004.

. بورديو بيير؛ الرمز والسلطة. ت: عبد السلام بنعبد العالي. دار توبقال للنشر. ط3. 2007.

. الجراري عباس؛ خطاب المنهج. منشورات السفير. ط1. 1990.

. جورنو ماري–تيريز؛ معجم المصطلحات السينمائية. ت: فائز بشور.

. الرويلي ميجان وسعيد البازعي؛ دليل الناقد الأدبي (إضاءة أكثر من خمسين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا). المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء. بيروت– البيضاء. ط2. 2000.

. شويكة محمد؛ الصورة السينمائية (التقنية والقراءة). سعد الورزازي للنشر. المطبعة والوراقة الوطنية. مراكش. ط1. 2005.

. الصكر حاتم؛ الثمرة المحرمة. (مقدمات نظرية وتطبيقات في قراءة قصيدة النثر). إصدارات مجلة نصوص من خارج اللغة. سلسلة النقد 1. ط1. 2009.

. علوش سعيد؛ معجم المصطلحات الأدبيةالمعاصرة. مطبوعات المكتبة الجامعية. الدار البيضاء. ط1. 1984.

. فوكو ميشال؛ نظام الخطاب. ت: محمد سبيلا. التنوير للطباعة والنشر والتوزيع. تونس. ط3. 2012.

. كريستيفا جوليا؛ علم النص. ت: فريد الزاهي. دار توبقال. الدار البيضاء. ط2. 1997.

. موراي إدوارد .ج؛ الدافعية والانفعال. ت: أحمد عبد العزيز سلامة ومحمد عثمان نجاتي. دار الشروق. ط1. 1988.

. ويليك رينيه؛ مفاهيم نقدية. ت: محمد عصفور. عالم المعرفة. ع110. فبراير 1987.

- **المجلات والجرائد والمواقع الإلكترونية:**

. يطاوي محمد، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، مجلة سياقات اللغة والدراسات البينية، المجلد الثالث، مصر، العدد الأول. 2018a.

. الأكاديمي. العدد 52. لسنة 2009.

. جريدة الصباح؛ 15 مارس 2017.

. جريدة العربي الجديد. 02 أبريل2015.

. مجلة عالم الفكر. مج25. ع3. 1997.

. موقع: https://mawdoo3.com/

- **باللغة الفرنسية:**

. Pierre Chemartin;Définir le langage cinématographique.La lignes de fuite. La revue éléctronique du cinéma.

. Raphaëlle Costa de Beauregard; L'analyse du descours filmique: la problématique des fondemet théorique revisitée…Modèles linguistiques,40,1999.

تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ لقياسِ انقرائيَة النّصوص العربيّة وفق مقتضياتٍ لسانيّةٍ–معرفيّةٍ وديدكتيكية

رشيد شاكري *

ملخص:

فرض الوعي بأهمية القراءة باعتبارها مفتاحاً للمعرفة ووسيلة لتوسيع المدارك والقدرات، على الأنظمة التعليمية إيلاءها مكانة مميزة في مناهجها الدراسية، مادام اكتساب المهارات القرائية مدخلا رئيسا، تبنى عليه باقي التعلمات، ومؤشرا على نجاح المسار الدراسي للمتعلمين أو فشله.

لذلك اهتم الباحثون بمدى انقرائية النصوص المقدمة للمتعلمين والمتعلمات بمختلف المستويات الدراسية، من خلال تقدير الصعوبات التي تواجه القارئ (الذي يمتلك مستوى معين من المهارات القرائية) لفهم نص مكتوب، وبحثوا في العوامل النصية المؤثرة في ذلك، من خلال أساليب وتقنيات عديدة.

في هذا السّياق، تأتي هذه الدراسة لتسليط الضّوء على الانقرائيّة؛ مع دراسة المعايير اللّسانيّة، الّتي تؤثّر في صعوبة النّصوص العربيّة وسهولتها؛ خاصةً تلك الموجّهة للمتعلّمين والمتعلمات بالسّلك الابتدائيّ، انطلاقا من تحليل مدونة تعليمية تتألف من نصوص الكتب المدرسية للغة العربية المقررة في هذا السلك، وفق مقاربةِ لسانياتِ المدوناتِ، باعتبارها إحدى مناهج نظرية التحليل النقدي للخطاب، ومنه الخطاب التعليمي.

ويظلّ الهدف المنشود من هذه الدراسةِ تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ ذات طبيعةٍ تنبئيّةٍ لقياس انقرائيّة النصوص العربية، وفق تصوّرٍ لسانيٍّ–معرفيٍّ وديدكتيكيٍّ، مُنطلقه الإجابة على السّؤال المركزيّ الّذي نصوغه كالآتي: إلى أيّ مدىً تؤثّر العوامل اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص العربيّة؟

الكلمات المفتاحية: القراءة؛ الانقرائية؛ المعايير اللسانية؛ لسانيات المدونات؛ لسانيات معرفية؛ الديدكتيك.

The development of a mathematical equation to measure the readability of Arabic texts according to linguistic, cognitive and didactic requirements

Rachid Chakri

Abstract:

The awareness of the importance of reading as a key to knowledge and as a means to expand perceptions and abilities, has imposed on educational systems a significant weight of reading in their curricula, as long as the acquisition of literacy skills is a major input upon which learning is built, and an indicator of success or failure of learners in their courses of study.

Therefore, researchers were concerned about the readability of texts tailored for learners at different levels of study through the evaluation of the difficulties that the reader, who possesses a certain level of literacy skills, face to understand a written text. They have examined the textual factors affecting it through various methods and techniques.

In this context, this study comes to shed light on the readability and study the linguistic standards, which affect the difficulty level of Arabic texts, especially those designed for primary school learners. It is based upon the analysis of an educational corpus composed of school textbooks of Arabic Language in primary education, according to corpus linguistics approach as being one of the critical Discourse analysis theories, including educational discourse.

The objective of this study is to develop a mathematical formula for predicting the readability of Arabic texts, according to a linguistic, cognitive and didactic approach. The central question of this study is: To what extent do linguistic factors affect the readability of Arabic texts?

Keywords: Reading -Readability -Linguistic standards -Corpus linguistics -Cognitive linguistics -Didactics.

مقدمة:

يعدّ الكتاب المدرسيّ، دعامةً فعّالةً لتصريف المنهاج المدرسيّ، وتوجيه أنشطة التعلم وفق مقاصد العملية التعليمية التعلمية؛ باعتباره أحد مُدخلات النّظام التّعليميّ، وأكثر المصادر التّعليميّة المتداولة والمؤثّرة في الوضعيّة التّعليميّة–التّعلّميّة. لهذا، ينصبّ اهتمام الفاعلين التّربويّين على الكتب المدرسيّة ومضامينها عند كلّ إصلاحٍ بيداغوجيٍّ. وتظلّ الغاية من تطوير الكتب المدرسيّة، إمداد المتعلّمين بموادّ دراسيّةٍ ملائمةٍ لمستواهم المعرفيّ. ولتحقيق ذلك، يتوجّب ألّا تكون المضامين سهلةً جدًّا فتعيق نموّهم، ولا صعبةً جدًّا فتؤدّي إلى إحباطهم[1].

ولتحقيق التّوافق بين الكتب المقرّرة ومستوى المتعلّمين، يسعى الباحثون اللّسانيّون والسّيكولوجيّون والبيداغوجيّون، لتحديد العوامل المؤثّرة في سهولة النّصوص القرائيّة وصعوبتها؛ بهدف **التّحكم** فيها، وجعلها تتناسب وخصوصيّة الفئة المستهدفة. إنّه الموضوع الّذي تعنى به "الانقرائيّة"، باعتبارها حقلًا معرفيًّا نشأ بالولايات المتّحدة في عشرينيّات القرن الماضي.

لقد ارتبطت التّطورات الّتي شهدتها "الانقرائيّة"، منذ نشأتها، باللّغة الإنجليزيّة بشكلٍ كبيرٍ، وتّم توظيفها في لغاتٍ أخرى لاتينيّةٍ وآسيويّةٍ؛ غير أنّ تقييم حصيلة الدّراسات حول انقرائيّة الكتب العربيّة بشكلٍ عامٍّ، وانقرائيّة الكتب المدرسيّة بشكلٍ خاصٍّ، بيَّنَ أنّ اللّغة العربيّة ما زالت في حاجة ماسّة إلى دراساتٍ وبحوثٍ علميّةٍ في هذا المجال. وفي هذا الصّدد، يرى أبو عمشة أنّ "عدد الرّسائل العلميّة (في الانقرائيّة)، تكاد لا تتجاوز أصابع اليد، وأنّ الالتفات إلى عوامل الانقرائيّة في هذه البحوث والدّراسات العربيّة، جاء بشكلٍ لم يكن مقصوداً لذاته"[2].

إنّ التّأخّر الّذي تعرفه اللّغة العربيّة في مجال الانقرائيّة، يضيع الفرصة على مؤلّفي الكتب المدرسيّة وأدب الأطفال، من توظيف أدواتٍ علميّةٍ تمكّنهم من الاستجابة لحاجات الفئات المستهدفة وانتظاراتها؛ ممّا يدفعنا إلى التّساؤل عن المعايير المعتمدة في تأليف النّصوص القرائيّة، وتصنيفها وَفق المستويات الدّراسيّة.

في هذا السّياق، تأتي هذه الدراسة لتسليط الضّوء على الانقرائيّة؛ مع دراسة المعايير اللّسانيّة، الّتي تؤثّر في صعوبة النّصوص العربيّة وسهولتها؛ خاصةً تلك الموجّهة للمتعلّمين بالسّلك الابتدائيّ. ويظلّ الهدف المنشود اقتراحَ معادلةٍ حسابيّةٍ ذات طبيعةٍ تنبئيّةٍ لقياس الانقرائيّة، وفق تصوّرٍ لسانيٍّ–

معرفيٍّ وديدكتيكيٍّ، يستحضر منهج الدراسات المنتمية إلى لسانيات المدونات التي تسعى إلى تحليل الخطاب، ومنه الخطاب التعليمي، بالاعتماد على "**تجميع مخزونات كبيرة من النصوص لتحليلها تحليلا كميا وصفيا، بهدف تحصيل معنى أو معرفة**"[3]، **وذلك** بالاستناد إلى التطبيقات والبرامج الرقمية المتنوعة.

وفي هذا الإطار، اعتمدت دراستنا على تحليل متن تعليمي، تألف من سبعة عشر كتابا مدرسيا للغة العربية، مقررا بالسلك الابتدائي، للإجابة على السّؤال المركزيّ الّذي نصوغه كالآتي:

إلى أيّ مدىً تؤثّر العوامل اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص العربيّة؟

وتنبثق عن هذا السّؤال أسئلة فرعيّة، نلخصها فيما يأتي:

- ما مدى تأثير العوامل اللّسانيّة في **المستوى فوق-المعجميّ** (طول النّص، طول الجمل) في درجة صعوبة النّصوص العربيّة للأطفال؟
- إلى أي حدّ تؤثّر المتغيّرات اللّسانيّة في **المستوى المعجميّ** (الكلمات الصّعبة، الكلمات المحسوسة والكلمات المجرّدة، الكلمات المكرّرة في النّصّ (التنوع المعجميّ)) في انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال؟
- ما مدى تأثير العوامل اللّسانيّة في **المستوى تحت-المعجميّ** (عدد المقاطع، عدد الصّوامت والمصوتات)، في انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال؟
- إلى أي حدٍّ يمكن اختزال التّأثير المتعدّد والمرتبط للعوامل اللّسانيّة السّابقة، في انقرائيّة النّصوص، وجعله نموذجًا، على شكل معادلة حسابيّة تنبّئيّة؟

نؤكد في البداية أن كلمة "الانقرائيّة" تُرجمت عن مقابلها في الإنجليزيّة "Readability"، الّتي تتألّف من الجذر "Read" واللاحقتين "abili" و"ty"، وتعني مدى قابليّة النّصّ للقراءة، وهي مصدر مشتقّ من فعل "انقرأ" الّذي يفيد المطاوعة: انقرأ الكتابُ، أي أصبح طيّعاً للقراءة"[4].

ونظرًا لوجود أكثر من مقابل لهذا المفهوم، ومنها المقروئيّة والانقرائيّة، فإننا نتبنّى في دراستنا مفهوم "الانقرائيّة"، عوض "المقروئيّة" كترجمة لـ"Readability" أو "la lisibilité"؛ لاعتبارين لغويّين:

- أولهما أنّ الانقرائيّة تفيد مدى مطاوعة النّصّ للقراءة، بينما المقروئيّة تحيل على أنّ فعل القراءة وقع، دون إشارةٍ إلى صعوبة المقروء أو سهولته؛

- آخرهما أنّ الانقرائيّة مصدر مشتقٌّ من الفعل "انقرأ"، في حين المقروئيّة مصدر مشتقٌّ من اسم المفعول "المقروء"، وهو نادر جدًّا في اللّغة العربيّة.

أمّا على المستوى الاصطلاحيّ، فليس للانقرائيّة تعريفٌ شاملٌ؛ إذ تتمّ مقاربته وفق المجال المعرفيّ الّذي يتبنّاه كلّ باحثٍ، والحقبة الّتي عايشها. في حين يتّفق أغلب الباحثين على أنّ الانقرائيّة هي تقديرٌ لدرجة الصّعوبة الّتي تواجهها فئةٌ معيّنةٌ من القارئين، أثناء قراءتها لنصٍّ معيّنٍ. وفي هذا الإطار، يرى هاريس (Harris) أنّ الانقرائيّة هي التّطابق بين المادّة العلميّة المكتوبة، والقدرة القرائيّة للمتعلّمين الّذين أعدّت لهم المادة التّعليميّة[5]، فيما يؤكد هنري (Henry) أنّ الانقرائيّة تحدّد درجة الصّعوبة الّتي تواجه قارئا ما، عند محاولته فهم نصٍّ معيّنٍ[6]. بينما الانقرائيّة عند دفيسون (Davison)، فهي تقديرٌ للصعوبة الّتي يواجهها القارئ، في مستوى معيّنٍ من المهارات، عند قراءته لنصٍّ مكتوبٍ[7]. في حين، لخص جونسون(2002) Johnson الانقرائيّة في العوامل المؤثّرة في قدرة المتعلّم على قراءة النّصوص وفهمه لها بنجاحٍ[8]؛ وبتعبيرٍ آخر، فإن الانقرائيّة وفق كوتر(Cotter) هي السّهولة الّتي يمكن أن يُقرأ بها نصٌّ ما، حيث تعود درجتها إلى العوامل الّتي تؤثّر في نجاح قراءة النّصّ وفهمه.

وإذا كان هدف الانقرائيّة تقدير درجة الصّعوبة الّتي يواجهها القارئ، فإن هذا التّقدير يتطلّب أدواتٍ لقياسه، ولذلك اقترح الباحثون أكثر من أداةٍ لتحديد انقرائيّة النّصوص، منها **آراء المحكمين**، وهي تلك الأحكام الّتي يصدرها محكّمون مهتمّون بالمادة المقروءة على مدى وضوح المادّة للقرّاء[9]، **واختبارات الفهم**، التي تمنح إمكانيّة القياس المباشر لتفاعل القارئ مع النّصّ، وتتحكّم في وضعيّة القراءة، **واختبار الغلق** الذي ينبني على مجموعةٍ من الكلمات، يتمّ حذفها من النّصّ، ويطلب من الممتحنين ملؤها، **والمعادلات الحسابيّة** باعتبارها الأداة الوحيدة الّتي تتنبّأ بدرجة صعوبة النّصّ على عكس بقيّة الأدوات السّابقة[10].

1. الدراسة الميدانية:

سنسعى إلى دراسة العوامل اللّسانيّة الّتي تؤثّر في انقرائيّة النّصوص العربيّة، وذلك بغاية اقتراح معادلةٍ حسابيّةٍ جديدةٍ لقياس انقرائيّة النّصوص، مسترشدين بالفرضيّات الّتي وضعناها باعتبارها أجوبةً مؤقّتةً عن الأسئلة الإجرائيّة الّتي طرحناها سابقًا.

نتبنّى فرْضيّةً عامّةً، للإجابة المؤقّتة عن السّؤال المركزيّ المطروح، وهي كالآتي: **تؤثّر العوامل اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص العربيّة، وتتباين درجة التّأثير من عاملٍ لآخر**. وتتفرّع هذه الفرضيّة العامّة إلى فرضيّاتٍ إجرائيّةٍ:

- تؤثّر العوامل اللّسانيّة على المستوى فوق–المعجميّ، في انقرائيّة النّصوص العربيّة (طول النّص، طول الجمل).
- تؤثّر العوامل اللّسانيّة على المستوى المعجميّ، في انقرائيّة النّصوص العربيّة (الكلمات الصّعبة، الكلمات المحسوسة والكلمات المجرّدة، الكلمات المتنوّعة (غير المكرّرة) في النّصّ).
- تؤثّر العوامل اللّسانيّة على المستوى تحت–المعجميّ، في انقرائيّة النّصوص العربيّة (عدد المقاطع، عدد الصّوامت والمصوتات).
- إن اعتماد معيار العلاقة بين العوامل اللّسانيّة على المستوى فوق–المعجميّ والمستوى المعجميّ والمستوى تحت–المعجميّ، من شأنه إعطاء معادلةٍ حسابيّةٍ؛ للتّنبؤ بدرجة انقرائيّة النّصوص العربيّة بطريقةٍ موضوعيّةٍ.

وللتحقّق من هذه الفرضيّات، أعددنا الدّراسة الميدانيّة، حيث درسنا فيها المتغيّرات اللّسانيّة الّتي حدّدناها آنفًا، ومدى تأثيرها في انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال، بناءً على تحليل مضامين بعض النّصوص القرائيّة لكتب اللّغة العربيّة المقرّرة بالمدرسة الابتدائيّة المغربيّة، بهدف التّوصّل إلى معادلاتٍ حسابيّةٍ أحاديّة المتغيّر، واستنتجنا في الأخير معادلةً حسابيّة نهائيّةً متعدّدة المتغيّرات، لقياس انقرائيّة النّصوص الخاصّة بالأطفال، معتمدين في ذلك على المعطيات الإحصائيّة الّتي عالجناها باستعمال برنام SPSS؛ أي أنّنا قمنا، في البداية، بإبراز التّأثير العامّ لكلّ متغيّرٍ على حدةٍ، ثم تحديد التّأثير الخاص للمتغيّرات الأكثر تفسيرا لانقرائيّة النّصوص العربيّة في نموذج متعدّد المتغيّرات؛ كما قمنا بالتّجريب الميدانيّ للمعادلة الحسابيّة الّتي توصّلنا إليها، حيث لجأنا إلى اختبار الغلق الّذي أجريناه على عيّنة من متعلّمي ومتعلّمات السّلك الابتدائيّ، للتحقّق من مدى صدقيّة نتائج المعادلة المقترحة.

2. الدراسة الوصفيّة للعيّنة:

يتألف مجتمع الدّراسة من جميع نصوص كتب اللّغة العربيّة المقرّرة بالسّلك الابتدائيّ بالمدرسة المغربيّة، وتتكون عيّنة البحث من 136 نصًّا قرائيًّا، بمعدّل نصٍّ واحدٍ لكلّ وحدةٍ دراسيّةٍ من الوحدات الثمانية الّتي ينبني عليها منهاج اللّغة العربيّة بالمدرسة الابتدائيّة.

وتتوزّع نصوص هذا المتن، على المستويات الدّراسيّة بنسبٍ مختلفةٍ، كالآتي:

توزيع عدد نصوص المتن وفق المستوى والكتب المدرسيّة

الكتب المدرسيّة	عدد نصوص المتن وفق المستوى						المجموع
	الأول	الثّاني	الثّالث	الرّابع	الخامس	السّادس	
الجديد في اللّغة العربيّة	–	–	–	8	–	–	8
المفيد في اللّغة العربيّة	8	–	8	8	–	–	24
المنير في اللّغة العربيّة	–	–	–	8	8	–	16
الواضح في اللّغة العربيّة	–	–	–	8	–	–	8
واحة الكلمات	–	–	–	8	–	–	8
في رحاب اللّغة العربيّة	–	8	–	–	–	8	16
كتابي في اللّغة العربيّة	8	8	–	–	–	8	24
منار اللّغة العربيّة	–	–	–	–	–	8	8
مرشدي في اللّغة العربيّة	–	8	8	–	8	–	24
المجموع	16	24	16	40	16	24	136

درسنا مدى تأثير بعض العوامل اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال بالمدرسة الابتدائيّة، واقتصرنا على متغيّراتٍ لسانيّةٍ قابلةٍ للقياس، ولتيسير مقارنة النّتائج الّتي توصّلنا إليها، سابقًا، نقترح تلخيصها في جدولٍ يوضّح أهمّ المتغيّرات الّتي درسنا، ودرجة تأثيرها في الانقرائيّة، والمعادلات المتوصّل إليها، كالآتي:

مقارنة بين درجات تأثير المتغيّرات اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص

المتغيّر اللّساني	كيفيّة قياس المتغيّر	معامل الارتباط R	معامل التّحديد R-deux	مستوى الدّلالة	المعادلة الحسابيّة أحاديّة المتغيّر لقياس انقرائيّة النّصوص
طول النّصّ	عدد الجمل	0.387	0.150	0.000	D = 2.324 + 0.125X
	عدد الكلمات	0.793	0.628	0.000	D = 1.162 + 0.015X
	عدد الحروف	0.835	0.697	0.000	D = 0.962 + 0.004X
طول الجملة	متوسّط عدد الكلمات	0.592	0.351	0.000	D = 1.773 + 0.117X
الكلمات الصّعبة	عدد الكلمات الصّعبة	0.841	0.708	0.000	D = 1.501 + 0.101X
الكلمات المكرّرة	نسبة الكلمات المتنوعة	0.104	0.011	0.366	-
المحسوس والمجرّد	نسبة الكلمات المحسوسة	-0.742	0.551	0.000	D = 5.961 - 7.746X
	نسبة الكلمات المجرّدة	0.300	0.090	0.000	-
طول الكلمة	متوسّط عدد المقاطع	-0.063	0.004	0.466	-
	متوسّط عدد الصّوامت والمصوتات	0.802	0.644	0.000	D = 1.186 + 0.03X

لقد توصّلنا إلى نتائج متباينةٍ في درجة تأثير المتغيّرات اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص، فعلى المستوى فوق–المعجميّ، عملنا على دراسة متغيّري طول النّصّ وطول الجملة وعلاقتهما بدرجة صعوبة النّصّ القرائيّ، مع استخلاص معادلةٍ حسابيّةٍ لكلّ متغيّرٍ لقياس الانقرائيّة. واعتمدنا على عدد جمله في المرحلة الأولى، وعلى عدد كلماته في المرحلة الثّانية، وعلى عدد حروفه في المرحلة الأخيرة. وتوصّلنا إلى أنّ تأثير طول النّصّ في انقرائيته ذو دلالةٍ، كما أنّ اعتماد الحروف كوحدة لقياس هذا الطّول، يعطي نتائج أكثر دقة حول تأثير طول النّصّ في درجة صعوبته، حيث سجّلنا ارتباطا قويًّا بين المتغيّرين، ونسبة تفسيرٍ عاليةٍ، كما حصلنا على نتائج قريبةٍ منها عند عدّ طول النّصّ بالكلمات، في حين النّتائج معاكسةٌ عند اعتماد الجملة وحدةً لقياس طول النّصّ، إذ كان الارتباط ضعيفًا بين المتغيّرين، ونسبة التّفسير ضعيفةً أيضًا.

وفيما يخصّ تأثير طول الجملة في انقرائيّة النّصّ، فقد سجّلنا أنّ بعض النّصوص من حيث متوسّط طول الجمل، لا تتناسب والمستوى الدّراسيّ المقرّرة له، لكن في المجمل، هناك تطوّرٌ تصاعديٌّ في متوسّط عدد الكلمات في الجمل في علاقته بالمستويات الدّراسيّة، باستثناء نصوص السّادس ابتدائيّ، كما توصّلنا إلى أنّ معامل الارتباط بين متوسّط طول الجمل ودرجة الصّعوبة يظل مقبولًا، والقوّة التّفسيريّة للنّموذج مقبولةٌ أيضًا.

وخلاصةً لما درسناه من تأثيرات العوامل اللّسانيّة السّابقة، للتأكّد من صحّة الفرضيّة الأولى في دراستنا، والتي تفترض أنّ العوامل اللّسانيّة على مستوى فوق–المعجميّ تؤثّر في انقرائيّة النّصوص، توصّلنا إلى وجود هذا التّأثير وبدرجاتٍ مختلفةٍ، حيث يؤثّر طول النّصّ بشكلٍ قويٍّ في صعوبة النّصوص، خاصّةً إذا دقّقنا في قياس هذا الطّول، وذلك باستعمال الحروف أو الكلمات، وحداتٍ للقياس؛ كما أنّ العلاقة الارتباطيّة بين متوسّط طول الجمل ودرجة الصّعوبة مقبولةٌ إحصائيًّا.

نسجّل في هذا السّياق، أنّ دراستنا تميّزت بدراسة طول النّصّ باعتباره متغيّرًا لسانيًّا في علاقته بانقرائيّة النّصوص، على عكس باقي الدّراسات التي اقتصرت معظم هذه الأبحاث على دراسة عيّناتٍ من النّصّ قد لا تتجاوز 100 كلمةٍ، في حين، عملنا على دراسة نصوص المتن كاملةً، ومبرّرنا في ذلك أنّ العيّنة من النّصّ قد لا تعبّر عن جميع الظواهر النّصيّة به، كما أنّ النّصوص المدروسة هي نصوصٌ تعليميّةٌ تُدَرَّس في مُددٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ؛ تستوجب ضبط حجم النّصوص وفق الفئات، وبناءً على الأحياز الزمنيّة المخصّصة لها.

وفيما يتعلّق بتأثير المتغيّرات اللّسانيّة على المستوى المعجميّ، عملنا، أوّلًا، على دراسة تأثير الكلمات الصّعبة في انقرائيّة النّصوص، وسعينا إلى وضع قائمةٍ للكلمات الأكثر تردّدًا، لتكون مرجعنا في تحديد هذه الكلمات الصّعبة في النّصّ، على اعتبار أنّ الكلمات غير الواردة في هذه القائمة هي كلماتٌ صعبةٌ. وقد اتّبعنا منهج الإحصاء الموضوعيّ الّذي يقوم على حساب تكرار الكلمات في العيّنات المختارة والمقارنة بينها على هذا الأساس، لانتقاء أكثرها شيوعًا. وقد توصّلنا إلى أنّ معامل الارتباط قويٌّ بين عدد الكلمات الصّعبة في النّصّ ودرجة صعوبته، كما أنّ هذا الارتباط دالٌّ وذو قوّةٍ تفسيريّةٍ عاليةٍ.

وفيما يخصّ الكلمات المحسوسة ومدى تأثيرها في الانقرائيّة، فقد لاحظنا أنّ العلاقة الإحصائيّة بين معامل نسبة عدد الكلمات المحسوسة في النّصّ ودرجة صعوبته، علاقةٌ عكسيّةٌ قويّةٌ، كما أنّ قوّته التّفسيريّة جيدةٌ. في حين، درجة الارتباط بين نسبة عدد الكلمات المجرّدة في النّصّ ودرجة صعوبته، علاقةٌ ارتباطيّةٌ ضعيفةٌ، وقوّة نموذجه التّفسيريّ ضعيفةٌ أيضًا.

أمّا ما يتعلّق بدراسة تأثير التّكرار في انقرائيّة النّصّ، فقد اعتمدنا على تقنيّة (TTR) لحساب التّكرار في النّص، أي قياس التّنوع المعجميّ، أي نسبة الكلمات المتنوّعة في النّصّ، إلا أنّ النّتائج أظهرت ضعف العلاقة الارتباطيّة بين متغيّر الكلمات المتنوّعة في النّصّ ومتغيّر الصّعوبة، وغير دالّةٍ، إضافةً إلى أنّ القوّة التّفسيريّة للنّموذج ضعيفةٌ جدًّا.

وعند دراستنا لتأثير المتغيّرات على المستوى تحت–المعجميّ، توصّلنا إلى أنّ الارتباط بين طول الكلمة باعتماد المقاطع وصعوبة النّصّ غير قائمٍ، كما أنّ هذه العلاقة غير دالّةٍ، وأرجعنا ذلك إلى تنوع المقاطع العربية بين القصيرة والطويلة وفق كمياتها من العناصر القطعية التي تؤلفها (والتي تتراوح ما بين قطعتين وخمس قطع). وعندما التجأنا إلى قياس طول الكلمات باعتماد الصّوامت والمصوتات، بمبرّر أنّ اللّغة العربيّة تتميّز بظاهرة التّشكيل، وبمبرّر أنّ جميع نصوص كتب اللّغة العربيّة بالابتدائيّ هي نصوصٌ مشكولةٌ، توصّلنا إلى أنّ معامل الارتباط قويٌّ بين طول الكلمة باعتماد الصّوامت والمصوتات من جهةٍ، ودرجة صعوبة النّصّ من جهة ثانيةٍ، وذو قوّةٍ تفسيريّةٍ عاليةٍ.

3. استنتاج معادلة حسابيّة متعدّدة المتغيّرات لقياس الانقرائيّة:

درسنا، فيما سبق، قياس تأثير المتغيّرات اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص، بكيفيّةٍ أحاديّةٍ، وهذا يعني أننا حيّدنا باقي العوامل الأخرى المؤثّرة في الصّعوبة، وهو ما يسمّى بالتأثير الصّافي، لكن ونظرًا

للارتباط بين مختلف المتغيّرات اللّسانيّة، فإنّ قيم التّأثير تتغيّر تبعًا لدرجة التّأثير أو التأثّر ببقيّة المتغيرات اللسانيّة الأخرى، وهو ما يتضّح جليًا في النّتائج الآتية

معاملات تأثير المتغيّرات اللّسانيّة المدروسة سابقا في انقرائيّة النّصوص

	معامل الانحدار *Coefficients non standardisés*		قيمة *t*	مستوى الدّلالة
	المعاملات "*B*"	الخطأ المعياريّ *Erreur standard*		
الثابتة	*1.557*	*0.941*	*1.655*	*0.101*
طول النّصّ باعتماد الجمل	*0.020*	*0.027*	*0.732*	*0.466*
طول النّصّ باعتماد الكلمات	*-0.012*	*0.005*	*-2.393*	*0.018*
طول النّصّ باعتماد الحروف	*0.006*	*0.001*	*5.076*	*0.000**
طول الجمل	*0.017*	*0.017*	*0.991*	*0.324*
الكلمات الصّعبة	*0.042*	*0.008*	*5.074*	*0.000**
الكلمات المحسوسة	*-2.999*	*0.565*	*-5.311*	*0.000**
الكلمات المجرّدة	*-0.626*	*0.863*	*-0.725*	*0.470*
طول الكلمات باعتماد الصّوامت والمصوتات	*-0.002*	*0.001*	*-2.539*	*0.012*

* الارتباط دالّ عند مستوى *0.01*

يمكننا من خلال النّتائج الّتي بيّنها الجدول أعلاه، تحديد لائحة المتغيّرات اللّسانيّة الّتي لها علاقةٌ دالّةٌ مع صعوبة النّصوص، وهي طول النّصّ باعتماد الصّوامت، والكلمات الصّعبة، والكلمات المحسوسة.

ولمعرفة القوّة التّفسيريّة لهذا النّموذج، قمنا بقياس تأثير هذه المتغيّرات مجتمعةً على درجة الصّعوبة، ولجأنا إلى قياس معامل الارتباط المتعدّد، كما يبيّنه الجدول الآتي:

القوّة التّفسيريّة لمتغيّرات طول النّصّ والكلمات الصّعبة والكلمات المحسوسة

معامل الارتباط *R*	معامل التّحديد *R-deux*	معامل التّحديد المُعدَّل *R-deux ajusté*	الخطأ المعياريّ للتقدير *Erreur standard de l'estimation*
0.906	*0.821*	*0.817*	*0.690*

يبيّن هذا الجدول أنّ قيمة معامل الارتباط بين المتغيّرات الثّلاث (طول النّصّ والكلمات الصّعبة والكلمات المحسوسة) ودرجة صعوبته تقدر بـ **0.906**، وهي علاقةٌ ارتباطيّةٌ قويّةٌ، كما أنّ القوّة التّفسيريّة للنّموذج عاليةٌ جدًّا وصلت إلى **82%**، وهو ما يؤكّده معامل التّحديد في الجدول أسفله:

معاملات تأثير طول النّصّ والكلمات المحسوسة والكلمات الصّعبة في الانقرائيّة

	معامل الانحدار *Coefficients non standardisés*		قيمة *t*	مستوى الدّلالة
	المعاملات *"B"*	الخطأ المعياريّ *Erreur standard*		
الثّابتة	*2.213*	*0.297*	*7.454*	*0.000*
طول النّص	*0.002*	*0.000*	*6.135*	*0.000*
الكلمات الصّعبة	*-2.552*	*0.532*	*-4.795*	*0.000*
الكلمات المحسوسة	*0.047*	*0.007*	*6.269*	*0.000*

إن ما توصّلنا إليه من نتائج، سمح لنا باستخلاص معادلةٍ حسابيّةٍ متعدّدة المتغيّرات لقياس انقرائيّة النّصوص الموجّهة للأطفال، وذلك على الشّكل الآتي:

$$D = 2.213 + 0.002X_1 + 0.047X_2 - 2.552X_3$$

بحيث:

D = درجة صعوبة النّصّ؛

$\mathbf{X_1}$ = عدد "الحروف" في النّصّ؛

$\mathbf{X_2}$ = عدد "الكلمات الصّعبة" في النّصّ؛

$\mathbf{X_3}$ = متوسّط "الكلمات المحسوسة" في النّص.

وتتمّ ترجمة القيمة D إلى المستويات الدّراسيّة المناسبة لانقرائيّة النّصّ، بناءً على الجدول أسفله، الّذي يوضّح فئات درجات الانقرائيّة والمستوى الدّراسيّ الملائم لكلّ فئة:

المستويات الدّراسيّة المناسبة لفئات درجات الانقرائيّة وفق المعادلة المقترحة

فئات درجات الانقرائيّة وفق المعادلة المقترحة	المستوى الدّراسيّ المناسب لدرجة الانقرائيّة
[0.81 – 2.05[	الأول
[2.05 – 3.08[	الثّاني
[3.08 – 4.00[	الثّالث
[4.00 – 4.77[	الرّابع
[4.77 – 5.52[	الخامس
[5.52 – 6.64[	السّادس

إن ما يميّز المعادلة الحسابيّة الّتي توصّلنا إليها أنها ذات ارتباطٍ قويٍّ وصل إلى 0.906 وقوّةٍ تفسيريّةٍ عاليةٍ بلغت 82.1%، كما أنّها تضمّنت متغيّرًا قلّما نجده في المعادلات الحسابيّة الأخرى، وهو طول النّصّ باعتماد عدد حروفه.

4. التّجريب الميدانيّ لمعادلة الانقرائيّة ـ اختبار الغلق:

يعدّ اختبار الغلق أحد الأساليب المتاحة لقياس الانقرائيّة، إذ يمتاز بدقّة طبيعته البنائيّة المعتمدة على ترتيب الكلمات المحذوفة، ويعتمد بشكلٍ رئيسٍ على الفهم، فضلاً عمّا يتّصف به من درجات الصّدق والموضوعيّة، وسهولة تطبيقه، وتوفيره للوقت والجهد.

يعرّف تايلر (Taylor) اختبار الغلق بأنّه وسيلةٌ لقياس درجة انقرائيّة النّصوص من خلال حذف بعض الكلمات من النّصّ بطريقةٍ منتظمةٍ ثمّ مطالبة القارئ بملء فراغها بنفس الكلمة أو مرادفها[11].

عيّنة البحث:

تتألّف عيّنة البحث من المتعلّمين والمتعلّمات الّذين اجتازوا الاختبار، حيث بلغ عددهم 2498 متعلّمًا ومتعلّمةً.

يتوزّع المتعلّمون والمتعلّمات الّذين خضعوا لاختبار الغلق على عشر مؤسّساتٍ ابتدائيّةٍ من أوساط مختلفةٍ (قرويٌّ، وشبه حضريٍّ، وحضريٌّ) تابعةٍ للمديريّة الإقليميّة لوزارة التّربيّة الوطنيّة بمدينة فاس المغربية، وفق الأعداد والنسب المائويّة الّتي يوضّحها الجدول أسفله:

توزيع التّلاميذ المشاركين في اختبار الغلق حسب المؤسسات التّعليميّة

	العدد	النسبة المائويّة
مدرسة 11 يناير	*200*	*% 8,01*
مدرسة 20 غشت	*366*	*% 14,65*
مدرسة ابن عسكر	*198*	*% 7,93*
مدرسة البكري	*234*	*% 9,37*
مدرسة ابن النّفيس	*270*	*% 10,81*
المدرسة الجماعاتيّة	*239*	*% 9,57*
مدرسة محمد السّادس	*257*	*% 10,29*
مدرسة سجلماسة	*212*	*% 8,49*
مدرسة التّلمساني	*246*	*% 9,85*
مدرسة موحى أوحمو الزياني	*276*	*% 11,05*
المجموع	*2498*	*% 100*

منهجيّة البحث:

اعتمدنا على اختبار الغلق كمقياسٍ لتحديد مستوى انقرائيّة ستّةِ نصوصٍ، حيث تمّ بناؤه وفق الضّوابط الآتية:

- تمّ اختيار ستّة نصوصٍ بعد أن قمنا بقياس انقرائيّتها، اعتمادًا على المعادلة الحسابيّة الّتي اقترحناها آنفًا؛ وبناءً على درجة صعوبتها، وزّعناها على المستويات الدّراسيّة السّتّ؛
- تمّت طباعة كلّ نصٍّ في ورقةٍ منفصلةٍ وبخطٍّ كبير الحجم؛
- تمّ وضع علامات التّشكيل على الحروف؛
- جرى حذف الكلمة الخامسة –المحقّقة لشروط الحذف لاختبار الغلق– على التّوالي والتّرتيب في كلّ نصٍّ منفرداً؛
- تُركت مسافاتٌ متساويةٌ في الطّول محلّ كلّ كلمةٍ حذفت من النّصّ؛
- تمّ الإبقاء على الجملتين الأولى والأخيرة من كلّ نصٍّ دون حذفٍ، وذلك لمساعدة المتعلّم والمتعلّمة للتّعرف على سياق النّصّ.
- استُثني من الحذف الكلمة الخامسة إذا كانت تمثّل رقماً، أو سؤالًا، أو أعلامًا، وبالتّالي تحذف الكلمة الّتي تليها مباشرة باعتبارها الكلمة الخامسة.
- اشتمل الاختبار على ستّة نصوصٍ، كلّ نصٍّ يضمّ عددًا من الفراغات؛ وقد ضمّ النّصّ الأوّل من الاختبار أربعة فراغاتٍ، والنّصّ الثّاني عشرة فراغاتٍ، والنّصّ الثّالث عشرين فراغًا، والنّصّ الرّابع خمسة وثلاثين فراغًا، والنّصّ الخامس ثلاثين فراغًا، والنّصّ السّادس تسعة وثلاثين فراغًا.

ولضبط عمليّة إنجاز هذا الاختبار، قمنا بمجموعة من الإجراءات المنهجيّة الّتي تضمن تمريره على العيّنة في الشّروط نفسها وفي الظروف نفسها، وتقلّص من أثر المتغيّرات الّتي تُعتبر مصادر لأخطاء التّقدير.

صدق اختبار الغلق:

للتأكّد من صدق اختبار الغلق، تمّ عرضه على مختصّين في اللّغة العربيّة، والتّقويم، لإبداء آرائهم في درجة التزام وانسجام الاختبار مع تعليمات اختبار الغلق وشروطه، ودرجة تمثيل نصوص الاختبار لمختلف درجات الانقرائيّة الّتي توصّلنا إليها عبر المعادلة الحسابيّة. وفي ضوء ملاحظات المحكّمين جرى التّعديل اللّازم، حيث تركّزت هذه الملاحظات حول مراعاة حجم الخطوط المطبعيّة وشكل الحروف، وضبط علامات التّرقيم والتّشكيل، ووضع كلّ نصٍّ في صفحةٍ واحدةٍ عند تطبيقه على العيّنة.

ثبات اختبار الغلق:

للتأكّد من ثبات اختبار الغلق، تم تجريبه على عيّنة مكوّنة من 197 متعلّمًا ومتعلّمةً من مجتمع الدّراسة ومن خارج عيّنته، وفق التّوزيع الآتي:

توزيع عيّنة التّجريب وفق المستويات الدّراسيّة

المستوى الدّراسيّ	عدد المتعلّمين والمتعلّمات
الأوّل	*30*
الثّاني	*35*
الثّالث	*33*
الرّابع	*30*
الخامس	*34*
السّادس	*35*

وقد تمّ التّجريب بطريقة الاختبار وإعادة الاختبار بفاصلٍ زمنيٍّ مدّته ثلاثة أيّامٍ، وتمّ حساب معامل ارتباط Pearson ومعامل الاتّساق الدّاخليّ بين التّطبيقين لكلّ نصٍّ، وكانت قيمهما كالآتي:

قيم معامل الارتباط ومعامل الاتساق الدّاخليّ وفق نصوص الاختبار

النصوص	معامل ارتباط Pearson بين الاختبارين: الأوّل والثّاني	معامل الاتساق الدّاخلي Alpha Cronbach
الأول	***0.846*	*0.91*
الثّاني	***0.823*	*0.90*
الثّالث	***0.915*	*0.95*
الرّابع	***0.915*	*0.95*
الخامس	***0.749*	*0.84*
السّادس	***0.926*	*0.95*

*** الارتباط دالّ عند مستوى 0.01*

يبيّن الجدول أعلاه أنّ معامل الارتباط بين الاختبارين لكلّ نصٍّ عالٍ وذو دلالةٍ، وأنّ قيمة معامل الثّبات Alpha Cronbach تقارب القيمة واحد، مما يدلّ على أنّ الثّبات مرتفعٌ، مما يؤكّد قوّة ثبات الاختبار.

طريقة تصحيح اختبار الغلق:

جرى تصحيح الاختبار وفق القواعد الآتية:

- بعد إنجاز الاختبار، تمّ استرجاع أوراق الاختبار من المتعلّمين والمتعلّمات؛
- جرى تصحيح أوراق الاختبار، بمنح نقطةٍ واحدةٍ للكلمة الأصليّة الّتي كانت في النّصّ قبل حذفها، أو للكلمة المرادفة للكلمة الأصليّة، وعدم قبول أيّة كلمةٍ لا تتطابق مع الكلمة الأصليّة أو مرادفاتها وأعطيت النّقطة صفر.
- تمّ تجاهل الأخطاء الإملائيّة والنحويّة إذا كانت الكلمة الّتي جاء بها المتعلّم متوافقةً مع الكلمة الأصليّة.

5. نتائج الدّراسة:

لمعرفة العلاقة الإحصائيّة بين درجة انقرائيّة النّصوص السّت باعتماد المعادلة الحسابيّة من جهةٍ، ومتوسّط النّتائج المحصّل عليها من اختبار الغلق من جهةٍ أخرى، قمنا بقياس معامل الارتباط بين المتغيّرين، فتوصّلنا إلى النّتائج الواردة في الجدول الآتي:

معامل الارتباط بين درجة انقرائيّة النّصوص وفق المعادلة ودرجة صعوبتها وفق اختبار الغلق

	المؤشّرات	درجة الانقرائيّة
درجة صعوبة النّصوص وفق اختبارات الغلق	معامل ارتباط Pearson	0.896**
	مستوى الدّلالة	0.000

**** الارتباط دالّ عند مستوى 0.01**

نلاحظ أنّ معامل الارتباط قويٌّ بين نتائج المعادلة الحسابيّة ونتائج اختبار الغلق، وفي حدود من 0.896؛ أي إنّ العلاقة الإحصائيّة بين هذين المتغيّرين قويّةٌ، كما أنّ هذا الارتباط دالٌّ عند مستوى الخطإ 0.01؛ وعليه، فإنّ نتائج اختبار الغلق تؤكّد صدقيّة نتائج المعادلة الحسابيّة الّتي اقترحناها لقياس انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال.

خاتمة:

لقد تبنّينا في دراستنا فرضيّة عامّة، وهي كالآتي: تؤثّر العوامل اللّسانيّة، فعلًا، في انقرائيّة النّصوص العربيّة، وتتباين درجة التّأثير من عاملٍ لآخر، وعملنا على دراسة أهمّ العوامل المؤثّرة في انقرائيّة النّصوص العربيّة، الموجّهة للأطفال في مرحلة التّعليم الابتدائيّ، وفق مقاربة لسانيات المدونات. وبعد تحليل المعطيات الإحصائيّة الخاصّة بالمتن المدروس، استنتجنا معادلاتٍ حسابيّةٍ أحادية المتغيّر، وتوصّلنا إلى معادلةٍ متعدّدة المتغيّر، وقد تمكّنّا من تحديد مدى صدقيّتها بناء على اختبار الغلق وآراء المحكّمين.

لقد بيّنّا في دراستنا الميدانيّة، المنهجيّة الّتي اتّبعناها لاختيار المتن المؤلف من 136 نصًّا قرائيًّا، يغطّي كلّ المستويات الدّراسيّة بالسّلك الابتدائيّ، ويمثّل جميع كتب اللّغة العربيّة المقرّرة بالمدرسة المغربيّة. وقد مكّنتنا دراسة العيّنة من الوقوف على بعض الصّعوبات الّتي رافقت تعدّد الكتاب المدرسيّ، ومنها الإخفاق في إنتاج سلاسل من الكتب لنفس الفئة من المؤلّفين ولجميع المستويات الدّراسيّة.

قمنا بدراسة تأثير المتغيّرات اللّسانيّة وفق ثلاثة مستوياتٍ من التحليل اللّسانيّ: المستوى فوق–المعجميّ، والمستوى المعجميّ، والمستوى تحت–المعجميّ. وقد اتّبعنا منهجيّةً علميّةً، تنطلق من إحصاء المتغيّر اللّسانيّ المراد دراسته.

أما على المستوى التّحليليّ فقد قمنا بقياس معامل الارتباط بين المتغيّر وصعوبة النّصّ، والقوّة التّفسيريّة، مع تحديد قيمة الدّلالة. واستنتجنا بالنسبة لكلّ متغيّرٍ له تأثيرٌ دالٌّ في الانقرائيّة، معادلةً حسابيّة أحادية العامل.

وبعدما أن انتهينا من قياس تأثير المتغيّرات اللّسانيّة في انقرائيّة النّصوص، بكيفيّةٍ أحاديّةٍ، بعد تحييد باقي العوامل الأخرى المؤثّرة في الصّعوبة، وهو ما يسمّى بالتّأثير الصّافي؛ قمنا بدراسة التّأثير المتعدّد لمختلف المتغيّرات، وتوصّلنا إلى قيمٍ جديدةٍ، نظرًا للارتباط بين مختلف المتغيّرات اللّسانيّة. وقد مكّنتنا هذه العمليّة من استنتاج معادلةٍ حسابيّةٍ لقياس انقرائيّة النّصوص، متعدّدة المتغيّرات (طول النّصّ، والكلمات المحسوسة، والكلمات الصّعبة).

وللتأكّد من مدى صدقيّة معادلة الانقرائيّة الّتي توصّلنا إليها ميدانيًّا، اعتمدنا على اختبار الغلق، في المرحلة الثّانية من الدّراسة الميدانيّة، بهدف استنتاج مدى الارتباط بين نتائج هذه المعادلة ونتائج

الاختبار. وقد قسنا معامل الارتباط بين المتغيّرين، إذ توصّلنا إلى أنّ معامل الارتباط بين نتائج المعادلة الحسابيّة ونتائج اختبار الغلق قويٌّ. وهكذا، فإن اختبار الغلق أكّد صدقيّة نتائج المعادلة الحسابيّة الّتي اقترحناها لقياس انقرائيّة النّصوص العربيّة والموجّهة للأطفال، وبالتّالي يمكن اعتمادها لهذا الغرض.

سعينا في هذه الدراسة إلى الكشف عن بعض **العوامل اللّسانيّة الّتي يمكنها أن تحقّق التّوافق بين القارئ والمتن المقروء**، لذلك نراهن على أن يعزز هذا البحث الدّراسات اللّسانيّة–المعرفيّة الّتي تعنى بالفعل القرائيّ، وبالانقرائيّة، كمجالٍ بحثيٍّ في حاجة إلى اهتمامٍ أكبر من قبل الباحثين في اللّغة العربيّة على وجه الخصوص.

كما عملنا على تطوير معادلة حسابيّة متعدّدة المتغيّرات اللّسانيّة، لقياس انقرائيّة النّصوص العربيّة الموجّهة للأطفال، وفق منهجيّة علميّة. وبذلك، نكون قد أسهمنا في توفير أداةٍ تساعد المهتمين بمجال التّأليف للأطفال، والمسؤولين على المناهج التّعليميّة، والفاعلين التّربويّين على استثمارها لتعليم القراءة للمتعلّمين، باقتراح نصوصٍ تتلاءم والفئات المستهدفة بالسّلك الابتدائيّ.

كما بلورنا قائمة للكلمات الأكثر تردّدًا، تناسب متعلّمي ومتعلّمات السّلك الابتدائيّ على الخصوص. لذلك يمكن اعتماد هذه القائمة في انتقاء الرّصيد اللّغويّ المطلوب ترويجه في كلّ مستوى دراسي، وخاصة أنّ بعض الأنظمة التّربويّة تعمد إلى إدراج كلماتٍ شائعةٍ ضمن منهاجها اللّغويّ، تحت مسميات عديدةٍ: كلماتٌ شائعةٌ، أو كلماتٌ أكثر تردّدًا، أو كلماتٌ متردّدةٌ، أو كلماتٌ بصريّةٌ.

واطّلعنا أيضًا على ما توصّلت إليه الدّراسات الحالية حول الانقرائيّة، وخاصّةً قدرتها على استثمار التّكنولوجيّات الحديثة في إحصاء المتغيّرات اللّسانيّة، وإصدار برامج تطبيقيّة لقياس انقرائيّة النّصوص مثبتةٍ على الحواسيب أو عبر الأنترنت، تعتمد المعادلات الحسابيّة الأكثر شهرةً في العالم في تقدير الصّعوبة. لذلك نراهن أن تكون النّتائج الّتي توصّلنا إليها منطلق مشروعٍ علميٍّ لحوسبة قياس انقرائيّة النّصوص العربيّة.

كما وقفنا على تجارب بعض الدّول (الولايات المتحدة، وكندا) الّتي وضعت قوانين لقياس انقرائيّة الكتب الموجّهة للأطفال، إذ أجبرت النّاشرين على إخضاع مؤلفاتهم الموجّهة للصغار والشّباب لهذه المقاييس، وكتابة نتيجته والفئة العمريّة المستهدفة منه، على الغلاف. كما أنّ بعض دور النّشر تعتمد على المعادلات الحسابيّة للانقرائيّة لتصنيف مؤلّفاتها، وإعطاء مصداقيّة لمنشوراتها. لذلك، نراهن أن يفتح

هذا البحث آفاقًا لتحسيس المسؤولين بأهمّيّة القياس العلميّ لدرجة صعوبة النّصوص والعمل على مأسسته بالنّسبة للنّاشرين والمؤلّفين.

لقد كان مرتكز اشتغالنا على بعض العوامل اللّسانيّة، وهذا يعني أنّ مجال البحث يتّسع لعوامل لسانيّة أخرى تستحق البحث والدّراسة، وخاصّةً أنّ طموح المعرفيّين في هذا المجال يظلّ كبيرًا، لذا نأمل أن تشجّع هذه الدّراسة الباحثين في اكتشاف عوامل أخرى مؤثّرةٍ في الانقرائيّة وفق مقارباتٍ لسانيّة وديدكتيكيّة، بأبعادها المعرفيّة، بهدف عقلنة النّصوص الّتي تقدم للمتعلّمين والمتعلّمات، وفق قدرات التّعلم لديهم.

الهوامش:

* رشيد شاكري، الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين فاس مكناس

Email : chakri.rachid@gmail.com

1 GUNNING, T. G. (2003). The role of readability in today's classrooms. Topics in Language Disorders, 3, 175-189.

2 أبو عمشة، خالد حسين. (2015). المقروئيّة: ماهيتها وأهمّيتها وكيفيّة قياسها: www.alukah.net

3 يطاوي، محمد. (2018)، المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب (في الأصول ونقد المناهج)، سياقات،2018، ص.ص 354-385.

4 انظر معجم العربية المعاصرة: انقرأ ينقرئ، انقراءً، فهو مُنْقرِئ. * انقرأ النّصُّ: مُطاوع قرَأَ: قُرِئ بسهولة. ومعجم شمس العلوم: [الانقراء]: انقرأ الكتاب: أي أطاع إلى أن يُقرأ: http://www.almougem.com

5 HARRIS,T. L., & HODGES, R. E. (Eds.). (1995). The Literacy Dictionary, The Vocabulary of Reading and Writing. Newark, DE: International Reading Association.

6 HENRY, G. (1975). Comment mesurer la lisibilité. Labor, Bruxelles

7 JOHNSON, E. B. (2002). Contextual teaching and learning: What it is and why it's here to stay. Thousand Oaks, CA: Corwin Press.

8 DAVISON, A. (1990). Readability and reading levels. In Walbery, H.J & Haertel, G.D (EDs). International Encyclopedia of Educational Evaluation, 32(1), 362-364.

9 بادي، غسان خالد (1982). تحديد عوامل السّهولة والصعوبة في المادة المقروءة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائيّة. رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة.

10 شاكري، رشيد. (2018). تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ لقياسِ انقرائيَة النّصوص العربيّة وفق مقتضياتٍ لسانيّةٍ-معرفيّةٍ، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.

11 TAYLOR, W. (1953). Cloze procedure: A new tool for measuring readability. Journalism quarterly, 30(4): 415–433.

قائمة المراجع:

. أبو عمشة، خالد حسين. (2015). المقروئيّة: ماهيتها وأهمّيتها وكيفيّة قياسها: **www.alukah.net**.

. انظر معجم العربية المعاصرة: انقرأ ينقرئ، انقراءً، فهو مُنْقرِئ. * انقرأ النّصُّ: مُطاوع قرَأَ: قُرِئ بسهولة. ومعجم شمس العلوم: [الانقراء]: انقرأ الكتاب: أي أطاع إلى أن يُقرأ: http://www.almougem.com

. بادي، غسان خالد (1982). **تحديد عوامل السّهولة والصعوبة في المادة المقروءة لدى تلاميذ المرحلة الابتدائيّة**. رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، القاهرة.

. شاكري، رشيد. (2018). **تطوير معادلةٍ حسابيّةٍ لقياسِ انقرائيَة النّصوص العربيّة وفق مقتضياتٍ لسانيّةٍ–معرفيّةٍ**، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.

. يطاوي، محمد، (2018a). المرجعية اللسانية في التحليل النقدي للخطاب، سياقات، 1، 354–385.

. DAVISON, A. (1990). Readability and reading levels. In Walbery, H.J & Haertel, G.D (EDs). International Encyclopedia of Educational Evaluation, 32(1), 362-364.

. GUNNING, T. G. (2003). The role of readability in today's classrooms. Topics in Language Disorders, 3, 175-189.

. HARRIS,T. L., & HODGES, R. E. (Eds.). (1995). The Literacy Dictionary, The Vocabulary of Reading and Writing. Newark, DE: International Reading Association.

. HENRY, G. (1975). Comment mesurer la lisibilité. Labor, Bruxelles. JOHNSON, E. B. (2002). Contextual teaching and learning: What it is and why it's here to stay. Thousand Oaks, CA: Corwin Press.

. TAYLOR, W. (1953). Cloze procedure: A new tool for measuring readability. Journalism quarterly, 30(4): 415–433.

تحليل الخطاب منهجا تاريخيا

عبد الرحيم رياض*

الملخص:

نتناول في هذا البحث تحليل الخطاب بوصفه إطارا نقديا للمعرفة في ارتباطها بالتاريخ. إذ إن التاريخ معرفة، وغاية النقد التاريخي هي الوعي بهذه المعرفة، فيكون هو شرط تحققها. لذا، سوف يستكشف البحث التحليل النقدي للخطاب ودوره في نقد المعرفة التاريخية، وكيف تداخلت رؤاه مع التاريخ، خاصة وقد نما اتجاه حداثي في الدراسات التاريخية استطاع أن يثبت جدارته عبر أبحاث تحفر عميقا فيما وراء النص التاريخي، وتقدم منظورًا آخر عن التاريخ، برؤى منهجية اعتمدت على تحليل الخطاب بشكل خاص، بداية من إسهامات ميشيل فوكو، ثم وبشكل مباشر من خلال المؤرخة ريجين روبان بوصفها إحدى أهم مستخدمي منهج تحليل الخطاب كمنهج تاريخي. وقد اتضح ذلك جليًّا في كتابها "اللسانيات والأيديولوجيا: الخطاب كموضوع للتاريخ"، حيث أخذت فيه على عاتقها أن تقرن دراسة التاريخ باللسانيات، ووضعت التاريخ ضمن العلوم التي لا يجب أن تستغنيَ عن منهج تحليل الخطاب، مستفيدة بذلك من كل إسهامات اللسانيات والجهود النقدية للمناهج التاريخية.

لذا، وباستخدام المنهج الوصفي التحليلي، سنستعرض تطور استخدام تحليل الخطاب في البحث التاريخي، والوقوف عند أهم المحطات التي برز فيها داخل إطار الدراسات التاريخية، حتى أصبح تحليل الخطاب التاريخي منهجًا مستقلاً يمكن الاعتماد عليه في تكوين معرفة تاريخية يعتدّ بها، والتعرف على الأثر الذي أحدثه الاستناد إلى تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية في محاولة للإجابة عن التساؤل: ماذا قدم منهج تحليل الخطاب لعلم التاريخ؟

الكلمات المفتاحية: تحليل الخطاب، التحليل النقدي للخطاب، التاريخ، السلطة.

Discourse Analysis as Historical Method

Abdelrahim Reyad

Abstract:

In this research we address discourse analysis as a critical method of knowledge and its relation to history. In fact, history is knowledge and historical criticism is the purpose of awareness of this knowledge, Therefore, the research will explore the critical analysis of the speech and its role in critique historical knowledge, and how its visions overlapped with history.

In particular, a modernist trend in historical studies has been able to prove its worth through research that digs deep beyond the historical text and offers a different perspective on history, with methodological questions based on discourse analysis in particular, beginning with the contributions of Michel Foucault, and then directly by the historian Régine Robin, one of the most important users of the methodology of discourse analysis as a historical method, which is evident in her book "Linguistics and ideology: discourse as a subject of history," where it undertook to associate the study of history with linguistics, Among the sciences that should not be excluded from the discourse analysis method, taking advantage of all contributions of linguistics and criticism efforts of historical curricula.

Thus, using the analytical descriptive approach, we will review the evolution of the use of discourse analysis in historical research, And stand at the most important stations that emerged in the use of discourse analysis in historical studies to becomes an independent and reliable approach to the development of reliable historical knowledge, and try to answer the question: What discourse analysis method has provided to history?

Keywords: Discourse Analysis, Critical Discourse Analysis, History, Power.

مقدمة:

تربعت المدرسة الوثائقية –على مدى عقود طويلة– على عرش المنهجية التاريخية، كطريق وحيد من قبل الباحثين ودارسي التاريخ. وقد قدمت هذه المدرسة دراسات وأبحاثا ساعدت بشكل كبير على نمو المعرفة التاريخية على مستوى الكم والكيف، وشغلت لفترة طويلة من الزمن كل مَن يتوجه بالدراسة التاريخية إلى البحث في الوثائق والأرشيفات، والزهو بالمصدر الأصلي والمصدر المعاصر، وتقديم كل المعلومات التي تحويها تلك المصادر على أنها أدلة دامغة –بعد إجراء النقد المنهجي المتبع– لحقيقة تاريخية يمكن الاطمئنان لصحتها والاعتماد عليها في إقامة نتائج لا يداخلها الشك؛ إذ تأخذ النتائج الموثوقية نفسها التي نالتها المصادر.

وإلى الآن، ينظر البعض إلى المدرسة الوثائقية على أنها المنهج الوحيد الذي ينتج معرفة تاريخية يعتدّ بها، متجاهلين إلى حد كبير التطورات المنهجية التي مرت بالعلوم الإنسانية منذ بداية القرن العشرين، وكذلك جهود الكثير من المؤرخين الذين أثروا المعرفة التاريخية برؤى وأطروحات كانت لها نتائج ساعدت بشكل كبير على مواكبة التطور المعرفي في الآونة الأخيرة. وحقيقة الأمر أن بين الاتجاهين خلافًا فلسفيًّا بامتياز، ولا غَرْوَ حين نتلمس أثر هذه الخلافات الجذرية في رؤية كل منهما للموقع الذي يمكن أن يشغله علم التاريخ بين العلوم الإنسانية، وماهية الموضوع التاريخي، وكذلك مهمة النقد الذي يعدُّ حقلاً بالغ الأهمية لأية معرفة علمية في الوقت الراهن.

لذا وباستخدام المنهج الوصفي التحليلي، سنستعرض تطور استخدام أحد المناهج النقدية في البحث التاريخي وهو منهج تحليل الخطاب، والوقوف عند أهم المحطات التي برز فيها استخدم تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية، حتى أصبح تحليل الخطاب التاريخي منهجًا مستقلاً يمكن الاعتماد عليه في تكوين معرفة تاريخية يعتدّ بها، والتعرف على الأثر الذي أحدثه استخدام تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية في محاولة للإجابة عن التساؤل: ماذا قدم منهج تحليل الخطاب لعلم التاريخ؟

1. تحليل الخطاب والتاريخ:

أرخت التطورات المنهجية في القرن العشرين بظلالها على علم التاريخ، ولاسيما تلك المتعلقة باللغة، "وكان مؤرخو مدرسة الحوليات الفرنسية المؤسسون من أوائل من تلقى إيحاءات الدراسات اللسانية عبر مفاهيم ومصطلحات: العلامة Signe، والدال والمدلول، والسيميولوجيا، كلغة كاشفة عن المجتمع"[1]. وكذلك تطورت أبحاث على أيدي مجموعة من الباحثين العاملين في تاريخ الفكر السياسي، وصاروا يعرفون باسم مدرسة كمبردج Cambridge School؛ وكانت النتيجة منهجًا يجادل بأنه لكي نفهم النصوص، فإننا نحتاج إلى فهم السياق اللغوي التاريخي الذى يمكن أن يكون متضمنًا بطرق متنوعة في أنماط أخرى من السياق، أي ما كان الآخرون يقولونه في إطار الزمن والظروف التي حكمت ذلك القول[2]. وبذلك تم تجاوز الأهمية المطلقة التي كانت تتميز بها الوثيقة التاريخية[3]، فقد أصبح من الثابت أن "معطى الوثيقة ليس مقدسًا بذاته، ولا الواقعة التي تشير إليها الوثيقة هي الحقيقة التاريخية بذاتها، ولا بد من قراءة الوثيقة بذهنية أوسع، ومن زوايا مختلفة، لا يكفي النقد الخارجي والنقد الداخلي وحدهما، وإن كانا ضروريين، لا بد من التفسير والتأويل والتفكر، واستدخال علوم أخرى لا على مستوى المساعدة فحسب؛ بل على مستوى التكامل وباتجاه إرساء منهج تكاملي للعلوم الإنسانية والاجتماعية داخل علم التاريخ"[4].

ولما كان التاريخ ترتكز مادته الأساسية على مجموعة من النصوص بغض النظر عن فترتها الزمنية أو منشئها، فإنه لا يمكن كتابة تاريخ بلا نصوص تاريخية، سواء تنوعت بين وثائق وأرشيفات، أو مصادر أصلية ومعاصرة، وحتى التاريخ الشفهي والشعبي لا يمكن تناوله إلا بعد تحويله إلى مجموعة نصوص. لذا فالأساس في عملية البناء التاريخي تتوقف على مجموعة من العمليات تتعلق جميعها باللغة، سواء من حيث القراءة أو الفهم أو الوصف أو التحليل أو التعليل أو التأويل. وهكذا، لا يمكن الوعي بأي نص تاريخي إلا من خلال الوعي الكامل بعمليتي البناء والتركيب، وما يستدعي ذلك من نقد وهو الأمر الذي يستلزم منهجاً قادرا على معالجة تلك الأمور، وإلا استلب النص عقل المؤرخ وفكره وتوجهه، سواء أراد ذلك أم عجز عن إدراك كم التأثير الذي يمارسه النص عليه. لذا فقد استرعى "الخطاب"[5] انتباه

المؤرخين إذ يشير إلى اتجاهات جديدة في إدراك اللغة "تعتني بطريقة الكتابة أو الحديث، التي تبني نوعًا خاصًّا من المعرفة، وتطبيقاتها في الواقع"[6].

والحقيقة أن التطورات المنهجية التي طالت دراسات اللغة يمكن القول إنها أدت دوراً يحتاجه التاريخ، خاصة وقد كان المنطلق الجامع والمؤسس لهذا الموقف المعرفي، هو النقد الجذري الموجه إلى الدراسات التاريخية، والدراسات السوسيولوجية الوصفية التي تكتفي بتحليل الظواهر، ولا تصل إلى عمق الأشياء وثوابتها الخفية، أي بنيتها[7]. وكانت نواة هذه الأبحاث دراسة عن الخطاب السياسي قام بها لسانيون ومؤرخون بمنهجية تجمع بين اللسانيات البنيوية ونظرية في الأيديولوجيا مستلهمة في الآن ذاته، من إعادة الفيلسوف لويس ألتوسير[8] Louis Althusser قراءة آثار كارل ماركس Karl Marx، ومن التحليل النفسي عند جاك لاكان Jacques Lacan[9]، وكان الأمر يتعلق بالتفكير في علاقة الأيديولوجي باللساني مع تجنب اختزال الخطاب في تحليل اللغة وإذابة الخطابي في الأيديولوجي في الوقت نفسه.

وعلى هذا الأساس تطورت منهجية لدراسة الخطاب، من إسهامات مختلفة، جعلت تحليل الخطاب ذا تعدد في الاتجاهات؛ أو بمعنى آخر هو عبارة عن مجموعة مناهج متضافرة. ذلك لأنه أتى من التقاء تيارات منطلقاتها شديدة الاختلاف ظهرت في أوروبا وأمريكا في الستينيات، ولا يزال الالتقاء يتطور يومًا بعد يوم؛ وكلها تدور حول دراسة الإنجازات المتجاوزة للجملة، سواء كان الإنجاز شفويًّا أو مكتوبًا؛ بغية فهم دلالتها الاجتماعية[10].

ولذلك وجّه تحليل الخطاب البحث في اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، أو شكلاً من أشكال الممارسة الاجتماعية، ومجالاً تتشكّل فيه سياقات تعطي قيمًا جديدة للغة؛ فاللغة في الخطاب لا تُعدّ بنية اعتباطية، بل نشاطًا لأفراد مندرجين في سياقات معينة، وهو يشكل وحدة اتصال مرتبطة بظروف إنتاج معينة[11]؛ فهو لا يعبر فقط عن النصوص والكلام، وإنما يعبر عن **سياق من العلاقات التي ترتبط بأفعال وأقوال في موقف معين**، ضمن سيرورة صناعة المعنى في الأحداث الاجتماعية، ويشمل ذلك نسج النص، (أي) صناعته[12]. وهكذا ينتقل مجال الصراع من المجتمع إلى اللغة، وكذلك من اللغة إلى المجتمع؛ فلا يصير الواقع المجسد لغويًّا في النصوص عندئذٍ سوى وجهة نظر، فلا تكون طريقة التعامل معها في هذه الحالة هي

الشرح أو التعليق بل التأويل "Hermeneutic" الذى ينطلق من تحليل جميع أبعاد اللغة وربطها بسياقاتها الاجتماعية والتاريخية والأيديولوجية، وتغيراتها، وتفاعلاتها[13].

وهكذا، فقد عرف تحليل الخطاب بأنّه كلّ تقنية تسعى إلى التّأسيس العام والشكلي للرّوابط الموجودة بين الوحدات اللّغوية للخطاب المنطوق أو المكتوب، في مستوى أعلى من مستوى الجملة، وبذلك صار ينظر إلى اللّغة كونها أفعالاً ذات أبعاد ووظائف اجتماعية وسلطوية[14]. لذلك نجد أن المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب تركز "على تحديد خصوصية أهداف الخطاب الأيديولوجية أي العناصر المبينة لشروط إنتاج الخطاب؛ حيث إنه توجد قواعد إسقاط متضمنة في كل آليات التكوين الاجتماعي، تؤسس هذه القواعد للروابط القائمة بين الأوضاع الاجتماعية وتمثيلاتها، مما يعنى أن البعد الاجتماعي فاعل في البعد الفردي ومحدد له؛ من هذا المنطلق يكون المحدد في هذا التصور هو **ربط البنية الفوقية بنموذج الإنتاج المهيمن على التكوين الاجتماعي، وبالتالي ربط النص باللفظ، وربط الخطاب بالملفوظ، أي بشروط إنتاجه**، معتبرًا أن الخطاب هو **نتاج لغوى يشكل مع شروط إنتاجه السوسيو – أيديولوجية كلاً قابلا للوصف**، فهو منتج خاص يرتبط بمتكلم خاص وبظروف إنتاج خاصة. بهذا يتحدد الخطاب بكونه نتاجًا لإدراج النص في سياقه، **ذلك لأن مجال الخطاب هو مجال تلتقي فيه الدلالة بالإحالة**، ومن ثم يتم ربط الخطاب بالتلفظ وربط التلفظ بالسياق التواصلي"[15].

وفي الواقع، ظلت خصوصية لهذا التساؤل التاريخي/الخِطابي قائمة في المدرسة الفرنسية لتحليل الخطاب؛ وبالأخص في أبحاث ميشيل فوكو Michel Foucault، فقد كان "إدخال البعد التاريخي في تحليل الخطاب هو ما يميز طريقة فوكو"[16] الذى نظر للخطاب باعتباره صورًا وتمثيلات للمعرفة، كما هي في الوثائق التاريخية، لهذا اهتم بدراسة القدرة الانعكاسية بين السلطة (Power)، والمعرفة (Knowledge). ولتحقيق ذلك قام بتحليل بعض الوثائق التاريخية التي توضح أن كلا من ممارسة السلطة وسبل المعرفة، قد لحق بهم العديد من التغيرات الكبرى على مرِّ الأزمان، كما ركز عند تناوله للنص على بيان القوى الكامنة وراء هذا النص، أكثر من اهتمامه بدراسة كاتب النص أو مؤلفه؛ بمعنى أنه يهتم ببيان **العوامل الاجتماعية والسياسية التي أعطت زخمًا وقوة لهذا العمل المكتوب**، وسمحت له بالتأثير على

الفعل الإنساني، وهذا يعني أنه عند تحليلنا للنص المكتوب لا ننظر فقط إلى المحتوى الخطابي الظاهر، وإنما ننظر إلى ما وراء هذا المحتوى المكتوب، فندرس علاقة السلطة بالمعرفة، وعلاقة سبل المعرفة بمضامينها السياسية[17].

وقد طبق فوكو تلك الرؤية للخطاب من خلال عدة دراسات؛ حيث "بلغ مشروع تحليل الخطاب عنده شأوه النظري بظهور مؤلفه أركيولوجيا المعرفة 1969، بعد أن كتب تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي 1962، وميلاد المصحة – أركيولوجيا النظر الطبي 1963، والكلمات والأشياء أركيولوجيا العلوم الإنسانية 1966. وكان مشروع فوكو غايته **كتابة تاريخ أنساق الخطاب المكونة لعلوم الإنسان؛ والبحث في تكوّن الممارسات الخطابية والسلطوية** في آن واحد، مؤكدًا أن هذه الخطابات لا يمكن فهمها إلا **بقدر ما نندمج في مسار تطور المجتمع تاريخيا**"[18]. ولذلك كان هدف فوكو الأساسي هو "إقامة تاريخ عام (General History) للخطابات، بدلاً من تاريخ كلي (Global History)؛ تاريخ يتأسس على وصف خصوصية الممارسات الخطابية. وفي إطار هذا التاريخ العام، يمكن إقامة ما يسميه فوكو **بالتحليل التاريخي للممارسات الخطابية**"[19].

وقد رأى ميشيل فوكو أنه "لا يجب أن نعتبر هذه الموضوعات الحيوية التي أثارها بالنسبة إلى التاريخ دخيلة عليه أو جديدة تمامًا، فهي على الرغم من ظهورها في مجالات علمية أخرى، قد نشأت داخل مجال علم التاريخ نفسه، ولا يجب –من ثم– أن تُفهم على أنها محاولة لضم التاريخ إلى المنهج البنيوي أو إخضاعه له؛ إذ إن تحليل التاريخ على شكل هياكل ثابتة تارة، وعلى شكل متغيرات تارة أخرى (Conjunctures) ليس بجديد كل الجدة، وإنما كان موجودًا قبل ذيوع البنيوية، ولا تعارض البتة بينه وبين حركة التاريخ؛ كل ما في الأمر أن حركة التجديد قد برزت في بعض العلوم أكثر من بروزها في علوم أخرى، فهي قد انتشرت بسرعة كبيرة في مجال علم اللسانيات، وثوّرت –في أعقاب ذلك– معظم الدراسات الأدبية والأنثربولوجية والاجتماعية الحديثة، **بينما تأخر الاعتراف بها كثيرًا في نطاق تاريخ الفكر** نظرًا لتردد الذوق العام في قبول مفهوم القطيعة المعرفية ومحاولة تحليل المستويات التاريخية المختلفة بعيدًا عن كل فلسفات التاريخ التطورية والاستمرارية والغائية"[20].

وعن إسهام فوكو التاريخي يجب النظر إلى أن المادة التاريخية الفكرية هي الموضوع الأساسي لأبحاثه؛ إذ قد تولى في الكوليج دو فرانس سنة 1971 كرسيا لتدريس مادة تاريخية هي تاريخ منظومات الفكر، وحرص على التأكيد أن دراساته وبحوثه تهدف إلى طرح تساؤلات نقدية حول هذا التاريخ وحول مناهجه وحدوده وموضوعاته[21]؛ لكن البعض اعتبر أن فوكو "لم يورث نظرية، وإنما أورث المؤرخين بعض الرؤى الثاقبة"[22]. وقد قال عنه جاك لوغوف Jacques Le Goff في مقدمته لكتاب (التاريخ الجديد) التي تناولت أهم المؤثرين في علم التاريخ المعاصر: "كان من الممكن أخيرًا أن نكتب سيرة ميشيل فوكو، الذى لا يزال دوره في تجديد التاريخ لم يحظَ بما يستحق من الاهتمام، لا من حيث المنهجية، ولا من حيث إنتاجه كمؤرخ"[23].

هكذا ظهر تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية. لكن التدشين العملي لتحليل الخطاب، واستخدامه كأحد المناهج المعتبرة في الدراسات التاريخية، والتأكيد على أهمية الاستعانة به في البحث التاريخي قد تم على يد المؤرخة الفرنسية ريجين روبان Régine Robin.

2. منعطف ريجين روبان[24]:

تعتبر ريجين روبان المؤرخة والأديبة وعالمة الاجتماع الفرنسية نقطة تحول في اعتماد تحليل الخطاب كمنهج ذائع الصيت في الدراسات التاريخية، وخاصة منذ إصدارها لكتاب "اللغة والأيديولوجيات: الخطاب كموضوع للتاريخ" والذى سنتحدث عنه لاحقاً. لكن الآن، يحسن الوقوف قليلاً أمام مسيرتها العلمية، ليس من قبيل هذا الدور الخاص بالتقدم في المنهجية التاريخية، ولكن لأنها تعدُّ بحق من رواد تحليل الخطاب في العالم الغربي.

ولدت ريجين روبان في باريس عام 1939م لوالدين يهوديين مهاجرين من بولندا قبل الحرب العالمية الثانية، وتلقت تعليمها في فرنسا، وبعد قبولها في مدرسة المعلمين العليا في باريس عام 1959م بدأت حياتها المهنية مدرسةً للتاريخ في مدرسة الليسيه بديجون (1963 : 1967)، ثم حصلت على شهادة البكالوريوس في الجغرافيا في جامعة السوربون عام 1962م، ثم في التاريخ عام 1963، وحصلت على الدكتوراه في العلوم الاجتماعية من جامعة ديجون

1969م، ودرست في جامعة باريس X، لكنها هاجرت إلى مونتريال بكندا في عام 1977، حيث شغلت أستاذًا لعلم الاجتماع في جامعة كيبيك عام1982، وقد تم انتخابها عضوًا في الجمعية الملكية بكندا عام 1988. وعملت كأستاذة زائرة في العديد من الجامعات في العالم مثل جامعة هارفارد عام 1988، وفي كلية الدراسات الاجتماعية العليا في باريس عام 1989، ومركز التاريخ المعاصر في بوتسدام عام 1998. وشاركت ريجين روبان في تأسيس مركز تحليل النصوص والخطاب (CIADEST) بجامعة مونتريال عام 1990.

أصدرت ريجين روبان أكثر من عشرين كتابًا بالإضافة إلي العديد من الروايات والقصص، فكانت أطروحتها للدكتوراه "المجتمع الفرنسي في عام 1789" قد تناولت فيها المجتمع الفرنسي أثناء الثورة ومفاهيم الإقطاع. وفي كتابها التاريخ واللسانيات (1973) تناولت العلاقة بين الخطاب والتاريخ، ثم أصدرت كتاب الخطاب الاجتماعي والممارسة 1983، وأجرت بحوثًا عديدة حول الهويات واللغة والأدب، وثقافات فترة ما بين الحربين، ومشاكل الذاكرة الجماعية، وإساءة استخدام الماضي؛ حيث تناول بحثها حول مسألة الذاكرة "ذاكرة كاملة" التشكيك فيما يتعلق بالمحرقة وتجربة اليهود في الحرب العالمية الثانية، كما أسهمت في التحليل السوسيولوجي للأدب، خاصة بعد إصدارها لكتاب "الواقعية الاشتراكية: جماليات مستحيلة" في 1986م والذى ما يزال لديه حضور كبير في مجال علم اجتماع الأدب وتحليل الخطاب الأيديولوجي،. وقد حصلت على جائزة الحاكم العام في كندا عام 1987.

ولروجين روبان أعمال عن شاعرية المدن الكبيرة، فقد أصدرت "النصب التذكاري الروماني: تاريخ يشطب المكان" في عام 1989، وقد نالت أيضًا جائزة جاك روسو للإسهامات متعددة التخصصات في عام 1994، وفاز كتابها "شانتي برلين – دراسة التاريخ والمناظر الطبيعية في المناطق الحضرية من برلين" بسباق الجائزة الكبرى بمونتريال لعام 2001، وكتابها الأخير هو "الشر في باريس" وقد صدر عام 2014م، ونظرًا لمسيرتها الكبيرة، وإنتاجها الضخم والمتنوع، يطلق عليها في الغرب "مخضرمة ما بعد الحداثة".

وفيما يتعلق بدورها الكبير في الربط بين علم التاريخ ومنهجية تحليل الخطاب، فسنقف عند كتابها المميز "اللسانيات والأيديولوجيا: الخطاب كموضوع للتاريخ"[25]. وقد أخذت فيه على

عاتقها أن تقرن دراسة التاريخ باللسانيات، ووضع التاريخ ضمن العلوم التي لا يجب أن تستغني عن منهج تحليل الخطاب، مستفيدة بذلك من كل إسهامات اللسانيات والجهود النقدية للمناهج التاريخية، وبخاصة أعمال ميشيل فوكو، وهذه المحاولة وجدت لها صدى عند البعض، كما واجهت انتقادات كثيرة، لكن في النهاية فقد أثمر هذا النهج ليكون علامة في تاريخها الفكري، كما يذكر ذلك باتريك شارودو Patrick Charaudeau في معجم تحليل الخطاب قائلاً: "مقولة الخطاب موضوعًا للتاريخ ظهرت إثر صدور كتاب المؤرخة ر. روبان حول التاريخ واللسانيات (1973) في العنوان الفرعي للمصنف الجماعي حول اللغة والأيديولوجيات، وهي تسجل هكذا حدوثًا منعرجًا كبيرًا في العلاقة بين التاريخ واللسانيات."[26].

وهذا الكتاب الذي أصدرته ريجين روبان بالمشاركة مع كل من جاك جيومو Jacques Guilhaumou، ودينيس مالديدي Denise Maldidier، وأنتوان بروست Prost Antoine، يجمع ما بين الجانب النظري والتطبيقي؛ حيث قامت ريجين روبان بالتنظير للموضوع، بل سبقت كل دراسة تطبيقية بمقدمة نظرية عن أهم الآليات التي اعتمدها الباحث لتحليل الخطاب التاريخي؛ فالكتاب يتكون من 157 صفحة، مقسمة إلى مقدمة وثلاث فصول/ دراسات، قامت ريجين روبان بكتابة المقدمة بعنوان: "لغة وأيديولوجيا" كإطار نظري لاستخدام تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية، قالت فيها:

"مخاطرة كبرى ألا تكون الأبحاث التي تشير إلى اللغة ومفرداتها جزءًا من علم التاريخ. ما بين المتحمسين والكارهين للاقتراب من تحليل الخطاب كمنهج في الدراسات التاريخية، هناك وجهتا نظر؛ وجهة النظر المعارضة التي تستخدم منهجيات بسيطة كالمنهج الموضوعي والمنهج الحدسي، ومن ثم فلديها تساؤل غاية في الخطورة:

ما جدوى اللسانيات بكل ما تحمل من تعقيدات؛ إذ إن قراءة متأنية تكفي؟ أم أنها محاولة لإيجاد طرق جديدة أمام الباحثين يمكن أن تؤدي إلى النتائج نفسها ولكن باستخدام مناهج لسانية؟

في الحقيقة، المؤرخ الذي يستخدم المنهج اللغوي لا ينظر إلى نتائج ما قيل عن أحداث وأخبار التاريخ، لكنه يهتم بكيفية ما قيل، يهتم بصفة خاصة بحركة الخطاب ودلالاته على جميع المستويات.

صحيح أن التاريخ يركز الآن على الجماهير وعلى تسلسل الأحداث أكثر من تركيزه- كما كان معتادًا- على الملوك والأمراء والساسة والقصر والحاشية والدسائس والتسلسل الزمني للأحداث؛ فظهر ما يسمى بالتاريخ الاجتماعي والتاريخ الاقتصادي والتاريخ الفكري، لكن لماذا لا تشكل اللغة جزءًا من التاريخ، وكذلك المفردات والصور النمطية أو البلاغية التي يستخدمها جماعة من الناس لتصبح موضوعًا للتاريخ؟ فنحن يعوزنا تاريخ علم البلاغة وتطوره على مر العصور لفهم تطورات تاريخية تتجاوز المعاني الجاهزة والثابتة والتي تمتعت من وقت لآخر بحركية لا يلمسها المؤرخ دون وعي كامل بتطورها الدلالي على مدى تلك العصور، فبعض الكلمات مرتبطة بفترات تاريخية مثل الحرية – إقطاع – ديموقراطية، ولا يمكن الاعتماد على معانٍ ودلالات راهنة كي نحملها على تطور مفهومي شاركت فيه اللغةُ المجتمعَ، فالخطاب والبنية الاجتماعية هي مجموعة من المعارف التي ترتبط بفترة تاريخية معينة، ومن الضروري تطبيق اللغة وتحليل الخطاب في فهم تكوين المجتمعات ومن ثم لا بد للمؤرخ من ربط اللغة بالاقتصاد والسياسة، وكذلك ربط البلاغة ومعاني المفردات ودور الحكاية ووظيفتها الخاصة في العرض، بالأحدث والوقائع، من أجل فهم أعمق للتاريخ[27].

إنه هدف جديد في مجال اللغة بالقدر نفسه في مجال التاريخ، لقد كان السؤال التقليدي ماذا يقول النص؟ ولكن عندما يكون الخطاب موضوعًا للتاريخ ستكون الأسئلة:

كيف قيل ما قيل؟

كيف وظف هذا الخطاب؟

لماذا هذا التوظيف على ما هو عليه؟

فدراسة الخطاب وطريقة قوله يقدم رؤية كافية لمضمون الحجج، وإدراك جيد لحركة المواجهة الخطابية المستمرة والملازمة للتاريخ البشري"[28].

وبعد هذه المقدمة التي دشنت من خلالها ريجين روبان لمنهج تحليل الخطاب التاريخي، مدعمة طرحها هذا بحجج منطقية عن نتائج استخدام تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية، قدمت أيضًا لثلاث دراسات تاريخية اعتمدت على منهج تحليل الخطاب، الدراسة الأولي بعنوان: "جدلية إيديولوجية وانفعالية – المواجهة الخطابية في عام 1776: مراسيم طورجو وتشريع برلمان باريس"[29] التي كتبها دينس مالديدي، حيث تناول المواجهة بين طورجو[30] وبرلمان باريس عام 1776 وهو مشهد تاريخي مشهور؛ حيث دافع طورجو عن التحرر الاقتصادي ودافع البرلمان عن قيم النظام القديم، فالمضمون معروف مقدمًا وهو صراع بين فكر طبقة النبلاء وفكر الطبقة البرجوازية، لكن الدراسة حاولت النظر لهذه النصوص من وجهة نظر أخرى وهي التوظيف الخطابي لكل منهما في هذه الجدلية والمواجهة بينهما وأثر ذلك ودلالاته على المجتمع.

الدراسة الثانية وهي بعنوان "أيديولوجيا الأب دوشيسن والقوة الداعمة 14 يوليو – 6 سبتمبر 1793"[31] كتبها جاك جيمو وهي عبارة عن دراسة نقدية لجزء من أطروحة تمت مناقشتها عام 1972 في جامعة باريسX حول أيديولوجيا صحيفة الأب دوشيسن[32]؛ حيث وُجِّه النقد للدراسة من خلال محدودية المصادر، وغياب دراسة طريقة قول الكلام والقضايا البلاغية، والأثر الإيجابي إذ ما تمت الاستعانة بمنهج تحليل الخطاب[33].

الدراسة الثالثة بعنوان: "المقاتلين والسياسيين – الخطاب الأسطوري في السياسة ما بين الحربين"[34] كتبها أنطوان بروست، وهي تلقي الضوء على أزمة المؤسسات والإصلاحات السياسية في فترة ما بين الحربيين، اعتمادًا على آراء قدامى المحاربين والمقالات السياسية في ذلك الوقت، من خلال تحليل الخطاب، وتتبع التطور الزمني للظاهرة اللغوية والمقارنات المتزامنة بين اتجاهات سياسية ومسؤولين محليين وقوميين[35].

وبذلك يعدُّ الكتاب نقلة نوعية في تطور مناهج الدراسات التاريخية؛ إذ اضطلع بمهمة التعريف بالبعد الخطابي في التاريخ، وهي رؤية متطورة في الدراسات التاريخية ما لبثت أن أصبحت اتجاها قويًّا واكبته العديد من الدراسات التي جعلت من تطوير المنهجيات الخاصة بعلم التاريخ ضرورة معرفية، فظهر ذلك على سبيل المثال في أعمال كل من بول ريكور[36]

وهايدن وايت[37]. حتى يمكن القول إنه الآن "ترتسم على الصعيد العالمي ملامح اتفاق بين المؤرخين واللسانيين على أهمية العلاقة بين الواقع والخطاب، وضرورة دراسة الشروط اللغوية لظهور أشكال خطابية قصد النفاذ إلى فهم التاريخ"[38].

خاتمة: **حاجة المعرفة التاريخية إلى منهجية تحليل الخطاب**

يمكن القول إن استخدام تحليل الخطاب في الدراسات التاريخية قد قدم تطورا ملحوظاً بعلم التاريخ فكرًا ومنهجًا، فالحقيقة أنه "لم تعد الوثيقة في صورتها الأولى هي التي تخلق الذاكرة التاريخية؛ إذ إن التاريخ قد أصبح –بالأحرى– الطريقة التي يعالج بها مجتمع من المجتمعات وثائقه وتراثه، والموقف الذى يحدده منها"[39]، بل تحولت كذلك أسئلة البحث التاريخي الرئيسة، فتحول السؤال عن المعلومات الحقيقية بالوثيقة إلى حقيقة المعلومات بالوثيقة، وتحول الاهتمام من البحث عن المعلومات ذاتها إلى البحث عن أسباب ظهور تلك المعلومات بالذات، وما الداعي لوثيقة ما في أن تخرج على ما هي عليه، ولم تخرج بشكل مغاير.

إن الإجابة على مثل تلك الأسئلة تعمق الوعي بالتاريخ، فالخطاب التاريخي، كأي خطاب هدفه التأثير في متلقيه، يسعى إلى تصدير حكم على الأحداث التي يتناولها. فالتاريخ يعبر عن أحد التصورات التي هيمنت أثناء مراحل تدوينه، أو كتب تحت تأثيرها، فتصبح تلك التصورات بالضرورة حُكمًا من التاريخ على الأحداث والوقائع التاريخية؛ وهذا يعني أن التاريخ وهو يعود إلى حقب ماضية يعود مؤطرًا بتصورات ومعانٍ حاضرة عن هذا الماضي. هذا الوعي بالخطاب سواء على مستوى اللغة أو التاريخ أو المجتمع، يجعل من الضروري والملزم لمن ينقد الخطاب أن يعتمد على آليات متعددة دلاليا وتداوليا؛ فلكي يكشف عن بعض خصائص السياقات المعرفية والاجتماعية والأيديولوجية للأشكال والدلالات والوظائف، عليه النظر إلى الخطاب بشكل عام نظرة تأويلية، فيستطيع أن يكتشف العلامات التي تختفي في الأسلوب والجملة والمصطلح والكلمة، كما تختفي في السلوكيات العامة والخاصة؛ فينظر إليها على كونها مبادئ ومفاهيم لها أصولها التاريخية المرتبطة بالأساس السوسيولوجي للعصر.

إن حكم الإنسان على الأمور، في مظهر من مظاهره ، كامن في المعنى الذي يعطيه لما سبقه من زمن ولما مضى قبله من أحداث ووقائع؛ فالتاريخ بوصفه خطابا، لَيؤدِّي دورًا تصاعديًّا من الماضي في اتجاه الحاضر، فهو أولاً يستحضر الماضي بشكل جديد وبصورة مصطنعة، وهو ثانيًا ينشئ روابط متعمدة – ظاهرة أو خفية– من خلال عرضه للأحداث مع

قضايا عامة تتحول عبر اللغة والخطاب إلى مرآة تعكس تصوره الخاص، برموزه، وإشاراته، وعلاماته المحمولة داخل اللغة/ الصورة؛ بحيث يمكننا القول إن الخطاب التاريخي يحول كل شيء إلى رسالة، قد يكون موضوعها الماضي لكن مضمونها بالقطع يتجه إلى الحاضر وانشغالاته.

الهوامش:

* عبد الرحيم رياض عبد الرحيم عبد العزيز: Abdou_shehab@yahoo.com

1 وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ اتجاهات –مدارس– مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط2، بيروت، 2013، ، ص221.

2 انظر: أنابيل بريت، ما التاريخ الفكرى الآن (ضمن كتاب: ديفيد كانادين وآخرون: ما التاريخ الآن، ترجمة: قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2006م)، ص200،201.

3 الوثيقة هي مقابل الكلمات المشتقة من المفرد اللاتيني دوكومنتوم الذى يحمل في الأصل معنى قانونيًا؛ حيث يطلق على الحجة التي تقنع القاضي؛ والوثائق هي الأصول المكتوبة والمطبوعة للتاريخ، والتي تمثل حلقة الاتصال بين الواقعة التاريخية في الماضي وبين المؤرخ، وتهدف إلى تأكيد المعلومات، وتوثيقها توثيقًا تاريخيًا. (عبدالله العروي: مفهوم التاريخ، ج1، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992م. ص82).

4 وجيه كوثراني، 2013، ص205،206.

5 الخطاب بمعناه الأكثر اتساعًا هو كل تلفظ يفترض متكلمًا ومستمعًا، وعند الأول هدف التأثير في الثاني بطريقة ما وهو ما يجعل الخطاب أداة مباشرة للإخضاع الفكري. (ديان مكدونيل: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2001، ص173).

2 Amir B. Marvasti: Qualitative Research in Sociology, Sage Publications ltd, London, p.108.

7 انظر: وجيه كوثراني، تاريخ التأريخ، ص220،221.

8 لوى ألتوسير Louis Althusser (1918–1990) ولد في الجزائر ودرس في باريس حتى أصبح أستاذًا للفلسفة يعتبر أحد أهم المنظرين الماركسيين في القرن العشرين، جعل نوعًا من التلاقي بين الماركسية والبنيوية في نزعة ترفض تفسير التاريخ بالاستناد إلى مفهوم الذات. (انظر محمد عزام: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003، ص36).

9 جاك لاكان Jacques Lacan (1901–1981) محلل نفسي فرنسي ولد في باريس وتوفي بها. اشتهر بقراءته التفسيرية لسيغموند فرويد في الثلاثينيات من هذا القرن، وكانت إحدى أهم الإضافات التي قدمها لاكان في تحليلاته النفسية اعتماده على اللغة بوصفها مرآه للاوعي، مما أثر بدوره في الدراسات اللغوية والأدبية. (انظر جون ستروك: البنيوية وما بعدها – من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1996، ص 137 وما يليها).

10 انظر: باتريك شارودو– دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيرى وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس 2008، ص9، ص38، ص195.

11 انظر دومينيك مانغونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، 2008 م، ص38.

12 انظر نورمان فاركلوف: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2009، ص.ص 66–64.

4- Marianne Jorgensen and Louise Phillips: Discourse Analysis as Theory and Method, Sag, Publications, London, p.61.

14 انظر عمر بلخير: الخطاب وبعض مناهج تحليله، http://Omar Belkheir (بتصرف).

15 ربيعة العربي، الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات العدد 33، المغرب، 2010، ص38،39.

16 الزاوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000م، ص 364.

17 انظر: أمل محمد عادل، الأسس النظرية والمنهجية للتحليل النقدي للخطاب واستخداماته في بحوث علم الاجتماع،(ضمن كتاب: المدرسة النقدية في علم الاجتماع المصري – دراسات مهداة للدكتور سمير نعيم أحمد، تحرير فرغلي هارون، دار إنسانيات للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2012) ص117،118.

18 باتريك شارودو، معجم تحليل الخطاب ، ص 56.

19 الزواوي بغورة، بين اللغة والخطاب والمجتمع – مقاربة فلسفية اجتماعية، إنسانيات (المجلة الجزائرية فى الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، http://insaniyat.revues.org.

20 محمد على الكردي، نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ت، ص 61،62.

21 انظر:عبد الرازق الدواي، الجينالوجيا وكتابة تاريخ الأفكار(ضمن كتاب كتابة التواريخ، تنسيق محمد مفتاح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1، 1991) ص 68،69.

22 ميرى روبين، ما التاريخ االثقافى الآن (ضمن كتاب ما التاريخ الآن) ص 154.

23 جالك لوغوف وآخرون، التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصورى، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007، ص 62،63 .

24 ريجين روبان، مؤرخة وعالمة اجتماع، ولدت في باريس سنة 1939م، تخرجت في جامعة السوربون، وتناولت كتاباتها مفاهيم الثورة والإقطاع في المجتمع الفرنسي، والعلاقة بين التاريخ واللغة من خلال الخطاب.
https://en.wikipedia.org/wiki/Régine_Robin

25 العنوان الأصلي للكتاب الصادر عن دار نشر أوفرير بباريس هو:
Jacques Guilhaumou, Denise Maldidier, Antoine Prost: Langage et idéologies le discourscommeobje de l'histoire, présentation par Regine Robin, ÉditionsOuvrière, Paris, 1974.

26 باتريك شارودو – دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص 285.

1 Regine Robin: le discours comme objet de l'histoire, p36.
2 Ibid, P14.
3 Ibid, P.13

30 آن روبير جاك طورجو (1727 : 1781) اقتصادي ورجل دولة فرنسي(انظر ألبير سوبول: تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كوسي، دار منشورات عويدات، ط4، بيروت، 1989، ص79).

1 Regine Robin: 1974, P.81

32 واحدة من أكثر الصحف شهرة التي صدرت إبان الثورة الفرنسية(1790:1794) على يد جاك رينيه هربت الذى كان يظهر باسم مستعار هو "الأب دوشيسن" وقد أُعدم لمهاجمته روبيسبير أحد قادة الثوة الفرنسية. (انظر: منير البعلبكي: معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1992، ص 78.)

2 Regine Robin: le discours comme objet de l'histoire,P.82.

3 Ibid,P.117.

4 Ibid,P.117 .

36 انظر: بول ريكور، الزمان والسرد– الحبكة والسرد التاريخى، ج1، ترجمة سيد الغانمى وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، 2006، وكذلك الذاكرة– التاريخ– النسيان، ترجمة جورج زناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2000.

37 انظر: هايدن وايت، محتوى الشكل الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، ترجمة نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، ط1، المنامة، 2017.

38 باتريك شورودو، معجم تحليل الخطاب، ص 285،286. (بتصرف).

39 محمد علي الكردي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، ص57.

قائمة المراجع:

. كوثراني، وجيه: تاريخ التأريخ اتجاهات –مدارس– مناهج، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط2، بيروت، 2013.

. كانادين، ديفيد، وآخرون: ما التاريخ الآن، ترجمة قاسم عبده قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة، 2006م.

. عبدالله العروي: مفهوم التاريخ، ج1، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، 1992م.

. مكدونيل، ديان: مقدمة في نظريات الخطاب، ترجمة وتقديم: عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، ط1، القاهرة، 2001.

. عزام، محمد: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003.

. ستروك، جون: البنيوية وما بعدها – من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة محمد عصفور، عالم المعرفة، الكويت، 1996.

. شارودو، باتريك– منغنو، دومنيك: معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيرى وحمادي صمود، المركز الوطنى للترجمة، تونس 2008.

. مانغونو، دومينيك: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، الجزائر، 2008 .

. فاركولوف، نورمان: تحليل الخطاب التحليل النصي في البحث الاجتماعي، ترجمة طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2009.

. بلخير، عمر: الخطاب وبعض مناهج تحليله، http://Omar Belkheir .

. العربي، ربيعة: الحد بين النص والخطاب، مجلة علامات العدد 33، المغرب، 2010.

. بغورة، الزاوي: مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2000.

. المدرسة النقدية في علم الاجتماع المصري – دراسات مهداة للدكتور سمير نعيم أحمد، تحرير فرغلي هارون، دار إنسانيات للنشر والتوزيع، ط1، القاهرة، 2012.

. بغورة، الزواوي: بين اللغة والخطاب والمجتمع – مقاربة فلسفية اجتماعية، إنسانيات (المجلة الجزائرية فى الأنثروبولوجيا والعلوم الاجتماعية)، http://insaniyat.revues.org

. الكردي، محمد علي: نظرية المعرفة والسلطة عند ميشيل فوكو، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د ت.

. كتابة التواريخ: تنسيق محمد مفتاح، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة محمد الخامس، الرباط، ط1، 1991.

. لوغوف، جالك، وآخرون: التاريخ الجديد، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، 2007.

. سوبول، ألبير: تاريخ الثورة الفرنسية، ترجمة جورج كوسي، دار منشورات عويدات، ط4، بيروت، 1989.

. البعلبكي، منير: معجم أعلام المورد، دار العلم للملايين، ط1، بيروت، 1992.

. ريكور، بول: الزمان والسرد– الحبكة والسرد التاريخى، ج1، ترجمة سيد الغانمى وفلاح رحيم، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط1، بيروت، 2006.

. ريكور، بول: الذاكرة– التاريخ– النسيان، ترجمة جورج زناتي، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، بيروت، 2000.

. وايت، هايدن: محتوى الشكل الخطاب السردي والتمثيل التاريخي، ترجمة نايف الياسين، هيئة البحرين للثقافة والآثار، ط1، المنامة، 2017.

. Marvasti, Amir B.: Qualitative Research in Sociology, Sage Publications ltd, London.

. Jorgensen, Marianne and Phillips, Louise: Discourse Analysis as Theory and Method, Sag, Publications, London.

. Guilhaumou (Jacques), Maldidier (Denise), Prost (Antoine): Langage et idéologies le discourscommeobje de l'histoire, présentation par Regine Robin, - ÉditionsOuvrière, Paris, 1974.

. https://en.wikipedia.org/wiki/Régine_Robin

القسم الرابع

مقاربات حجاجية/جدلية في نقد لغة الخطاب

1. اللغة وسيميائية الخطاب: قراءة تحليلية نقدية في الجدل السوفسطائي

بن طرات جلول

2. الحجاج في رسالة عبد الحميد مهري إلى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

مقاربة تداولية نقدية

محمد فارح وعبد المطلب براهمي

اللغة وسيميائية الخطاب

قراءة تحليلية نقدية في الجدل السوفسطائي

بن طرات جلول *

الملخص:

تشكل لغة الجدل في الفلسفة السوفسطائية حجر الأساس لطبيعة التفكير الذي ينطلق من ممارسة فن الحوار والمناقشة التي تكتمل بإفحام الخصوم وإقناعهم عن طريق المغالطة والتلاعب اللفظي، والخداع بالأوهام التي تختزل غايتهم في إظهار براعتهم اللغوية في استعمال الحجاج بواسطة السفسطة الكلامية خارج دائرة الحقيقة، ومن ثم تقويض المعنى. لذلك، فهم يهتمون باللفظ الذي يتحرك في نطاق مقارعة الأنداد قصد التغلب عليهم في مجال السياسة لا غير. وبذلك فإن أزمة المعنى في خطابهم الحجاجي قد دفعت سقراط وأفلاطون بمواجهتهم والكشف عن عيوبهم وأساليبهم في الجدل الذي يؤدي إلى تشويه الحقيقة، وليس إلى الإقناع بالتفكير المنطقي والجدل المعقول الذي يتحرك في نطاق الحوار الفلسفي بين المتكلم والمتلقي. لهذا السبب، فقدت الخطابة والبلاغة خصوصياتهما اللغوية والفلسفية في مجال تفكيرهم الجدلي، حيث تظهر تجليات فن الجدل في فلسفتهم ملازمة لمبادئ خطابهم الذي ينفرد بتلك الممارسات اللغوية المؤسِّسة لجدلية التواصل بين اللفظ والمعنى. ومن ثمة، فإن العائق في فلسفتهم اللغوية يكمن في عدم قدرتهم على إقناع الخصوم، لاسيما تلك الأوهام التي صاحبت تجربتهم الفلسفية، ذلك ما يحدد خلفيات أزمة المعنى التي حملت تلك المقولات والمفاهيم الفاقدة لحضورها الفلسفي واللغوي داخل محاورات سقراط. ونعتبر هذه الدراسة قراءة تحليلية نقدية للجدل الفلسفي والمفاهيم السوفسطائية.

الكلمات المفتاحية: الجدل؛ الإقناع؛ الإفحام؛ الخطابة والبلاغة؛ السوفسطائية؛ المغالطة؛ المعنى.

Language and Semiotic of Discourse

Critical Analytical Reading in Sophist Dialect

Bentrat Djelloul

Abstract:

The language of controversy in the philosophy of the Sophists is the cornerstone of the nature of their thinking, which stems from the practice of the art of dialogue and discussion and is completed in the engagement of the opponents and convince them through the fallacy and verbal manipulation, and deception of those fantasies that reduce their aim to show their linguistic proficiency in the use of pilgrims by the sophistication to speak outside the circle of truth, And then undermine the meaning, so they are interested in the word only that moves in the scope of the fight against others to overcome them in the field of politics and nothing else, so the crisis of meaning in their speech pilgrims have prompted Socrates and Plato to confront them and reveal their flaws and methods in the debate, which leads to distortion To the truth, not persuasion by logical thinking and reasonable argument that moves in the scope of philosophical dialogue between the speaker and the recipient, for this purpose lost rhetoric and eloquence linguistic and philosophical peculiarities in the field of dialectical thinking, where the manifestations of the art of controversy in their philosophy inherent to the principles of their speech, which is unique to those linguistic practices that establish a dialectic Communication between the word and the meaning, and then the obstacle in their language philosophy lies in their inability to convince opponents, especially those illusions that accompanied their philosophical experience, which defines the backgrounds of the crisis of meaning that carried those statements and concepts that lost their philosophical presence and Linguistic dialogues within Socrates. And we consider this study a critical analytical reading of the philosophical dialectic and the concepts of sophistry

keywords: Controversy - Persuasion - Violations - Speech and rhetoric - Sufstai - Fallacy – Meaning.

مقدمة:

انصرفت الدراسات الفلسفية المعاصرة إلى البحث في قضايا اللغة ومفاهيمها واستعمالاتها التي تتحرك في حدود التخاطب والتواصل مع الآخر، لذلك حاولت مدارس الفكر اللساني الحديث أن تنفتح على الحقل الفلسفي لتلك القضايا التي تضمنت إشكاليات الدلالة والعلامة وحركة الخطاب والجدل، وثنائية اللفظ والمعنى، والتأويل. ومن ثم تعززت طبيعة اللغة عند الفلاسفة من خلال أدوات التفكير والتبليغ التي تعكس دور تلك الإشارات والحركات والرموز والأصوات والألفاظ في التعبير عن تصوراتنا الفكرية، وأغراضنا الاجتماعية. فكل ما ينطوي تحت هذا المعنى قد اختزل الصلة التاريخية بين اللغة ونشأة الفلسفة اليونانية، لاسيما ذلك النموذج اللغوي عند السوفسطائيين والرواقيين، وكل المدارس التي استوعبت ماهية اللغة واستخدامها في إطار عملية الكلام والخطاب بين المتكلم والمتلقي. لذلك، جاءت تجربة سقراط اللغوية في استعمال أسلوب المحاورة كأداة لمعرفة الحقيقة وتوليدها عن طريق السؤال الفلسفي، فالبحث في الوجود والمعرفة والقيَم يقتضي ممارسة لغة الحوار ومخاطبة الآخر، وهذا ما تنفرد به لغة القدامى التي جمعت بين الأسطورة والميتافزيقا، الشك والتساؤل، الفلسفة والعلم، الجدل والمنطق، الأخلاق والسياسة، الجمال والفن.

إن طبيعة هذه اللغة تحمل في منطلقاتها الفلسفية كل الجوانب الأنطولوجية والأكسيولوجية والإبستمولوجية المعرفية التي أسست لولادة تلك الفلسفات التي اهتمت بوضعية الخطاب، خاصة عند السوفسطائيين الذين انفردوا بلغة الجدل قصد إقحام خصومهم في مجال السياسة والأخلاق والدين؛ فالطابع الفلسفي الذي ميّز الخطاب السوفسطائي يتحرك في حدود تلك الألفاظ والمفاهيم التي ربطت مقولات الجدل الفلسفي بكل القضايا والمسائل الفلسفية التي استخدمها السوفسطائيون بوصفها مجالا للمحاورة مع خصومهم، حيث ظهرت العبارات اللغوية عندهم حاملة لبلاغة الخطاب وبراعتهم في فن الجدل خارج أساليب التفكير المنطقي والاستدلال العقلي في التمييز بين الخطإ والصواب، والحق والباطل.

إن تحقيق الإقناع من وراء الجدل السوفسطائي يتطلب تحليل المفاهيم التي تحمل أسرار اللغة والبلاغة عندهم، وبالتالي فإن المؤرخين لنشأة المدرسة السوفسطائية وتطورها يجمعون على حقيقة مفادها أن خطابهم الفلسفي ينطلق من مهاراتهم وبراعتهم في البلاغة والمغالطة والتلاعب اللفظي، ويكتمل في عملية الإقناع؛ وهذا ما يشكل الحلقة الأساسية من بنية خطابهم ولغتهم التي تعبر عن فن تفكيرهم

ووضعية التفلسف عندهم، خاصة في دحض كل القضايا التي ينطلقون منها للمحاورة مع الآخرين كأسلوب من أساليب الحجاج الفلسفي، وتقويضها.

من هذا المنطلق، جاء موضوع البحث في علاقة اللغة بسيميائية الخطاب السوفسطائي باعتباره نموذجا فلسفيا للتفكير اليوناني قصد تحليل مفاهيمهم الفلسفية، وطبيعة ألفاظهم اللغوية التي تعكس نزعتهم وطريقتهم في ممارسة السلطة عبر فن الجدل؛ فاللغة السوفسطائية تحمل في طبيعتها نموذجا فلسفيا يجمع بين حركة الجدل وسيميائية الخطاب، وخصوصياتها البلاغية كموضوع للغة الكلام. ومنه، فإن مقولات الفكر السوفسطائي لا تخرج عن نطاق فلسفتهم اللغوية التي تقوم على المحاورة وكل ما تحمله من دلالات في مجال الخطابة السوفسطائية التي تنطلق من فكرة أن الإنسان هو مقياس كل شيء.

لذلك، جاءت أساليب الحجاج في الخطاب السوفسطائي لتحدد مواطن التأثير والإقناع من خلال دلالات الحجج، وقوة العبارة، وأساليب المغالطة التي تشكل حجر الأساس في ممارسة لغة الجدل. لهذا الغرض حاولت من نقدّ إشكالية الموضوع أن أقف عند حدود فلسفة الخطاب السوفسطائي انطلاقا من خلال نقد لغتهم في الحوار والجدل، وأبعادها السيميائية في نطاق دلالات ألفاظهم، والجوانب البلاغية لمعاني أساليبهم اللغوية في مخاطبة المتلقي. فأين تكمن الطبيعة السيميائية للغة الجدل في الخطاب السوفسطائي؟ وكيف اختزل تفكيرهم الجدلي أساليب الممارسة الحجاجية السلطوية في فلسفتهم اللغوية؟

1. اللغة وأساليب الحجاج السوفسطائي:

إن الحديث عن اللغة السوفسطائية يندرج ضمن نطاق المقاربات الفلسفية التي استوعبت نشأة هذا الفكر، وكل التحولات المعرفية التي صاحبت التفكير اليوناني الذي انصرف إلى الاهتمام بقضايا فلسفة اللغة من خلال إستراتيجية النموذج النحوي والسيمنطيقي والبلاغي، والتي تحدد بنية وأساليب الجدل في التفكير السوفسطائي؛ فحركة الحجاج في الفلسفة اللغوية تنطوي على مفردات فن الحوار ضمن علاقة المتكلم بالسامع، لذلك فإن أساليب الممارسة لهذا الفن اللغوي هو ما دفع السوفسطائيين إلى اختزال معاني خطابهم الفلسفي في ممارسة السفسطة في الكلام كأسلوب لمغالطة الخصوم وإفحامهم في جميع المجالات، «..فقد ظهرت الحاجة إلى معلمين يلقنون في الخطابة واستمالة الجمهور، وتخصص معلمون بهذا الدور لقاء أجر، وبسبب هذا وبسبب تأييدهم لديمقراطية أثينا، ومجيء مخالفين لهم في الرأي مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو، وتحول اسم "سوفسطائي" من معنى "الحكيم" أو"الأستاذ" أو"المعلم" الذي لا

يحمل معنى التحقير إلى معنى مزوري الحقيقة والمتلاعبين بالألفاظ، أو الذين يقولون الشيء وضدهم، ولا تهمهم الحقيقة...»[1].

لقد كشفت هذه النظرة لحقيقة التفكير السوفسطائي عن ملامح لغتهم في ممارسة الحجاج اللغوي الذي يعتبر مفاهيم المعايير والقيم الأخلاقية خاضعةً **لسلطة الإنسان** وحده، لأنه مقياس هذه المعايير والقيَم؛ وهو الأمر ذاته الذي ذهب إليه "جورجياس" في عبارته «لا يوجد شيء، وإن وجد لا نعرفه، فإن عرفناه لا نستطيع نقله إلى الآخرين»[2]. وضمن هذا السياق، فإن تلك الممارسات اللغوية قد عبرت عن الحركة المضادة في استخدام لغة الحجاج عند سقراط أو ما عرف بمفهوم المحاورة الذي استهدف وضعية الخطاب وعلاقته بفلسفة المعنى. لذلك فإن طبيعة الجدل السوفسطائي تقوم على تلك الأغاليط اللغوية التي ترمي إلى تقويض المعنى وإشباع اللفظ، فاستعمالات اللغة عند السوفسطائيين ليست مجرد عبارات للتخاطب والتعبير الفلسفي عن تلك الموضوعات التي يضفي عليها الطابع الميتافزيقي لمعرفة الإنسان والعالم، وإنما هي نشاط فكري يربط المتكلم بالسامع ضمن حركة ألفاظ اللغة التي تعكس تلك الأنشطة المعرفية في اختزال أبعاد الفلسفة اللغوية عند السوفسطائيين.

لهذا الغرض، فإن كل التعبيرات اللغوية التي تستخدم ماهية الحجاج مقاربةً سيميائيةً تهدف إلى إيصال الصدق وتفادي الكذب. ومن هذا المنظور جاءت لغة الجدل السوفسطائي لتستخدم أدوات الخطابة والبلاغة نسقاً لتفكيرهم السياسي والأخلاقي والجمالي الذي حمل كل معاني الحجاج اللغوي، فكل الكلمات والعبارات التي تضمنت تلك المغالطات والأخطاء تكشف عن الممارسات الخطابية داخل اللغة السوفسطائية، وهذا ما عبر عنه "فتجشتين" في قوله: «لا تسأل عن المعنى بل اسأل عن الاستعمال»[3]؛ فحركة اللفظ في المنظومة التعبيرية السوفسطائية لا تخرج عن طبيعة نظريتهم في الجدل الذي ينطلق من إثارة تلك المشكلات الفلسفية، على نحو لغوي يستبعد الحقل الدلالي لمعاني الخطاب الذي يربط تلك الموضوعات بمحمولاتها؛ فالخطاب السوفسطائي ينفرد بتلك التعابير اللغوية التي تمكن المتلقي من التواصل مع اللفظ أكثر من المعنى، وهذا ما جعل الغاية من المغالطة في الخطاب السوفسطائي تختزل أدوات إفحام الخصوم بطريقة حجاجية تقوم على إظهار البلاغة على نحو السفسطة والجدل بشكل عقيم وليس خصبا.

تنطلق التجربة الفلسفية اللغوية عند سقراط من مواجهة خصومه، وفي مقدمتهم السوفسطائيون الذين انصرفوا إلى استعمال الجدل والخطابة والبلاغة في نطاق فلسفي يتعارض مع الفلسفة واللغة والمنطق؛ فالمالك للمعنى عندهم هو صاحب العبارة اللغوية ومقياس كل شيء. لهذا الغرض جاءت الفلسفة السوفسطائية لتعزز هذا المبدأ وتعيد النظر في تلك المفاهيم والأفكار السابقة، لاسيما ما ارتبط بحركة الحجاج الفلسفي والحوار اللغوي بين المتكلم (المخاطب) والمتلقي (السامع)، فطبيعة هذه العلاقة عند السوفسطائيين تتميز بخصوصيات لغوية تشترك في «..توجيه النظر إلى الإنسان وإلى معرفته، بعد أن كان نظر الفلاسفة موجها إلى الموضوع الخارجي، فاتصفوا بالجدل والمناقشة، ومنازلة الخصوم والدفاع عن الآراء صحيحها وكاذبها، وقد أحس السوفسطائيون أنهم أجدر الناس بتعليم هذه الصناعة، فتولوا مهمة تدريب الشباب على الجدل لإعدادهم للعمل السياسي، وذلك نظير أجور تختلف بحسب أصل المتعلم وثرائه..»[4]. إن طبيعة رسالتهم داخل المجتمع اليوناني تتحرك في سياق أيديولوجيةِ تفكيرِهم وبنية خطابهم الحجاجي الذي تحول إلى فن الجدل المدافع عن النسبية الهيراقليطية، والقائمة على فكرة التغير والصيرورة. ومن ثم تصبح المعرفة نسبية وليست مطلقة، فالتفكير السوفسطائي انفرد برؤية "بروتاجوراس" التي تذهب إلى أن الإنسان يحكم على إحساساته وعقائده طبقا لإحساساته وعقله وليس ما يراه غيره، وهذا ما أشار إليه "محمد علي أبوريان" في قوله: «..إن بروتاجوراس أقوى شخصية أثرت في المجتمع اليوناني، وأوحت بكثير من الآراء إلى طائفة من الشعراء ورجال الدولة على عهده .. وتجلى تأثيره على رجال الحكم والدهاء أكثر منه على المثقفين..»[5].

تحمل اللغة السوفسطائية بعدا أخلاقيا وسياسيا ومعرفيا يجمع بين الجدل والحقيقة، لذلك حاولت كل الدراسات اللغوية والفلسفية الحديثة أن تدرس طبيعة الجدل السوفسطائي كأداة لغوية تهتم بالشكل. ولعل هذا ما اصطنعه "جورجياس" من خلال استعمال الجدل للبرهنة على القضية ونقيضها. لذلك فأساليب الحجاج عندهم مرتبطة بفن **التلاعب** بالألفاظ التي فككت بنية الحوار القائمة على علاقة المقدمات بالنتائج، كنظرية في الاستدلال والبرهنة والمعرفة في تحصيل الحقائق وإقناع السامع بلغة الصدق والصواب، وليس الكذب والخطأ: «...فقد ناقش السوفسطائيون لأول مرة في تاريخ الفكر مسائل سياسية من الدرجة الأولى مثل: الجدل السياسي، العدالة والتقوى، السلطة الدينية والدنيوية.. ولكنهم ناقشوا مثل هذه المسائل من زاوية لا أخلاقية تخدم منفعتهم الشخصية بغض النظر عن الحقيقة، لذلك لم يحددوا

المصطلحات، بل أعطوا المصطلح الواحد أكثر من معنى طبقا للظروف والوقت وتحقيقا لمصلحتهم ومنفعتهم، فبلبلوا الفكر وألبسوه ثوب **الغموض والاضطراب**..»[6].

نجد أن ما انصرف إليه كل من بروتاجوراس وجورجياس وهبيباس وكيكليس هو جوهر لغتهم التي أدت إلى تقويض القيم الأخلاقية والسياسة، خدمةً لمشروعهم القائم على نظرية الحق للأقوى كما في اعتقادهم: «..أن الإنسان الذي يتمتع بقوة طبيعية وذكاء خارق لابد أن يزدري عدالة البشر التي تواضع عليها الناس، وأن يعيش كما يحب ويهوى مرتكزا على قوته وجبروته...فالأخلاق والقوانين من صنع الضعفاء من الناس وهم أغلبية المجتمع، وأن هؤلاء قد صنعوا القوانين ووضعوا قواعد الأخلاق لكي يكبحوا جماح الأقوياء، ولكن مجريات الطبيعة تجعل الأقوياء يكتشفون خداع الضعفاء، فيحطمون القيود، ويجعلون من أنفسهم سادة على المجتمع، وهنا يسود القانون الطبيعي بين البشر..»[7].

إن الحديث عن فلسفة السوفسطائيين اللغوية يحملنا على الوقوف عند حدود استعمال فن الجدل الذي يظهر عند الممارسة **كأيديولوجية فاسدة** تتلاعب بعقول الشباب، وتصطنع لغة تقوم على المغالطة والحجاج العقيم الذي لا يرتقي إلى مستوى فن المحاورة والجدل الذي استعمله سقراط لأجل تعليم الناس حقيقة التفلسف، والتأمل في ماهية الموجودات، وكل ما هو مرتبط بالوجود والمعرفة والقيَم (الحق، الخير، الجمال). لذلك تطور الفكر الديالكتيكي الحواري في لغة سقراط لمواجهة خطر الجدل السوفسطائي، حيث انفرد "أفلاطون" برؤيته في مؤلفه "الجمهورية" للدفاع عن طبيعة هذا الفكر في قوله مثلا: «..من المستحيل أن تغرس الحقيقة في نفس الإنسان مثلما أنه من المستحيل أن تمنح الأكمه قدرة الإبصار، فالحقيقة بطبيعتها وليدة التفكير الديالكتيكي. ولذلك لا نستطيع الحصول عليها إلا من خلال التعاون المستمر بين الأفراد، وذلك بتبادل السؤال والجواب، فهي ليست كالشيء التجريبي وإنما هي نتاج عمل اجتماعي، وهنا نجد الجواب الجديد غير المباشر لهذا السؤال: "ما الإنسان؟" فالإنسان هو المخلوق الدائم البحث عن نفسه، مخلوق عليه أن يتفحص ويتأمل أحوال وجوده في كل لحظة من لحظات الوجود، وفي هذا التأمل، توجد القيمة الحقة للحياة الإنسانية..»[8].

من خلال هذا الطرح تنتمي لغة الحجاج السوفسطائي إلى مجال الدلالة والمعنى الذي تم تغييبه أثناء استعمال فن الجدل والحوار. لذلك تبقى حركة المتكلم ومدلولات كلامه جزءا لا يتجزأ من عناصر الخطاب الذي يستعمله السوفسطائي قصد الإظهار وليس الإقناع والتواصل. وبالتالي يخرج عن ماهية

اللغة كما يحددها الفكر اللساني الحديث؛ «..إذ تحتل القدرة على الكلام مركزا متوسطا في العالم الإنساني، ولذلك فعلينا أن نفهم معنى الكلام لكي نفهم معنى العالم، وإذا أخفقنا في سلوك هذا السبيل – أي الاستعانة باللغة لا بالظواهر الطبيعية– فإننا نخطئ الباب المؤدي إلى الفلسفة، حتى في فكر هيراقليطس نفسه لا تمثل كلمة "اللوجوس" ظاهرة أنثروبولوجية وهي ليست محصورة داخل الحدود الضيقة لعالمنا الإنساني، لأن فيها حقيقة كونية عامة، ولكنها يجب أن تفهم في وظيفتها السيمانتية والرمزية بدلا من أن تفهم في كونها قوة سحرية، إذ يقول هيراقليطس: "لا تصغي إلي بل أَصْغِ «للكلمة» واعترف بأن الأشياء كلها شيء واحد»[9]. وضمن أبعاد الوظيفة الرمزية والسيميائية يشكل منطوق خطاب الجدل في لغة الفكر السوفسطائي مرجعا لتلك المقولات الفلسفية التي انفرد بها هذا الخطاب، لاسيما دلالات السفسطة، أو ما عرف بالحكمة المموهة التي تتحرك في حدود التضليل والتبكيت، «..فالتبكيت السوفسطائي هو القياس الذي يوهم أنه بهذه الصفة من غير أن يكون كذلك وقد يقع مثل هذا القياس يعرض فيه للمعاني من قبل الألفاظ، وذلك أنه لما لم تكن مخاطبة إلا بالألفاظ، أقيمت الألفاظ مقام المعاني، فأوهم ما يعرض في الألفاظ أنه يعرض في المعاني، مثل ما يعرض للحساب من الغلط في العدد..»[10].

في هذا السياق، إن مظاهر المغالطة وادعاءَهم الحكمةَ يُعد وهما وليس حقيقة، فأساليب حجاجهم وجدلهم هو مجرد **صناعة لغوية للكذب** تنطوي تحتها تلك الألفاظ والعبارات التي تعزز هواهم وطريقتهم في التبكيت والسفسطة، واستعمال الجدل من أجل تغليط الناس. فاستعمال اللفظ خارج المعنى قد يفقد اللغة مقاصدها وأهدافها. لذلك فالجدل السوفسطائي يشكل جنس تلك المخاطبات التي انفردت بها فلسفة اللغة: «..فهناك المخاطبة البرهانية، والمخاطبة الجدلية والمخاطبة الخطبية، والمخاطبة السوفسطائية.. هي التي تتكون من المبادئ الأُوَل الخاصة بكل تعليم، وهي التي تكون بين عالم ومتعلم بشأن أن يقبل ما يلقي إليه المعلم، لا أن يفكر فيما يبطل به قول المعلم مثل ما يفعله السوفسطائيون، والمخاطبة الجدلية هي التي تتألف من المقدمات المشهورة، والمخاطبة الخطبية هي التي تكون من المقدمات المنظومة التي في بادئ الرأي، والمخاطبة المشاغبية هي المخاطبة التي توهم أنها مخاطبة جدلية من مقدمات محمودة، من غير أن تكون كذلك في الحقيقة..»[11].

إن النموذج اللغوي تنطوي تحته المخاطبة السوفسطائية، ويجمع بين مفهوم الجدل ووظيفته في **تقويض الحقيقة** ضمن جملة من الأساليب التي تضمنت تلك المفاهيم والمقولات التي لا يطابق في

مجالها اللفظ مع المعنى، فـ«السوفسطائي قد انتهى إلى القول بنسبية المعرفة والشك فيها من خلال تلاعبهم بالألفاظ وتشويههم للحقائق الفلسفية، وهو ما جعل نقطة البداية عند سقراط هي التعريف وتحديد الألفاظ المتداولة والتصدي للجدل السوفسطائي..»[12]، فدعوة سقراط هذه تمثل ثورة حقيقية على الجدل السوفسطائي وأساليبهم الوهمية في ممارسة فن الحوار وتعليم الشباب داخل المجتمع الأثيني.

لذلك، تبقى طبيعة الحجاج السوفسطائي، الطابع المميز للتفكير اليوناني لاسيما مع نشأة تلك المدارس التي بحثت في الجانب الميتافزيقي لجميع الموجودات والقضايا التي ارتبطت بسلوك الإنسان وتفكيره وقيَمه وعقائده التي انفرد بها عالم المحسوسات والمعقولات. ومن ثمة، فإن شهادة المؤرخين على حركة الجدل السوفسطائي تعكس تأثر المجتمع اليوناني بأفكار هذه المدرسة التي تميّزت بلغة الديالكتيك والتبكيت: «.. فقد ازدادت على يد السوفسطائيين أسباب النزاع وكثرة التطاحن أمام المحاكم، واختلاف الرأي السياسي، مما دعوا إلى إنشاء الجدل والحاجة إلى استخدام أساليبه وإتقان الخطابة وفنون الحوار، بحيث تستهدف كل هذا التزود بكل مؤهلات التغلب على الخصم في أي نقاش يدور أو محاورة تجري دون ما نظر إلى تحري الحق في ذاته أو الصواب من أجل تقريره كمبدأ»[13].

وضمن مراحل تطور التفكير الجدلي عند السوفسطائيين، تحددت معالم فلسفتهم اللغوية في التعليم والجدل والخطابة والبلاغة، «فمثلا نرى أن بروتاجوراس خصص نفسه لتعلم قواعد النجاح في الأمور السياسية والوصول عن طريقها إلى أرقى المناصب، وجورجياس كان يعلم البلاغة وعلم السياسة ذاته، وبروديكوروس كان يعلم قواعد النحو والصرف، وهبيباس كان يعلم التاريخ والرياضة والطبيعة»[14]. فالتجربة الفلسفية السوفسطائية قد حملت دلالات لغوية انطوت تحت مفردات الحوار والحجاج التي اعتبرتها المذاهب الفلسفية الكبرى مرجعا لتطور الخطاب الفلسفي، وكل العلامات التي تتحرك في نطاق تجانس تلك الأفكار المحدِّدة لأساليب الحجاج اللغوي في مجال السياسة والأخلاق والمنطق. وضمن هذا النطاق، تجلت رمزية كل ما هو خطابي وبلاغي أثناء ممارسة الجدل، وأصبح الحجاج السوفسطائي سجينَ السفسطة والتلاعب بالألفاظ، وكل ما يؤدي إلى **الوهم والخداع الذي يتجاوز الحقيقة**.

2. الخطاب السوفسطائي وأزمة المعنى:

تشكل لغة الجدل في التفكير الفلسفي اليوناني نموذجا لجميع مستويات الخطاب التي تنفرد بطبيعة الحوار الحقيقي، والذي أسس لولادة الممارسة اللغوية والفلسفية لفن الديالكتيك في محاورات سقراط مع

السوفسطائيين، فـ«..سيرورة الارتقاء إلى فكرة الجدلية هي "الديالكتيك" التي هي بحسب تعريف أفلاطون فن "الحوار والتعليل"، فبدلا من الاكتفاء بوضع علاقات صرفة، كما يفعل علم الرياضيات، تتيح لنا الجدلية اكتشاف قياس لكل قياس، والمبدأ اللافرضي لكل فرضية، فالعقل ببلوغه ذروة الجدلية ينتقل من فكرة إلى أخرى، أي يطور عقلانيا علاقات ضرورية ويستخلص بدقة النتائج..»[15]؛ فرؤية أفلاطون تجمع بين الجدل والمعنى الذي يصاحب أساليب القياس، ويلازم العلاقة بين الأفكار التي تربط الخطأ بالصواب، والصدق بالكذب.

لذلك، يظهر الجدل في اللغة السوفسطائية **كلعبة للمغالطة** التي فصلت اللفظ عن المعنى، ومن ثم فقد الحوار والجدل ماهيته ووظيفته في تحقيق عملية التواصل، فـ«..اللغة في علاقتها بالإنسان، الخاصية الأساسية المقومة له والبينة الكبرى على وضعه كإنسان، فهي تشكل التجربة المستمرة التي يواجه من خلالها ذاته والآخر والعالم الخارجي، وهي الأساس الذي يعتمده في بحثه المستمر عن المعنى من خلال دلالات تتضمن هذا المعنى بدون أن تستوفيه، على نحو يجعل من تاريخ اللغة ومن تاريخ الدلالات تاريخ الإنسان ذاته..»[16]؛ فكل ما تحمله ماهية اللغة هو حجر الأساس لممارسة وظيفة التواصل مع المعنى المنطوي على مفردات الفلسفة السوفسطائية التي جعلت **وظيفة التلاعب بالألفاظ جوهر مخاطبتهم ومحاوراتهم التي لا تراعي المعنى**.

لذا، جاء فن صناعة الحجاج في فلسفة سقراط لتوجيه كل العبارات والدلالات اللغوية تجنبا لاختلال المعنى وأزمته من حيث عملية الفهم والتواصل مع الآخر. فإذا كان غرض المتكلم هو استعمال اللفظ للمغالطة والخداع فقد يتعذر تحقيق تلك الصناعة اللغوية، فأزمة المعنى في ممارسة الجدل السوفسطائي تكمن في صعوبة التواصل عند السامع أو المتلقي، إن «..الجواب في صناعة الجدل أعسر من السؤال، ولذلك كان سقراط يعترف بأنه يحسن أن يسأل، ولا يحسن أن يجيب.. فلا نكتفي من معرفة هذه الصناعة بأن نتعلم الأشياء المغلطة، وكيف نسأل عنها فقط بل وكيف نجيب عنها وننقضها..»[17]؛ فعلاقة السؤال بالجواب تمثل مرجعا للجدلي الذي يحسن استعمال اللفظ والمعنى معا. ومن ثم فإن عقم الخطاب الجدلي عند السوفسطائيين الذين لم يلتزموا بأساليب الحجاج والجدل في بناء المعنى وتداول المفاهيم لاسيما في طرح القضايا والدفاع عن المواقف، وتحقيق الإقناع، فـ«..التفلسف في الواقع هو الحجاج، أي حجاج يكون منخرطا داخل عمل بلاغي بشكل دائم، كما أن التعبير الجيد يكون في مركز

العمل الحجاجي الذي يتطرق إلى استراتيجيات الإقناع بواسطة الأوجه البلاغية، والمجازات والاستعارات المتنوعة الأكثر غنى وخصوبة، والتي لها انتشار واسع في الحقل الفلسفي...»[18].

إن الطابع الجدلي للحجاج السوفسطائي قد تجاوز اللغة المنطقية التي تهتم بمبنى المعاني التي تصاحب حركة الخطاب أو الكلام، وتلتزم بخصوصيات إنتاج المعقولية، والممارسة الحجاجية لفن الإقناع والتواصل؛ فـ«نصوص السوفسطائيين تعطي الانطباع أنهم كانوا أعداء للعقل والحقيقة لأنهم جعلوا الإنسان مقياسا لكل شيء كما كان يعلن كبيرهم بروتاجوراس، وهذه نتيجة طبيعية لمذهبهم الذي لم يكن يهتم بالبحث عن الحقيقة والكشف عن أسرار الظواهر، بل المهم عندهم كما تقدم هو إقناع الخصم بما يعتقده المتكلم، بغض النظر عن صحة هذا الاعتقاد. فما دامت الغاية هي بالأساس من طبيعة عملية ترتبط بالنجاح في الحياة اليومية، فلا بأس في تطويع الحقيقة وفق ما تفرضه المصلحة ويمليه الواقع المتقلب، بل إن الأمر سيصل بجورجياس إلى صياغة هذه الفكرة صياغة فلسفية في شذرة مشهورة يقول فيها: أولا: لا شيء بموجود، ثانيا: لو وجد شيء فالإنسان عاجز عن إدراكه، فهو لا يستطيع أن يصوغه، ولا أن يبلغه للآخرين»[19].

جعلت طبيعة هذا النموذج اللغوي من السفسطة في تاريخ نشأة هذه المدرسة أصل البلاغة والخطابة والحكمة التي انفردت بها طريقتهم في المحاورة والجدل، **لتتحول الحقيقة إلى وهم، والمعنى إلى مغالطة وترويج لآرائهم وأفكارهم**، وإفحام لخصومهم الذين انتهوا بموت سقراط الذي يعتبر خصما لهم، ورافضا لخطابهم الجدلي. لذلك منحوا للفظ "**سلطة**" على حساب المعنى، وسلكوا مسلك الحرب الكلامية، والبلاغة والخطابة التي لا تحكمها ضوابط لغوية وإنما الحوار الجدلي القائم على المقارعة والغلبة وإظهار مواطن القوة. هذه السمات التي حملت تلك الأوهام والأغاليط في مخاطبة الناس، قد تنكرت للحقيقة والمعنى الذي بمقتضاه يمكن إقناع السامع والتواصل معه ضمن التقابل بين السؤال والجواب كطريقة صحيحة في ممارسة فن الخطابة والجدل؛ فأساليب الخداع السوفسطائي عند سقراط وأفلاطون وأرسطو قد تحمل أثرا سلبيا يؤدي إلى تقويض وإجهاض فلسفة الجدل والحوار المنطقي المقنع، وهو ما أشار إليه "أفلاطون" من خلال نقده للخطابة في قوله: «هناك نوعان أساسيان من الخطابة: الخطابة المعلولة Logography، والخطابة المعقولة Psychagogy، فالأول هو خطابة السوفسطائيين القائمة على التنكر للعقل وللفكر المنضبط، واعتماد الحيل والأساليب الديماغوجية في سبيل إقناع أي كان بأي قضية كانت. أما الثاني فهو خطابة رسالتها بناءُ العقول وتهذيب النفوس، وهي خطابة فلسفية منهجها الجدل

وغايتها البحث عن الحقيقة، والجدل بحسب أفلاطون هو إجراء يمكن من التفكير الجمعي للمتحاورين الجادين الملتزمين بتلمس سبيل الحقيقة، والذين يخاطبون القوة العاقلة وليس الشهوانية في الإنسان، مما سيجعل الخطابة من هذا المنظور تابعة للفلسفة وخادمة لها، وهو خلاف ما كان يتطلع إليه السوفسطائيون حين حاولوا ربط الخطابة (السفسطة) باللغة وتقنياتها البيانية والتعبيرية ليتحللوا من كل مسؤولية عقلانية..»[20].

تتناول هذه النظرة الأفلاطونية الجدلَ السوفسطائي كعائق لغوي أمام معقولية الخطابة والمعنى، لذلك تجلت أزمة التواصل بين المتكلم والمتلقي، حيث حاول سقراط أن يظهر عيوب هذا التفكير، لاسيما من حيث البنية المنطقية للخطاب الفلسفي ولغة الجدل، «فما امتازت به السفسطائية هو تلك الثورة التي أحدثتها على مستوى بنية الخطاب والحوار والقول، وبنية العقل أو "اللوغوس". فلقد كان القول عند من سبقهم من الفلسفات مرتبطا بالأسطورة، ولكن السفسطة أعطت "اللوغوس" مفهوما آخر، فقد أصبح الكلام متموجا ومتذبذبا ومختلفا، بعدما كان موحدا للحقيقة ومقدّسا للمعرفة، بل أصبح السوفسطائي فنانا ومضللا ومخادعا، فهو يغري الشباب ويضللهم، ولم يعد ينطوي الكلام على الحقيقة فقط، بل أصبح أيضا أداة لإقناع واقتناع تحملك على الاعتقاد والظن بشتى الوسائل دون أن تعير اهتماما للحق والباطل. لهذا لم يعد المرء يقتصر على الاستماع ليتعلم ويتصل بالحقيقة، بل أصبح يفسر الكلام ويؤوله وينسقه ويميّز فيه الحقيقة عن الباطل، هكذا تتجلى لنا مكانة اللغة والبلاغة (الخطابة) في الفكر السوفسطائي، إذ أوضح الدارسون لهذه الحركة الفكرية والسياسية أنها حولت موضوع الفكر اليوناني إلى موضوع للكلام، حيث لا يوجد مكان لتمييز الدال عن المدلول بل تضمحل كل دلالة عن اللغة، بما أن المحسوسات لا تنقل من شخص لآخر»[21].

حولت طبيعة هذا الفكر فنَ الجدل إلى صناعة لغوية للوهم تجمع بين القدرة على البيان والخطابة ضمن التلاعب اللفظي، وتمويه الحقيقة، والخداع المنطقي الذي يختزل صور الكذب التي تؤدي إلى استمالة السماع لهم وتصديقهم. فحركة الجدل في فلسفتهم اللغوية تحولت إلى فن الاقتناع وأسلوب صحيح من أساليب التفكير الفلسفي التي تدحض كل حقيقة أو أحكام مغلوطة تتعارض مع تلك الأفكار والحقائق التي يؤمنون بها ويدافعون عنها؛ لاسيما علاقة المغالطة بحقيقة المعنى التي تتحرك في حدود الخطابة والبلاغة في مجال السياسة. ومن ثمة فإن دلالات التداول والتواصل في مجال الممارسة اللغوية لفن الجدل تقتضي تحقيق الدلالة القصدية للمعنى، وفي هذا السياق يقول سورل: "إن للاتصال بين الناس

خصائص عجيبة ينفرد بها عن سائر أنماط السلوك الإنساني، ومن عجيب تلك الخصائص أنه إذا حاولتُ أن أقول شيئا لشخص ما، فحالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا، ويدري ما أحاول أنه أقول له بالضبط، أكون عند توفر بعض الشروط قد نجحت في إبلاغه ذلك، بل إنه طالما يدري أني أحاول أن أقول له شيئا ولم يدر ما أحاول أن أقول له، فإني أكون لم أنجح كليا بإبلاغه ذلك»[22].

وفي إطار هذه الرؤية دائما، ينصرف "غرايس" بتعبيره عن القصدية قائلا: «أن تدل عن شيء ما دلالة غير طبيعية هو أن تدل عليه بواسطة دراية المتلقي لقصد الدلالة عليه، فقصد الدلالة عليه إنما هو قصد الدلالة عليه بواسطة دراية القصد»[23]. ومن هذا المنظور فإن تغييب المعنى في اللغة السوفسطائية قد صرف البلاغة عن نهجها على المستوى التداولي والتواصلي، فحركة الخطاب داخل فضاء الجدل والحوار قد جعلت علاقة الدال بالمدلول تستوعب وضعية العلامة ضمن النسق اللغوي الذي ينفرد به الديالكتيك السوفسطائي وفق مقصدية محاوراتهم التي انفتحت على الكذب أكثر من الصدق؛ فمظاهر الجدل السياسي عندهم شملت قضايا الحق والعدالة والقانون والفضيلة، ولم تلتزم بأصول الفكر الفلسفي كما يعتقد سقراط وأفلاطون. وبذلك أصبحت الثقافة الحجاجية والجدلية في الفلسفة اليونانية تعبر عن ذلك النموذج اللغوي الذي يدافع عن الحقيقة بأسلوب جدلي يحقق الإقناع ويؤسس لقيم المنطق واللوغوس، «لذلك أصبح النقاش والتعليل والجدل قواعد اللعبة الفكرية وكذلك قواعد اللعبة السياسية. كما أن الرقابة الدائمة للجماعة تمارس على الإنتاج الفكري وكذلك على حكام الدولة، وقانون المدينة يتطلب على عكس السلطة المطلقة للملك، وأن يخضع الجميع لتأدية الحساب. فلم يعد أحد يفرض نفسه بقوة المكانة الشخصية أو الدينية، بل عليه أن يبرهن على سداد حكمه بطرائق ذات صفة جدلية»[24].

إن علاقة الجدل بالممارسات السياسية قد دفعت السوفسطائيين إلى استخدام براعتهم اللغوية في الخداع والتلاعب بالعبارات التي تحقق مراوغة الخصوم، وإفحامهم على تصديق خطابهم السياسي. ومن ثم جاءت لغة الخطاب عندهم مخالفة لقواعد الجدل والمحاورة التي تنطلق أساسا من المعنى المشكل لروح الحقيقة التي تَمثَّلها سقراط عندما كان يمارس عملية التوليد الفلسفي عن طريق السؤال بوصفه أداة للتماهي مع الحقيقة خارج دائرة السفسطة وقيودها اللغوية وآثارها السلبية. فالتفكير الجدلي يقتضي اللغة التخاطبية والتواصلية، لذا فإن مشكلات المعنى تنتهي عند مقولات التفكير السفسطائي التي حولت الحوار إلى أداة للتأثير بالألفاظ والعبارات فقط، دون الالتزام بالطابع النسقي لمقولات الخطابة والبلاغة، وكل المفاهيم المستوحاة من الأفكار والقيم الفلسفية للمجتمع اليوناني، وهذا ما أشار إليه "راينهولد" في مقال له

عام 1791 عن تاريخ الفلسفة حينما قال: «إن السبب الذي يجعل تاريخ الفلسفة يتبدى في موجزاتنا المدرسية وكأنه تاريخ لجنون البشر بدلا من أن يكون تاريخ حكمتهم، والذي بفعله تساء إلى حد مشين معاملة أشهر فلاسفة العصر القديم وربما أيضا أعظمهم فضلا، كما يساء تأويل محراب الحقيق فتنزل منزلة أشد الأخطاء غباء وبلاهة– هو أن أفكارهم ما كانت تحظى بمن يفهمها فهما صحيحا، وقد كان من المحتم أن لا تفهم فهما صحيحا ما دام المتنطع لفهمها يتشبث بالمبادئ اللاحقة لإحدى النحل الميتافيزيقية الرئيسية الأربع، أو مادام معتادا تحت تأثير الطرائق الفلسفية الشعبية على استباق أعمق الأبحاث بنبوءات الحكمة العامية[25].

إن هذه النظرة التاريخية لطبيعة فكر القدامى لا تخرج عن نطاق الفكر الفلسفي السوفسطائي الذي حمل في لغته الجدلية دلالات الإشباع لنزعتهم الفردية المتجاوزة للواقعية ضمن فكرة أن الإنسان هو مقياس كل شيء. لهذا الغرض، تظهر لغة التأثير الخطابي عندهم كشكل من أشكال تداخل الحقائق والصراع بين اللفظ والمعنى، النسبي والمطلق، الوجود واللاوجود، الخير والشر. ومن ثم ينحصر فن الجدل في دائرة تلك الحجج التي يستعملها السوفسطائي في خطابه مع الخصم الذي يستند إلى خاصية التلاعب على حساب التفكير المنطقي الموجه بخاصية الإقناع المنطلق من قياس الاستدلال العقلي، لا على أساس قياس الإحراج الذي يستعمله بروتاجوراس ضد أحد تلامذته. فوجوه القياس عند أرسطو تقوم على الاستنباط من خلال علاقة المقدمات بالنتائج من حيث قيمة الصدق والكذب، وليس وفق أساليب المغالطة في مجال الخطابة السوفسطائية.

لذلك فالقول الخطابي في محاورات سقراط، أو منطق أرسطو ضمن مؤلفه "الطوبيقا" يشكل نموذجا للمعنى الذي تصاحبه دلالات الإقناع المنطقي التي تحملها مفردات الجدل والحوار بين شخصين، فأنظمة التواصل اللغوي مع المعنى قد تحدثتْ عنه كل مدارس الفكر اللساني الحديث على غرار الاتجاه اللساني البنيوي، والخطابي، والتداولي؛ إذ حاول كل من دي سوسير، وفوكو وهابرماس إلى ربط الحقل اللغوي لسيميائية الخطاب بفلسفة المعنى، بخلاف لغة الفلاسفة القدامى. وإن «أفضل المبادئ التي توضح جدول المفاهيم الأساسية توفرها لنا اللغة أو بالأحرى الألسنة. وبهذا المعنى فإن اللسانيات فرصة للنجاح حيث فشلت التأملات الفلسفية، فمختلف ألسنة العالم أكثر من التأمل الفلسفي، هي الكفيلة بإعطاء فكرة عن المفاهيم الأساسية التي يجب أن تكون مندرجة في القائمة»[26].

لا تلتقي خصوصيات اللغة كما نظر إليها المحدثون مع سمات الفكر الجدلي السوفسطائي بحكم تشويههم للحقيقة، وإجهاضهم للمعنى الذي يعتبر حلقة أساسية من حلقات التواصل وفهم الخطاب وتأويله، وبذلك فإن نمط الحجاج السوفسطائي لا يراعي إلا الغلبة كغاية قصوى تظهر قوة الحجة عند استعمالهم اللغوي للجدل والخطابة، إذ إن «هذا الوضع الذي آلت إليه اللغة جعل من الإشكال الفلسفي الأول الذي طرح نفسه على الفلسفة قبل إشكال الوجود، والذي كان السوفسطائيون السبب المباشر فيه، حينما جعلوا من اللغة الأداة الأولى للتمويه والتغليط، واستغلال الاشتراك الذي يكتنف ألفاظها ويشوب معانيها بغية تضليل المخاطب.. إن تصورهم الفاصل للغة عن الوجود كما يعرضه جورجياس جعلهم لا يهتمون بالأسس التي ينبغي أن تعتمد كي يقول الإنسان الحقيقة، أو يوفر أكثر الضمانات للاقتراب منها، لأنهم لا يعتبرون أن قول الحقيقة ممكن، لذلك اهتموا في المقابل بجانب آخر من الاستعمال اللغوي الحجاجي ألا وهو الاهتمام بمظاهر اللغة، أي بما يجعلها لغة جميلة تقرع الأسماع، وتثير عواطف المقول له دون الاهتمام بكيفية بناء الحجة. ولذلك نجد أفلاطون يتساءل مستغربا عن الحجة السوفسطائية قائلا: "هل سمعتم قط بأية حجة تقدم لإثبات أن ما يعجب به ذلك الجمهور جميل حقا، أو أن ما يستحسنه خير حقا، دون أن تكون هذه الحجة مدعاة للسخرية»[27].

وضمن هذه الحقيقة، يبقى مجال لغة الجدل من حيث ممارستها فلسفيا فكرا ومنهجا قائما في مخاطبة الآخر والتواصل معه، بخلاف أزمة المعنى التي لازمت أساليب الحوار والمناقشة عند السوفسطائيين ضمن تلك الظروف السياسية للمجتمع الأثيني. فنظرية المعنى في حقل فلسفة اللغة لا تتحرك إلا في نطاق الاستعمال اللغوي الصحيح للخطابة والجدل، وهذا ما أشار إليه "الجرجاني" في دلائله: « فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون أولا في النطق، فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون مقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ.. فباطل من الظن، ووهم يتخيل»[28].

ومن هذا المنظور، حاولت كل الدراسات الفلسفية واللغوية المعاصرة أن تنظر إلى اللغة من زاوية تاريخ الفلسفة انطلاقا من مدارس التفكير اليوناني التي اهتمت بحقل الجدل والخطابة والبلاغة والمنطق، وعززت أفكارها وتعاليمها الفلسفية في مجال الأخلاق والفن والسياسة. لذلك تجلت مظاهر التباين والاختلاف بين المدرسة السوفسطائية والرواقية، وفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو، وكل من عاصروا هذه الفلسفات التي انفتحت على الأسطورة والميتافزيقا واللوغوس والميثوس، وخاصة لغة الجدل والمحاورة؛ إذ

«تميزت المدارس الفلسفية بمنهج خاص يختلف عن الفلسفة الكلاسيكية الأفلاطونية والأرسطية، لأن هذه المدارس لم يكن أمامها وقت طويل يسمح لها أن تقدم منهجا على نسق ما قدمه أفلاطون وأرسطو، بل كان الهدف الماثل أمام هذه المدارس هو وضع منهج عاجل يكفل تحقيق الأمن والطمأنينة للمواطنين، وهذا يعني أن الأفكار التي تبنتها هذه المدارس كانت تتميز بأنها عملية أكثر من أفكار المدارس السابقة عليها»[29].

الخاتمة:

يحمل الجدل السوفسطائي في طبيعته الخطابية والبلاغية والتداولية طابعا لغويا اختزل أساليب الحجاج الفلسفي التي انفرد بها هذا الفكر، كممارسة تجمع بين الخصائص التعليمية والعقلية والإقناعية والحوارية والجدلية. وضمن هذه الخصائص شكل الجدل وسيلة لإقناع الآخر بالحجة والدليل ضمن معقولية الخطاب الموجه لمعرفة الحقيقة. فبين خطاب الدليل والبرهان، وخطاب الحجة والبينة، تظهر سيميائية المفاهيم والمقولات السوفسطائية التي شكلت عائقا لغويا اختزل التعابير وأساليب المحاورة والمحاجة في الكلام، والتلاعب في الألفاظ، كنموذج لغوي يهدف إلى تقويض معقولية الخطاب ونسقه البرهاني الاستدلالي. فاللغة السوفسطائية تتخذ من الخطابة والبلاغة والبراعة الأسلوبية مجالا لمواجهة الخصوم، ومن ثم يعتقد جل المؤرخين لهذه المدرسة أن طبيعة التفكير الحواري الجدلي قد تحول إلى لعبة لإنتاج حقيقة وهمية تتعارض مع المعنى التداولي والتواصلي للخطاب الحجاجي.

إن خصائص الحوار والمناقشة بين المتكلم والمتلقي تقتضي التحاور والجدل بالمعنى الصريح، كوسيط خطابي يستهدف مظاهر العلاقة بين اللفظ والمعنى خارج دائرة المغالطة والوهم والخداع. لذلك فإن النظر في تلك الإنجازات الفلسفية التي استوعبتها لغة السوفسطائيين قد كشف أنها جمعت بين استراتيجية الحوار والجدل وجمالية البلاغة والخطابة ضمن ما هو مضمر وما هو صريح داخل فضاء الاستدلال والتواصل اللغوي، كاستعمال فلسفي يربط بين بلاغة الخطيب وكيفية إقناع السامع.

ومن خضم هذه الاستراتيجيات المخادعة، جاءت تجليات أزمة المعنى في الأداء الفلسفي والخطابي للسوفسطائيين لتعكس طبيعة قدرتهم على الحوار والجدل بالألفاظ، وعجزهم عن التواصل والإقناع بالمعنى. فالمحتوى الدلالي للجدل السوفسطائي يتحرك في حدود تلك التعابير التي تحمل رمزية الحقيقة الفلسفية المجردة والمتماهية مع أنساق الخطابة والبلاغة التي تتلاعب بالمعاني. ومن ثم فإن غياب الاستدلال الحجاجي الإقناعي في الخطاب السوفسطائي قد فسح المجال لحضور الإفحام كشكل من أشكال المناقشة والجدل التي استغنت عن المعنى وكل ما يتلاءم مع معقولية التفكير التي تتطابق مع الممارسة الحجاجية الصحيحة، والمنطلقة من التأثير البلاغي والخطابي المعقول في الأشخاص، وليس المغالطة والتلاعب الذي يمنح تلك الألفاظ القوة الإفحامية. فلغة الخطاب الفلسفي التي تنفرد بخصوصيات

الحجاج السوفسطائي قد جعلت حوار الأنا بالآخر يتقاطع مع ثنائية الإقناع والإفحام، كموضوع للاستدلال والبرهان في مجال فلسفة اللغة.

ومن هذا المنظور، فإن مشكلة المعنى في الكتابات الفلسفية واللغوية المعاصرة قد حملت تباين تلك المقاربات التي اتخذت من الحجاج والجدل أسلوبا من أساليب ربط المعنى بدلالة اللفظ بين المتكلم والمتلقي طبقا لأدوات تأثير المخاطب بشكل صريح أو مضمر. إن البعد النسقي لطبيعة هذه العلاقة يحمل في حركته اللغوية سمات حجاج التلفظ والخطاب الذي يتضمن القضايا والأحكام، والمقدمات والنتائج، الحجج والدلائل، وكل الروابط الفلسفية واللغوية ذات الطابع المنطقي والعقلي. ومنه، فإن المظهر السيميائي للخطاب السوفسطائي يتجلى من خلال قوة الحجاج البلاغي التواق إلى التغلب على الخصم وإفحامه دون إقناعه بالحقيقة، فكل وجوه الجدل والخطابة عند السوفسطائيين قد خرجت وانحرفت عن الماهية الفلسفية للاستدلال الحجاجي التي استأنس بها سقراط في محاوراته.

وبذلك فإن تنويع أنماط الفهم والتأويل للخطاب السوفسطائي وتخصيبها، يدفعنا إلى تفكيك تلك الأغاليط وقياسات الإحراج التي استعملوها في مجال الخطابة والبلاغة للكشف عن أساليبهم اللغوية **في المراوغة والتلاعب**، والوقوف عند طبيعة مفاهيمهم الفلسفية ونقدها. والحق أن منطوق خطابهم الفلسفي، وتفكيرهم الجدلي قد ساهم من ناحية أخرى في تحقيق وبناء لغة الجدل وكيفية الدفاع عن القضايا في صورة المحاماة، كما شكل مرجعا ونموذجا في التخاطب والحوار والمناقشة طبقا لتلك الأساليب البلاغية والعبارات الحجاجية والدلائل والبراهين السيميائية التي عززت طريقتهم في ممارسة الفعل الاستدلالي والحجاجي. وضمن هذه التجربة اللغوية والفلسفية يمكن أن نجزم بحقيقة هذا التفكير بخلاف نظرة سقراط وأفلاطون التي كشفت عن ملامح وعيوب الجدل السوفسطائي.

إن الحديث عن جدلية الإقناع والإفحام في الخطاب السوفسطائي هو ما جعل حقل الديالكتيك في الفلسفة يختلف عن اللغة، حيث جاءت الممارسة الجدلية على أساس الحوار والمناقشة مدافعة عن اللفظ أكثر من المعنى. ولعل هذا ما ولد تلك الأزمة اللغوية التي صاحبتها ثورة فلسفية صححت مسار استعمال الجدل كمنهج وكأسلوب للمعرفة والتواصل مع الآخر. إن التعبير السيميائي عن الحقيقة في مجال الحوار بين المتكلم والمتلقي هو حجر الأساس لتلك البنيات الحجاجية التي تلتزم بدلالات التداول لكل خطاب، ومن ثم قد يكون الاهتمام بالمعنى والدلالة لممارسة هذا الخطاب في نطاق الجدل خاصية لغوية ملازمة

للجانب الحجاجي في كل ممارسة لغوية وفلسفية تقتضي استعمال الحجج قصد إقناع الآخر دون إفحامه. وبالتالي، فكل ما ينتهي عند التفكير الجدلي السوفسطائي لا يقتصر على دحض هذا التفكير وتشويهه، وإنما تبيان محاسنه ومساوئه كمبرر منطقي وعقلاني لمشروعية استعمال فن الحوار والجدل والمناقشة على نحو لغوي وفلسفي يحقق الوظيفة التخاطبية والتواصلية بين الأنا والآخر، أو علاقة اللفظ بالمعنى.

إن دلالات المطابقة بين طريقتنا في الكلام والخطاب وغايتنا في الإقناع أو الإفحام للخصوم، هو ما يميز لغة الجدل في كليتها وشموليتها؛ فالطابع السيميائي للحجاج السوفسطائي قد اتخذ كل الأنماط المتداولة في استعمال البلاغة اللفظية على حساب الأنماط المتداولة في استعمال الاستدلال والبرهنة بالمعنى. إذ إن الإثبات أو الدفاع عن قضية ما يختلف عن طريقة نفيها أو دحضها، وبذلك فإن كل ما يدخل في باب الجدل السوفسطائي يعبر عن تلك المضامين الفلسفية التي جمعت بين المغالطات والأوهام التي فصلت اللفظ عن حقيقة معناه، وعليه، أصبح من الضروري الارتقاء بلغة الجدل والحجاج التي احتفظت بمستوياتها البلاغية، ودلالاتها السيميائية في محاورات سقراط، فكل ما يقابل اليقين يكمن في المعنى والصدق والصواب.

تشكل هذه القيم الضوابطَ المنطقية للتفكير الجدلي التي تشترك في غاية واحدة هي إقناع المتلقي والتواصل معه عن طريق المعنى والحقيقة، وبالتالي فالعلاقة بين المقدمات والنتائج في مجال الخطابة والجدل تتحدد بواسطة الصدق أو الكذب، وهذا ما يعكس مستويات التفكير المنطقي في طبيعته السيميائية. وعموما، فإن اللغة السوفسطائية لا تنصرف إلى بناء الحقيقة داخل الجدل فقط، وإنما تتجاوز ذلك إلى اعتبار الحجاج كمنطوق في صناعة القول الفلسفي الذي يجمع بين الإقناع والإفحام معا. وهكذا يمكن أن نفهم حقيقة تلك المفاهيم والمقولات السوفسطائية المغالطة والمناقضة للحقيقة لاسيما على مستوى الطريقة في إقناع الآخر من جهة، أو بناء المعرفة بالاستدلالات الصحيحة من جهة أخرى. ومن هذا المنطلق، انفتحت كل الدراسات الفلسفية الحديثة والمعاصرة على التفكير السوفسطائي، لاسيما لغتهم الجدلية وطريقتهم في استبعاد المعنى، من خلال المقارعة والجدل بالألفاظ التي تشكل إنجازا فلسفيا من خلال مشروعهم اللغوي. ذلك ما يعكس التحولات والتطورات الفلسفية التي صاحبت هذا المشروع في مجال فلسفة اللغة من جهة، ومدارس الفكر اللساني الحديث من جهة أخرى.

الهوامش:

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الجيلالي ليابس – سيدي بلعباس– الجزائر.
djbentrat@gmail.com

1 حسام الآلوسي، مدخل إلى الفلسفة، دار الفارس، الأردن، ط1، 2005، ص166.

2 المرجع السابق، ص، 167.

3 محمد مهران رشوان، عصام زكرياء جميل، فلسفة للغة، دار المسيرة، عمان، ط1، 2012، ص،53.

4 خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2010، ص،63.

5 المرجع السابق، ص، 65.

6 المرجع السابق، ص.ص 69–70.

7 خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، ص70.

8– المرجع السابق، ص،76.

9 محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، دفاتر فلسفية (نصوص مختارة)، اللغة، دار توبقال، دار البيضاء، ط4، 2005، ص،16.

10 موفق فوزي الجبر، ابن رشد، تلخيص السفسطة لأرسطو طاليس، التكوين، دمشق، ط1، 2006، ص،10.

11 المرجع السابق، ص،12.

12 محمد علي أبو ريان، الفلسفة ومباحثها مع ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2001، ص،14.

13 محمد بيصار، الفلسفة اليونانية، مقدمات ومذاهب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973، ص،68.

14 المرجع السابق، ص،69.

15 دومينيك فولشيد، المذاهب الفلسفية الكبرى، ترجمة: مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011، ص،16.

16 نبيهة قارة، مدخل إلى فلسفة اللغة، الوسيطي للنشر، تونس، ط2، 2009، ص،21.

17 موفق فوزي الجبر، ابن رشد، تلخيص السفسطة لأرسطو طاليس، ص،90.

18 حميدة عبيدة، الحجاج في الفلسفة وتدريسها، (مؤلف جماعي) حول: الحجاج مفهومه ومجالاته – دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ج3، عالم الكتب الحديث، بيروت، ط1، 2010، ص97.

19 رشيد الراضي، السفسطات في المنطقيات المعاصرة –التوجه التداولي الجدلي، (مؤلف جماعي)، المرجع نفسه، ص ص، 201–202.

20 المرجع السابق، ص،20.

21 دليل محمد بوزيان، تجليات علاقة اللفظ بالمعنى في الفكر اليوناني خطاب البنية إلى بنية الخطاب،(مؤلف جماعي) حول: اللغة والمعنى – مقاربات في فلسفة اللغة، إعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص،18.

22 عادل فاخوري محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2013، ص،13.

23 المرجع السابق، ص،13.

24 جان بيار فارنار، أصول الفكر اليوناني، ترجمة: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 2008، ص،43.

25 اميل برهييية، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول، الفلسفة اليونانية، ترجمة: جورج طربيشي، دار الطليعة، ط2، 2008، ص،27.

26 صابر الحباشة، اللغة والمعرفة – رؤية جديدة– صفحات، دمشق، ط1، 2008، ص،41.

27 عبد الجبار أبو بكر، الحجاج الفلسفي وإشكالية المشترك اللفظي، (مؤلف جماعي)، تقديم: حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص ص، 106–107.

28 مبارك عبد القادر، نظرية المعنى في الدرس النحوي، الجزء الأول، آفاق المعنى والمنهج، دار كنوز، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011، ص ص، 01–01.

29 مجدي السيد أحمد كيلاني، المدارس الفلسفية في العصر الهيللينيستي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط2، 2013، ص،07.

قائمة المراجع:

. إميل برهييه، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول، الفلسفة اليونانية، ترجمة: جورج طربيشي، دار الطليعة، ط2، 2008.

. جان بيار فارنار، أصول الفكر اليوناني، ترجمة: سليم حداد، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2، 2008.

. حسام الآلوسي، مدخل إلى الفلسفة، دار الفارس، الأردن، ط1، 2005.

. حميدة عبيدة، الحجاج في الفلسفة وتدريسها، (مؤلف جماعي) حول: الحجاج مفهومه ومجالاته –دراسة نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة–، ج3، عالم الكتب الحديث، بيروت، ط1، 2010.

. خالد حربي، الفكر الفلسفي اليوناني وأثره في الفكر الإسلامي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط1، 2010.

. دليل محمد بوزيان، تجليات علاقة اللفظ بالمعنى في الفكر اليوناني من خطاب البنية إلى بنية الخطاب، (مؤلف جماعي) حول: اللغة والمعنى – مقاربات في فلسفة اللغة، إعداد وتقديم: مخلوف سيد أحمد، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

. دومينيك فولشيد، المذاهب الفلسفية الكبرى، ترجمة: مروان بطش، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 2011.

. رشيد الراضي، السفسطات في المنطقيات المعاصرة –التوجه التداولي الجدلي، (مؤلف جماعي)، المرجع نفسه.

. صابر الحباشة، اللغة والمعرفة – رؤية جديدة– صفحات، دمشق، ط1، 2008.

. عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، لبنان، ط1، 2013.

. عبد الجبار أبو بكر، الحجاج الفلسفي وإشكالية المشترك اللفظي، (مؤلف جماعي)، تقديم: حافظ إسماعيلي علوي، مرجع سابق، ص ص، 106–107.

. مبارك عبد القادر، نظرية المعنى في الدرس النحوي، الجزء الأول، آفاق المعنى والمنهج، دار كنوز، تلمسان، الجزائر، ط1، 2011.

. مجدي السيد أحمد كيلاني، المدارس الفلسفية في العصر الهيللينيستي، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ط2، 2013.

. محمد بيصار، الفلسفة اليونانية، مقدمات ومذاهب، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973.

. محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، دفاتر فلسفية (نصوص مختارة)، اللغة، دار توبقال، دار البيضاء، ط4، 2005.

. محمد علي أبو ريان، الفلسفة ومباحثها مع ترجمة المدخل إلى الميتافيزيقا، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط1، 2001.

. محمد مهران رشوان، عصام زكرياء جميل، فلسفة اللغة، دار المسيرة، عمان، ط1، 2012.

. موفق فوزي الجبر، ابن رشد، تلخيص السفسطة لأرسطو طاليس، التكوين، دمشق، ط1، 2006.

. نبيهة قارة، مدخل إلى فلسفة اللغة، الوسيطي للنشر، تونس، ط2، 2009.

الحجاج في رسالة عبد الحميد مهري إلى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة

مقاربة تداولية نقدية

محمد فارح* وعبد المطلب براهمي★

الملخص:

تعتمد هذه الورقة مقاربةً تداولية لدراسة الحجاج في رسالة (عبد الحميد مهري) إلى الرئيس الجزائري المستقيل (عبد العزيز بوتفليقة). وتتوق إلى الكشف عن الاستعمالات اللغوية التي ضمنت لمنشئ الخطاب أن يوصل معانيه وأهدافه الفعلية إلى المخاطَب، والآليات الحجاجية والمنطقية والواقعية التي سخرت له ممارسة سلطته الخِطابية في الرسالة. وعليه، فإننا ننتقي نماذج معينة ومعبرة عن المقصودات الحقيقية؛ بغية بيان طرق التعبير عن التحكم اللساني في مجريات الخطاب.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الحجاج، التأثير، الإقناع، الآليات الخِطابية، النقد اللساني.

Argumentation in Abdulhamid Mahri Message, presented to President Abdelaziz Bouteflika

a Critical Pragmatic approach

Mohammed Farah and Abd Elmoutaleb Brahmi

Abstract:
This paper adopts an pragmatic approach to study argumentation in the Abdelhamid Mahri's message to the outgoing Algerian president (Abdelaziz Bouteflika). it aspire to reveal the linguistic uses that guaranteed to the originator of the discourse to convey its meaning and its actual objectives to the listner, and the argumentative, logical and realistic mechanisms used to exercise his rhetorical power in the message. Therefore, we select specific models Which express the real intentions, in order to identify ways of expressing linguistic control in the course of the speech.

keywords: Discourse, Argumentation, Influence, Persuasion, Discursive mechanisms, Linguistic Criticism.

مقدمة:

حظيت اللغة باعتبارها أداة تواصل وتخاطب، باهتمام الأقلام النقدية في الجغرافية الغربية، بعد أن انتقلت من الدراسة التاريخية إلى الوصفية مع فيرديناند دي سوسير Ferdinand de Susser، ثم تفرعت منها اتجاهات معرفية، ركزت على البنية اللغوية أحيانا، وعلى المتلقي والسياق الذي يحيط به أحيانا أخرى. ومما طرحه اتجاه اللسانيات التداولية في حقول الاشتغال المفاهيمي، مصطلح الحجاج الذي عرف بأنه كلام يؤديه متخاطبان بقصد في نفسيهما، غايته التأثير والإقناع، من أجل التفنيد أو التأييد. فكان الخطاب اللغوي أداتَه الأولى التي تقوم آليات معينة ومخصوصة، وتستند في تركيبها إلى البلاغة والسياقات المصاحبة لفعل المحاججة، والمعرفة لدى كل منها.

ولعل أكثر المدونات استعمالا لهذه الآليات الخطابية، الخطابات التوعوية، والسياسية، التي تسعى إلى توجيه المتلقي إلى نسقٍ وتركيبة اجتماعية فكرية لتمثلها في أبعادها الكلية. ويحتل الخطاب في الدراسات اللسانية المعاصرة موقعا مهما ومركزيا، تجاذبته أطر منهجية نقدية ولسانية عديدة كانت نتاج التحولات الفكرية والعلمية المعاصرة. فانتقلت اللغة من حالة السكون إلى الممارسة الحركية الدينامية، وأصبح الخطاب ممارسة سلطوية في يد المخاطِب، وأداة لتطويع الفكر لدى الأمم. ومن أبرز الخطابات المهيمنة الخطابات السياسية والحريات والخطابات الأدبية، وهي التي تتخذ من البنية السيميائية واللغوية شاشة لتحقيق الأهداف المتوارية خلف خطية الخطاب.

ويعد الخطاب السياسي أحد أهم الخطابات في الدراسات الحديثة؛ لارتباطه الكبير بالقرارات التي يتأسس عليها المجتمع، وتحفظ له وجوده. ويرتكز هذا النمط الخطابي على استمالة الأفراد والتأثير فيهم، من خلال أسلوبية حجاجية مضمرة داخل بنيته اللغوية. فالطبيعة التداولية للغة تظهر من خلال الحوار والمناظرة، والمداخلات، وغير ذلك؛ وتسير وفق الآليات التبليغية والاتصالية اللغوية المتبادلة بين الأطراف.

ويمثل الحجاج أحد الآليات الخطابية والتبليغية التي يستعملها المتكلم بغية الوصول إلى أهداف معينة، وأبرزها التأثير والإقناع وحمل المخاطَب على الاعتقاد الذي يحمله المخاطِب. والخطاب السياسي خطاب ذو قيمة حجاجية سلطوية، حيث يتم بناء معماره على سلمية حجاجية بهدف الإقناع والتأثير في المتلقي، والتحكم في اختياراته وقراراته، موظفا ترسانة من الآليات لخدمة التوجه الفكري الذي يحمله

المخاطِب. وقد مثل الخطاب السياسي عنصرا فعالا في توجيه المفاهيم، وتغير الذهنيات، فسار بها نحو الغاية التي رسمها القائمون عليه.

ومما تقدم جاء هذا البحث الموسوم بـ "الحجاج في رسالة عبد الحميد مهري إلى الرئيس عبد العزيز بوتفليقة: مقاربة تداولية نقدية" للكشف عن الآليات الحجاجية الموظفة في بنيته الخطابية، ومظاهر الهيمنة والتحكم في الممارسة الاجتماعية في ضوء التحليل النقدي للخطاب. فما هي أبرز هذه الآليات؟ وما هي مظاهر سلطة الاختيارات اللسانية على الخطاب والمخاطَب؟

1. تحديدات اصطلاحية:

يعمل الحجاج على تبني نمطية تأثيرية في العملية التخاطبية، يسعى فيها المخاطِب إلى التأثير في المخاطَب وإقناعه. وتتقاطع كثير من المصطلحات مع مصطلح الحجاج، بل تكاد ترادفه؛ فهي قريبة منه في كثير من الجوانب، ومن تلك المصطلحات: الاستدلال والبرهان.

1.1. الحجاج:

تتجه تعريفات الدارسين لمصطلح الحجاج نحو تحديد موضوعه وآليات اشتغاله، وتتفق في كونه أداة يستخدمها المخاطِب للتأثير في المخاطَب، وفق شروط سياقية ومقامية. فهو: "نشاط لغوي واجتماعي غايته دعم أو إضعاف مقبولية وجهة نظر متنازع فيها لدى مستمع أو قارئ، ذلك بعرض كوكبة من القضايا قصد تبرير (أو دحض) هذه الوجهة أمام قاض عقلاني"[1]. فالحجاج نشاط منصهر في نسق اللغة، يتسم بالطبيعة الاجتماعية، ويشتغل وقت التنازع في قضية ما بين طرفين (مخاطِب/مخاطَب)، من خلال عرض أجزاء هذه القضية، فيتوجه نحو تبرير وجهة النظر أو دحضها.

وذهب شاييم بيرلمان Shaiem Perlman إلى أن الحجاج هو: "درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم"[2]. وحسبه أن الحجاج تقنية تخاطبية تعمل على التأثير في الأذهان وتحملها على اعتناق وجهة نظر معينة، أو تحاول أن ترفع من درجة مقبولية رأي معين.

ويرى أبو بكر العزاوي أن الحجاج يتمثل في "تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة"[3]، فالحجاج في اعتقاده يقوم على تقديم وعرض الحجج والأدلة داخل العملية التخاطبية، يستلزم من ذلك أن تفضي مجموع هذه الحجج إلى نتيجة معينة.

ن = ح1 + ح2 + ح3

حيث: ح1، ح2، ح3 حجج.

ن: النتيجة.

إن الحجاج أحد الآليات الخطابية التي يستعملها المتكلم بغية تحقيق أهداف معينة، يعتمد على التأثير والإقناع، ويشتغل داخل العملية التواصلية، ويتأسس على "بنية الأقوال اللغوية، وعلى تسلسلها، واشتغالها داخل الخطاب"[4]، ويعتمد التراتبية والتسلسل، كما يستمد شرعيته من اللغة. هكذا، يمكن القول إن الحجاج تقنية تخاطبية تعتمد على آليات إبلاغية تواصلية من أجل التأثير في المتلقي وإقناعه.

2.1. الاستدلال:

يقترب مفهوم الاستدلال من الحجاج ويكاد يكون مرادفا له، غير أن هناك فرقا بينهما، فالاستدلال: "هو أن تستنبط من المقدمات نتائج، تفضي إليها المقدمات ضرورة بدون أي لبس"[5]، وهذا ما لا نجده في الحجاج، كون هذا الأخير غير ملزم في نتائجه، ذلك أن "الغاية من العملية الحجاجية هي إشراك المتلقي فيما يعتقده المرسل"[6].

وقد ميز بيرلمان بين نوعين من الاستدلال:

أ- **الاستدلالات التحليلية:** وهي "صورية وتنطلق من مقدمات لا مجال لمناقشتها، سواء كانت بديهية أو صادقة، أو مجرد فرضيات، وهي برهانية غير شخصية"[7] ومجال هذا النوع هو المنطق.

ب-**الاستدلالات الجدلية:** وهي التي "تنطلق من مقدمات غير ملزمة، وتكون مرتكزة على الرأي لا على الحقيقة"[8]، فمن خلال هذا التفريق يتبين لنا أن الاستدلال عام وشامل لنوعين من الطرائق وهي: استدلال صوري، واستدلال طبيعي.

3.1. البرهان:

كثيرا ما يستعمل البرهان ليدل على الحجاج، وذلك للتقارب الكبير بينهما، ويرى أبو بكر العزاوي أن "الخطاب الطبيعي ليس خطابا برهانيا بالمعنى الدقيق للكلمة، فهو لا يقدم براهين وأدلة منطقية، ولا يقوم على مبادئ الاستنتاج المنطقي"[9]، فيختلف البرهان عن الحجاج في المجال والآليات، ففي البرهان "النتيجة حتمية ضرورية، فإذا سلمنا بالمقدمتين الكبرى والصغرى وجب التسليم بالنتيجة بشكل منطقي وحتمي وضروري"[10]، في حين أن الحجاج احتمالي وظني.

ويمكن التمثيل بالمخطط التالي:

(1)

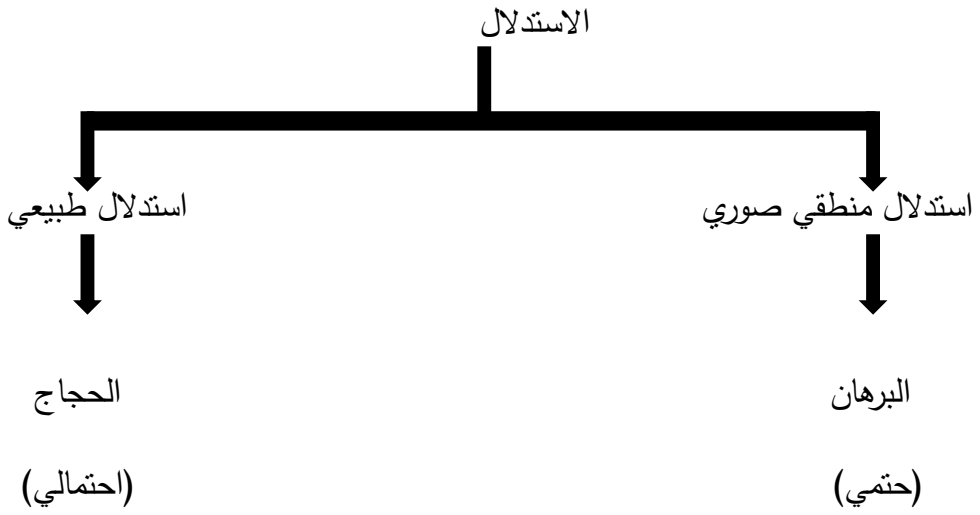

4.1. الخطاب السياسي:

تكمن أهمية الخطاب السياسي في ارتباطه الشديد بالقرارات التي يتأسس عليها المجتمع، وتحفظ له وجوده وتعبر عن الرؤى التي تتبناها كل من السلطة، والقائمين على هذه السلطة. لذا، وجب تفكيك هذا المصطلح:

1.4.1. الخطاب:

لمصطلح الخطاب مفاهيم عديدة، ارتبطت بالمجالات التي يشتغل فيها، حيث حظي باهتمام الدارسين في كثير من التوجهات والمجالات "وقد تأثر كل دارس بمجال تخصصه، كما أصبح هذا المصطلح محور التقاء دراسات مختلفة مثل: اللسانيات الاجتماعية، واللسانيات النفسية، واللسانيات الفلسفية، واللسانيات الإحصائية"[11]، وما يهمنا هنا هو: "الخطاب بوصفه ممارسة اجتماعية لغوية متصلة

بموضوع ما، بكل ما يقتضي ذلك حدثا يقتضي أثرا يتجاوز الأثر الجمالي إلى الأثر الإنشائي، وتواصلا لغويا يتكون داخل سياق ما"[12].

أخذ مصطلح الخطاب في الدراسات اللسانية موقعا مهما، وأول من أشار إليه العالم اللساني زليغ هاريس Zellig Harris في مقال له بعنوان تحليل الخطاب، وعرفه بأنه: "عبارة عن ملفوظ طويل أو سلسلة من الجمل"[13] وهو تعريف تجريدي؛ حيث استند فيه إلى البنية الشكلية، ويعرفه إيميل بنفنيست Emile Benveniste بقوله: "عبارة عن ملفوظ ينظر إليه من جهة آليات وعمليات اشتغاله في التواصل، وهو كل تلفظ مرسل ومستقبل للمرسلة اللغوية، يفترض عند الباث قصد التأثير على المتلقي بكيفية ما"[14]. فالخطاب يتحدد داخل سياق تواصلي، يحمل هدف التأثير ولا ينظر إلى هذا الملفوظ إلا من خلال اشتغاله في العملية التواصلية بين المتكلم والمستمع، وما يحيط بهما من ظروف.

2.4.1. السياسة:

جاء في معجم العين "السياسة: فعل السائس، الذي يسوس الدواب سياسة، يقوم عليها ويروضها والوالي يسوس الرعية وأمرهم"[15]، ومن ذلك جاء مصطلح السياسة بمعنى الرجل الذي يقوم على شؤون الدولة والرعية.

أما في الاصطلاح فيرى جورج بوردو Georges Burdeau بأن السياسة هي: "الخاصية التي ترتبط بكل حدث وكل عمل وكل وضع يعبر داخل جماعة بشرية، عن وجود علاقات السلطة والطاعة القائمتين من أجل غاية مشتركة"[16]. ونلاحظ أن مصطلح السياسة تحرك من أصله اللغوي ليصبح مصطلحا يدل على وجود علاقة السلطة بما يكون من شؤون قيامها ووجودها.

وفي المرحلة الراهنة، الخطاب السياسي خطبة أو بيان يصدر عن السلطة الحاكمة، أو أحد ممثليها، "والمتعارف عليه جماهيريا أن الخطاب السياسي ما يلقيه رئيس الدولة، أو قيادتها في حشد من الجماهير، والبيانات والتصريحات والرسائل الصادرة عن السلطة"[17]، فيشكل الخطاب السياسي في المألوف القرارات التي تصدر عن السلطة، ويهتم بالقضايا المتعلقة بتسيير شؤون الحكم داخل البلاد وخارجها.

2. نقد الآليات الحجاجية في رسالة عبد الحميد مهري:

تعتبر رسالة المفكر والسياسي عبد الحميد مهري جزءا من الخطاب السياسي المكتوب، توجه بها إلى السيد الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، وضمنها غايات جليلة، تمثلت في توضيح مسائل تخص الفترة الرئاسية وتمديدها، والدعوة إلى التغيير في كنف السلم والنقاش الحر، واستخلاص العبر من الأحداث المأساوية التي وقعت سنة 1988م، وما حدث في كثير من الأقطار العربية، وبالخصوص الدول المجاورة مثل تونس ومصر، مستعملا في رسالته أسلوبا تأثيريا مبنيا على بنية حجاجية.

1.2. الآليات الحجاجية اللغوية

أ- الرابط الحجاجي "بل":

يقوم الرابط الحجاجي "بل" بوظيفة الربط بين ملفوظين، ويأتي للإضراب سواء أكان الإضراب إضراب انتقال أم إضراب إبطال. وتساهم "بل" في إنشاء السلم الحجاجي من خلال النفي الذي يأتي قبلها؛ فيعد ما قبلها درجة أولى في السلم، وما بعدها أعلى درجات السلم، لما يحمله من قيمة إقناعية[18].

يستعمل المفكر عبد الحميد في رسالته هذا الرابط في قوله:

> **(2) "كما يُستنتج أيضا أن التغيير الحقيقي لا يأتي نتيجة قرار فوقي معزول عن حركة المجتمع وتفاعلاته. بل إنه من الضروري إنضاج عملية التغيير وتغذيتها من المبادرات المتعددة التي تنبع، بكل حرية، من مختلف فئات المجتمع"[19].**

نسجل أنه استعمل الرابط في موضع الانتقال إلى ما بعد الأداة، ونلاحظ أن ما بعد بل أقوى من حيث التراتبية، ويمكن التمثيل لما جاء في هذا الملفوظ كالآتي:

(3) إنه من الضروري إنضاج عملية التغيير وتغذيتها من المبادرات المتعددة التي تنبع...

بل

إن التغير الحقيقي لا يأتي نتيجة قرار فوقي معزول

فبنية الملفوظ الذي قبل الرابط "بل" في (2) تقوم على النفي، تدحض التغيير الذي يقوم على قرار فوقي معزول، وتنتقل إلى بنية الملفوظ الذي تأتي بعدها في سياق تأكيد بـ "إنّ"، محدثة بذلك ترابطا معنويا بين الملفوظين، ورغم أن الحجتين متناقضتان، إلا أنهما تخدمان حجة واحدة:

(4): ح01 (انعزال القرار) + الرابط "بل" + ح02 (إنضاج عملية التغيير) ⟵ رفض السياسة الراهنة.

وتظهر سلطة الاختيار اللغوي هنا في اتجاه صاحب الرسالة نحو النقد غير المباشر لاتخاذ القرارات المعزولة عن حركية المجتمع؛ ذلك ما كرسه الاستدراك بما بعد (بل)، إذ إن طرح مهري يتجلى في التلميح غير الصريح إلى أن الرئيس بوتفليقة ملزم بأن يشرك المجتمع في الاختيارات الاستراتيجية.

ب. الرابط الحجاجي "لكن":

يعمل هذا الرابط على الاستدراك، إذ: "يقع بين كلامين لما فيهما من نفي وإثبات لغيره، فهي تتوسط بين كلامين متغايرين نفيا وإيجابا، يستدرك بها النفي بالإيجاب والإيجاب بالنفي"[20] في علاقة تقابلية بين ملفوظين مختلفين من حيث القيمة الحجاجية. وقد عمد عبد الحميد مهري إلى استخدام هذا الرابط في قوله:

(5) "وقد فضلت هذه الطريقة المفتوحة لمخاطبتك، لأنك تحتل موقع الصدارة والأولوية، ولكنك لست الوحيد المقصود بمحتوى الرسالة، ولا الجهة الوحيدة المدعوة لمعالجة القضايا التي تطرحها"[21].

ينبه صاحب الخطاب في (5) الرئيس الجزائري بأن رسالته موجهة لكل المواقع التي تدير مركزا داخل هذه الدولة، فإنه وإن كان من المسلم أن الرئيس هو رمز السلطة، وله تتجه الأنظار، إلا أن المسؤولية تقع على عاتق الجميع. ويرى عبد الحميد أن استغلال المواقع جعل هذا البلد مرهونا بقضايا عديدة، ولذلك يستدرك في خطابه باستعمال الرابط "لكن"، موزعا بذلك الأدوار من خلال تعارض الحجتين؛ ومن شأن هذا الاستعمال على هذه الشاكلة أن ينتج تقريعا وتأثيرا في الرئيس الجزائري.

ولإيضاح أكثر، نورد قولا مشابها في موضع آخر:

(6) "مع أن المشترك بيننا وبين هذه الأقطار لا ينحصر فقط في عدوى اللجوء المأسوي للانتحار بالنار، ولكن فيما هو أعمق وأخطر، وهو طبيعة نظام الحكم نفسه"[22].

يستدعي المفكر عبد الحميد مهري الاستدراك في هذا الملفوظ (6) لاعتبارات عديدة، فإن كان ما قبل "لكن" حججٌ تعمل على تنبيه الرئيس، والتي تتمثل في الوضع الكارثي في بلدان قريبة منا، مثل عدوى اللجوء للانتحار بالنار ملمحا إلى الربيع العربي، إلا أن ما بعده هو المخصوص بالحكم القيمي؛ ذلك لأنه يبين سبب هذا اللجوء ويرمي المسؤولية على طبيعة نظام الحكم نفسه، في إشارة إلى مَواطن التشابه بين الأنظمة العربية في إدارة الحكام للشعوب وتسلطهم عليهم.

ويمكن التمثيل لذلك كما يلي: (7)

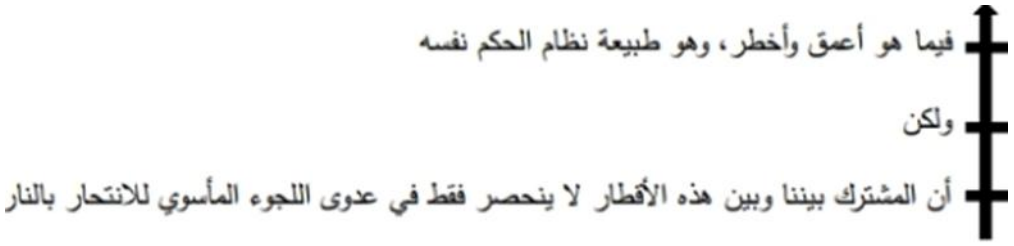

ج. العامل الحجاجي "لا...إلا":

العامل الحجاجي "لا...إلا" أحد العوامل التي تعمل على توجيه المتلقي نحو مقصود معين، و"يعد النفي والاستثناء بـ (إلا) عاملا حجاجيا مهما بما يقصر من شيء على شيء آخر في بنية النص، وتكون الفكرة المشتركة بين كل من المرسل والمتلقي هي المسار المؤدي إلى نتيجة ما"[23] من خلال وظيفة القصر التي يؤديها.

ومن قبيل الاستخدامات الحجاجية لهذا العامل، نورد قول المفكر عبد الحميد:

(8) "أتوجه إليك بهذه الرسالة، في ظرف بالغ الدقة والخطورة، وأنا مدرك أنه لا يخولني هذا الشرف إلا الروابط الأخوية والمبادئ التي جمعتنا في مرحلة الكفاح من أجل حرية بلادنا واستقلالها"[24].

يحاول المفكر الجزائري من خلال هذا الرابط أن يقيم ملفوظا حجاجيا من خلال قصر التواصل وتوجيه الرسالة على الروابط الأخوية التي تجمعه بالرئيس، ويحاول توجيهه إلى حرصه الشديد من خلال هذا الملفوظ على النصح والتوجيه، وهذا ما يستثمره المفكر لإقناع مخاطبه، واستمالته. والحق أن هذا العامل الحجاجي يعكس مقصدا مضمرا يتجلى في أن عبد الحميد مهري يود أن يذكر بوتفليقة بالمبادئ الوطنية التي كانت أساس الكفاح الوطني وتحقيق حرية دولة الجزائر من خلال المقاومة والمواطنة.

2.2. الآليات الحجاجية البلاغية:

بالإضافة إلى القيم الإقناعية التي أنتجتها الاختيارات اللغوية القائمة على إدراج الحجج، والمعاني التي أدتها الروابط الحجاجية الموظفة، عرفت رسالة عبد الحميد مهري استثمارا لقيم حجاجية أخرى، لكنها بلاغية هذه المرة. ونركز في هذه الفقرة – بالأساس – على أسلوبي الكناية والاستعارة.

أ – الكناية:

تعد الكناية آلية حجاجية بامتياز، لكون المخاطِب يلجأ إليها لإثبات قضية ما من خلال جلب انتباه المخاطَب، والتأثير فيه. فالكناية كلٌّ لفظ تجاذب جانباه الحقيقة والمجاز، وجاز حملها على الجانبين معا[25]. وتستمد الكناية قوتها الحجاجية من خلال المعنى الكامن وراء اللفظ، والمرمى الذي قصده المخاطِب.

يعمد المفكر عبد الحميد مهري إلى استعمال الأسلوب البلاغي في رسالته التي وجهها إلى رئيس الجمهورية الجزائرية، ويوظف الكناية كأسلوب تأثيري، يسعى من خلاله إلى استمالة الرئيس، فيقول:

> **(9) "ولم يصقلها عبر مراحل تطورها، التقييم الموضوعي، الذي كان هو الغائب الأكبر في تجربة الحكم عندنا. لقد كانت تنظم في كل مرحلة من مراحل هذا النظام بدل التقييم النقدي الموضوعي لنظام الحكم، حملات التمجيد أو التنديد المفصلة على مقاس الأشخاص، وتلوين العشريات بما يكفي للتستر على طبيعة نظام الحكم وممارساته ولونه الدائم الذي لا يتغير بتغيير الأشخاص."[26]**

يبنى المفكر عبد الحميد مهري خطابه هذا على كناية "وتلوين العشريات بما يكفي للتستر على طبيعة نظام الحكم وممارساته ولونه الدائم الذي لا يتغير بتغيير الأشخاص". حيث يلوح من طرف خفي إلى أن اللون الدائم الذي صبغت به السلطة في الجزائر لم يتغير وإن تغير المتداولون على كرسيها، ويشير بذلك إلى ضرورة التخلي عن هذا اللون، وتبني مبدإ التغيير، لا التداول فقط. فاللون الدائم حجة تفضي إلى سياسة سلطوية لا تؤمن بمبدإ التغيير ولا الحوار ولا التبدل، بل إبقاء الوضع السياسي على ما هو عليه. فتكون الكناية اختيارا بلاغيا ناقدا لاستمرار وضع قائم وغير خادم للأمة الجزائرية، ومناداة بضرورة التغيير على جميع الأصعدة الحيوية.

د. الاستعارة:

إن القول الاستعاري يتخذ موقعا أعلى في السلم الحجاجي مع قول آخر، بمعنى أن له قوة حجاجية عالية[27]، يقول السياسي والمفكر عبد الحميد مهري:

> **(10) "إن الأحداث التي تقع عندنا باستمرار، والتي تقع حولنا منذ أشهر، تذكر بمثيلات لها عرفتها بلادنا في شهر أكتوبر سنة 1988، وعرفت ما انجر عنها من أحداث جسام وأزمات، ومآس ما زال الشعب يتجرع بعض كؤوسها المرة."[28]**

يظهر أن الخطاب قد استند إلى الأسلوب الاستعاري في قوله: "يتجرع بعض كؤوسها المرة"، فالشعب الجزائري مر بمحنة عظيمة ما تزال أحداثها وأزماتها تلقي بظلها عليه إلى اليوم، ولا زال هذا الشعب يتجرع كأس مرارتها إلى حد الآن.

ويستعمل المفكر هذا النمط الخطابي المتمثل في الاستعارة لكونه يقع في مرتبة عليا من مراتب الإقناع والتأثير.

الحجة: تجرع كؤوس أحداث وأزمات 1988 **النتيجة:** المطالبة بتغيير السياسة الراهنة.

وتقدم الاستعارة، هنا، للرئيس بوتفليقة خيارين: إما الاستمرار في تجرع الكؤوس المرة، وإما كسر العوامل التي تسبب للشعب الجزائري مآسٍ محتملة. بل إن القول الاستعاري يقيد الاختيار بأن نبه إلى احتمال تكرار مثيلات أحداث أكتوبر 1988.

3.2. الآليات الحجاجية شبه المنطقية:

إلى جانب الحجج اللغوية والبلاغية، تحضر حجج أخرى منطقية. وتتعدد أنواعها بحسب غاية منشئ الخطاب وأطروحته السياسية. وفي ما يلي نتعرف عن هذه الأنواع:

أ. الحجج الشبه منطقية المعتمدة على البنى المنطقية:

- **التناقص وعدم الاتفاق:**

يوضح عبد الله صولة التناقض قائلا: "المقصود بالتناقض (contradiction) هو أن تكون هناك قضيتان (2 propositions) في نطاق مشكلتين إحداهما نفي للأخرى ونقض لها"[29]، تعملان على

تحقيق حجة واحدة. ونقف مع عبد الحميد مهري في رسالته موضوع التحليل مع توظيفٍ للحجج المستندة إلى إظهار التناقض بين قضيتين، ومنها نسوق ما يلي:

(11) "إنك اليوم في قمة الهرم لنظام حكم لست مسؤولا وحدك على إقامة صرحه."[30]

يتضح في (11) أن ما قبل "ليس" يعد قضية أولى (ق1)، وأن ما بعدها يعتبر قضية ثانية (ق2)؛ فتنفي الثانية الأولى وتسلبها الحكم. ومن خلال النفي لما قبلها وإثبات ما بعدها، تكتسب الحجة الثانية قيمة حجاجية أكبر ونمثل لها كالآتي:

(12)

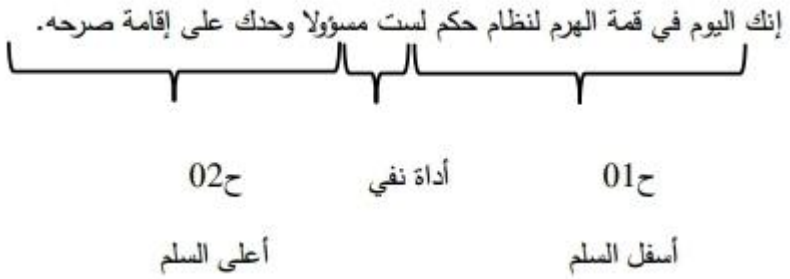

فتكون وظيفة التناقض في (11) هي أن منشئ الخطاب يؤاخذ على المخاطَب احتكار قرارات النظام السياسي الذي استمات الجزائريون وضحوا بدمائهم وذويهم في سبيل إرساء أسسه.

- **الحجج القائمة على علاقة التعدية:**

تقوم هذه الحجج على ما يطلق عليه بالتعدية العلائقية داخل البنى المفاهيمية، إذ: "إن من أهم علاقات التعدية ذات الصبغة الحجاجية شبه المنطقية علاقة التضمين (Relationship of implication)؛ وهي العلاقة المنطقية التي تبين أن قضية تتضمن قضية أخرى"[31]. ونجد أن صاحب الرسالة يبني خطابه الإقناعي من خلال هذا النمط من العلاقات المنطقية كما في البنية(13):

(13) "ويضاف إلى هذه العوامل المشتركة أن غالبية الجزائريين يعتقدون أن نظام الحكم القائم عندنا غير وفي لمبادئ الثورة الجزائرية وتوجهاتها، وأنه لا يسد ظمأهم للنزاهة والحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية التي ضحى الشعب الجزائري بمئات الآلاف من أبنائه في سبيلها"[32]

يلاحظ القارئ أن الملفوظ يتضمن قضية أخرى قد أُضمرت، ويمكن استنتاجها من خلال قلب الملفوظ: **إن غالبية الجزائريين يعتقدون أن نظام الحكم القائم عندنا نظام فاسد**. فأضمر هذه القضية داخل الملفوظ لأن المقام يستدعي الإضمار لا الإظهار، بغية تمرير وجهة نظر نقدية محرجة بالإيحاء لا التصريح. وذلك أدعى لأن يتقبل الرئيس هذا الخطاب، ويتأثر به. فقد أتاح منشئ الرسالة لبوتفليقة فرصة تأويل المعاني المتعددة والمحتملة، فاستبدل فساد النظام بعدم الوفاء لمبادئ الثورة، والحقيقة أن التنكر لمبادئ الثورة الجزائرية معادل صريح لفساد النظام.

ب. الحجج شبه المنطقية المعتمدة على البنى الرياضية:

- **تقسيم الكل إلى أجزائه المكونة له:**

المقصود بهذا الإجراء المنطقي هو تقسيم الكل المجمل إلى وحدات حجاجية تنطوي تحته، وتسمى بحجج التقسيم أو التوزيع[33]. ويمكن أن نمثل له من خلال هذا الملفوظ:

(14) "فنتج عن هذه الممارسة، التي سرت عدواها لبعض أحزاب المعارضة، عزوف آلاف المناضلين عن العمل السياسي، وانكماش القاعدة الاجتماعية لنظام الحكم وتضييق دائرة القرار في قمته"[34].

ونلاحظ أنه قام بتقسيم الكل إلى مجموعة أجزاء نمثل لها كالآتي:

(15) نتج عن هذه الممارسة ←
- عزوف آلاف المناضلين عن العمل السياسي.
- انكماش القاعدة الاجتماعية لنظام الحكم.
- تضييق دائرة القرار في قمته.

نلاحظ أن كل جزء من هذه الأجزاء يعمل في نفس اتجاه الأجزاء الأخرى، وتتضافر هذه الأجزاء لتشكل كلا واحدا وتفضي إلى خدمة نتيجة واحدة. فكان الاتجاه استقرائيا يلزم المخاطَب بأن ما ينتجه من ممارسات سبب في جميع مظاهر العزوف والانكماش والتضييق.

- **إدماج الجزء في الكل:**

إدماج الجزء في الكل نقيض لإجراء تقسيم الكل إلى أجزاء، و"يستمد هذا القانون طاقته الإقناعية من الوصل الذي يحدثه بمبدإ تفضيل الكل على الجزء وهو تفضيل تقضي به طبيعة الأشياء ومبدأ

المقايسة الشكلية"[35]. حيث يكون الحكم الذي ينطبق على الكل يجري على الجزء، لاعتباره جزءا منه. من مثل ذلك ما جاء على لسان عبد الحميد في رسالته:

(16) "لكنك اليوم، بحكم موقعك، تتحمل، ومعك جميع الذين يشاركونك صنع القرار، مسؤولية كبيرة في تمديد فترة هذا الحكم الذي طغت، منذ سنين، سلبياته على إيجابياته، ولم يعد، فوق هذا كله، قادرا على حل المشاكل الكبرى التي تواجه بلادنا، وهي عديدة ومعقدة، ولا قادرا على إعدادها الإعداد الناجع لمواجهة تحديات المستقبل وهي أكثر تعقيدا وخطورة"[36]

لقد أدمج صاحب الرسالة في (16) الأجزاء في كل واحد يتحمل المسؤولية، إذ إن الرئيس يتحمل المسؤولية بحكم موقعه لكنه لا يتحملها وحده؛ وإنما كل الذين يشاركونه صنع القرار، فالحكم الذي يجري على الرئيس باعتباره قمة الهرم داخل السلطة، يجري كذلك على تلك الأجزاء التي تندرج تحت هذا الكل.

ويمكن أن نمثل لذلك بما يلي: (17)

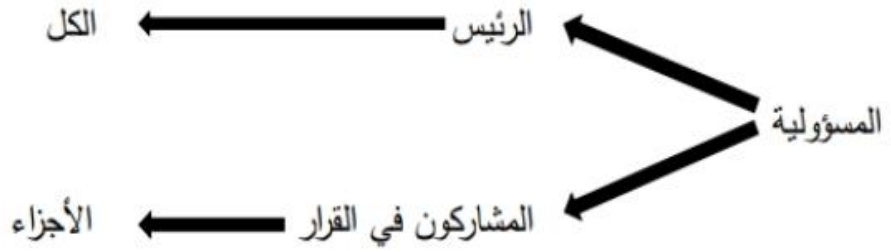

يحاول الخطاب من خلال إجراء إدراج الأجزاء في الكل كما توضح (16) و (17) أن يحمل كل المسؤولين المشاركين للرئيس بوتفليقة مسؤولية ما آلت إليه الأوضاع، بل ويشير إلى ذلك صراحة؛ إنه يقر بأنهم هم من صنعوا القرار بتمديد فترة الحكم، ثم إنه يبين سبب ذلك بقوله "طغت سلبياته على إيجابياته"؛ فالأجزاء والكل هم ما أفرز السلبيات والإيجابيات.

ب. الحجج المؤسسة على بنية الواقع:

- **الوصل السببي:**

يعد الوصل السببي إحدى تقنيات الحجاج التي تهدف إلى الربط بين حدثين متتابعين، أو إلى استخلاص السبب من الحدث، أو إلى بناء تكهنٍ بما سيكون من نتائج[37]. ومن قبيل ذلك ما جاء به عبد الحميد في رسالته:

> **(18) "إن مثل هذه القراءة الخاطئة من عدة أطراف، وسوء القصد من أطراف أخرى هي التي حالت، مع الأسف الشديد، دون استخلاص الدروس الصحيحة من حوادث أكتوبر 1988، ومكنت أعداء التغيير، إذ ذاك، من العمل المخطط لسد السبل المؤدية للحل الصحيح، وهو الانتقال لنظام حكم ديمقراطي حقيقي."[38]**

نلاحظ في (18) كيف ربط صاحب الخطاب عدم استخلاص الدروس الصحيحة من حوادث 1988م، بما كان من القراءة الخاطئة من أطراف عديدة، وكذلك سوء القصد من أطراف أخرى. ويمكن أن نوضح ذلك في الترسيمة الآتية:

حيث ينتقل من السبب وصولاً إلى النتيجة، فالقراءة الخاطئة وسوء القصد أفضيا إلى عدم استخلاص الدروس، واستخلاص الدروس كان نتيجة القراءة الخاطئة وسوء القصد. ولعل الوصل السببي على هذه الشاكلة رمي بتهمة سوء التدبير والتخطيط المخفق على كاهل الرئيس بوتفليقة.

- **حجة الاتجاه:**

تقوم هذه الحجة على بنية التحذير من مغبة اتباع سياسة المراحل التنازلية، أو التحذير من انتشار ظاهرة معينة[39]. ويستند الخطاب عند عبد الحميد على هذه البنية في قوله:

(19) "فنظام الحكم في مصر وتونس والجزائر جميعها يتدثر بواجهة ديمقراطية براقة ويقصي، عمليا، وبمختلف الوسائل، فئات واسعة من المواطنين من الاشتراك الفعلي في تسيير الشؤون العامة، وهو ما يرشحهم، بصفة دائمة، نتيجة التهميش والإقصاء، للنقمة والغضب واعتبار كل ما يمت لنظام الحكم أو يصدر عنه غريبا عنهم أو معاديا لهم. وعندما تضاف لهذه الأرضية الغاضبة وطأة الصعوبات الاقتصادية، سواء كانت ظرفية أو دائمة، تكتمل شروط الانفجار."[40]

يعمد عبد الحميد مهري –هنا– إلى تحذير الرئيس من سياسة إقصاء الفئات الفاعلة من تسيير شؤون البلاد، وجاء هذا التحذير في سياق الإخبار عما سيقع وهو ما ذيله في آخر هذا المقطع بقوله، "تكتمل شروط الانفجار"، ثم يحدد سلفا الأسباب المؤدية إلى هذه النتيجة.

لقد أقام المفكر حجته على التحذير مستمدا أسبابا منطقية وحتمية من الواقع. كما أثرى موقفه بتعميم آخر، وهو بيان أن قيام نظام بعض الدول مثل مصر وتونس والجزائر، على الأسباب متشابهة، سيؤدي لا محالة إلى تشابه النتائج كذلك. وكأنه يقارن بين ثلاثة اتجاهات هابطة نحو الحضيض: تونس ومصر ثم الجزائر إذا لم يصحح الوضع.

ج. الحجج المؤسِسة لبنية الواقع:

- **تأسيس الواقع بواسطة الحالات الخاصة:**

يظهر المثل كبنية حجاجية في الحالات الخاصة، ويؤتى به حين لا توجد المقدمات[41]. وقد أنشأ المفكر الجزائري في رسالته هذا النمط مستمدا مثله من دول مجاورة للجزائر فيقول:

(20) "وتشمل هذه القراءة الخاطئة الأحداث التي تجري في أقطار قريبة منا، كتونس ومصر، بالتركيز على أوجه الاختلاف بينها وبين بلادنا لاستبعاد الدروس التي تمليها أحداثها وتجاربها. مع أن المشترك بيننا وبين هذه الأقطار لا ينحصر فقط في عدوى اللجوء المأسوي للانتحار بالنار، ولكن فيما هو أعمق وأخطر، وهو طبيعة نظام الحكم نفسه"[42].

يحاول عبد الحميد المرور من حالة سادت في كل من تونس ومصر إلى حالة مشابهة لما يحدث في الجزائر، فالدولتان (مصر، تونس) شهدتا أحداثا مأسوية كان السبب الأول في حدوثها هو نظام الحكم، ولتشابه كل هذه الدول في نظام الحكم، ستكون الأوضاع لا محالة متماثلة، والنتائج كذلك.

إن القاعدة العامة التي يمكن استنتاجها من هذا الإجراء الأخير هي: (21)

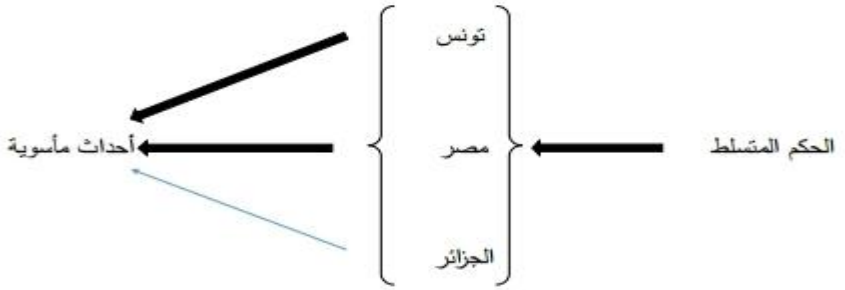

نلاحظ أنه لما حكم النظام الفاسد كلا من تونس ومصر كانت النتائج أحداثا مأسوية، والجزائر يحكمها النظام نفسه، وبالنتيجة المنطقية فإن النتائج ستكون مماثلة. يقدم عبد الحميد من خلال إقامة المثل هنا بوضع صورة مستقبلية للأحداث المتوقعة، مستشهدا بتلك الأوضاع التي تتشابه فيها كل هذه الدول، ليفضي إلى نتيجة واحدة وهي مشتركة بينهم: المأساوية. فتكون هذه الحالات الخاصة اختيارا واقعيا جديدا يحذر بوتفليقة من مستقبل غير محمود العواقب.

- **الاستدلال بواسطة التمثيل:**

يرتكز التمثيل على بناء تصور للأشياء، ويذهب الجرجاني إلى أن "التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه، نقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها"[43]. ويكتسب التمثيل قيمة حجاجية "حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البنى وصيغة هذا التماثل العامة"[44]. ونجد عبد الحميد يضرب لنا تمثيلا بليغا حين يقول:

(22) "إن مئات المبادرات التي يمكن أن تتفتق عن هذه الدعوة، وتتعدد بعيدا عن الإملاءات الفوقية، ستكون مثل الشموع، تنير طريق التغيير السلمي الحقيقي وتترجم عن توجهات الشعب ومطامحه."[45]

مثل الملفوظ في (22) تلك المبادرات المستقلة عن القرارات الفوقية بالشموع، ووجه الشبه هو إنارة الطريق، طريق التغيير السلمي؛ فمثل تلك المبادرات ستكون طريقا تنيره الشموع، وتضيئ لها السبيل في بلوغ هذا التغيير المنشود. فيتضح أن الموضوع المنتظر هو التغيير، وأن ما يحمل هذا الموضوع هو المبادرات التي تماثل الشموع:

(23)

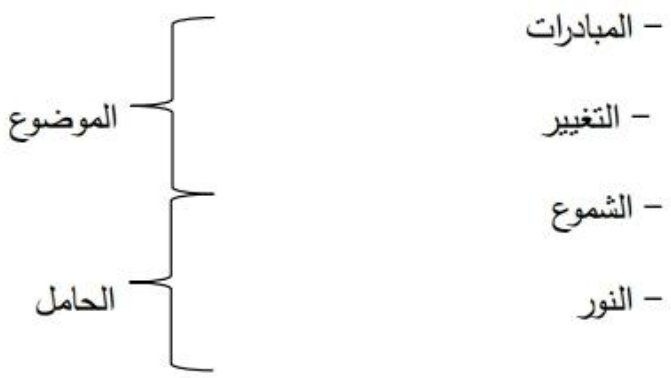

فالعلاقة بين المبادرات والتغيير تشبه العلاقة بين الشموع والنور، ومن المعلوم أن الحامل يكون أشهر من الموضوع، بحيث يأتي ليوضح بنيته العلائقية[46]. وقد بين الحامل العلاقة الوثيقة بين المبادرات المستقلة والتغيير، وحاول بذلك استمالة الرئيس أو تحذيره، من خلال الإشارة اللطيفة في هذا التمثيل. وعساه يقول: ما تزال أمامك فرصة لتقدم مبادرة وطنية تنير ظلمة الشعب، ولتوقِع على ضلوعك في التغيير الإيجابي.

خاتمة:

اعتمد المفكر والسياسي الجزائري عبد الحميد مهري في رسالته مجموعة من الآليات، والأدوات الحجاجية اللغوية، والبلاغية، والتداولية، والمنطقية، والواقعية، بغية التأثير في الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، ساعيا من خلال هذا الخطاب إلى الكشف عن الواقع الذي تمر به الجزائر، ومحاولا لفت انتباه الرئيس إلى مسائل وقضايا تتعلق بالحكم، من خلال اعتماده على الأحداث التي وقعت في الجزائر خلال السنوات المنصرمة، وما حدث في كثير من البلدان العربية.

ويكشف الخطاب الموجه للسيد رئيس الجمهورية عن غايات أيديولوجية مضمرة في بنية اللغة، يمكن قراءتها من خلال تحليل الحجج التي تبناها المفكر عبد الحميد مهري، ووظفها داخل رسالته، وحملها فكره وتوجهه الرافض للحكم الراهن من طرف السلطة، داعيا إلى إقامة نظام حكم ديمقراطي حقيقي يكون في استطاعته حل مشاكل البلاد، والخروج بها من عنق الزجاجة، وداعما حق الشعب في دعوته إلى التغيير الديمقراطي السلمي لنظام الحكم. فيكون الحجاج قد أدى وظيفة خطابية تتجلى في **السلطة الضمنية** لمنشئ الرسالة، والمتجلية في كشف عيوب النظام وتقديم البدائل لاستدراك الأزمات.

الهوامش:

* محمد فارح، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر: Mohamedfarah488@gmail.com

* عبد المطلب براهمي، جامعة العربي التبسي، تبسة، الجزائر: aboudabrahmi01@gmail.com

1 باتريك شارودو، ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مر: صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، (د، ط)، 2008م، ص: 70.

2 محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2008م، ص: 107.

3 أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط01، 2006م، ص: 16.

4 المرجع السابق، ص: 17.

5 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، دار الجنوب، تونس، ط01، 2011م، ص: 14.

6 الحسين بنو هاشم، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2014م، ص: 34.

7 المرجع السابق، ص: 34.

8 المرجع السابق، ص: 34.

9 أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ص: 17.

10 أبو بكر العزاوي، الحجاج والبرهان، مجلة روابط، تح: ربيعة برباق، تق: أبو بكر العزاوي، ع01، 02، 2018م، منشورات مؤسسة المثقف، باتنة، الجزائر، ص: 19.

11 محمود عكاشة، لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط01، 2005م، ص: 34.

12 عبد الرحمان الحاج، الخطاب السياسي في القرآن، السلطة والجماعة ومنظومة القيم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 2012م، ص: 22.

13 نقلا عن: ليندة قياس، لسانيات النص النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، تق: عبد الوهاب شعلان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط01، 2009م، ص: 41.

14 المرجع السابق، ص: 40.

15 الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، ج02، ص: 206.

16 أحمد سيعفان، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان، ط01، 2004م، ص: 214.

17 محمود عكاشة، لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، ص: 53.

18 عز الدين الناجح، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار نهى، صفاقس، تونس، ط01، 2011م، ص: 141، 142.

19 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر، 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

20 مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، دار ومكتبة عدنان، أريانة، تونس، ط01، 2015م، ص: 83.

21 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

22 المرجع السابق.

23 مثنى كاظم صادق، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، ص: 108.

24 عبد الحميد مهري، 16 فبراير 2011.

25 ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تق، وتع: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت)، ج03، ص: 51.

26 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

27 حسين بوبلوطة، الحجاج في الامتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، (رسالة ماجستير)، إشراف: إسماعيل زردومي، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، الجزائر، 2009–2010م، ص: 92.

28 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

29 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 42، 43.

30 عبد الحميد مهري، 16 فبراير 2011.

31 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 47.

32 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

33 عبد الله صولة، 2011م، ص: 48.

34 عبد الحميد مهري، 16 فبراير 2011.

35 علي الشبعان، الحجاج والبلاغة وآفاق التأويل في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، تق: حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2010م، ص: 145.

36 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

37 عبد العالي قادا، بلاغة الإقناع دراسة نظرية تطبيقية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016م، ص:171.

38 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

39 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 51.

40 عبد الحميد مهري، 16 فبراير 2011.

41 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 54.

42 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر، 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

43 عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة في علم البيان، تع: السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1988م، ص: 92، 93.

44 عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، ص: 58.

45 عبد الحميد مهري، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011. www.algeriachannel.net

46 عبد الله صولة، 2011م، ص: 58.

قائمة المراجع:

أولا –المصادر

. مهري، عبد الحميد، رسالة إلى عبد العزيز بوتفليقة، قناة الجزائر 16 فبراير 2011.

www.algeriachannel.net

ثانيا –المراجع:

1 –المعاجم:

أ –المعاجم اللغوية:

. ابن فارس، أحمد، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، (د، م)، (د، ط)، 1979م.

. ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب، تح: عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط01، (د، ت).

. الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 2003م.

ب –المعاجم المتخصصة:

. سيعفان، أحمد، قاموس المصطلحات السياسية والدستورية والدولية، مكتبة ناشرون، بيروت، لبنان، ط01، 2004م.

2 –الكتب

. ابن الأثير، ضياء الدين، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تق، وتع: أحمد الحوفي، وبدوي طبانه، دار نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، مصر، (د، ط)، (د، ت).

. بنو هاشم، الحسين، نظرية الحجاج عند شاييم بيرلمان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط01، 2014م.

. الحاج، عبد الرحمان، الخطاب السياسي في القرآن، السلطة والجماعة ومنظومة القيم، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط01، 2012م.

. شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك ، معجم تحليل الخطاب، تر: عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، مر: صلاح الدين الشريف، دار سيناترا، تونس، (د، ط)، 2008م.

. الشبعان، علي، الحجاج والبلاغة وآفاق التأويل في نماذج ممثلة من تفسير سورة البقرة (بحث في الأشكال والاستراتيجيات)، تق: حمادي صمود، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2010م.

. صادق، مثنى كاظم، أسلوبية الحجاج التداولي والبلاغي، تنظير وتطبيق على السور المكية، دار ومكتبة عدنان، أريانة، تونس، ط01، 2015م.

. صولة، عبد الله، في نظرية الحجاج، دراسات وتطبيقات، دار الجنوب، تونس، ط01، 2011م.

. الطلبة، محمد سالم محمد الأمين، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط01، 2008م.

. قادا، عبد العالي، بلاغة الإقناع دراسة نظرية تطبيقية، دار كنوز المعرفة، عمان، ط1، 2016م، ص:171.

. الجرجاني، عبد القاهر، أسرار البلاغة في علم البيان، تع: السيد محمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1988م، ص: 92،

. العزاوي، أبو بكر، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، الدار البيضاء، ط01، 2006م.

. عكاشة، محمود، لغة الخطاب السياسي دراسة لغوية تطبيقية في ضوء نظرية الاتصال، دار النشر للجامعات، القاهرة، مصر، ط01، 2005م.

. قياس، ليندة، لسانيات النص النظرية والتطبيق، مقامات الهمذاني أنموذجا، تق: عبد الوهاب شعلان، مكتبة الآداب، القاهرة، ط01، 2009م.

. الناجح، عز الدين، العوامل الحجاجية في اللغة العربية، دار نهى، صفاقس، تونس، ط01، 2011م.

3-المجلات والدوريات:

. العزاوي، أبو بكر، الحجاج والبرهان، مجلة روابط، تح: ربيعة برباق، تق: أبو بكر العزاوي، ع01، 02، 2018م، منشورات مؤسسة المثقف، باتنة، الجزائر.

4-الرسائل الجامعية:

. بوبلوطة، حسين، الحجاج في الإمتاع والمؤانسة لأبي حيان التوحيدي، (رسالة ماجستير)، إشراف: إسماعيل زردومي، جامعة الحاج لخضر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم اللغة العربية وآدابها، باتنة، الجزائر، 2009-2010م.

خاتمة الكتاب:

لعل القارئ قد تعرف على التحليل النقدي للخطاب وبعض مناهجه المطبقة، وخصوصا المقاربة التاريخية، والمقاربة العلائقية الجدلية، والتحليل التنظيمي للخطاب، ولسانيات المدونات. وأكيد أنه قد استوقفته مفاهيم عدة يحتاج لتمثلها مزيدا من التنقيب والبحث. كما أتاح له الكتاب فرصة الانفتاح على التطبيق العملي لإحدى مرجعياته اللسانية المتمثلة في النحو الوظيفي النظامي لهاليداي، وبعض المحاولات لابتكار مقاربات جديدة لتحليل الخطاب الإعلامي والجدل الفلسفي والسياسي. ولا نزعم أن الكتاب قد أحاط بهذا التخصص إحاطة وافية، أو أنه حقق جميع أهداف. وإنما هو من المبادرات الأولى التي خاضت في تخصص ما يزال غريبا في الجامعات العربية، وما أحوجنا إلى مبادرات أخرى قد تكون مكملة أو مصححة مقومة لحصيلته.

لذلك، ندعو القارئ العربي المتخصص في اللسانيات وتحليل الخطاب وعلم اللغة النصي إلى البحث المعمق في هذا المجال، لمواكبة مستجدات البحث اللغوي على الصعيد العالمي. هنا، ننبه إلى أن الدرس اللساني طفق يتجه نحو مساقات جديدة تعالج القضايا اللغوية في اتصالاتها وتعالقاتها مع القضايا والظواهر الاجتماعية والسياسية والثقافية، ولم يعد يقتصر على النظرة الأحادية أو المقاربات التقليدية التي ما تزال تعيد وصف الهياكل اللغوية بطرائق مختلفة تؤدي إلى النتائج نفسها. إذ إن عالمنا اليوم يحتاج أن ينتفع من العلوم في جميع المستويات الحيوية، ولم تعد عتبة النماذج الوصفية قادرة على مواكبة حاجات الإنسان المتجددة.

والله ولي التوفيق.

محمد يطاوي